رواية



السراية الحمراء

رمسيس لبيب

السراية الحمراء

روايـــة

رمسيس لبيب

إلى زوجتي...

فيضا من عطائها الذي ظل دوما بلا حدود.

ر.ل

هذه شهادة جماعية بشأن الأحداث التي وقعـت فـي السراية الحمراء في ذلك الصيف من عام ١٩٨٦.

لقد جمعت خلال أكثر من ثلاثة أعوام كل ما أتيح لي من الأقوال والمذكرات والأوراق حتى توفرت هذه الشهادة.

وآسف لأنني اضطررت – محبا أو كارها – إلى ذكـر الأسماء الحقيقية لبعض الأشخاص الذين عاشوا الأحداث.

لقد حاولت أن أغير الأسماء، وكان كل ما اسـتطعته أن غيرت بعضها، واستخدمت بالنسـبة للـبعض الأحـرف الأولى من أسمائهم.

أمين زاهر

اجتزت الباب الكبير.

أوقفني الحارس الكهل، سألني عن وجهتي وهويتي، ولما أخبرته أذن لي بالدخول، وأشار إلى مبنى بعيد من طابقين.

عاودت النظر إلى وجهه الأسمر المستدير الممتلئ بشعره الرمادي القصير، وتساءلت، أين ومتى رأيته من قبل؟

سرت متهيبا في الطريق الإسفلتي الذي تحف به الأشجار العالية من الجانبين، الصمت مطبق، كثيف، وثقيل كصمت القبور، بعض النزلاء يتفرقون في أنحاء الحديقة الواسعة المهملة، يستخفي بعضهم وراء الأشجار، عينان هاربتان تبرقان، عينان تتلفتان في ذعر، واحد يحرك يديه ويحادث نفسه، وآخر يبتسم وسرعان ما يبتلع بسمته، ووجوه جامدة مغلقة، أسرعت دقات قلبي، تمثل لي وجه حافظ في لقائنا الأخير بعينيه المحتقنتين ببريق غريب، قفزت من ذاكرتي أسماء بعض الفنانين والمفكرين الذين عاشوا أياما في أماكن مشابهة وكانت نهاية بعضهم فيها، قلت، ها هو المكان الذي كانت تفصلني عنه أكثر من مرة لحظات معدودات.

وفجأة اعترض طريقي نزيل مديد القامة، بدين، برأس أصلع وكرش منتفخ، وجلباب أبيض متسخ مفتوح الصـدر، صوب النزيل إصبعه نحوي، وسألني بحدة:

- من سمح لك بدخول القصر؟

أجفلت، دقت ضربات قلبي في أذني، لمحـت حولـه ثلاثة رجال يدورون على أربع، ويرفعون إليه وجوههم وهم يبتسمون ويتغامزون.

حدقت إلي عينا الرجل ببريق ناري، ووقف الرجـال الثلاثة متحفزين، ونادى الرجل البدين وهو يلوح بذراعه:

- يا سياف.

وارتجفت هلعا.

وتقدم واحد من الرجال الثلاثة، وانحنى أمام الرجل:

- أمرك يا مولاي.

وشوح البدين بيده، وتقدم نحوي.

هل أعدو إلى الداخل؟.. هل أعود أدراجـي وأغـادر المكان كله؟

وامتدت إلي من خوفي وارتباكي يد أمسكت بذراعي، وابتسم لي وجه صغير، عجوز، مغضـن، وقـال العجـوز للرجل البدين بلهجة رجاء:

- هذا ضيفنا.. ينبغي أن نرحب به.

وجذبني مبتعدا، وربت علي وهو يبتسم:

- لا تخف يا بني.. إنهم مجانين.

والتقت عيناي بعينيه، وتملكني الرعب، كانت نظرتـه غريبة.

حاولت أن أبتسم وأنا أوسع من خطاي، وقرب المبنى الذي أشار إليه الحارس هرولت مسرعا وأنا أتمتم للعجـوز مستأذنًا وشاكرا.

وفور أن تبينت وجه مجدي بين الوجوه الأربعة فـي الحجرة التي اندفعت إليها أسرعت إليه، وغبنا فـي عنـاق حار.

مجدي عبد السلام

لم يتغير أمين كثيرا عما كان في الســتينيات، مجــرد شعرات بيضاء قليلة تتفرق في شعر رأســه الأســود وفــي شاربه الكث، ثمة غضون حول العينــين اللتــين تحتفظــان بالتماعهما الخاص وودهما، صديقي وأول أســاتذتي، مــاذا يحمل لي هذه المرة؟

مررنا ببوابة الاستقبال ومكتب الأمــن، أطــال إلينــا موظف الأمن النظر فألقيت عليه بالتحية، أشرت تجاه أبنيــة الممتاز التي هجرها نزلاؤها إلــى المستشــفيات الخاصــة والفندقية، والتي تحولت إلى مكتــب ومخــازن وحجــرات مهجورة، وقلت:

- يقولون إنها كانت عامرة حتى منتصف السبعينيات، ولم يكن أجر العلاج فيها كبيرا.

سرنا أمام مبنى الإدارة، كان بعض النزلاء يتفرقــون في الفناء الواسع وأمام أبنية الاقتصاد، قلت:

- أفضل أن يكون عنبر عزل المجــاني فــي نهايــة جولتنا.

فتسائل أمين:

- ولماذا لا نبدأ به؟

قلت:

- من الأفضل أن تأخذ فكرة عـن المستشـفى، وأن تتعايش معه أولا.

لم أقل له إنني لم أر ذلك العنبر برغم الشهرين اللذين أمضيتهما في السراية لأنني لم أكلف يوما بالإشراف عليـه، وصدتني عن رؤيته الأقاويل التي تتردد عن أحواله وأحوال نزلائه.

وأمام قسم النساء تمثل لي وجه نزيلتي السمراء بعينيها النيليتين وشعرها الفاحم الطويل، خطر لي أن نبـدأ بزيـارة ذلك القسم حتى أراها، نحيت الفكرة جانبا، تكاثر النزلاء أمام أبنية الاقتصادي، أطال أمين النظر إلى وجوه بعض النـزلاء وبدا الأسى على وجهه، أجفل من بعضهم، التصق بي مرات وهو ينظر إلي باسما ومرتبكًا، تساءلت، ماذا يكون شأن هذا الصديق لو عاش بين مرضى الأمراض النفسـية والعقليـة السنين التي عشتها؟.. تمنيت أن نرجئ جولتنا إلى يوم آخر، أن نجلس معا لأسمع منه وأتحدث إليه، وقف أحد النزلاء في طريقنا، وطلب من أمين قرشًا أبيض فأخرج له أمين ورقـة

نقد، وهم بالحديث معه فجذبته من يده، تباعنا النزيل بإلحـاح فقلت:

- لا تلتفت إليه.

استوقفنا نزيل قصير مغضن الوجه، سأل أمين بصوت خفيض:

- كيف يمكن القضاء على المجاعة في العالم؟

وشرع أمين بالكلام فتركه النزيل وهو يقول:

- فكر قبل أن تجيب، أنا أفكر في الموضوع من سبع سنين.

وأقبل نحونا الشيخ (ع) رئيس الممرضين، ملأت عيني من الوجه المستدير الأبيض، المورد، المشبع بالورع بعينيـه السوداوين المكحولتين المنكسرتين بالتقى، ولحيتـه الشـيباء الكبيرة أومأت إليه برأسي وقلت لأمين:

- كبير الممرضين بالمستشفى، وهو يشرف على عنبر عزل المجاني للعجز في الأطباء.

وسلم علينا الشيخ ببشاشته المعهودة، وسألني باللقـب الذي لا أحبه ولا أريده:

- أي خدمة يا سعادة البيه؟

شكرته، وعرفته بأمين، قلت له إن صديقي يريد زيارة عنبر عزل المجاني الذي مات فيه صديق له منذ عام، وإنني أرجأت الزيارة حتى يتعرف أولا على العنابر الأخرى.

بدا الاهتمام في عيني الشيخ، تفحص أمين، وقال:

- حسنا فعلت، توجد حالتا حمى تيفود بالعنبر، ولذلك لا يسمح لأحد بدخوله، وإن كانت الخطورة قد أوشكت على الزوال.

بدا الضيق في وجه أمين، تابعت الشيخ بعينـي وهـو يمضي بقامته المديدة وجلبابه الأبيض الناصع، قلت لأمين:

- ذلك الرجل بلسم هذا المكان.

رأيت أحد المرضين يدفع بعربة التغذية إلى أحد أبنية الاقتصادي نظرت في ساعتي، كانت تقترب مـن الواحـدة، قلت:

- حان موعد توزيع الغداء، لن تـرى شـيئا علـى حقيقته الآن.

عدنا إلى العيادة الخارجية، وفي طريقنا رأيـت نـادر واقفا أمام إحدى أبنية الاقتصادي يتلفت حوله فلوحـت

له بيدي، هممت بأن أشير لأمين إليه وأقول، ها هـو دون كيشوت آخر يحارب طواحين الهواء.

واتجهنا إلى شجرة السـنط العتيقـة خلـف العيـادة الخارجية وسكن الأطبـاء، جلسـنا علـى كرسـيين متجاورين، وطلبت من عامل السكن إحضار مشروب بارد ريثما ينتهي إعداد الغداء، تأملت أمين، وتذكرت لقاءنا الأول.

عام ١٩٥٤ أذهب وأنا في العاشرة مع عمـي الحـاج سرور إلى الإسكندرية، وننزل في ضيافة عم زاهـر ابن بلدتنا، ويجذب انتباهي أمين ابن السادسـة عشـر الذي يقضي معظم وقته ممسكا بكتـاب يقـرأ فيـه، وأقترب منه، وأنظر في الكتاب وأسـأله عمـا يقـرأ فيخبرني باسما أنه يقرأ رواية، ويدع الكتـاب جانبـا، ويحدثني عن القراءة وفوائـدها، ويفـتح أحـد أدراج مكتبه، ويستخرج كتابا يعطيه لي وهو يقول:

- قصة جيدة ومشوقة يمكن أن تبدأ بها.

وأنتهي منها وأنا في بيتهم فيعطيني عدة كتب كهدية.

عندما جاء لزيارتنا في القاهرة في مستهل عام ١٩٦٢ فوجئ بالمكتبة الكبيرة التي أصبحت أمتلكها وبثقـافتي واهتمامي. عندما أخبرته أيامها أن لقائي الأول به كان المنعطف الهام في حياتي، وأنني أعتبره أستاذي الأول سعد ولم يصدق. جمعتنا صداقة حميمة بـرغم فـارق السن، وتناقشنا كثيرا، واتفقنا واختلفنا حتى اعتقل فـي ديسمبر عام ١٩٦٢.

أخذت عينا أمين تستكشفان ما حولنا، كانت الأشـجار العالية متباعدة وتحتها ظلالها، قلت:

- مر تسعة عشر عاما على لقائنا الأخير العابر ليلة التاسع من يونيه عام ١٩٦٧.

نظرت إلي عيناه الودودتـان الشـاردتان، وارتبكـت بسمته. في عينيه أسى قلق. أهو أثر زيارته الأولـى لهـذا المكان؟

ماذا فعلت به الأيام؟.. بالنسبة لي فقد تهاوى الـزعيم الذي كنت أعظمه عام ١٩٦٧، وتهاوت معه كـل الآمـال، وتكشف لي في مستهل السبعينيات ما كان يسـتخفي تحـت

عباءته الملوكية، تبددت في سـنوات قلائـل كـل الأحـلام والأوهام فماذا حدث لأمين؟

علمت من أحد الأصدقاء بخروجه من المعتقـل عـام ١٩٦٤، وسعيت إلى لقائه فلم أتمكن مـن معرفـة عنوانـه الجديد حتى التقينا في قلب الظلام والمرارة والغضـب فـي ميدان التحرير ليلة التاسع من يونيه عام ١٩٦٧ ثم افترقنـا مرة أخرى.

تنبهت إلى أنه يدخن بشراهة، ويجذب أنفاسا متلاحقة، قلت:

- كلانا يدين للشاعرة (م) التي جمعت بيننا من جديد.

قال شاردا:

- لا بأس بشعرها.. ولكن..

مرت مشاهد ما حدث بيني وبين (م) بمستشفى القصر العيني في تلك الليلة، لابد أنها دخنت كثيرا وابتلعت ما تيسر لها من الأقراص المهدئة قبل أن تتسلل إلى حجرتي لتعتليني. هل تركت ليلتها الباب مواربا عن قصد؟.. كان لابد مـن أن أتخذ في تلك الليلة قراري النهائي بتـرك القصـر العينـي. تذكرت ما قالت عن أمين عندما زارتني منذ يومين.

قلت:

- أسعدني كثيرا أنك ما زلت تكتب.

لم أقل له إنني لم أقرأ عملا أدبيا منذ سنوات طويلـة، وإنني أوشكت أن أكف عن القراءة، قال:

- لم أكتب شيئا منذ ثلاثة أعوام.

- ليتني أقرأ بعض كتبك، حدثتني (م) بإعجاب شـديد عن كتابك الأخير.

واختلجت بسمته:

- سأحضر لك الكتب الستة التي نشرت لي.

قال وعيناه تدوران حولنا:

- أفكر في كتابة رواية عن الصديق الشـاعر الـذي مات هنا، يمكن أن تدور أحداثها في هذا المكان.

- ستكون زيارتك للمستشفى تجربة مفيدة لك ككاتب.

ألقى علينا الدكتور محجوب تحية سريعة وهو يطيـل النظر بفضوله المقيت إلى أمين، تابعته بعيني ونفوري الذي ولده في نفسي أول لقاء به.

قال أمين:

- كان بودي أن أرى ذلك العنبر اليوم.

وتساءل:

- ما نوع المرضى الذين يعالجون فيه؟

- المفروض أنه مخصـص للحـالات الخطيـرة أو المستعصية من المرضى الذين لا يدفعون مقابلا لعلاجهم.

أعلن عامل السكن أن الطعام أعد فدعوت أمـين إلـى حجرتي بسكن الأطباء.

قلت ونحن نصعد الدرج الخشبي الضيق:

- هذا المكان كان في نهاية القرن الماضـي قصـرا لإحدى أميرات البيت المالك، وكان يسمى بالسراية الحمراء، وشب حريق فيه أتى على الجزء الأكبر من المباني، وبقـي مبنى من طابقين نقل إليه المرضى من مستشـفى بـولاق، وطُلي باللون الأصفر فسماه الناس بالسراية الصفراء.

بدت حجرتي نظيفة ومرتبة، وكانـت مائـدة الطعـام معدة، ورسالة أمي الأخيرة تطل من تحت الوسادة.

اتجه أمين إلى رف الكتب، قال وهو يتصفح كتابا فـي الأمراض النفسية والعقلية:

- مجموعة جيدة.

قلت وأنا أضع كرسيين أمام المائدة الصغيرة:

- كلها تتصل بالمهنة، وبرسالة الدكتوراه التـي لـن أنتهي منها أبدا.

دعوته إلى الطعام وهو يقرأ في صفحة من الكتـاب، أعاد الكتاب إلى مكانه، ونظر في سـاعته، وقـال ببسـمة مرتبكة:

- لابد أن أنصرف الآن.

دهشت، زاد القلق في عينيه:

- أهو الوحي المفاجئ؟

قال:

- لا.. أبدا.. ولكن..

ألححت عليه:

- لنتناول طعامنا، ونسترح قليلا.

وابتسم بخجله القديم الذي أعرفه:

- أنا آسف.. سآتي غدا.

قلت: قلقًا:

- لم نتكلم في شيء.

قال مؤكدا:

- لن نفترق مرة أخرى.

سرت معه إلى الباب الخارجي، تساءلت، هل سنفترق الآن ولا نلتقي إلا بعد سنوات؟

ومد لي يده فقلت:

- سأنتظرك غدا.

وشد على يدي باسما.

- سأجيء غدا.

ابتسم لي عم فارس الذي كان يحادث أهـالي بعـض المرضى، تساءلت كيف أقضي بقية النهار؟.. نوباتجية الليلة على الدكتور مهران الذي لا حـديث لـه إلا عـن الطعـام وزوجته التي ماتت منذ خمسة أعوام، تساءلت، متـى تـتم الموافقة على طلب نقلي إلى سوهاج حتى أبتعد عـن هـذا المكان ومن فيه؟

وفي طريقي إلى سكن الأطباء استوقفني نزيل قصـير ونحيل، حدق في وجهي بعينيه البراقتين، وقال:

- إنت مالك تخين كده؟.. وشك يتاكـل.. وشـك زي التفاح الأمريكاني.. لا لا.. زي التفاح المصري المعطوب.

علقت بي عبارة النزيل، تساءلت، هل أصبح وجهـي مثل التفاح المعطوب؟

وأشعلت لفافة اختطفها من فمي أحد النزلاء، حاولـت إشعال أخرى فانطفأ الثقاب مرات.

أمين زاهر

لن أذهب إلى ذلك المكان مرة أخرى[١]

لو أنني ترددت عليه مرات لأصبحت واحدا من نزلائه، لم تفارقني بقية النهار كثير من الوجوه التي رأيتها هناك، وكنت أحس باضطراب في أفكاري وتشوش في مشاعري، كنت أشعر بأن تصرفاتي فيها شيء غريب، وأنني أفتقد التوازن في حركات أطرافي وطريقة كلامي، وفي المساء تنبهت إلى أنني أراقب سلوكي وأرصد حركاتي بتوجس ووساوس.

ما الذي جعلني أسارع بالاتصال بمجدي فور أن عرفت من الشاعر (م) أنه يقيم ويعمل في ذلك المكان؟.. أهي مجرد الرغبة في رؤية العنبر الذي مات فيه حافظ ورؤية الصديق الذي لم أره منذ تسعة عشر عاما؟.. أهو فضول الكاتب لمعايشة تجربة جديدة؟.. أم هو السعي إلى شيء يمكن أن يحرك ركود مشاعري وفكري، ويخرجني من الجدب الذي أعيشه منذ ثلاثة أعوام؟

(1) بدأ أمين زاهر كتابة مذكراته في ٢ مايو عام ١٩٨٦.

كنت أسير إلى جانب مجدي مضطربا وخائفًا، كنت أتأمل النزلاء بمزيج من الشفقة والحزن والخوف وأنا أرى المصير الذي كان يمكن أن أنتهي إليه بسبب نوبات الاكتئاب التي أعيشها منذ عشرة أعوام مع بداية كل خريف وحتى نهاية الشتاء وبدايات الربيع، المصير الذي اقتربت منه مرات وأنا أتوهج في أوقات الإبداع، وفي لحظة تملكتني الرغبة في الهروب من المكان كله، وبرغم رغبتي الملحة في رؤية ذلك العنبر فرحت بتأجيل جولتنا.

عندما تصفحت في حجرة مجدي كتابا عن الأمراض النفسية والعقلية، وقرأت سطورا عن ذهان الاكتئاب والمرح الدوري قررت أن أنصرف في الحال، كانت لدي رغبة في الجلوس مع مجدي ومعرفة أحواله، ولكن لم تكن بي القدرة على الكلام، كانت تلجمني اختناقة الاكتئاب التي لم تفارقني بعد، ويطبق على رأسي وعيني الصداع اللعين، لقد انتصف الربيع ولم تأت الهزة التي ترجفني وتبعثني من مواتي فأسطع وأتوهج وأبدع، انتشيت أياما في بداية الربيع فتوهمت أنني عوفيت، ولكنه كان انتشاء عابرا سرعان ما انحسر عني وانطفأ وعدت إلى همود وجدب الاكتئاب، هل ثمة تغير

في موعد نهاية النوبات؟.. هل يتحول اكتئابي الموسمي إلى اكتئاب دائم؟

لقد استقبلني مجدي بعناق حار، وأخبرني أنـه كـان يوشك أن يتصل بي عندما اتصلت به، أخبرني أنه ذهب منذ سنوات إلى سكني القديم، ولم يستدل على عنـواني الجديـد، كنت سعيدا بلقائه، لقد تركت الأيام أثرا ظاهرا عليـه، زادت بدانته، وانطفأ تورد وجنتيه، وانحسر شعر رأسه وظهر فيـه الشيب، وبدت حركاته ثقيلة وبطيئة، لم تفلت منـه ضـحكته العظيمة المجلجلة، أصبحت ضحكاته أقـرب إلـى الـرنين الصدئ الذي يشي بالتعب والفتور.

تحت شجرة السنط، أمام السكن الذي يقيم فيـه كـان يريدني أن أتكلم، كان يريد أن يعرف شيئًا عن أحوالي، ماذا كان يمكن أن أقول له؟.. هـل كـان يمكـن أن أخبـره أن المناضل الذي أعجب به يوما، والذي كان يزعم المسـاهمة في تغيير العالم كله لا وطنه فحسب قد انتهى إلى كائن متعب يلوذ بأحد أركان بيته ليكتب كلمات كثيرا ما تستعصي عليه، وإن أفلتت منه وحاولت الوصول إلى الناس حوصرت فـي دائرة صغيرة من المثقفين الذي يلوكون الكلمات ويستحلبونها

كمخدر أو يتخذونها مادة للثرثرة وقتل الوقت؟.. هـل كـان يمكن أن أحدث الصديق التي اتخذني قدوة ومثالا في صباي عن الأيام الرمادية والممرورة التي أختنق فيها؟.. هل كـان يمكن أن ابرر له كما ابرر لنفسي أحيانًا فأقول إننـي أقـوم بدوري عن طريق الكتابة، وإن الكتابة نوع من الفعل الـذي أمتلك أدواته، ويناسب تكويني وطريقتي فـي التعامـل مـع الأشياء والعالم؟

كان الفعل برغم عنائه وسجونه بهجة متجـددة، كـان دخولا في الحياة وفي العالم، كان دفء وتفتح الصحبة، ولكن أي فعل تبقى لي الآن؟

ما زلت برغم كل شيء أحتفظ بيقيني وإيماني بالقضية التي وهبت لها عمري منذ صباي، ولكن أي نوع من الفعـل يمكن أن أقوم به، وأكون موقنًا من جدواه؟.. هل أنخرط في صفوف الفرسان القدامى الذين بـاعوا رايـاتهم وأشـواقهم وعندما ظهر عماهم عادوا إلى الشعارات والأساليب القديمة بعد أن تجاوزتها السـنون، أو راحـوا يخلطـون الكلمـات ويلفقون الأفكار بحجة الحداثة ومجاراة تطور العصر؟.. هل أنضم إلى أبناء الجيل الجديد الذين يجاهرون برفض القـديم

وهو يدورون في فلكه، ويتقافزون برعونة على دقات طبوله؟ لقد انتهت بالنسبة لي منذ زمن بعيد فرحة الشروع بفعل جديد وصحبة جديدة، وأتلفتني الكتابة ومعايشة كلمات الفن، زادت حساسيتي، وزاد جنوحي إلـى الخيـال، وصـدعت كيـاني الأزمات المتوالية، حتى خجل الصبا المعيب الذي كنت قـد تغلبت عليه عبر الفعل عاودني في كهولتي شـللا وتلعثمـا وتباعدا عن الناس. يبدو أن علي أن أكتفي فيما تبقى لي من عمر بالكلمات، بمعايشتها ومحاولة خلقها.

أحيانًا أقول لنفسي وأنا وكلماتي في دائـرة الحصـار إنني أكتب للقارئ المجهول الذي لابد أن يكون في مكان مـا فتعطيه كلماتي أملا أو حتى عزاء، أحيانًا أقـول وأنـا فـي انتشاء وكبرياء الخالق إنني أكتب للأجيال القادمة، أية أيجـال قادمة؟!.. هل آمل أنا مدعي التقدم في بسط ظلي على زمن لا أعيشه؟.. أليس لكل زمان مشكلاته وجروحـه وأشـواق كتابه؟

لماذا أكتب كل هذا الآن؟.. هـل أعـود إلـى كتابـة المذكرات التي هجرتها منذ زمن بعيد؟.. هل أعود إلى كتابة

سطور لا أثق بصدقها لأنها تعري وتستبقي ورقـة التـوت مهما ادعى صاحبها من تجرد وصدق؟

إيه.. أيها الليل القادم، هل تجود علـي بهـزة الفـرح والوعد؟.. هل تجود علي ولو بساعة من العطاء؟.. وأنت يا من تعبرين من أمامي الآن، وتسـألني عينـاك الباسـمتان الآملتان عما إذا كانت قد حلت لحظات فرحي، ماذا يمكن أن أعطيك وقد وهبتني عمرا كاملا من العطاء؟.. ماذا يمكن أن أقدم لهاتين العينين المحبتين والفخورتين برغم كل شيء؟

مهما يكن، مهما كان العناء والتمزق والخيبة سأجعلك أنت وأصدقائي الذين راهنوا علي يوما تكسبون الرهان، لـن أخيب أملكم ما دام في عرق ينبض.

مجدي عبد السلام

لم يأت أمين في اليوم التالي كما وعد، جاء بعد ثلاثـة أيام وكنت أقوم بفحص الإيراد الجديد في العيادة الخارجيـة بدلا من الدكتور فاضل زكي الذي كان في إجازة.

رأيت فيه للوهلة الأولى **أمين زاهر** القديم، أقبـل ببسمته الدفيئة تملأ وجهـه، وعينـاه تأتلقـان دون قلـق أو اضطراب، سألته ضاحكًا عمن اعترض طريقة هذه المـرة فقال، إن الرجل البدين ورجاله الثلاثة رأوه ولكنهم لم يقفـوا في طريقه، وإن حارس البوابة الخارجية ابتسم له عندما رآه ولم يوجه إليه كلمة.

كان الدكتور محجوب جالسا معي في إحدى زياراتـه السمجة التي يفاجئني بها منذ أن انتـدبت للعمـل بالعيـادة الخارجية، لم أعرفه بأمين فظل يختلس إليه النظر بفضـوله اللصوصي، وبعد لحظات طلب ببسمة وجهه الأمرد كجلـد دجاجة مندوفة الريش أن أعرفه بالضيف فقلت بضيق حاولت إخفاءه إن أمين صديق قديم فرحب به بطريقته المفتعلة، وبعد دقائق خرج من الحجرة فانزاح الهم عن صدري.

استأذنت من أمين حتى أنتهي من فحص الإيراد الجديد، سألني عن تشخيص بعض الحالات التي شدت انتباهه، وفيما كنت أحدثه عن الاكتئاب التفاعلي لمريض يجلس أمامي أقبل نادر، وما إن وقعت عيناه على أمين حتى اتسعتا بالدهشة خلف نظارته الكبيرة:

- الأستاذ **أمين زاهر** الكاتب؟

وهز أمين رأسه وقد بدا عليه الخجل.

رحب به نادر باحترام كبير، وجلس إلى جانبه، وسرعان ما انطلق في الحديث معه عن كتابه الأخير.

أسعدني أن نادر دودة الكتب من قراء أمين المعجبين بكتاباته، وراح نادر يحدث أمين وأنا نصف مشغول عنهما عن رسالة الماجستير التي يعدها عن أحوال المستشفى ونوعيات مرضاه، وقبل أن أنتهي من عملي استأذن نادر في الانصراف، ولاذ أمين بالصمت.

عند باب العيادة كان بعض أهالي المرضى جالسين على درج المدخل، والبعض الآخر في الاستراحة المواجهة، كانت بعض النسوة بالملابس السوداء ينظرن إلينا ويتهامسن، وكانت عجوز منكمشة على نفسها تنوح بعديد عن الحكيم

والعليل فتذكرت يوم جاءوا بسمرائي وهي تتشبث برضيعها منذ ثلاثة أسابيع، تمثل لي وجهها الأسمر النقي وعيناها النيليتان الحزينتان القلقتان، وزوجها بكرشه الكبير وملامحه الفظة وسماجته وهو ينتزع الطفل من صدرها، ويبالغ في وصف حالتها.

تساءلت عما فعله ذلك الزوج حتى تمكن من الحصول على تأشيرة كبير الأطباء، بدخولها السراية بالرغم من تأشيرتي بصرف الدواء لعلاجها في بيتها.

سبقني أمين إلى الداخل، لم يكن خائفًا أو متهيبا كما كان في المرة الأولى، قررت أن نبدأ بزيارة العنبر الذي اختص بالعمل به إلى جانب انتدابي للعيادة الخارجية، والذي كان علي أن أمر على مرضاه بعد انتهاء عملي بالعيادة.

أمام باب قسم النساء كانت تقف الدكتورة سناء المشرفة على القسم، حييتها فردت تحيتي بصوتها الرفيع الممطوط، تذكرت آخر محاولاتها للتقرب مني، وابتسمت لها، اختلست النظر إلى الداخل فلم أر السمراء في النافذة التي اعتادت الجلوس إلى جانبها.

وفي نهاية أبنية الاقتصادي مررنا بمبنى "ش"، أشرت إلى غرفته بالطابق الأعلى، قلت:

- هنا يقيم (ش).

والتفت إلي أمين بحدة:

- من؟

- (ش) المفكر المعروف، أذكر أنك كنـت متحمسـا لفكره في الستينيات.

وتسمر أمين في مكانه، حدق إلى نافذة الغرفة المفتوحة التي يتشابك فيها الحديد:

- ولكنه خرج من هنا عام ١٩٦٨.

قلت:

- إنه ما يزال هنا، ما أعرفه أنه أعيد إلى المستشـفى عام ١٩٧٢ بعد هروبه منها، ولم يغادرها بعد ذلك أبدا.

واندفع أمين إلى مبنى (ش):

- لنذهب إليه.

واستوقفته:

- الحراسة عليه مشددة، ولا يمكن زيارته إلا بتصريح من المباحث العامة ونيابة أمن الدولة.

وامتزج الغضب بالأسى في وجهه وعينيه:

- أهو مريض فعلا؟

- كان التشخيص الرسمي عند دخوله المستشفى فصاما حادا، ويعتقد الأطباء الذين أثق بهم أن ما به مجرد اكتئاب تفاعلي نتيجة لحبسه في غرفة مغلقة كل تلك السنين.

واقترب منا نزيل تبرق عيناه خلف نظارته السوداء، ويلصق ذراعه إلى جنبه في عرض هستيري، وأخذ يتسمع لما يدور بيننا فابتعدنا عن المبنى وقد اكتسى وجه أمين بالحزن والشرود.

سألني:

- هل رأيته؟

فقلت:

- دخلت إليه مرة واحدة، وظل جالسا في مكانه ينظر إلي متسائلا دون أن ينطق بلفظ.

ترددت ثم تساءلت باسما:

- أما زلت معجبا بأفكاره؟

فقال بوجهه الشارد:

- أجل.. أكثر من أي وقت مضى.

وأقبل نحونا ممرضو عنبري العجوز بقامته النحيلـة، وقال لي:

- المدير سيمر على العنابر الآن.

دهشت لأن المدير لم يمر على العنابر منذ أن عملـت بالسراية، وكان علي أن أتواجد في عنبري عند مروره حتى لا تحدث مشاكل تسبب تعطيل طلب نقلي فرجوت أمـين أن ينتظرني عند شجرة السنط فبدا عليه الضيق، قلت إن الأمـر لن يستغرق وقتا طويلا، وإننا يمكن أن نستأنف جولتنا بعـد ذلك فأصر على الانصراف، ووعدني بالحضور في اليـوم التالي.

قال ببسمة خجول وهو يعطيني لفافة كانت بيده:

- كتبي الستة، أرجو أن تروق لك.

أخذتها فرحا بها. وتابعته بعيني وأنا أتساءل عما يمكن أن تفعله بي كتابات صديقي وأستاذي القديم.

أمين زاهر

مفاجأة غريبة زلزلتني.

(ش) ما يزال سجينًا في مستشفى الأمراض العقلية، لم يغادره منذ أربعة عشر عاما، ولم يكتب واحدة من المقـالات التي تنشرها منذ سنوات تلك المجلة التي نسبت نفسها إلـى فكره، وتضع اسمه ضمن أسرة تحريرها، المقـالات التـي كانت كلماتها طعنات دامية بالنسبة لي. أشار مجـدي إلـى الطابق الأعلى لمبنى مكون من طابقين، وقال:

- هنا يقيم (ش).

فاجأني الاسم، تساءلت هل نطق فعـلا باسـم (ش) أم خيل إلي ذلك لأن (ش) عاش فترة حبيسا في ذلـك المكـان فأكد لي مجدي أنه ما يزال سجينًا هناك منذ قبض عليه مرة أخرى عام ١٩٧٢، ومن صدمة المفاجأة وجدتني أندفع إلـى ذلك المبنى لرؤية معلمي فـأوقفني مجـدي، وأخبرنـي أن الحراسة عليه مشددة، ولا يمكن زيارته إلا بتصـريح مـن المباحث ونيابة أمن الدولة.

دارت رأسي، وغامت الرؤية في عيني، وعندما أفقت كنت نهبا لمشاعر شتى، الرضا لأن (ش) لـم يكتـب تلـك

المقالات اللعينة التي تحرف وتشوه أفكاره ومبادئه، والغضب لخيانة وخسة بعض الأصدقاء القدامى الذين ينسبون الكلمات الكاذبة إليه، والخجل لأنني صدقت يوما أن تلـك الكتابـات يمكن أن تصدر عن (ش) الذي كـان معلمـا وقـدوة لـي وللكثيرين في بلادي وفي الكثير من بلاد العالم أكثـر مـن ستين عاما.

غادرت المستشفى، وسارعت بالذهاب إلى مقر تلـك المجلة والغضب يزدحم بصدري، وهناك وجدت صديقًا قديما كانت تربطني به علاقة ود، وقبض الثلاثـين مـن الفضـة فقطعت علاقتي به.

استقبلني الصديق القديم بترحاب زائد، لعلـه ظـن أن الابن الضال يعود أخيرا إلى حظيرة الخنازير، وطلب منـي مقالات للمجلة فتمالكت نفسي، وسألته عن كاتـب المقـالات التي تُنسب إلى (ش) فقال بلا مبالاة إنها لأحـد الأصـدقاء القدامى وهو يتخذ من اسم (ش) اسما أدبيـا لـه، وأضـاف باستخفاف صفيق، إن الكثيرين من الأصدقاء يعرفون ذلـك فانفلتت مني كلمات سباب لم أنطقها في حيـاتي، واندفعت

خارجا وأنا أتلفت حولي خشية أن يراني أحد البلهـاء مـن أمثالي فيسيء الظن بي.

وفي الطريق إلى بيتي أطل علـي وجـه (ش) فتبـدد غضبي، وأحسست وكأنني عوفيت فجأة من مرض طويـل، تساءلت، كيف صدقت سنين تلك الأكذوبة ولم أسع لمعـرف حقيقة موقف (ش) من تلك المقالات اكتفاء بالأسى واجتـرار المرارة والوفاء لأفكاره التي كانت الأيام تؤكد صحتها.

وفور وصولي إلى البيت أعلنت النبأ لإيزيس فحملـت إلي دهشة ولم تصدق.

دخلت حجرة مكتبي، وأخرجت الأقوال التي جمعتهـا من الأصدقاء عن (ش) طوال ثماني سنوات، وقرأتها وكأنني أطالعها للمرة الأولى، وكالعادة استوقفني ما قالـه الصـديق شعبان حافظ من أن (ش) ليس مجرد إنسان نكن له احترامـا خاصا، ولكنه مثل أعلى ورمز، وما قاله محمد علي عـامر بأنه يكاد أن يصدق ما يشاع من أنه في يوم مولد (ش) هزت الزلازل بعض بلاد العالم وشهد جفاف بلاد أخرى فيضا غير مألوف لأنهارها.

قرأت الأقوال، وفاضت الـذكريات، مـرت أمـامي عشرات الوجوه التي أحببتها وعشت معها أجمل أيام عمري في الشوارع والبيوت وزنازين السجون. شلة الأصدقاء الجدد الذي تعرفت إليهم وأحببتهم في كتيبة كلية الحقـوق بلـواء جامعة الإسكندرية عام ١٩٥٦ في أثناء العـدوان الثلاثـي، أحمد البكار بوجهه الداكن السـمرة، وعينيـه الصـغيرتين الذكيتين الباسمتين، وشاربه المغولي الكبير يغني أغاني سيد درويش ونشاركه نحن الأربعة الغناء.

كنا في المساء، وكنا نغني معا قبـل أن نتفـرق إلـى خنادقنا، وهلّ علينا كهل في نحو الخامسة والأربعين يرتدي زي الحرس الوطني بقامة مديدة ووجه قمحي مربـع وسـيم تضيئه ابتسامة ود فهب الأصدقاء واقفين، وراحوا يعانقونـه بحرارة، ويفسحون له مكانًا بيننا.

انجذبت إليه للوهلة الأولى، على الوجه الباسـم الـذي يشف وده عن الحنو والحكمة والإصرار الـرزين، سـألهم بلهجة أب صديق عن أحوالهم وأحـوال المتطـوعين فـي المعسكر فأخبروه بأنهم جمعوا كثيرا من أسماء الراغبين في الذهاب إلى بورسعيد للاشتراك في المقاومة الشعبية. وتحدث

بصوت هادئ ومتأمل عن المقاومـة الشـعبية هنـاك ودور الأصدقاء فيها، ورأيه فيما ينبغي أن يتم حتى تشتد وتحقـق هدفها، كانـت عينـاه السوداوان،الواسـعتان، الصـريحتان آسرتين، وكان لصوته رنة صدق تجعل كلماته تنساب برفق إلى القلب ولا تغادره أبدا، وبعد حوالي سـاعة سـلم علـى الأصدقاء مودعا لأنه كان عليه أن يعود إلى بورسـعيد فـي نفس الليلة.

حين صافحني احتوى كفه الكبير الدافئ كفي، ونظـر في عيني بود كصديق قديم، وعندما اختفى عـن أنظارنـا، وعاد الأصدقاء إلى الغناء كان غناؤهم أشد حرارة وعيونهم أكثر التماعا وتألقًا.

وليلة الخامس من مارس عام ١٩٥٧.

أجلس مع نجيب غبريال في حجرته الصـفيح بغـيط العنب أنا وظريف صبحي، يتربع نجيب على الحصير القديم المنسول، وعلى ضوء لمبة الغاز يقرأ لنا من الكتاب الممنوع وسعال الدرن يعاوده بين لحظة وأخرى ويمزق صدره.

وفي ساعة متأخرة من الليل تصل إلى أسماعنا نقرات خفيضة على الباب فتنتبه عيوننا، وتمتد يدانا أنا وظريف إلى

الكتاب لإخفائه فيبتسم نجيب وتلتمع عيناه، ويسرع إلى الباب، ويدخل (ش) باسما.

تذهلني المفاجأة، ويسلم علي (ش) بحرارة الصديق الذي يئوب من غيبة طويلة، وأسأله خجلا عما إذا كان يذكرني فتكبر بسمته، ويذكر اسمي والمعسكر الذي جمعنا ذات مساء.

يجلس بيننا يتحدث عن الكتاب الذي كنا نقرأ فيه ونواحي القصور التي تشوبه، ولفرحتي أكتشف أنه مؤلف الكتاب وكتب أخرى قرأتها وأعجبت بها، وينطلق في الحديث عن ثورات شعبنا منذ العصر الفرعوني وثورات الشعوب الأخرى، وتجسد كلماته البسيطة مسيرة الكادحين من شعوبنا وشعوب العالم رحلة قهر وعناء وتضحيات وتوق إلى الخلاص، أتأمل وجهه وأضواء لمبة الغاز تطوف به، وأحس بأنه يختلف عن كل من لقيتهم من قبل، ويصيح الديك، وينقل (ش) بصره الباسم بيننا فأتساءل والديك يعاود الصياح، من سينكره ذات صباح قبل صياح الديك، ومن سيسلمه، ومن يخلص له حتى النهاية؟.. وأقطع لنفسي عهدا بأن أخلص له ولفكره طوال عمري.

حين زرت أحمد البكار في أيامه الأخيرة عـام ١٩٦٢ وقبل القبض علي بشهر واحد، وكانوا قد أخرجوه من معتقل الواحات ليموت بالسرطان في الخارج كان وجهـه الأسـمر الذي برزت عظامه متهللا برغم شحوبه، قال لـي فـور أن رآني:

- لقد زارني (ش).. كان هنا منذ لحظات.

وأغمض أحمد عينيه، وبدا وكأنه يسبح فـي سـعادة غريبة، وطفرت دموعي لأنني كنت أعرف أن (ش) بالسجن لم يغادره.

لم ألتق بـ (ش) في أي من السجون التي حبست فيها، عندما كنت أرحل إلى سجن يكون هو قد غادره إلى سـجن آخر، ولشدة تعلقي به رحت أجمع أقوال الأصدقاء عنه وعن مواقفه.

كانت المرة الأخيرة التي رأيته فيها في منتصف عـام ١٩٦٥، كان خارجا من مكتب الصديق (ن.هـ) في صحبة بعض الأصدقاء، وكان معي زوجتي، واتفقنا معه علـى أن يزورونا في بيتنا بعد ثلاثة أيام، وفي اليوم السـابق لموعـد اللقاء قبض عليه، وبعد أيام أودع مستشفى الأمراض العقلية.

فاضت الذكريات، وناديت إيـزيس وبنتـي شـروق وفرحة، وأخذت أقرأ لهن بعضا من أقوال الأصـدقاء عـن (ش)، وأحكي لهن عنه وعنهم، وبدا الأمر وأنا أحكي أمـام عيونهن المنصتة وكأنني أتحدث عن أناس زمن بعيد لا يمت بصلة إلى زماننا.

وفي ساعة متأخرة من الليل أويت إلى فراشـي وأنـا موقن بأنني سأكسب الرهان، وسيكسبه معي كل الأصـدقاء الذين أحبوا (ش) وأخلصوا له.

مجدي عبد السلام

لم يمر المدير على العنابر.

نُظفت العنابر الخمسة، وفُرشت الأسـرة بـالملاءات المغتسلة، ورفعت عن الأرضية الأسفلتية الخربـة المراتـب التي ينام عليها النزلاء الذين بلا أسرة، وتم حقن الكثيرين من المرضى بالمهدئات القوية فنام البعض، وجلس البعض على فراشهم بالملابس المتسـخة بأوضـاع إذعـان أو تخشـب كتاتوني، ولاذ آخرون بأعراضـهم الهسـتيرية بالأركـان، وعيون كثيرة تبرق ترقبا، وتوجسا، وخوفًا.

مسح ممرض العنبر العجوز حذاءه بذيل ثوبه، وسوى طاقيته فوق رأسه، وتخشب بقامته الضئيلة على كرسيه إلـى جانب الباب، وبين وقت وآخر كان الممـرض أبـو السـعد يتدحرج إلى العنبر بامتلائه المفرط ليعلن بصوته الذي يخرج من بطنه متحشرجا ومختنقًا أن سعادة الباشا المـدير علـى وشك الخروج من مكتبه.

سعادة الباشا الذي أعرفه جيدا ولا يعرفني، زميل كلية الطب الذي كان يكتب التقارير عن زملائه أعضاء منظمـة الشباب، والذي لعب دورا من أدوار البطولـة الزائفـة فـي

مظاهرات الطلبة عام ١٩٦٨ فالتقطوه فور تخرجه وعينـوه في أفخم مستشفى بالقاهرة، ورقوه سـريعا ليكـون مـديرا لمستشفى كبير، خدم في العصور الثلاثة كما يجب أن تكون خدمة أمثاله، سعادة المدير الذي يلصق على وجهه المـورد المصقول بسمة زائفة، بسمة قواد أو تاجر بضاعة مغشوشة، ويأخذ نصيبه الوافر من عائد غش متعهد الأغذية، وينتقـي بمعرفة حاشيته من الأطباء والممرضين المرضى الموسرين لمستشفاه الفندقي، وترشحه الإشاعات لمنصب وزير. فليأت سعادته وليبارك مظاهر الزيف المفضوحة في العنابر الخمسة التي اكتظ كل منها بأكثر من ستين نزيلا، والتـي تشـققت جدرانها وتساقط طلاؤها، وأصبحت لا تصـلح إلا كمـأوى للفئران.

- لا تخف من جند الرومان، سـأدافع عـن الـوثني والمسيحي.

قالها وهو يشير إلي بإصبعه مدرس التاريخ الصعيدي المصاب بالبارانويا الحادة، والذي تستبد به شخصـية الأنبـا شنودة الإخميمي راهب المسيحية في القرون الأولى.

كان يقف بقامته الطويلة التي تميـل إلـى النحـول، وجلبابه الأسود ووجهه الأسمر الملتحي وشعره الطويل أمام النافذة القريبة من الباب ينقل عينيه الملتمعتين بـين خـارج العنبر وداخله.

وكان حسين الطاهر خريج الأزهر الذي تسـتبد بـه شخصية أبي ذر الغفاري فيردد أقواله متربعا على سـريره ووجهه المستدير الداكن المغضن يتمتم بشفتيه، وبين لحظـة وأخرى يرفع ذراعه مشوحا لمعاوية الذي يراه ولا أراه.

وفي نهاية العنبر كان سطوحي ينحط علـى سـريره ببدنه المكتظ ورأسه الأصلع الكبير التي تغـور فيـه عينـاه الصغيرتان الثعلبيتان، كان يرتدي روبه الأصفر الفاقع الذي ينفر منه شعر صدره الكث، وإلى جانبه أربع من رعايـاه، اثنان عن يمينه وآخران عن يساره وعيونهم مشدودة بجـوع على فخذ الدجاجة الذي ينهشه سطوحي، ومن ورائه صـفت صناديقه الكرتونية وبها بضاعته المنظورة وغير المنظورة.

كان يقف قرب الباب عمر وصديقه مختـار متـرقبين دخول المدير، وقد التمعت عينا عمـر الصـغيرتان خلـف نظارته، وراحت تفاحة آدم تعلو وتهبط فـي رقبـة مختـار

الطويلة، كانا ينويان تقديم مذكرة إلى المـدير بهـا مطالـب النزلاء المستبصرين بحالاتهم بخصوص الأسرة والأغطيـة وضرورة تحسين الطعام، والسماح للنـزلاء الـذين شـفوا بالخروج من المستشفى دون اشتراط موافقـة قريـب مـن الدرجة الأولى.

وجاء ناصح بوجهه الصغير المجعد وقامته القصـيرة الممصوصة، والذي يصعب تحديـد عمـره بـين الثلاثـين والخمسين، سوى طاقيته المتسخة على رأسه، وابتسمت عيناه الصغيرتان اللتان ضاعت رموشهما، وأشار إلى سـطوحي، وقال:

- حكم البلد على تلها.

سألته:

- تقصد إيه؟

وتساءل دهشًا:

- مش بتقول إنك صعيدي؟.. إزاي متعرفش المثل؟!

تساءلت عن مصير هذا الفلاح الذي أُدخل السراية منذ سبعة عشر عاما، وعولج من اكتئاب حاد ثم لـم يجـد مـن

يخرجه منها فعاش فيها بأمثاله الشعبية ومواويله ونكاته التي يسخر بها من الكل حتى الممرضين والأطباء.

مال علي هامسا:

- سمعت آخر نكتة؟

وأشحت عنه:

- أيوه سمعتها.

وأقبل حسن الساعاتي بنظارته السمكية وفودي صلعته الهائشين وحدق في ساعة يده، وسألني للمرة الثالثة:

- الساعة كام؟

فنظرت في ساعتي وقلت برما:

- الواحدة والنصف، ودقيقة.

وشوح بيده:

- غلط.. الواحدة والنصف، ونصف دقيقة.

وابتسمت، وقلت:

- لاحظ فرق التوقيت بيني وبينك.

ومال عليه الملواني عامل النسيج الشاب الـذي يميـل إلى الطول والبدانة المصاب بالاكتئاب والمـرح الـدوري،

والذي لا يكف عن مساعدة زملائه والتخفيف عنهم، وسـأله بسذاجة مصطنعة:

- مالك يا ساعاتي؟.. محلك اتحرق؟

فقال الساعاتي وهو يشوح له بيده:

- لأ.. اتسرق.

واقترب شاب من الإيراد الجديد الذي جاء السراية منذ يومين، وكنت قد شخصت حالته باعتبارها ذهان الزهـري، ابتسم بوجهه المستطيل الوسيم وعينيه الرمـاديتين وشـفتيه الممتلئتين الشهوانيتين، وقدم لي ورقة رأيت فيها رسما بالقلم الرصاص لوجهين، وقد رسمت الملامـح بنسـاء عاريـات متشابكات. كان الرسم يشي بموهبة حقيقية فسألته:

- أترسم؟

ورفع رأسه بزهو:

- أنا فنان كبير.

قلت:

- سأجعلك المشرف على النشاط الفني بالعنبر.

وكدت أضحك، أي نشاط فني بالعنبر الذي لا أجد فيه وقتًا لتغيير أنواع الأدوية لمرضاه كل عدة أيام؟!

واختطف ورقة من فوق مكتبي، وابتعد، وأقبل الشابان الملتحيان الفصاميان ووقفا أمامي، وقـالا بصـوت واحـد كعادتهما:

- نريد أن نخرج من دار الكفر.

قلت لهما:

- ستخرجان بإذن الله.

فقال أحدهما وهو يمسك بذراع أخيه.

- دعك منه، إنه كافر هو الآخر.

ضقت بانتظار سعادة المدير، تصـفحت كتـب أمـين الستة، أسعدتني الإهداءات الرقيقة التـي يعبـر فيهـا عـن اعتزازه بصداقتنا، قرأت قصتين من مجموعتـه القصصـية الأخيرة، ولدهشتي كانت القصتان تنضحان بـالمرارة التـي تقارب اليأس، كانت إحداهما تصور حالة اكتئاب، وتؤكد أن كاتبها لابد أن يكون قد عاش الاكتئاب في أشد حالاتـه، مـا الذي حدث لهذا الصديق، هل فقد هو الآخر يقينـه وإيمانـه بالمستقبل؟.. في زيارته الأولى للسراية كان قلقًـا متـوترا وبسمته مرتبكة، كان حزن دفين يلحظ في لمحات عابرة في عينيه، ما نوع الأحداث التي عاشها؟.. لقد انهار يقيني لأنـه

تجسد في أقوال زعيم سقط وتهاوى من عليائه في ساعات، في تجربة ازدهرت سنوات قليلة وجرفها الطوفان وأعقبها ما هو أسوأ من نقيضها، حاولت برغم المرارة والضباب ألا يجرفني التيار الذي جرف الكثيرين، وأن أتباعد وأنعزل حتى لا أشارك في الجريمة، ولكن أي رجل أنا الآن؟.. أي أمل أرجوه؟... وأي مستقبل ينتظرني؟.. أقصى ما أتمناه أن أنقل إلى مستشفى سوهاج، وأعيش في بلدتي الصغيرة إلى جوار أمي وبعيدا عن كل شيء، أيقنت أن العدالة والحرية اللتين حلمت بها في سن شبابي سيظلان حلما عصي التحقيق في هذا العالم، وأن أية محاولة لتحقيقها لابد وأن تنتهي بالفشل والمآسي وقهر الإنسان. ماذا عن يقين أمين والتجارب التي كان يفاخر بها تتزلزل وقد تكشفت مآسيها؟

وعاد الرسام، وقدم رسما لوجهي مرسوما بالنساء العاريات. وتأملت الرسم. وانفجرت ضاحكًا بمرارة.

وفي الثالثة تدحرج الممرض أبو السعد ليعلن أن سعادة الباشا اكتفى بزيارة بعض أبنية الاقتصادي فسارعت بمغادرة العنبر متعبا ومصدع الرأس، وفي الفناء التقيت بالدكتور سمير طبيب عنبر (٥) والذي نادرا ما ينطق وجهه الأسمر

الداكن بكلمة، والدكتور مهران طبيب عنبر (٣) الذي يسميه ناصح بالهرم الصغير لكبر رأسه وضـيق كتفيـه وامـتلاء مؤخرته، وانتفاخ معطفه الأبيض الطويل، والدكتور جـلال طبيب عنبر (٢) النحيل المسن العصبي الذي لا يفيـق مـن سكرة الصباح إلا عند الظهر.

تبادلنا الابتسامات الخائبة، قال الدكتور مهران:

- مشاغل سعادة المدير الكثيرة لا تسمح له بالمرور على العنابر.

وتساءل الدكتور سمير بصوت خفيض وهو يحاول أن يبتسم:

- ألا يعرف المدير أن معبد أمحوتب الذي كان يعالج فيه المرضى العقليون منذ آلاف السنين كـان أفضـل مـن مستشفاه؟

ووجدتني أصيح:

- أخيرا نطق الطبيب الصامت، ونطق كفرا.

وشوح الدكتور جلال بذراعه وهو يسرع في خطـوه مبتعدا:

- ستبقى المخروبة كما هي.. لا خير فيها ولا في مديرها.

كان يسمي المستشفى المخروبة، وكان الوحيد بين الأطباء الذي يسخر من المدير نفسه بل ويحتد عليه لأنه كان طبيبا قديما في السراية وزملاؤه وكلاء وزارة.

ولحق بنا الدكتور باهر طبيب عنبر (١) بنظارته السداسية وأناقته المفرطة، والذي يتعامل مع المرضى بأطراف أنامله وأرنبة أنفه، ويصدع رءوسنا بالحديث عن ضرورة الأخذ بمنهج التحليل النفسي.

وبالقرب من مبنى الإدارة رأيت نادر فاستأذنت من الأطباء، ولحقت به.

سألته ساخرا:

- ما أخبار اللصوص اليوم؟

فرد بغيظ:

- كالعادة، سرقة فاجرة بالاشتراك مع متعهد الأغذية.

تأملت وجهه المحدد القسمات بوسامته الرقيقة، وجبينه العريض وشعره النافر، قلت مشفقًا:

- لا فائدة يا صديقي من أي فحص أو رقابة، لـو أن الفحص يمكن أن يكشف شيئًا لما أسندوه إليك.

والتفت إلي بشيء من الغضب:

- ونتركهم يسرقون المرضى الذين لا يعون شيئًا؟!

قلت:

- لن يتمكن عشرات من أمثالك من الحد من شراهتهم أو الوقوف في وجوههم.

وافترقنا أمام سكن الأطباء وأنا أتساءل، متى يسقط هذا الفارس الجديد هو الآخر.

أمين زاهر

قمت بجولة مع مجدي داخل بعض أبنيـة المستشـفى الذي أصبحت تشدني إليه قوة لا تقاوم منذ اكتشـفت وجـود (ش) فيه.

بدأنا بما يسمونه بأبنية الاقتصادي التـي يقـيم فيهـا النزلاء نظير مقابل شهري لا يقوى عليه القـادرون. وهـي أبنية صغيرة رمادية من طابق واحد يتكون كل منهـا مـن حجرتين واسعتين يفصل بينهما ممر صغير، وفي كل حجرة ثمانية أسرة.

رأيت المصابين بالاكتئاب، شبابا وكهـولا ومسـنين جفف الحزن وجوههم، وجمد ملامحهم، وترسب في عيونهم فبدت منطفئة ومنكسرة، يتحركون في ثقل وبلادة أو يستلقون على الأسرة في همود مستسلم.

تعذبت برؤيتهم أنا الذي أعرف حقيقة مستنقع الاكتئاب الذي ينزلق إليه المرء فتطبق عليه شباك عناكـب وحشـية وغير منظورة تغرقه في الهمود اللـزج فيتقـوت بـاجترار الأفكار السوداء.

ورأيت المصابين بأمراض عقلية كالفصام وغيره.

قال مجدي آسفًا:

- هنا لا يفرق بين المرضـى النفسـيين والمرضـى العقليين، والجميع يعانون من قلة الدواء وسوء المعاملة.

واقترب مجدي من نزيل كهل مصفر الوجـه يرتـدي جلبابا ممزقًا وسأله:

- كيف حالك؟

فقال النزيل وهو يحدق إلى الأمام:

- كيف حالك؟

- مبسوط؟

قال النزيل بآلية:

- مبسوط؟

وأخذ النزيل يردد ما يقوله مجدي لا يزيد عليه حرفًا وعيناه ذاهلتان.

ووقفنا أمام شاب لا يتجاوز الخامسة والعشرين يمسك رأسه بكلتا يديه، ويتباعد عن زملائه بعينين متوجستين، وقال مجدي إن النزيل يعتقد أنه يمكن قراءة أفكاره، ويخشى أن يحاسب على ما يخطر له، وقد كان قبل مرضه مهتما بالسياسة، وطاردته أجهزة الأمن فبدأت هلاوسه السمعية والبصرية.

تذكرت حافظ في لقائنا الأخير قبل أن يدخل ما يسمونه بعنبر عزل المجاني تذكرت كلامه عن السر الذي يبحث عنه، واستبد بي الحزن.

واقترب منا كهل فارغ القامة، ممتلئ، تبرق عيناه الواسعتان في وجه حاد الملامح، وربت على كتف مجدي متسائلا:

- هل آمنت يا ولدي.

فقال مجدي جادا:

- ما زلت أفكر.

فقال النزيل موبخًا:

- لا تفكر.. لابد أن تؤمن بما أقوله لك.

وقال مجدي، إن النزيل يعتقد أنه مبعوث بدين جديـد، وكان قبل إصابته بالمرض قد ارتكب كثيرا من الآثام منهـا الزنا بالمحارم، وإثر صدمة حادة أصيب بالفصام.

وأقبل نحوي نزيل شاب يرتدي منامة نظيفة وتبـرق عيناه الزرقاوان الواسعتان، أمسك بيدي فأجفلـت متباعـدا فطلب مني مجدي ألا أخاف، وابتسم النزيل وأشار بيده إلـى السماء، وتساءل بصوت هامس:

- أتعرف أثر ما يحدث في الكواكب والنجـوم علـى عقول البشر وتصرفاتهم؟

ومر بنا نزيل ضخم يرتدي حلة قديمة وربطـة عنـق متهرئة ويضع منديلا في جيب سترته، ويرفع رأسه في تأفف مترفع وهو يزج من طريقه أشخاصا غير منظورين ويقول:

- أولاد الأصول هم أولاد الأصول والسفلة هم السفلة.

واستوقف مجدي نزيلا قصيرا، كبير الـرأس، بـارز الصدر تلتمع عيناه المستديرتان، وقال لي بصوت خفيض:

- هذا ابن المقفع.. صحفي يقال إنه كان جريئـًا فـي كتابته وتستبد به شخصية الأديب ابن المقفع.

وسأل مجدي النزيل:

- كيف حالك يا شيخ الأدباء؟

فرد بلهجة توبيخ:

- لا تكونن نزر الكلام والسلام، ولا تبلغن بهما إفراط الهشاشة والبشاشة.

وابتسم النزيل وهو يمد صدره الضيق إلى الأمام:

- إذا ابتليت بالسلطان فتعوذ بالعلماء.

وألقى مجدي بالتحية على طبيب يجلس إلـى مكتـب صغير كالح أمام أحد أبنية الاقتصادي، وقد بدا وجهه الأسمر الممتلئ مكتئبا فرد الطبيب التحية بحركة من يـده، وعنـدما ابتعدنا عنه قال مجدي:

- الدكتور فهمي طبيب الاقتصادي، وقد أصبح مكتئبا من كثرة معايشته للمرضى واظروفه الخاصـة، وهـو مـا يحدث أحيانًا للأطباء النفسيين.

وفي نهاية أبنية الاقتصادي وكنت قد امتلأت بـالحزن مررنا بمبنى (ش) فخفق قلبي بعنف وأنا أنظر إلـى النافـذة

المفتوحة، وتساءلت بأية طاقة يعيش المعلم حبيسا في غرفـة مغلقة في مثل هذا المكان كل تلك السنين؟

نادر شوقي

هل أنتهي من رسالة الماجستير التي يعرف العـاملون بالسراية أنني أقوم بإعدادها، والتي أتحرك بطول المستشفى وعرضها بحجة جمع مادتها؟.. علي أن أتعلل بهـا أطـول وقت ممكن حتى لا تحوم حولي الشكوك.

إنني أتمسك بالحذر الشديد، أحرص على أن أبدو أمام الجميع مجرد الأخصائي الاجتماعي الذي يؤدي عمله بهمـة وحماس، ويجمع المعلومات ويحادث النزلاء بهـدف إعـداد رسالته، ويشرف على الكانتين واستلام أغذية المتعهد بتكليف من الإدارة.

أقاوم غيظي وأنا أرى الاسـتمارات التـي أضـمنها ملاحظاتي وتوصياتي تدفن في الدرج أو يلقى بها في سـلال المهملات، وأقاوم غضبي وأنا أكتشف كل يوم دلائل الغـش الفاضح لمتعهد الأغذية الذي يتواطـأ مـع المـدير وكبيـر الأطباء.

اليوم عند دخولي السراية اتفقت مع عم فارس على أن نلتقي في المساء، وتوجهت إلى مبنى الإدارة، وجلست دقائق مع وداد بحجرة السكرتارية ثم مررت على بعض الأصدقاء

في أماكنهم، وذهبت إلى العيادة الخارجية، دسست للكاتب رشوته فحدد لي وقت تسليمي استمارات فحص الإيراد الجديد، وفي غرفة الكشف جلست إلى جانب الدكتور مجدي المنتدب بالعيادة الخارجية في أثناء إجازة الدكتور فاضل، والذي تربطني به الصداقة منذ عمل بالسراية، وكان يقوم بفحص الإيراد الجديد.

وعندما اقترب دور (خ) في الكشف كان بالحجرة الدكتور محجوب الذي لا أستريح لنظرات عينيه وفضوله وأشك في علاقته بمكتب الأمن فخشيت أن تضيع الفرصة، ولحسن الحظ ما إن جلس (خ) أمام مجدي حتى خرج محجوب.

انكسرت عينا (خ) وتثاقلت كلماته وتباعدت وهو يرد على الأسئلة التقليدية، وعندما هم مجدي بأن يؤشر بصرف الدواء على أساس أن الحالة اكتئاب تفاعلي يمكن أن يعالج خارج المستشفى أمسكت بيده، ونظرت في عينيه باسما، وقلت:

- أنا أعرف ظروفه، وأريده أن يدخل المستشفى.

ونظر إلي مجدي دهشًا:

- ولكنك تعرف جيدا أحوال السراية.

قلت:

- إنه قريبي، وتوجد مشكلة ثأر بين أسـرته وأسـرة أخرى.

وتردد مجدي:

- ولكن...

فقلت:

- سأوصي عليه.

وهز مجدي رأسه، وأشار بدخول (خ) عنبر (٥) الذي يشرف عليه الدكتور سمير.

وذهبت إلى الكانتين، كان الصديق حسـن الـدمياطي يقوم بتوزيع وارد الزيارات على الأصدقاء، كـان كعادتـه يصر على وقوف الأصدقاء الثلاثة الذين ينتظرون أمام نافذة الكانتين في طابور، وكانوا يسخرون منه فيمانع في إعطائهم حصصهم وهو يدفع بنظارته السميكة على أرنبة أنفـه وقـد احتقن وجهه وصلعته.

....

نتشرف بالإفادة بأن كل شيء هادئ جـدا، الحراسـة مشددة على الهدام الخطير، وإذا كان بعض النزلاء يـدخلون إليه لقضاء بعض حاجاته أو يتسكعون أمام المبنى الذي يقيم فيه فنحن لا نتصدى لهم لأنهم فاقدون للوعي ولا خطر منهم.

ونرجو الإحاطة بأنه لفت نظر أحد رجالنا أن المـدعو أمين زاهر الذي سبق سجنه في إحدى القضايا التي تتعلـق بالنشاط الهدام تردد مرات على المستشفى، وبمخاطبة القسـم المختص بإدارتنا أفاد بأن المذكور هجر العمل السياسي منذ سنة ١٩٦٥ ويقوم بكتابة قصص غامضة لا يلتفت إليها أحد، وهو يتردد على طبيب يدعى مجدي عبد السلام ألحق للعمل بالمستشفى اعتبارا من ٣ مارس ١٩٨٦ ويقول عنه رجالنـا إنه منعزل، ويهتم اهتماما خاصا بمريضة في قسم النسـاء، ونحن لا نرى التدخل لمنع المدعو أمين زاهر مـن دخـول المستشفى حتى لا نلفت نظر أحد إلى شيء خاصة وأنه لـم يبد اهتماما بالنزيل (ش).

برجـاء التفضـل بالإحاطـة، والتوصـية بزيـادة المصروفات السرية.

وتفضلوا سيادتكم بقبول وافر التحية والاحترام، [٢]

---

(2) وجد هذا الكتاب بدون توقيع، وغير محـدد بـه الجهـة الموجه إليها، وقد وقع صدفة في يد نادر في ٢٠ مـايو ١٩٨٦، وهو صورة من النسخة الأصلية.

أمين زاهر

كان اليوم حافلا.

لم أجد مجدي في العيادة الخارجية، لقيت نادر الـذي استقبلني باشًا، وأخبرني أن مجدي فـي عنبـره، وأخـذني ليوصلني إليه.

ورأيت إيبوور، وزكريا، ويوحنا المعمدان، وبلال.

في الفناء الواسع، وعلى مقربة من بناية (ش) أشـار نادر إلى نزيل مسن مدبوغ الوجه ونابت اللحيـة، ينحسـر شعره الفضي عن جبينه العريض ويجلس على حجر كبيـر ويرنو على مبنى (ش)، وقال:

- إيبوور.

ونظرت إليه متسائلا فقال ببسمة صغيرة:

- الحكيم المصري الذي تحدث عن الثورة الشعبية في نهاية الأسرة السادسة عام ٢٢٧٠ قبل الميلاد.

وأضاف قائلا:

- إنه مفتش آثار أدخل السراية منذ سبعة أعوام، وهو يردد في مرضه كلمات إيبوور.

وأطال ذلك النزيل النظر إلي بعينين سوداوين حادتين.

وأشار نادر إلى نزيل كهل يميل إلى الطول والبدانـة بوجه ممتلئ وصلعة مربعة، يرتدي جلبابا أبـيض نظيفًـا، ويعقد ذراعيه على صدره، ويمشي متفكرا ككاهن قديم:

- وهذا زكريا الذي ورد ذكره في التـوراة لا ينطـق بلفظ، وفي المرات القليلة التي أفصح فيها كتب في ورقة أن ملاك الرب بشره بمولود سيمهد الطريق أمام القادم، ولأنه لم يصدق بشارة الملاك فقد حكم عليه بـالبكم أربعـين يومـا وأربعين ليلة حتى تلد زوجه العجوز العاقر.

وابتسم نادر:

- يبدو أن الأربعين يوما لن تنقضي أبدا.

وأومأ إلى ثالث في نحو الثلاثين بقامة مديدة، ومنكبين عريضين، ووجه أسمر حاد الملامح، هائش شـعر الـرأس واللحية، يرتدي جلبابا قصيرا رماديا ويتمنطق بقطعـة مـن قماش، وتبرق عيناه الواسعتان، ويلوح بيـده منـذرا مـرة ومباركًا مرة أخرى، وقال:

- إنه يوحنا يمهد الطريق للقادم.

وسمعت أذانًا جميلا، وأشار نادر إلـى رجـل أسـود طويل، عريض الكتفين يرتدي جلبابا أبيض ناصعا، ويقـف على درج مبنى صغير قريب مؤذنًا للصلاة:

- وهذا بلال يؤذن للصلاة.

قلت لنفسي، حسن أن نحفظ الأسماء كلها حتـى ولـو أفصحنا عنها ونحن في حالات المرض.

ومررنا برجل ناحل بشعر طويل ينسدل علـى كتفيـه يقرفص على الأرض، وينظر في ماسورة خشبية:

- هذا جاليليو ينظر في تلسكوبه إلى السـماء، إنـه مدرس علوم أدخل هنا منذ خمسة أعوام.

وأومأ برأسه إلى المبنى الذي يحبس فيه (ش):

- وهنا يسجن (ش).

وتكاثفت على صدري سحابة حزن، وخفضت رأسي، تساءلت عما يعرفه هذا الشاب عن (ش)، سألته:

- أتعرف من هو (ش)؟

واكتسى وجهه القمحـي المثلـث الوسـيم بالشـرود والأسى:

- كان صديقًا لأبي.

واندفعت بالسؤال:

- ما اسم أبيك؟

وطرفت عيناه خلف نظارته الكبيرة:

- لا أظنك تعرفه، اسمه شوقي منصور، لـم يعتقـل، ومات مصدورا عام ١٩٦٨.

وأضاف برنة شجن:

- كان (ش) يتردد كثيرا على بيتنـا عـامي ١٩٦٤، ١٩٦٥، ما زلت أذكر مداعباته لي وهداياه وأنا صبي.

تأملته.

أحسست بأنه قريب إلي كابن لي.

وقال وهو يحاول أن يبتسم:

- سترى هنا عالما لم يخطر لك ببال، ويمكن أن يكون مادة لكتابات كثيرة. هممت بأن أقول له، ما جدوى الكتابـة الآن؟.. ولكنني تنبهت إلى أن وجوده إلى جانبي يجعل هـذا التساؤل بلا معنى فقد وصلت إليه كلماتي ولم أكن أعرفه من قبل.

تساءلت:

- ألا توجد وسيلة لإخراج (ش) من هنا؟

فقال بصوت خافت:

- لا أعتقد.. الآن على الأقل.

ونظر إلى الأمام:

- تمكن من الهروب عام ١٩٦٨، ولكنهم اسـتطاعوا القبض عليه عام ١٩٧٢ وحاول الهرب مرتين، وفي كل مرة كانوا يضربونه ضربا مبرحا، ويعيدونه إلى محبسه، وفـي المرة الثالثة...

وخفض رأسه، ولم يكمل حديثه.

وألجمنا الصمت ونحن نجتاز بابا إلى فناء آخر ثم قال:

- عرفت من الدكتور مجدي أنك جئت لرؤية عنبـر عزل المجاني الذي مات فيه صديق لك.

تساءلت بلا حماس:

- ألا يمكن رؤيته الآن؟

- لابد من ترتيب خاص حتى تراه على حقيقته، ومن الأفضل أن تكون رؤيتك له بعد تعرفك على عنابر المستشفى الأخرى.

تساءلت:

- هل رأيته أنت؟

قال شاردا:

- دخلته مرات، رأيت العنبر الحقيقي لا الزائف.

وأسرع في خطوه:

- يوجد أكثر من مدخل، أحدهم هو الذي يفضي إلى العنبر الحقيقي، ولا يسمح باجتيازه للغرباء عن المستشفى.

وأقبل نحونا شاب أسود متوسط القامة يميل إلى النحول، قسماته متناسقة فيها رقة وجاذبية خاصة، وحدقتا عينيه السوداوين تتألقان وتبتسمان في بياض ناصع متسع على نحو غريب، يرتدي جلبابا قصيرا أبيض بقبة نصف دائرية وكمين قصيرين، وقدمه إلي نادر:

- نور.. شاعر.

وقدمني إليه فابتسم الشاب بسمة خجولا عذبة، وشد على يدي:

- أعرف الأستاذ أمين زاهر، قرأت بعض كتبه، وتعجبني كتاباته.

فرحت وأنا أنظر إلى العينين السوداوين اللتين تشعان بجاذبية آسرة، وقال نادر باسما:

- نور ضيف هنا، كان لابد أن يخـرج منـذ سـت سنوات، ولكن لا يوجد له قريب من الدرجة الأولى يتحمـل مسئولية خروجه، ولم تجتمع لجنة الإفراج عن النزلاء الذي شفوا منذ سنوات.

ومال نادر على نور، تبادلا كلمات هامسة ثم سلم نور باسما وابتعد.

قلت لنادر:

- لعلك كنت تعرف صديقي الشاعر الذي مـات فـي عنبر عزل المجاني، كان اسمه حافظ أمين.

وعقد نادر ما بين حاجبيه:

- في عنبر عزل المجاني مات كثير من الموهوبين.

وتركني نادر في عنبر مجدي، وكان عنبـر مجـدي حكاية أخرى.

مجدي عبد السلام

استيقظت اليوم مبكرا وأنا أحس بفورة نشاط افتقـدتها منذ زمن طويل.

كنت قد انتهيت في الواحدة صباحا من قراءة إحـدى روايات أمين، وأعادتني الرواية إلى أيام الصـبا ومسـتهل الشباب، صباي الباكر في إخميم، والرحيـل إلـى القـاهرة للدراسة، ولقائي بأمين في الإسكندرية ونهمي في القـراءة، والتساؤلات الكثيرة، وأيام كلية الطب، وانضمامي إلى منظمة الشباب، حماسي الكبيـر لثـورة يوليـو وعبـد الناصـر، والمناقشات والآمال الكبيرة، وحبي لهناء، وخيبـة ومـرارة هزيمة يونيه، وفصلي من المنظمة بتهمة التطرف اليسـاري لاشتراكي في مظاهرات الطلبة عام ١٩٦٨ وسنوات التجنيد الست، وحرب أكتوبر، وأيام العمل في سوهاج، والسفر إلى السعودية والعودة بعد شهر واحد.

مرت أمامي أحداث رحلتي كلها، وأدركت أنني عشت برغم كل شيء أياما طيبة، وأنه ما يزال أمامي منفسح مـن العمر يمكن أن أعيش فيه أياما طيبة أخرى، وفي نحو الثانية صباحا أغمضت عيني لأنام والدفء يملأ صـدري ووجـه

السمراء يطل علي بعينيه النيليتين وبالنظرة الطويلة المعاتبة التي خفق لها قلبي.

أيقنت أنني أحبها، وأحسست بالفرحة لذلك، لم يعنني مصير هذا الحب، يكفي أنني أحب، يكفي أن أعيش هذا الإحساس وقد جاوزت الأربعين.

وفي الفجر فتحت عيني على أذان بلال بصوت الشجي الجميل فقمت وتوضأت، وصليت بنشوة وتفتح لم أحسهما من سنين، وسارعت بارتداء ملابسي ومغادرة سكن الأطباء.

جلست تحت شجرة السنط أستنشق الصباح الجديد، وأرقب الشمس وهي تترامقني النظر بين أغصان الأشجار، أحسست بأن العالم طيب، وأن الحياة شيء جميل برغم كل شيء، وتمنيت أن يأتي أمين لأحدثه عن روايته وما فعلته بي.

مشيت في الطريق المسفلت قبل أن تطأه الخطى، ألقيت تحية الصباح على عم فارس الذي كان جالسا على دكته الخشبية يدخن في هدوء فرد تحيتي ببسمة وجهه الطيب، هممت بأن أسأله عما يدعوه إلى الحضور إلى هذا المكان مبكرا كثيرا عن المواعيد الرسمية، وبقائه فيه إلى

وقت متأخر، لم يكن جندي الحراسة قد انصرف بعد، كان يغفو وهو واقف مستندا إلى بندقيته.

سرت بين الأشجار العالية وفي قممها تتزاحم زقزقة العصافير، استرعى انتباهي أن شجرة التين التي تقف بين نباتات الصبار قد بان طلعها، عدت في الطريق إلى داخل السراية، وفي فناء الاقتصادي رأيت بعض النزلاء وقد لزم عدد منهم أماكنهم المعتادة التي لا يبرحونها، كانت نافذة (ش) مفتوحة، تساءلت إلى متى يستمر الزمن الذي يسجن فيه إنسان وتشوه سمعته بسبب فكره؟.. ها هو مفكر كبير تقرأ كتاباته في بلاد العالم المختلفة، ويتبنى الكثيرون فكره يسجن في مستشفى للأمراض العقلية، ويستمر سجنه في العهود الثلاثة، في العهد الذي نادى بالعدالة ومارس القهر، وفي عهد ديموقراطية الأنياب والمخالب، وعهد التصديق برفاهية الثرثرة مع السجون المفتوحة والتعذيب غير الرسمي، لقد أعجبت بكتابات (ش) التي قرأتها في مستهل شبابي، لكنني اختلفت معها في قضايا جوهرية، رفضت فكرة الصراع وأمنت بما يسمى تذويب الفوارق فلا الصراع أجدى، ولا القول بتذويب الفوارق أفلح، يبدو أن الثائر عندما

يتحول إلى حاكم تموت ثوريته وتضيع أحلامـه، يبـدو أن القهر والعناء قدر لا فكـاك منـه مهمـا كانـت الأشـواق والتضحيات.

تصفحت وجوه بعض النزلاء الفصاميين والمكتئبـين، استوقفني وجه النزيل الذي تستبد به شخصية يحيى أو يوحنا المعمدان، تساءلت لو أنني أصبحت يوما نزيلا في مثل هـذا المكان فمن سأكون؟.. أي الشخصيات الدينية أو التاريخيـة ستستبد بي وتنطقني بكلامها؟

ملت ناحية قسم النساء، تساءلت، لماذا انجـذبت إلـى السمراء بالذات؟... لماذا ارتجف قلبي عندما غاصت عيناي في عينيها النيليتين؟.. هل لأن في ملامحها شبها من أمي؟... من امرأة أو فتاة كان لها في صباي أثر خاص؟

نظرت من الباب المفتوح، ولفرحتي رأيتها تقف مـع بعض النسوة في الفناء، التقت عيوننا فافترت شـفتاها عـن بسمة صغيرة حييه، وخفضت رأسها، واقتربت مني إحـدى النزيلات المسنات فابتعدت وأنا أحضن فرحتي.

في فناء العام رأيت شالوم يجلس مستندا إلـى حـائط الكانتين وشفتاه تتحركان، قلت لابـد أنـه يتلـو المزاميـر،

ويستمطر لعنات رب الجنود على الأمـم، ويخصـنا نحـن المصريين بالنصيب الأوفـر. ابتسـمت لوجهـه الصـغير المسحوب ولحيته المنسولة وعينيه المستديريتين المتوجستين، وددت لو أقول له إن صهيون ما عاد يسمع لـه، وإن أهلـه وكل الناس يحتاجون في هذا العصر إلى موسـى وعيسـى ومحمد معا ليكون أمل في بعث جديد.

سرت خاف عنابر العام، مررت بالقرب مـن عنبـر عزل المجاني، وفاحت رائحة العفن من فنائه، قررت أن أتيح لأمين في أقرب فرصة زيارة هذا العنبر حتى أزوره معـه، لقد رأى بعض العنابر والأبنية والكثيرين من النزلاء، ولـم أعد أخشى عليه من أثر زيارة العنبر الـذي يـروى عنـه الكثير.

في نهاية العنابر، وأمام العنبر الصغير رأيـت نـور جالسا بين زهور عباد الشمس التي زرعها أمام عنبره مستندا إلى الحائط ومنهمكا في الكتابة، رفع إلي وجهه الأسود الباسم فسألته:

- قصيدة جديدة؟

فقال بشيء من الخجل:

- أحاول.

لم أشأ أن أقطع عليه الوحي، تركته وأنا أفكر في ذلك النزيل الشاعر الذي يتحرك طول النهار بين العنابر والأبنية لمساعدة النزلاء والأطباء والممرضين، والذي حجـز بعـد شفائه من الاكتئاب التفاعلي.

دخلت عنبري، وجدت الأنبا شنودة وأبا ذر يقفان معـا إلى جانب النافذة يتحادثان باسمين، وعندما رآياني اتجه أبـو ذر إلى فراشه، لم أكن قد رأيتهما من قبل يتبادلان الحـديث، لمحت في نهاية العنبر سطوحي متكوما على سـريره وقـد غطى وجهه وخلفه كراتين بضاعته.

وقفت إلى جانب الأنبا شنودة، وسألته باسما:

- لماذا تستيقظ مبكرا يا رئيس المتوحدين؟

والتمعت عيناه المتعبتان:

- سأدافع عن الوثني والمسـيحي، لابـد أن يخـرج الرومان من أرضنا.

وأشار بإصبعه إلى صدري، وقال بلهجة توبيخ:

- أنتم ملح الأرض، ولكـن إذا فسـد الملـح فبمـاذا يملح؟.. لا يصلح بعد لشيء.

ابتسمت وأنا أربت على كتفه:

- لم يفسد تماما يا أبانا.. أتعرف أنني أيضا من إخميم بلادة أبي وأمي.

واتجه إلى سريره وهو يقول:

- طوبى للحزانى لأنهم يعتزون، طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض.

ونظرت إلى أبي ذر، كان متربعا على سريره بوجهه الكبير المغضن يمسد لحيته، تساءلت، متى يا أبـا ذر يـأتي الزمن الذي لا يوجد فيه بنو أمية، زمن يكون لبلال وعمـار بن ياسر وكل المتعبين؟

أمين زاهر

مفاجأة اليوم هي رؤيتي لفكري سالم في المستشفى الذي يحجز فيه (ش). كنت أسير مع مجدي في اتجاه عنبره، وكان فكري خارجا من باب فناء عنابر العام بقامته الربعة، وصلعته النحاسية، وفوديه الرماديين، ممسكًا بملف تحت إبطه.

وقف كل منا عندما رأى الآخر، حدق إلي بعينيه الصغيرتين الثاقبتين دهشًا، واتجه إلي بسمته الوقور بودها المتحفظ، مد يده للسلام فضممته إلى صدري بقوة.

أطال إلي النظر يتفحصني، تذكرت المرة الأخيرة التي رأيته فيها في نهاية عام ١٩٦٥، كان يومها ممرورا، وبرما بكل شيء، تمثل لي وهو يتربع في الزنزانة يحدثنا عن (ش) وكتاباته.

نقل عينيه بيني وبين مجدي، وتساءل:

- ما الذي أتى بك إلى هنا؟

فعلت ما خطر لي:

- كتاباتي التي لا يقرؤها أحد.

ونظرت إلى مجدي:

- الدكتور مجدي صديق قديم لي.

وزم فكري شفتيه الصغيرتين كعادته، وتلفت حوله:

- أنا أعمل هنا، موظف أرشيف لهذا المكان الطيـب، نقلت إليه من أرشيف وزارة الصحة منذ ثلاثة عشر عاما.

وابتسم:

- أنت لم تتغير كثيرا، ما زال وجهك يشف عن طاقة الضحك والبكاء.

وتذكرت ما قاله لي يوما ونحن بسجن القناطر فقلـت باسما:

- وما زلت أتعامل مع العالم بصدري.

وضحكنا معا.

هممت بأن أسأله عن أحوال (ش)، وما يمكـن عملـه لخروجه، بدا عليه الارتباك، ومد لي يده للسلام وهو يطلـب بمجاملة ظاهرة أن أزوره بأرشيف المستشفى.

تابعته بعيني، قال لي في سجن القناطر ولم تمض أيام على تعارفنا إنني أتعامل مع العالم بصدري، يومها أسعدتني هذه الكلمات، وجدتها تشخيصا صائبا لطريقتي في التعامـل مع الناس والأشياء، وكثيرا ما كنت أتذكرها كشـهادة بـأن

أنسب فعل لي هو فعل الكتابة، تساءلت كيف يقـوى فكـري سالم وقد كان واحدا من المقربين إلى (ش)، ومن أبرز قادتنا في الزمن القديم على العمل بأرشيف المكان الذي يحبس فيه معلمنا؟.. قلت، ألسنا في الزمن الذي يتحول فيه الثوار إلـى حوذية لعربات السلاطين أو مهاجرين إلى الخـارج أو إلـى كهوف الذكريات القديمة؟.. قلت إن فكري سالم اختار مهنـة تناسبه فقد كانت ذاكرته أرشيفا منظما لكل مـا قـرأه ورآه، وكانت له برغم ثقافته الواسعة وإبداعـه الفكـري الخـاص طقوسه ولوازمه الصغيرة التي لا يتخلى عنها مهمـا كانـت الظروف.

تساءلت عن المعلم؟

وسألني مجدي:

- أتعرف فكري سالم منذ سنين؟

قلت:

- كان صديقًا لي.

وأمضيت مع مجدي نحو ساعة فـي عنبـره كانـت تعاودني فيها بعض ذكرياتي مـع الأصـدقاء فـي السـجن وخارجه، وفيما كنا في طريقنا إلى الخارج، وبـالقرب مـن

مبنى الإدارة أقبلت نحونا فتاة في نحو الخامسة والعشرين تميل قليلا إلى القصر والبدانة، في وجهها الأسمر المستدير عينان عسليتان باسمتان، وسلمت على مجدي فقدمها لي:

- وداد خطيبة نادر.. تعمل معنا في السراية.

وشف وجهها ببسمة ودود، وقالت:

- الأستاذ أمين زاهر كما أعتقد؟

وسلمت علي بود حار، وقال مجدي باسما:

- أظن أنها ونادر يفضلان الزواج بعد الإحالة إلى المعاش.

مجدي عبد السلام

أخذت مريضا إلى قسم الجلسات الكهربائية، وقبـل أن أخطو إلى الداخل سمعت صوتًا مكتوما مهددا:

- هات وإلا..

ورأيت ممرضا يقبض بيده على ذراع نزيـل كهـل، قصير، وممروض، ويمد له اليد الأخرى، والنزيـل يحملـق إليه برعب، ويخرج ما في جيب جلبابه من نقود وسجائر.

وفي الداخل كان الشيخ (ع) رئيس الممرضـين يقـوم بإعطاء جلسة كهرباء لأحد النزلاء، والنزيل يتخشب ويتشنج والرغاوي تطفح من فمه المغلق، وثمة صف طويـل مـن المرضى ينتظرون أدوارهم وعيونهم الذاهلة بالخوف مشدودة إلى زميلهم، وفي نهاية الحجرة كان يجلس الدكتور محجوب، يضع ساقًا على أخرى، ويدخن في هدوء.

سألته بحدة:

- ما الذي يحدث هنا؟

ورفع إلي عينين فاترتين:

- كما ترى.. النزلاء يأخذون جلسات كهرباء.

واشتد غضبي:

-وهل يأخذ نزيل جلسة كهرباء في حضـور نزيـل آخر؟

وارتسمت بسمة صفيقة على وجهه الأمرد، وقال وهو ينفث دخان لفافته:

- توفيرا للوقت.

- وتترك ممرضا يعطي الجلسات للنزلاء؟

وأشاح بوجهه:

- إنه كبير الممرضين، وله خبرة تفوق خبرة كثير من الأطباء.

واندفعت إلى الشيخ (ع) الذي أوقف الجهـاز، ونظـر إلي بارتباك:

- البيه هو الذي أمرني بذلك.

نظرت إلى المريض المرتجف:

- هل أعطيته حقنة أتروبين قبل الجلسة؟

فقال متلعثما:

- لا توجد حقن بالمستشفى.

وانفجرت غاضبا:

- أهذا مستشفى أم معتقل تعذيب؟

وأسرعت إلى مبنى الإدارة، إلى حجرة كبير الأطباء.

لم أكن قد أعطيت جلسات كهرباء لأحد من نزلاء عنبري إلا مرتين أو ثلاث، ولم أكن قد دخلت حجرة الجلسات في أثناء إعطاء جلسات بمعرفة غيري من الأطباء.

واستقبلني كبير الأطباء بوجهه الكبير الشاحب وأنفه المنسدح، وعينيه الجاحظتين المسبلتين، سألني بصوت فاتر لا يكاد يسمع عما إذا كان قد حدث شيء في عنبري، حاولت أن أتمالك نفسي:

- لا شيء.. ولكن تحدث أشياء في قسم الجلسات الكهربائية.

وأغفى صوته، وتساءل:

- ما الذي يحدث؟

وأخبرته ما رأيت فتثاءب صوته:

- إمكانيات المستشفى محدودة، ولا توجد حقن منذ أسبوع.

فقلت بغيظ:

- ولكن إعطاء الجلسات للمرضى بدون حقن يعرضهم للخطر، ومن البدهيات أن يعطى الطبيب الجلسـات بنفسـه، وألا يرى المريض زميلا له وهو يأخذ جلسة كهرباء.

وقلب يديه الشاحبتين بأصابعهما الغليظة، وحـاول أن يبتسم:

- الأمور لا تجري دائما كما تصفها كتب الطب.

وأضاف وهو يوشك أن ينام:

- يحدث هنا ما يحدث في كل مستشفى حكومي.. عود نفسك على أوضاعنا.

حدقت إليه غاضبا، واستوقفني وأنا أهم بالخروج:

- أشرت على طلب نقلك بالموافقة بشرط وجود بدل، وهو معروض على السيد المدير.

ضاق صدري، خطر لي أن أندفع إلى حجرة المـدير، ولكنني نحيت الخاطر جانبا ساخرا من سذاجتي، فماذا يمكن أن يفعل المدير ببسمة تـاجر البضـاعة المغشوشـة وهـو المسئول عن كل شيء في هذا المعتقل؟

ووجدتني أتجه إلى العيادة الخارجية لرؤيـة الـدكتور فاضل زكي الذي عاد منذ يومين من إجازته.

استقبلني ببسمته الهادئة الودود، جلست إلى جانبه وأنا أحاول أن أهدئ نفسي، سألني عما بي فأخبرته بما رأيت وما دار بيني وبين كبير الأطباء فقال:

- أتظن أنك تعمل في مستشفى حقيقي؟

تأملت وجهه الأبيض المستطيل المسـن بنونـة ذقنـه العريض، وعينيه الرماديتين، وحاجبيـه الكثـين الأشـيبين، وشعره الفضي النافر، تساءلت، كيف تحمل هـذا الطبيـب الماهر الوجود في السراية ما يقرب من عشرين عاما؟ لماذا فوت على نفسيه الترقية مرات ليبقى في هذا المكان اللعين؟

قال آسفًا:

- هذا المستشفى كأي مستشفى آخر في بلادنا.

تساءلت:

- وما الذي يستبقيك فيه؟

ونظر إلي باسما:

- لا أعرف.. يبدو أنني لا أميل إلى التغيير.

تذكرت كيف استقبلني بطريقة ودية يوم تسلمت العمل في السراية، واصطحبني إلى العنابر والأبنية، يومها قال:

- أحوال السراية ليست جيـدة، وإمكانياتهـا ضـئيلة للغاية، وعلينا أن نستفيد في العلاج من العلاقـات الإنسـانية بالمرضى.

كان الكثيرون من المرضى يعرفونه ويحبونه، وكـان يعاملهم بحنو باسم كأب.

أمين زاهر

ذهبت إلى المستشفى في الثانية عشرة ظهرا، وأخبرني أحد الممرضين أن مجدي خرج من السراية وسـيعود فـي المساء، وفي طريقي إلى الخارج خطر لي أن أذهـب إلـى فكري سالم في الأرشيف لأحدثه فـي أمـر (ش) وإمكانيـة العمل لإخراجه، ترددت قليلا ثم وجدتني أتجه إلـى مبنـى الإدارة وأنا أقول لنفسي إن فكري كان صديقًا حميمـا لـ ـ (ش) ومهما تغير فلابد أنه يمكن أن يفعل شيئًا وفاء للصداقة القديمة.

واستقبلني فكري بترحيب متحفظ، حـاول أن يخفـي ارتباكه وهو يدعوني للجلوس.

كانت جدران الحجرة الصغيرة مغطاة بأرفف الملفـات والأضابير، وكانت كميات كبيرة من الملفات مكدسـة فـي الأركان وعلى مكتبه الصغير الكالح، تساءلت هل كان لأحد منا أن يتخيل أن ينتهي المصير بفكري سالم إلى هذا المكان الرث؟

بدا قلقًا وهو يتكلم عن تفاهة العمل ورتابتـه والملـل الذي يعانيه، وجدت أن المكان غيـر ملائـم للحـديث فـي

موضوع (ش) فقلت له إنني أريد زيارته في بيته لأمر هـام فعقد ما بين حاجبيه وزم شفتيه، وتساءل عن هذا الأمر فقلت إن المكان غير مناسب للحديث فرحب بزيارتي له بشيء من التردد، وأعطاني عنوانه الجديد.

وفي المساء استقبلني في بيته بترحيب أكثر انطلاقًا من ترحيب الصباح.

رحب بي بالكلمات التقليدية، ونظر إلي مترقبا حديثي، ومرت أمامي مشاهد بعض الأمسيات التي قضيتها معه فـي زنازين عبر (ب) بسجن القناطر، تمثل لي وهو يحدثنا عـن معلمنا (ش) باحترام يقارب التقديس، كان يعـرض أقـوال المعلم في الطبعات المختلفة من كتبه كنصوص مقدسة، لـم أكن أنا أميل إلى حفظ النصوص أو التقيد بحرفيتهـا، كـان بعض الأصدقاء يفعلون ما يفعل، وكان الكثيرون ينظـرون إليه بانبهار وإعجاب كبير، كان فكري برغم كل شيء واحدا من قادتنا، كان مفكرا له إبداعه الخاص فيما يتصـل بواقـع بلادنا.

نظرت إلى وجهه الأسمر الصغير بشدقيه المنتفخين قليلا وشفتيه المزمومتين، وعينيه الصغيرتين الثاقبتين، وتساءلت:

- كيف حال المعلم؟

واربد وجهه، حدجني بنظرة طويلة، وقال:

- لا أعرف.. أنا في المستشفى مجرد كاتب أرشيف.

تساءلت:

- ألم تره أبدا في محبسه؟

وحدق في فراغ الغرفة الصغيرة:

- لا يسمح لأحد بزيارته إلا بتصريح من المباحث ونيابة أمن الدولة.

ألا ينبغي عمل شيء لإخراجه من هناك؟

وأشاح بوجهه:

- أنا مجرد موظف أرشيف، لا أملك شيئًا.

قلت بإلحاح:

- يمكن أن نفكر معا في طريقة لإخراجه.

وأحنى رأسه، وقال بصوت خفيض:

- لا أستطيع أن أفعل شيئًا.. أحتاج لوظيفتي.

هل يمكن أن يتغير الإنسان إلى هذا الحد؟.. هل يمكن أن يتخلى عن أفكار وأشواق أكثر من ثلاثين عاما من عمره، ويتخذ طريقًا معاكسا ثم يقوى على العيش برغم ذلك؟.. أين يكمن السبب في ضياعنا وموت الكثيرين منا وهم أحياء؟

قلت:

- لا يمكن أن يترك في ذلك المستشفى حتى يجـن أو يموت.

وزم شفتيه، وثقل الصمت، قلت:

- ألا تعرف أن بعض الأصدقاء القـدامى ينشـرون مقالات باسم (ش) تشوه مواقفه وأفكاره، وتشوه تاريخنا نحن أيضا.

وحدق في راحة كفه الصغير، وقال بصـوت يقـارب الهمس:

- كففت عن القراءة منذ زمن طويل.

تلفتت في أنحاء الغرفة، لم يكن بها كتـاب واحـد أو مجلة، كانت الصور المعلقة على الجدران صـورا عائليـة قديمة ليس من بينها صورة لفكري.

قلت متنهدا:

- كان (ش) رمزا ومثلا أعلى لنا وللكثيرين.

بدا عليه شيء من نفاد الصبر، وقال:

- أعرف أن أحد أصدقائنا القدامى من المحامين حاول إخراجه بالطرق القانونية وفشل.

وابتسمت، الطرق القانونية وكفى أيها الثائر القديم؟!

حاول أن يبتسم وهو يتململ في كرسيه:

- دعنا من هذا الأمر، نحن لا نملك ما نفعله من أجله، كيف حالك أنت؟

وأضاف دون أن ينتظر إجابة:

- ما الذي يدفعك إلى التردد على السراية؟

قلت وأنا أحس مرارة الخيبة:

- أريد أن أزور عنبر عزل المجاني الذي مات فيـه صديق شاعر كان من المعجبين بفكر (ش).

- ما اسمه؟

قلت:

- لا أظنك تعرفه، لم يعتقل معنا.

واستدركت ساخرا:

- من الجائز أنك ككاتب أرشيف سمعت بموته، واسمه حافظ أمين، جن لأنه حاول أن يعرف الأسـرار التـي لـم نعرفها نحن.

وأطلت إليه النظر:

- أنسيت كل شي؟.. أنسيت أيام الـ..

وقاطعني بحدة:

- نسيت كما نسى الجميع.

هممت بأن أقول له بأن هناك من لم ينسوا (ش) يومـا واحدا بالرغم من أن لقاءهم به كان عابرا.

وأحسست بأنني أوشك أن أختنق، وخرجت وأنا محتشد بالحزن والمرارة.

وفي الطريق، وأنا أستعيد ممرورا ما دار بيني وبـين فكري سالم خطر لي أن أذهـب إلـى الصـديق (ن.هـ ـ) المحامي لعله يستطيع أن يفعل شيئًا.

استقبلني كعادته ببسمته الخجول ووده الدافئ، جلسـت أمامه، وسألته:

- أتعرف أين يوجد (ش) الآن؟

واختنقت بسمته، وتكدر وجهه الرقيق، وقال متنهدا:

- أجل أعرف.

وأضاف بصوت أسيان:

- حاولت مرات، وفشلت كل الوسائل القانونية لإخراجه.

وأطال إلي النظر:

- لابد من وسيلة أخرى، ولكن ما هي؟

تساءلت:

- أتعرف أن فكري سالم يعمل في السراية موظفًا للأرشيف؟

- أعرف.. ولم يقدم لي مساعدة خلال محاولاتي.

قلت:

- لي صديق يعمل طبيبا بالمستشفى، أعتقد أنه لا يمانع في عمل شيء من أجل إخراج (ش).

فقال شاردا:

- إذا كان هناك ما يمكن فعله فأنا معك، وإن كنت قد أصبحت أؤمن أن الوسيلة الوحيدة لخروجه هي القوة.

وأضاف أسفًا:

- أنت تعرف أحوال الأصدقاء الآن.

قلت:

- بعض الأصدقاء القدامى ينشرون مجلـة يضـعون ضمن أسرة تحريرها اسم (ش) وينشرون مقـالات منسـوبة إليه تسيء إلى فكره.

فقال:

- حاولت منعهم وفشلت، وكان لـي أصـدقاء بيـنهم فقطعت علاقتي بهم. وتركت (ن.هـ) ورحت أمشـي فـي الشوارع تائها.

نادر شوقي

قبل انصرافي من السراية مررت على الأصدقاء أمام مبنى (ش).

اقتربت من إيبوور وهو جالس على حجره الكبير، هم بالقيام فحدقت إليه محذرا فعاد إلى مكانه، وراح ينظر إلـى الشرق، سألته مخافتًا من صوتي:

- ماذا حدث يا إيبوور؟

وابتسم بسمة صغيرة، وهمس:

- إلى متى نتحدث أيها الصديق عن الثورة الأولى لا الأخيرة؟

ورفع صوته:

- سلبت كتابات قاعة المحـاكم الفـاخرة، وأذيعـت التعاويذ السحرية التي كانت ملكًا للحكومة، ونُهبـت الإدارة العامة، ومزقت قوائمها، وصار القوم يطئون بأقدامهم قوانين قاعة المحاكمة، والفقراء يروحون ويجيئـون فـي البيـوت العظيمة دون خوف أو وجل.

وقاطعه:

- حسن.. يكفي هذا.

واتجهت إلى زكريا، وقفت أمامه، وسألته:

- ألم تصدق البشارة؟

فعقد ذراعيه على صدره، وابتعد دون أن ينطق بلفظ.

ذهبت إلى يوحنا المعمدان فما كاد يراني حتى رفع رأسه، وبسط إحدى ذراعيه، وقال بصوت عالٍ:

- يا أولاد الأفاعي، من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي؟

وابتسمت فقال وهو يشير إلي:

- من له ثوبان فليعط من ليس له، ومن له طعام فليفعل هكذا.

وفتشت عن بلال فرأيته جالسا على الأرض إلى جانب أحد أبنية الاقتصادي وابتسامته تضيء وجهه الأسود، وقد تجمع حوله عدد من النزلاء، وعندما رآني كبرت بسمته.

ابتعدت قليلا عن مبنى (ش) فرأيت جاليليو مقرفصا بقامته الضئيلة الناحلة يحدق في تلسكوبه الخشبي صوب نافذة (ش)، وقفت خلفه، وسألته بصوت خفيض:

- ماذا ترى أيها العالم الجليل؟

فرفع إلي وجهه المستطيل الكهل وقد أحاطت بعينيـه المرهقتين هالتان داكنتان.

- الأرض تدور حول الشمس التي تدور حول نفسها.

وابتسم:

- وأرى فجرا جديدا.

وعلى مبعدة رأيت ثلاثة من الأصـدقاء المتظـاهرين بالاكتئاب يتمشون متفرقين في الفناء.

لمحت شالوم يسير بالقرب من مبنى (ش) وهو يتمـتم بشفتيه، تساءلت، ما الذي يجعل هذا النزيل يحوم كثيرا حول مبنى (ش) أو يجلس إلى جانب الكانتين وعيناه إلـى بـاب المبنى برغم محاولات الأصدقاء لإبعاده عن الفناء؟.. تـردد مرات على (ش) كما يفعل بعض النزلاء، ولم يستطع أحـد منا منعه من الدخول إليه لأن (ش) يرحب بكل من يـزوره، لا يبدو عليه أي اهتمام بالفكر أو الثقافـة، لا يفعـل طـوال النهار سوى جمع الأوراق النقدية ذات الخمسة قروش مـن النزلاء، رآه بعض الأصدقاء في مبنى الإدارة أكثر من مرة يتحادث مع الدكتور محجوب بصوت خفيض بالرغم من أن محجوب لم يختص يوما بالإشراف على العنبر الـذي يقـيم

فيه، يمكن أن يتكفل به أحد الأصـدقاء مـن المتظـاهرين بالاكتئاب دون أن يثير أية مشاكل أو يسترعي انتباه أحد.

اقترب مني قرمط بوجهه المورد المسـتدير، وقامتـه الضئيلة، ورجليه القصيرتين وهو يشتل في مشيته، تساءلت، كيف كان حمدان بن الأشعث القرمطي قائدا قـديرا لثـورة عظيمة وهو بهذه الهيئة؟

ابتسم لي فسألته:

- وأنت يا صاحب الخال؟

فقال وهو يضع يده على صدره:

- أنا حمدان بن الاشعث الملقب بحمـدان القرمطـي، سنقاوم بني العباس ونقيم نظاما تكون فيه الأموال لكل الناس، الكل يعمل والكل يأخذ ما يحتاج إليه لا فـرق بـين عربـي وأعجمي، ولا بين رجل وامرأة.

وتركني وابتعد.

كان وائل يقبل من ناحية عنابر العام بقامتـه الربعـة المدكوكة، وكتفيه العريضين ووجهـه القمحـي المسـتدير الوسيم، وقد رفع منكبيه فـي زهـو، ابتسـمت، وقلـت إن

البارانويا تناسبه حقًا، وقد كان محقًا في رفض دور المكتئب أو الهستيري.

واقترب مني نمرود بقامته القصيرة ووجهـه الـداكن وعينيه المتلصصتين خاف نظارته السـوداء. وقـد ألصـق ذراعه الأيمن مثنيا بجنبه كعرض هستيري فسألته هامسا:

- ما الأخبار؟

فقال:

- لا جديد.. وإن كنت قد رأيت الدكتور مجدي يتوقف منذ أيام أمام مبنى (ش) بصحبة شخص غريب عن السراية، وكان يشير على نافذة (ش) ويتهامسان.

قلت وأنا أبتعد:

- لا تشغل بالك بهما، ذلك الشخص صديق للـدكتور مجدي ويأتي لزيارته.

واقترب مني صديق مـن المتظـاهرين بالهسـتيريا التحويلية يرتدي منامة جديدة، سألته عن أحوالـه فافترشـت وجهه الأسمر المستدير بسمة كبيرة:

- الأحوال ممتازة، وارد الزيـارات كثيـر، ونأكـل ونلبس أفضل مما كنا نفعل قبل دخولنا السراية.

وأقبل من بعيد الصديق فهمي الوقاد بقامته القصيرة التي تميل إلى النحافة ووجهه الوسيم الباسم دائما وعينيه المستديرتين اليقظتين، الصديق العامل الذي أدخله السراية عم فارس منذ أكثر من ثلاثة أعوام والذي يتابع اجتماعات الأصدقاء ويعمل مع نور في جهاز الاتصال، انتظرته حتى توقف إلى جانبي وسألته هامسا:

- كيف حال الأصدقاء في العنابر؟

وهمس:

- لا جديد.. نفس الإلحاح على المطلب الدائم، الإسراع بإخراج المعلم.

- والاجتماعات والمناقشات؟

- الاجتماعات تعقد بانتظام، والمناقشات تدور الآن حول الورقة الأخيرة للمعلم.

طلبت منه أن يكون لقاؤنا الأسبوعي في الغد بالعنبر الصغير الذي يقيم فيه مع نور.

وما كدت أخطو خطوات حتى برز أمامي الصديق شهاب، حدقت إلى عينيه السوداوين الكبيرتين الملتمعتين بغلالة الدموع والعتاب والأسى، في وجهه الأسمر البارز

الوجنتين الذي يحيط به شعر رأسه الهائش ولحيته السـوداء والكبيرة، نظرت إلى الملاءة المهترئة المتسخة التي يطـوق بها رقبته وثيابه الممزقة وقدميه الحافتين، تساءلت بحـزن، متى يفيق هذا الصديق ويتفهم ظروفنا ويكف عن إدانته لنـا بعتابه وألمه الأبكمين؟

وأطال النظر في عيني، وراح يسرع في سيره بحركة دائرية أمام مبنى (ش).

وعند البوابة الخارجية أبلغني عم فارس وهو يسـتبقي يدي في يده ببعض الأخبار والملاحظات، طلبـت منـه أن يطلب من الممرض (ن) أن يقابلني فـي ميـدان التحريـر لأعطيه بعض الأوراق، واستأذنت منه في الخروج مع وداد في المساء.

(١)

أذن بلال في الثانية إلى الربع عصرا فدهش مجـدي لأنها المرة الأولى التي يسمع فيها أذان بلال في غير مواقيت الصلاة، توقع أن تكون حالته قد ساءت، ولم تمر دقائق حتى اندفع ناصح إلى العنبر، وأعلن أن يوحنـا المعمـدان قتـل شالوم.

أسرع مجدي إلى فناء الاقتصادي، وجد الكثيـر مـن النزلاء في الفناء في حالة اضطراب وهياج، استوقفه تجمـع عدد منهم أمام المبنى الذي يحبس فيه (ش)، خشي أن يكون المعمدان قد قتل (ش) لا شالوم كما أعلـن ناصـح فـدخل المبنى، وعلى بسطة السلم الأولى كانت جثة مغطاة بـورق الجرائد يحرسها ممرضان، كشف عن الجثـة فوجـد رأس شالوم مفصولا عن جسده، تساءل، لماذا وقعـت الجريمـة داخل مبنى (ش)؟... لمح باب حجرة (ش) مغلقًا وممـرض ضخم بملامح غليظة جهمة يجلس أمامه.

وأمام مبنى الإدارة كان حشد من النـزلاء يتوسـطهم يوحنا المعمدان الذي يمسـك بـه رئـيس الممرضـين (ع)

وممرض آخر، كان المعمدان ممزق الثياب، مهتاجا، يصيح وهو يلوح بذراعيه:

- لقد وضعت الفأس على أصل الشجرة فكل شجرة لا تضع ثمرا جيدا تُقطع وتلقى في النار.

ودفعه رئيس الممرضين إلى باب الإدارة فبسط ذراعه في اتجاه أبنية الاقتصادي وصاح:

- الذي سيأتي بعدي سيعمدكم بروح القـدس ونـار، الذي رفشه في يده، وسينقي بيدره، ويجمع قمحـه إلى المخزن، وأما التبن فيحرق بنار لا تطفأ.

ودفع المعمدان إلى إحدى الحجرات، وتجمع الأطبـاء وبعض العاملين أمام غرفة المدير الذي أخذ يتصل برجـال الأمن مبلغًا عن الحادث.

طلب كبير الأطباء أن يشرف الأطباء على دخول أكبر عدد من النزلاء إلى العنابر والأبنية حتى لا تعـم الفوضـى السراية.

وأذن بلال فنظر نادر وهو في الكانتين إلـى سـاعته دهشًا، تبادل نظرة قلقلة مع حسن الدمياطي، تناهـت إليهمـا

صيحات من الفناء فهم نادر بالاندفاع إلى الخـارج ولكنـه تمالك نفسه.

سمع من يصيح بأن المعمدان قتل شالوم فالتفت إلـى الدمياطي ذهلا، وبدا على الدمياطي الارتباك، وقال بصـوت مرتعش:

- جاءت المشاكل.

وهمس نادر وهو يغادر الكانتين:

- سأذهب وأرى.

لم ير المعمدان في مكانه المعتاد، وجـد عـددا مـن النزلاء أمام مبنى (ش) فاندفع إلى داخل المبنى، ورأى جثـة شالوم مقطوعة الرأس فزاد اضطرابه وعميت عيناه، ما الذي فعله المعمدان؟

نظر إلى الممرض الجالس أمـام بـاب حجـرة (ش) المغلق، لم يكن من الممرضين الأصدقاء.

رأى إيبوور جالسا في مكانه، وزكريا يعقـد ذراعيـه على صدره ويحدق إلى باب مبنى (ش)، اقترب من إيبوور، أعطاه ظهره، وسأله عما حدث فقال إيبوور بصوت خافت:

- رأينا شالوم يتسلل إلى مبنى (ش) وهو يتلفت حوله، واندفع المعمدان إليه ولم تمض دقائق حتى خرج المعمـدان وهو يمسك بسكين تقطر دما ويصيح، قتلت شالوم، قطعـت رأس الأفعى بدلا من أن يقطع هو رأسي ويقدمها لهيـرودس الملك.

سأله نادر وهو يحاول التحكم في ارتجاف جسده:

- أين المعمدان الآن؟

فقال إيبوور:

- أخذوه إلى مبنى الإدارة.

قال نادرا أمرا:

- انتبه أنت وزكريا، كونا حذرين.

ورأى قرمط واقفًا بالقرب من باب مبنى (ش) فاتجـه إليه، وهمس إليه:

- انضم إلى إيبوور وزكريا في الحراسة.

وذهب إلى جاليليو الذي كان على مقربة من المبنـى ينظر في تلسكوبه، أمره هامسا:

- اقترب من المبنى، ركز بصرك على الباب.

وفتش بعينيه في الفناء، رأى نور يقف أمام بناية قريبة وعيناه تطوفان بين النزلاء المجتمعين أمام مبنى (ش) فاتجه إليه، وقال له بصوت خفيض:

- ادفع بأكبر عدد من الأصدقاء إلى الفناء في مواجهة مبنى (ش).

فقال نور دون أن يلتفت إليه:

- لقد فعلت ذلك بالفعل.

قال نادر:

- عند معاينة الشرطة للجثة حاول أن تتواجد أنت وعدد من الأصدقاء أمام باب حجرة (ش).

وأسرع نادر إلى مبنى الإدارة والأسئلة تتزاحم في رأسه، رأى مجدي خارجا من المبنى فبادره بالسؤال:

- ماذا فعلوا بالمعمدان؟

ودهش لاضطراب نادر الظاهر، وأشار إلى الحجرة التي يحتجز فيها المعمدان:

- يحتجزونه بالداخل.

حاول نادر أن يهدئ من اضـطرابه، رأى المعمـدان جالسا بين اثنين من الممرضين وفي وجهـه جـرح كبيـر، وصاح المعمدان فور أن رآه:

- لقد وضعت الفأس على أصل الشجرة.

حدق إليه نادر فعلا صوته مبحوحا:

- الذي سيأتي بعدي سيعمدكم بروح القدس ونار.

خرج نادر وهو يتساءل، هل سيجيد المعمدان تمثيـل دوره حتى النهاية؟ خطر له أن يرى فكري سالم، نحى الفكرة جانبا، لابد أن يكونوا أكثر حذرا خاصة في هذه الظروف.

اتجه إلى حجرة السكرتارية، كانت الحجرة الواسـعة خالية إلا من وداد، وكان الاضطراب باديا عليها، جلس إلى جانبها واجما، همست:

- أكان لابد من قتل شالوم؟

قال خافت الصوت وهو يحدق في الفراغ:

- لا أعرف.

- ماذا يمكن أن يحدث للمعمدان؟

قال شاردا:

- أرجح أن يحتجزوه فـي عنبـر الإجـرام خمسـة وأربعين يوما للتأكد منه إنه ارتكب القتل وهـو فـي حالـة مرضية، هذا إلا إذا...

واتسعت عينا وداد:

- لا أظنه يعترف على أحد.

فقال نادر مؤكدا:

- لا أعتقد.

خطر له أن يذهب إلى الدكتور فاضل زكي في العيادة الخارجية، نظر في ساعته، كانت قد جاوزت الثانية، توقع أن يكون الدكتور فاضل قد انصرف من السراية، وطلـب مـن وداد أن تخبر فكري سالم باقتراحه بعقد اجتماع فـي مسـاء الغد.

أذن بلال فدهش فكري سالم، وسرعان ما اندفع إلـى حجرة الأرشيف أحد العاملين بالإدارة، وأخبره أن المـريض الذي يردد أقوال يوحنا المعمدان قتل النزيل المدعو شـالوم، تمالك فكري سالم نفسه، أخفى اضطرابه بالنظر في الملـف الذي كان بيده، وفور خروج الموظف استبد به القلق، قـاوم رغبته في الخروج من الأرشيف، مر نادر من أمـام بـاب

الحجرة دون أن يلتفت إليه، طمأن نفسه بتوقع أن يجيد نادر التصرف مستغلا صفته كأخصائي اجتماعي.

أخرج ملف يوحنا المعمدان، وملف شالوم، قـرأ فـي ملف المعمدان:

الاسم: يوحنا فايز عبد المسيح

الجنسية: مصري

الديانة: مسيحي

تاريخ وجهة الميلاد : ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ – الأقصر.

المهنة: عامل نسيج

الحالة الاجتماعية: أعزب

العنوان: ١٣ شارع الحلاج بشبرا الخيمة.

تاريخ دخول المستشفى: ١٩٨١/٦/٥

التشخيص: فصادم حاد وهذاءات وهـلاوس سـمعية وبصرية.

وقرأت في الملاحظات أن المريض المذكور يستبد به الاعتقاد بأنه يوحنا المعمدان الذي ورد ذكره فـي الإنجيـل، وذكر في القرآن باسم يحيى، وأنه يردد الكثير مـن أقـوال

المعمدان، ويظل في أفنية السراية إلى ساعة متـأخرة مـن الليل، ولا ينام في عنبره إلا ساعات محدودة.

وثمة ملاحظة تقول إن المذكور يرفض تناول الدواء، وقد قاوم بالقوة محاولة إعطائه جلسات كهربائية، ولا يتقـدم في العلاج.

وقرأ فكري سالم في ملف شالوم:

الاسم: شالوم ناحوم هرتزل

الجنسـية: مصـري حصـل علـى الجنسـية فـي ١٩٧٩/٩/١٨

الديانة: يهودي

تاريخ وجهة الميلاد: ٤ فبراير ١٩٤٥ أريحا

المهنة: موظف سابق بأحد البنوك

العنوان: ٧ حارة اليهود بالظاهر

تاريخ دخول المستشفى: ٦ أكتوبر ١٩٧٣

التشخيص: وسواس قهري

وقرأ في الملاحظات أن النزيل يقوم بجمع العمـلات الورقية ذات الخمسة قروش من النزلاء بالتسول أو لمقايضة

أو النصب، ويضعها في كيس صغير يحتفظ به في ملابسـه الداخلية، وأنه لا يصادق أحدا من النزلاء.

وأخرج فكري سالم ملف (ش).

أمسكه برهبة كما يحدث كل مرة، أطال النظـر إلـى صورة (ش) القديمة، الوجه المربع المتسق الملامح، والعينان السوداوان الباسمتان، والجبين العريض، والشـعر الأسـود المنسرح إلى الخلف والمفروق من الوسط، ثمة تجاعيد حول العينين شد ما تغير الآن:

واستبد به الأسى، وطفرت الدموع من عينيه.

واستمر بلال يجوب أنحاء السراية مؤذنًا.

(٢)

دهش مجدي لزيارة نادر له في سـكن الأطبـاء فـي الثالثة والنصف عصرا.

قال نادر وهو يخطو إلى الداخل:

- أريد الجلوس معك قليلا قبل أن أنصرف.

رحب به مجدي، أخذ يعد له القهوة شاردا، قال:

- هذه أول جريمة قتل تقع في السراية منذ عملت بها.

قال نادر وهو ينظر باتجاه النافذة التي يظهـر منهـا رأس شجرة كبيرة.

- لقد ارتكبت في هذا المستشفى كثير من جرائم القتل من قبل ممرضين وحتى أطباء.

وتنهد مجدي:

- هذا معتقل تعذيب، وكلنا فيه سجانون وجلادون، لو أنني كنت أعرفه على حقيقته لما سعيت إلى النقل من القصر العيني.

أطال نادر النظر إلى مجدي، وجهه الممتلـئ حـزين وشارد، حان الوقت للاقتراب منه خطوات أخرى، يمكن أن يكون صديقًا أو حتى عاطفًا على موقفهم إنه يثق به ويطمئن

إليه، آراؤه التي يصرح بها أحيانًا تتفـق فـي الكثيـر مـع أفكارهم، يمكن أن يخرج من لامبالاته، أن يتجاوز التجربـة القديمة.

وتساءل نادر وهو ينظر في عيني مجدي:

- أتعرف لماذا قتل المعمدان شالوم؟

فقال مجدي وهو يمسك بفنجان قهوته:

- لابد أن القتل حدث في نوبة من الهلاوس السـمعية والبصرية.

قال نادر وقلبه يخفق بسرعة:

- كان شالوم يريد قتل (ش).

وارتجفت يد مجدي بفنجان القهوة، حدق إلـى نـادر متسائلا:

ومن أدراك أنت بذلك؟

- كنت أشك في نوايا شالوم منذ أيام.

وتساءل مجدي بشيء من الحدة:

- ولماذا لم تبلغ الإدارة حتى تمنع وقوع الجريمة؟

فقال نادر وهو ينظر إلى رأس الشجرة الداكنة:

- أعتقد أن الأمر كان بتدبير الإدارة نفسها للـتخلص من (ش) حتى يبدو الأمر وكأنه جريمة يرتكبها مريض ضد آخر في نوبة مرضه.

- ولكن شالوم مريض بالفعل.

- لقد شفي منذ وقت طويل، وليس لـه أقـارب مـن الدرجة الأولى، ولابـد أن الإدارة وعدتـه بـالخروج بعـد التخلص من (ش).

قام مجدي من كرسيه، وقف وسط الحجرة:

- وما علاقة المعمدان بـ (ش)؟

ونظر نادر في عيني مجدي:

- المعمدان ليس مريضا، إنه أحد أصدقاء (ش) وقـد أدخلته أنا السراية ليكون قريبا منه، ويقوم بحمايته.

حملق مجدي إلى نادر ذاهلا، تذكرت المـرات التـي طالبه فيها بالتأشير بإدخال أشخاص إلى المستشفى بـالرغم من أن حالتهم لا تستدعي ذلك، دار في الحجرة، نظر إلـى نادر وكأنه يراه للمرة الأولى.

- وما علاقتك أنت بـ (ش)؟

واتجه نادر إلى النافذة، استند إلى إطارها:

- كان صديقًا لأبي.. وقد التحقت بالعمـل بالسـراية لحمايته.

وأضاف وهو يطيل النظر إلى مجدي:

- (ش) مثلي الأعلى، وأحب كائن إلى نفسي.

تأمل مجدي وجه نادر.

هل نادر من فصيلة أمين؟.. كان يستشف من مناقشاته القليلة تشابه أفكاره مع أفكار أمين زاهر، بدا فـي نظرتـه إعجاب متحفظ قال:

- أتعرف أن أمين زاهر كان صديقًا لـ (ش)؟

هز نادر رأسه:

- أجل، أعرف.

جلس مجدي على فراشه متفكرا، تساءل:

- ألا تخشى أن ينهار المعمدان، ويعترف بكـل مـا يعرفه عنك؟

فقال نادر مؤكدا:

- لا أعتقد.. أنا أثق بصلابته، وقدرته علـى التمثيـل حتى النهاية.

وتناهت إليهما طرقات خافتة على باب الحجرة، ودخل نزيل شاب يرتدي جلبابا أبيض، نقل عينيه بين نادر ومجدي فابتسم له نادر فقال بصوت خفيض:

- انصرفت النيابة والشـرطة، وأودع يوحنـا عنبـر الإجرام.

وعندما هم نادر بالانصراف، استوقفه مجدي، نظر في عينيه وابتسم:

- تستطيع أن تطلب مني أية مساعدة.

وندم مجدي على تسرعه، لماذا يورط نفسه في مشاكل جديدة وقد نفض يديه من كل شيء منذ زمن بعيد؟

السيد/ م. ع[٣]

إيماء إلى كتابكم رقم ٢٢٧٠ ق.م المؤرخ في ٢٩ مايو ١٩٨٦ والمتضمن طلب الإفادة بتفاصيل محاولة التخلص من الهدام الخطير، وحادثة القتل التي وقعت بالمصحة.

نتشرف بالإحاطة بأن الخطة التي كانت مدبرة، والتي فشلت لأسباب لا دخل لمكتبنا فيها تجمل في الآتي:

---

(3) رأت وداد صورة هذا الكتاب في ٥ يونيه ١٩٨٦ وقامت بتصويرها، وتسليم الصورة لنادر.

تم بمعرفة أحد الأطباء العاملين معنا اختيار نزيل كان مريضا وشفي، ولم يتقدم أحد بطلب خروجه، وهو يهـودي يدعى شالوم لوحظ أنه كان يتجنـب زمـلاءه حتـى غيـر المجانين منهم بحذر وخوف وكراهية، وقد أبدى شالوم هـذا كامل استعداده لتنفيذ المهمة مقابل وعد له بـالخروج بـدون إقرار استلام، والحصول على مبلغ من المال، ويبدو أنه كان يكره الهدام الخطير كما يكره غيره من النزلاء.

وقد بدأ تنفيذ الخطة بتردد شالوم على السـجين كمـا يفعل بعض النزلاء، والتظـاهر بالتعـاطف مـع أفكـاره، واستعداده لتأدية بعض الخدمات له على أن ينتهـز أنسـب فرصة في أثناء استغراق السجين في كتابـة الأوراق التـي يكتبها والتي نوافيكم بصورها أولا بأول ويقوم بطعنه طعنات سريعة وقاتلة من الخلف يودع بعدها شالوم بعنبر الإجـرام، وكنا ننوي نحن التخلص من شالوم بعد ذلك في معركة تفتعل بين نزلاء العنبر.

وفي تمام الساعة الواحدة والنصف بعد ظهر يـوم ٢٦ مايو وبعد أن خفت حركة النزلاء في الأفنية لتناولهم الغـداء تسلل شالوم إلى المبنى، ولكنه تبعه نزيل يدعى يوحنا فـايز

عبد المسيح يقول الأطباء إنه مريض فصامي، واشتبك معه داخل المبنى وأخذ منه السكين الحاد الذي كان يحتفظ به لإنجاز مهمته، وقطع رقبته وهو يصيح صيحات مجنونة.

وقد دلت تحرياتنا أن الجاني كان يكره شالوم ويطارده في فناء المصحة، وقد قررت النيابة إيداع الجاني عنبر الإجرام لمدة خمسة وأربعين يوما يتم فحصه في أثنائها للتأكد من أنه ارتكب جريمته وهو في غير كامل وعيه وإدراكه.

برجاء التفضل بالإحاطة، وموافاتنا بما يعن لكم من أوامر وتعليمات.

تحريرا في ١٩٨٦/٦/٢.

(توقيع غير مقروء)

(٣)

لم ينم نادر طوال الليل، ألح عليه مشهد رأس شـالوم المفصول عن جسده، وعذبته تساؤلات كثيرة، وفي الصـباح اتجه فور وصوله إلى السراية إلى عنبر الإجرام في أقصـى الناحية الشرقية من المستشفى.

كان المعمدان جالسا على سريره فـي نهايـة العنبـر الواسع الذي يفترق فيه نحو عشرين نزيلا، كان يتمتم بشفتيه وقد تجمد الدم في وجهه، وعندما اقترب منه نادر شف وجهه بابتسامة، وغادر سريره، ورفع ذراعه وصاح:

- اصنعوا ثمارا تليق بالتوبة.

وضع نادر يده على كتفه، نظر فـي عينيـه فجلـس المعمدان في فراشه، وجلس هو إلى جانبـه، وأمسـك بقلـم واستمارة وفحص متظاهرا باستطلاع حالته، وفـي همـس تتخلله صيحات مفاجئة أخبره المعمدان كيف انتهـى الأمـر بقتل شالوم.

قال المعمدان إنه وإيبوور وزكريا رأوا شالوم يـدخل إلى مبنى (ش) وهو يتلفت حوله فتبادلوا الإشارات، وانـدفع هو إليه، ولحق به عند بسطة السلم، لم يكن الممرض الـذي

يقوم بحراسة (ش) جالسا في مكانه أمام باب الحجرة، وأمـر شالوم بالخروج وعدم الاقتراب من المبنى مرة أخرى فدفعه شالوم بيديه، وهدد وعيناه تبرقان بقطـع رأسـه، وتشـابكا، واكتشف أن شالوم الذي يتمتع بقوة لا يشي بها نحوله يخفي سكينًا في ملابسه فحاول أن ينتزعها منه فأمسك بها شـالوم وأشرعها عليه، وفي صراعهما على بسطة السلم تمكن مـن أخذ السكين من شالوم بعد أن أفلتت منه طعنة فـي وجهـه، وفوجئ بصيحات بعض النزلاء من حوله، وتشبث شالوم به فأجهز عليه بقطع رقبته.

تساءل نادر وهو يتظاهر بالكتابة في استمارة الفحص:

- ألم يكن من الممكن تجنب القتل؟

قال معمدان:

- لا.. خاصة وأنني بعد أن طعنته في رقبته بطريـق الخطأ وأنا أحاول أن أنتزع السكين منه رآني النزلاء، وظهر الممرض الذي كان يقوم بالحراسة ولم يكن من الأصدقاء فلم أملك إلا المضي في التظاهر بالجنون.

وخفض المعمدان رأسه.

تأمل نادر الوجه الأسمر الحاد الملامح الشاحب الـذي يتجمد فيه الدم.

هو الذي أعطى صديقه يوحنا دور يوحنا المعمـدان، اختاره من بين عدد من الأصدقاء لانبساط قامته وقوته البدنية وقدرته على التحمل، وفرح يوحنا بالدور، قال إنه دوما كانت تستهويه هذه الشخصية الإنجيلية الثائرة، وفـي اليـوم الأول لوقوفه في الفناء أمام مبنى (ش) ممارسا لدوره منـذ أربـع سنوات اقترب منه وقال له باسما:

- انتبه جيدا وإلا قطع رأسك ورقصت به سالومي.

فقال يوحنا وهو يخطو أمامه مشوحا بذراعه:

- لن تقطع رأسي مرتين.

كانت فكرة تقمص بعض الأصدقاء لشخصيات تاريخية أو دينية تمت أفكارها أو مواقفها بصلة لفكـرة (ش) فكـرة الدكتور فاضل زكي، وعندما عرضت على (ش) رحب بها، واشترك هو بعد أن أصبح مسئول العمل داخل السراية مـع الدكتور فاضل وطبيب صديق من الخارج في إعداد بعـض الأصدقاء لأدوارهم.

تساءل المعمدان:

- ما رأي المعلم فيما حدث؟

قال نادرا متفكرا:

- لا أعرف ما إذا كان قد علم بالأمر أم لا.

- والأصدقاء؟

- سنلتقي الليلة لمناقشة ما ينبغـي عملـه، المهـم أن تصمد أنت حتى النهاية.

قال المعمدان وفي عينيه السوداوين أسى:

- لست نادما على شيء، ويمكن أن أفعل كل شيء من أجل حماية المعلم.

وهم نادر بالقيام فصاح يوحنا:

- لقد وضعت الفأس على أصل الشجرة، وكل شـجرة لا تضع ثمرا جيدا تُقطع وتُلقى في النار.

وهمس نادر:

- سنكون على اتصال بك.. ألا تريد شيئًا؟

وهز يوحنا رأسه نفيا، وصاح:

- ومن له ثوبان فليعط من ليس له، ومن لـه طعـام فليفعل هكذا.

وخرج نادر من العنبر مشوش المشاعر، يتساءل، هل يقوى يوحنا على البقاء في عنبر الإجرام حيث المجرمـون الحقيقيون والمرضى مرتكبو الجرائم؟.. هل يقوى على البقاء شهورا أو سنين في مستشفى الأمراض العقلية ممارسا لدور المعمدان؟

وفي طريقه إلى مبنى الإدارة استوقفه الدكتور سمير، وهمس له:

- لا تقلق.. سأتردد على المعمدان كثيرا، وأعتقد أنـه سيصمد برغم كل شيء.

ونظر نادر إلى وجه الدكتور سمير الأسمر المنطفـئ بآثار الجدري، ومضى في طريقه.

(٤)

في المساء ذهب نادر إلى بيت فارس زايد فـي حـي الجمالية، استقبلته وداد ببسمة صغيرة متوجسة، وألقى بالتحية بصوت خفي، وجلس على الفراش في صدر الغرفة.

كان فارس يجلس إلى مائدة صغيرة في ركن الحجـرة يمارس هوايته في عمل بيوت من الأركيت، اختلس نظـرة فاحصة إلى وجه نادر، وراحت أصابعه تجمـع الأخشـاب الصغيرة وقد عقد ما بين حاجبيه الكثين.

جلست وداد إلى جانب نادر، رنت إلى وجهه في حنو:

- مالك؟

وخفض رأسه:

- لا شيء.

خلع نظارته، بدت عيناه اللوزيتان محتقنتين، ووضـعت يدها على يده، وراحت تفكر فيما قاله لها في الصـباح بعـد زيارته للمعمدان في عنبر الإجرام.

وطُرق الباب ثلاث طرقات خافتة، ودخل فكري سالم، ألقى التحية ببسمة متحفظة، نظر في عيني نادر وهو يسـلم عليه، وجلس إلى جانبه، وخيم الصمت.

سارع فارس زايد بجمع أخشابه وأدواته، تمثل لنـادر رأس شالوم المفصول عن جسده، والذي لازمه الليلة الفائتـة وطوال اليوم، كز على أسنانه، قال بصوت خافت:

- لقد أصبحنا قتلة.

واندفعت إليه عيون الثلاثة.

تجهم وجه فكري سالم، قال وهو يحني رأسه:

- لم نرتكب أنا وزملائي مثـل هـذا الفعـل طـوال عشرات السنين برغم قتل الكثيـرين منـا فـي المعـتقلات والسجون.

وقالت وداد وهي تترك مكانها:

- نحن لم نرتكب الجريمة، هم الذين قتلـوا شـالوم، وسعى هو إلى حتفه.

وقال فارس وهو ينتهي من جمع أدواته:

- في الصراع لابد أن يسقط الضحايا منا ومنهم.

وحدق نادر إلى فارس، عم فارس الطيب يتقبل القتـل ويبرره؟!

ورف بوجه فارس الأسمر طيف أسى، وجه كلامه إلى نادر:

- في آخر إضراب شاركنا فيه أنا وأبوك قتل واحـد وعشرون من زملائنا برصاص رجال الأمن دون أن يرتكبوا ذنبا.

تساءل نادر معاتبا صديق أبيه:

- وهل يبرر القتل بالقتل؟

وجلس فارس أمام نادر وفكري سالم:

- حتى نمنع قتلنا يمكن أن نقتل نحن أيضا.

وطرق الباب، وفتحت وداد محاذرة، ودخل الـدكتور فاضل، بدا وجهه متعبا، نقل بصره بين أصدقائه الثلاثة، قال لوداد وهو يحاول أن يبتسم:

- أسعفيني بكمية قهوة مضاعفة.

وجلس إلى جانب فارس زايد.

مال فكري سالم بجذعه إلى الأمام:

- ماذا علينا أن نفعل الآن؟

وسارع نادر بالقول:

- يجب أن نفكر في خطة لإخراج المعلم في أسـرع وقت ممكن حتى لا يتعرض لمحاولة اغتيال أخرى.

وشوح فكري سالم بيده:

- لقد ناقشنا هذا الأمر مرات في الشـهور الأخيـرة، وانتهينا إلى ضرورة توفير الضمانات الكاملة لحمايـة (ش) وحرية حركته خارج السراية قبل أية محاولة لإخراجه هـو والأصدقاء حتى لا يتكرر ما حدث عام ١٩٧٢.

وأضاف وهو ينظر إلى نادر:

- لقد أصـبح الخـروج الآن محفوفـًا بالصـعوبات والمخاطر أكثر من أي وقت مضى لأن محاولـة الاغتيـال تؤكد أنهم لا يكتفون بسجن (ش) في السراية ومحاولة تشويه سمعته بل ويسعون للتخلص منه ولو بالقتل. وإذا تمكنا مـن إخراجه الآن دون توفير الحماية الكافية له يمكن أن يتخلصوا منه ولو بحادث يبدو عابرا حتى لا يتحملوا مسـئولية قتلـه، وما يمكن أن يسببه لهم من مشاكل.

ودفع نادر بأصابعه في شعره الهائش:

- إمكانياتنا في السراية الآن تسمح بتنفيذ خطة ناجحة للخروج، وعدد الأصدقاء وإمكانياتهم في الخارج كما تعبـر عنها التقارير التي تقدمها أنت يمكن أن توفر للمعلـم ولنـا حرية الحركة والعمل دون خطر.

قال فاضل بشيء من الضيق:

- أحوال الأصدقاء داخل السراية ليست طيبة، ولابد أن تسوء إذا طال حبس المعلم أكثر من هذا.

قال فكري بإصرار:

- الأوضاع داخل السراية لا بأس بها خاصة وقد زاد في الفترة الأخيرة وارد الزيارات من الأغذية والملابس والأدوية، ويمكن في الشهور القادمة أن ينضم إلينا أعضاء جدد في الخارج.

وأطال فارس زايد النظر إلى وجه فكري سالم الصغير المضموم الشفتين، لو أن هذا الصديق يتخلص من حذره الزائد، كان يمكن إخراج المعلم من سجنه. هو الذي أفسد بتدخله محاولتنا أنا وعلي النجاتي وفاضل زكي لإخراج (ش) منذ خمسة أعوام، كان من المؤكد أن تنجح خطتنا لولا تدخل الأصدقاء الذين دفع بهم لإفشال المحاولة ونحن نوشك على الخروج من السراية، لو أن فاضل لم يمنعنا أنا والنجاتي من الاشتباك معهم لكان (ش) معنا الآن، ولما سجن علي النجاتي والأصدقاء الآخرون أو ارتكبنا القتل.

قال نادر:

- لماذا ننفرد نحن بتقرير كل شي؟.. لمـاذا لا نأخـذ رأي الأصدقاء، وما تقرره الأغلبية يتم تنفيذه مهمـا كانـت النتائج؟

وعقد فكري سالم ما بين حاجبيه، وزر عينيه:

- أي أصدقاء؟

فقال نادر برنة ساخرة:

- الأصدقاء الذين يعرضون أنفسهم للخطر من أجـل (ش) داخل السراية وخارجها.

وهز فكري سالم رأسه رافضا:

- مسألة الخروج لا يمكن أن تناقش على نطاق واسع، والأصدقاء لا يعرف كل منهم ظروفنا الحقيقيـة وظـروف عملنا و...

وقاطعه فارس بشيء من الحدة:

- لنعقد مؤتمرا ينتخب قيـادة جديـدة تضـع خطـة للخروج، مر أكثر من عشر سنين لم نعقـد فيهـا مـؤتمرا واحدا.

وسارع نادر بالقول:

- أجل فلنعقد مؤتمرا يقرر كل شيء.

وافترت شفتا فكري عن بسمة فيها شيء من السخرية:

- مؤتمر في هـذه الظـروف؟!.. مسـتحيل.. عقـد المؤتمر سيدمر أماننا ويعرضنا جميعا للخطر.

وتململ في مكانه، مسح بكفه على جبينـه العـريض، وقال بنفاد صبر:

- دعونا من المناقشات التي لن تصل إلى نتيجة.

ونقل عينيه بين فكري ونادر:

- أرى أن يتصرف الأصدقاء العاملون بالإدارة فـي كشوف النوباتجية الشهرية الخاصة بالممرضين حتى يكـون كل الممرضين الذين يقومون بحراسة (ش) من الأصدقاء.

قال فكري:

- ولابد من تشديد الحراسة علـى مبنـى (ش) لـيلا ونهارا حتى لا يتسلل إليه أحد من المدسوسين من الإدارة أو مكتب الأمن في غفلة من الأصدقاء.

قال نادر:

- لقد قمت بذلك بالفعل، ضممت قرمط إلـى إيبـوور وزكريا، وطلبت من جاليليو أن يكون بالقرب مـنهم، كمـا طلبت من نور أن يدفع بأكبر عدد من الأصدقاء المتظاهرين

بالاكتئاب إلى الفناء، وفي الليـل سـيحل سـعيد السـاعي والبطاويسي محل من يذهب للنوم من أصدقاء الحراسة.

وضم فكري أصابع يده فوق ركبته:

- أنا أرى أن يكون بعض من يقومون بحراسة المبنى من الذين يتمتعون بالقوة البدنية فضلا عن اليقظـة الشـديدة حتى يتدخلوا في الوقت المناسب دون أن يقع ضحايا.

وتساءل:

- ما رأيكم في وائل؟.. أرى أن يضم إلى الأصـدقاء القائمين بالحراسة، وأن يتدخل باستخدام القوة عند الضرورة وفي الحدود اللازمة.

وسارع نادر بالرفض:

- لا.. لا.. يجب أن يقوم الأصدقاء بشـكل جمـاعي بحراسة المعلم خاصة وأن بعضهم لا تنقصه القـوة البدنيـة كزكريا.

وقال فاضل:

- وائل شخصية بارانوية، وقد تكون مشـاركته فـي حماية المعلم ضارة.

فقال فكري:

- وائل يتمتع بالقوة البدنية، ويجيد كمصارع قديم فنون القتال، وهو منضبط يلتزم التزاما كاملا بالتعليمات.

قال نادر:

- يمكن أن أطلب من وائل أن يكـون بـالقرب مـن المبنى على ألا يتدخل في شيء إلا بموافقة إيبوور.

وساد الصمت لحظات، وهم الدكتور فاضل بالقيام فقال له فكري سالم:

- انتظر.. عندي اقتراح آخر.

ونقل نظرة مترددة بين الثلاثة:

- أرى أن يمنع النزلاء والأصدقاء من الدخول إلـى (ش) حتى لا يدخل إليه نزيل معاد أو مدسـوس مـن قبـل الإدارة.

واندفع فارس قائلا وكفه اليسرى ترتعش:

- من شهر طلبنا من المعلـم بنـاء علـى اقتراحـك الامتناع عن زياراته الليلية للأصدقاء لمجـرد أن مريضـا اقترب منه وهو هائج وأبعده الأصدقاء عنه، والآن تفكر في منع الأصدقاء من رؤيته؟

وقال نادر:

- لا يمكن منع أحد من زيارة (ش)، والأصدقاء لـن يقبلوا بهذا أبدا.

فقال فكري:

- الأصدقاء يقرءون كتابات (ش) وأوراقه، ويمكن أن يمتنعوا لفترة مؤقتة عن زيارته حتـى تتـوفر الضـمانات اللازمة للزيارة دون مخاطر.

قال فاضل:

- يمكن أن نمنع النزلاء من الزيارة لفتـرة مؤقتـة، ونسمح بها فقط للأصدقاء.

فقال نادر:

- الأصدقاء القائمون بالحراسـة لا يعرفـون معظـم الأصدقاء بالسراية، ولا يمكنهم تمييز الأصدقاء من غيرهم.

وتساءل فاضل:

- ألا يمكن إتاحة الزيارة للأصدقاء بترتيب مسبق في كل حاله؟

أجاب نادر:

- سيكون لهذا الأمر مشكلاته، وسيؤدي إلى معرفـة كل الأصدقاء لبعضهم البعض، وهذا يعرض الأمان للخطر.

وقال فكري بشيء من الإصرار:

- أنا أقترح وقف الزيارة بالنسـبة لكـل الأصـدقاء والنزلاء بصفة مؤقتة حرصا على سلامة (ش).

ووافق فاضل زكي على اقتراح فكـري، وعارضـه فارس ونادر، ورجحت كفة فكري سالم باعتباره رئيس لجنة القيادة.

وابتسم فارس لفاضل بشيء من الضيق:

- أنت الوحيد الذي يمكنه رؤية المعلم فـي أي وقـت باعتبارك الطبيب المكلف بالإشراف عليـه. أنـا لا أراه إلا نادرا منذ أبعدت عن التمريض إلى البوابة الخارجية.

ونظر إلى فكري سالم، هو الذي أصر على إبعاده إلى البوابة الخارجية بعد مشاجرته مع رئيس الممرضـين منـذ أربع سنين بحجة أن ذلك في مصلحة خروج (ش).

وتذكر يوم التحق بالعمل في السراية كعامل نظافة منذ أربعة عشر عاما، ويوم دخل إلى (ش) في ثوب ممرض بعد أن تعلم التمريض بمستوصف في الجمالية، يومها حدق إليـه (ش) دهشًا ثم ابتسم، وقال والدموع تلتمع في عينيه:

- كنت أعرف أنك لن تتخلى عني أبدا.

سنوات وهو يعمل كممرضه الخـاص، كـان يقـوم برعايته وحمل رسائله وكتاباته إلى الأصدقاء إلى أن وقعـت المشاجرة التي لم يستطيع تفاديها مع رئيس الممرضين.

وأطال نادر النظر إلى وجه فكري سالم، متى تنتهـي طريقة التصويت التي جرى بها العمل منذ القبض على علي النجاتي منذ ثلاثة شهور، والتي ترجح عـادة رأي فكـري سالم.

وتمثل له وجه النجاتي أستاذه وتلميذ أبيه الذي علمـه الكثير ورشحه لعضوية لجنة القيادة ومسئولية العمل داخـل السراية، وتساءل:

- ألا ينبغي أن نختار من يحل محل الصـديق علـي النجاتي في لجنة القيادة إلى أن يتم الإفراج عنه؟

فسارع فكري سالم بالقول:

- كنت أفكر في هذا حتى يـتم التصـويت بطريقـة ديموقراطية، وأرشح حسن الدمياطي باعتباره أقدم الأصدقاء الذين يعملون في السراية ويعيشون خارجها.

فقال فاضل:

- الدمياطي لا يصلح إلا لتوزيع الأغذيـة والملابـس على الأصدقاء.

وتساءل:

- ألا يمكن ضم إيبوور أو نور وعقد بعض اجتماعاتنا في السراية خاصة وأننا كلنا نعمل فيها.

فقال فكري:

- لا يمكن ذلك وفقًا للائحة عملنا، فلابد أن يتاح لكـل أعضاء اللجنة حضور اجتماعاتها، خصوصا وأن الكثير من اجتماعاتنا تتم بشكل طارئ، واجتماع اللجنة فـي السـراية يعرضنا للخطر.

قال نادر:

- لنعرض الأمر على الأصدقاء، وليرشح من يشـاء نفسه ثم نستفتي أصدقاء الداخل والخـارج ليختـاروا مـن يشاءون.

وشوح فكري بيده:

- ظروفنا الآن لا تسمح بهذا.

قال فارس بضيق:

- لقد اختارنا الأصدقاء أنت وفاضل وأنـا فـي أول مؤتمر، واختاروا علي النجاتي ونادر بالاستفتاء.

فقال فكري:

- يمكن أن يضم الدمياطي إلينا بصفة مؤقتة، خاصـة وقد سبق أن اتفقنا على عقد مؤتمر للأصدقاء يختارون فيـه قيادة جديدة في أقرب فرصة ممكنة.

وتقرر ضم حسن الدمياطي موظف الكانتين إلى لجنـة القيادة. كان بقالا صغيرا ارتبط بفكري سالم، وفشلت تجارته فساعده فكري في الالتحاق بالعمل بالسراية منذ ست سنوات، كان يقوم تحت إشراف نادر بتوزيع الأغذية والملابس التـي ترد من أسر الأصدقاء بالداخل وأصـدقاء الخـارج علـى الأصدقاء والنزلاء المتعاطفين معهم وفق أسس أقرتها لجنـة القيادة منذ سنوات، وراعت فيها الالتزام بتعاليم (ش).

وتساءل فارس:

- وماذا عن يوحنا؟

قال فاضل:

- سأراه غدا، وأرى ما يمكن عمله له.

وقال فكري لنادر وهو يمد إليه يده للسلام:

- بالنسبة لأمين زاهر يجب أن يكف فترة عن التردد على السراية حتى لا تثير زيارته الشبهات حولنا.

- إنه يريد رؤية عنبر عزل المجاني الذي مات فيـه أحد أصدقائه... لماذا لا نسعى لضمه إلينا؟... كتاباته تؤكـد أنه ما يزال على حبه ووفائه للمعلم.

وعقد فكري ما بين حاجبيه، وزم شفتيه:

- أنا أحبه، وأقدر كتاباته، وقد كـان صـديقًا جيـدا، ولكنني لا أستريح لعمل الكتـاب والفنـانين بـين صـفوفنا خصوصا في هذه الظروف.

- يمكن أن يفيدنا في وجوده في الحياة الثقافية.

فقال فكري وهو يتجه إلى الخارج:

- لنفكر في ذلك فيما بعد، يمكن أن ألتقي به.

مجدي عبد السلام

هل النزلاء الذين أتعامل معه كمرضى هـم مرضـى بالفعل؟

ألح علي هذا السؤال بعد أن تركت نـادر، فـالمرض النفسي وحتى العقلي يمكن ادعاؤه وتمثيل أعراضه إذا كـان من يقوم بذلك على درجة كبيـرة مـن الـذكاء والمعرفـة بأعراض المرض الذي يتظاهر بـه، خاصـة فـي مكـان كالسراية يفتقر إلى المعامل والأجهزة الحديثة، ولكن لا يمكن لذلك الادعاء أن يستمر إلا لفترة محدودة، فكيف لشخص أن يتظاهر بإصابته بالفصام، ويتقمص شخصية يوحنا المعمدان، ويصول ويجول في أفنية السراية تحت سمع وبصر الأطباء والمرضى خمسة أعوم كاملة؟.. ألا تؤثر الأدوية وجلسـات الكهرباء في عقله وشخصيته؟.. وإذا كان يفلت بطريقة مـا من الجلسات وتعاطي الدواء ألا يحوله البقاء بالمستشفى وبين المرضى كل تلك السنين إلى مريض ولو بمرض نفسـي؟.. كثير من الأطباء أصيبوا هم أنفسهم بأمراض نفسية وعقليـة نتيجة لمخالطتهم للمرضى لفترات طويلة.

ألحت علي التساؤلات، ولم أستطع كبح فضولي فخرجت في الصباح قبل الموعد الرسمي للعمل في الأفنية والعنابر.

وفي فناء الاقتصادي تأملت عددا من النزلاء، تساءلت، من منهم المريض ومن الذي يتظاهر بالمرض؟.. وتحيرت أمام مظاهر الاكتئاب والهستيريا، وردود أفعال الفصاميين للهذاءات والهلاوس السمعية والبصرية.

اقتربت من نزيل طويل القامة يسير وقد خفض أحد كتفيه عن الآخر، وما إن حدقت إليه حتى جرى من أمامي، وقفت أمام نزيل أسمر بدين يضحك ويشير بيديه، وقلت له بحدة:

- كف عن ادعائك الفارغ.

فقهقه النزيل، وانصرف عني.

لقيت النزيل الذي يردد أقوال حمدان القرمطي زعيم ثورة القرامطة، ويناديه بعض زملائه بقرمط بالقرب من المبنى الذي يحجز فيه (ش)، كان يتمشى وهو يعرج بساقه اليسرى، قصير الساقين، أحمر البشرة تشع عيناه المستديرتان بنظرة حادة، استوقفته فنظر إلي مستفهما فسألته:

- ما اسمك أيها النزيل؟

وبدا في وجهه الاستنكار:

- ألا تعرفني؟.. أنا حمدان بن الأشـعث، وينـادونني بحمدان القرمطي.

حدقت في عينيه فاستدار وشـوح بذراعـه القصـير، أمسكت بكتفه، وقلت بجفاء:

- كف عن الادعاء الفارغ فأنت لست مريضا، و.....

وأزاح يدي عن كتفه بشيء من الحدة:

- لم تمت دولة الفقراء فلنا بعث وبعث.

وابتسمت:

- ماذا فعلتم بالحجر الأسود؟

فرد بحدة:

- ما يقال مجرد ادعاء فارغ من بني العبـاس الـذي قلبوا أسنان المشط، وجعلوا منها قضبانًا يسجنون الناس خلفها وخوازيق للثوار، وذلك لتنفير الفقراء من أصدق إخوانهم.

قلت:

- لقد حلمت حلما يتجاوز عصرك.

ومضى عني وهو يظلع في مشيته:

- لا يملك أحدنا شيئًا لنفسه دون إخوانه.

وفي نهاية فناء الاقتصادي وجدت النزيل الذي يـردد أقوال ابن رشد جالسا على حجر، ومستندا إلى الحائط، وقـد عمم رأسه بفوطة فيما يشبه العمامة، أطلت النظر إلي وجهه المغضن الذي تحيط به لحية كبيرة شيباء، كنت أعرف أنـه كان قبل دخوله السراية مدرسا للفلسفة، وعلى درجة عاليـة من الثقافة، وفي مرات كان قد حدثني بكلام ليس فيه تخلـيط ملحوظ عن أهمية النظر العقلي وسرمدية الوجـود، وقفـت أمامه، وألقيت عليه تحية الصباح قائلا:

- سعدت صباحا يا قاضي القضاة.

وانتفض واقفًا، وابتسم:

- سعدت صباحا يا أخي.

قلت وأنا أقاوم الابتسام:

- ثمة أمر يستعصي علي يا أبا الوليد.

فخفض رأسه فيما يشبه التواضع:

- لننظر فيه معا لعلنا نصل إلى وجه الصواب.

وضحكت فنظر إلي دهشًا قلت:

- ستتهم بالزندقة، وتحرق كتبك، وتنفى أنت وأتباعك إلى "أليسانه".

وتكدر وجهه، وعاد إلى جلسته وهو يقول:

- من يعلي من النظر العقلي، ويقصد الحقيقة لا يخشى بشرا.

ومضيت في فناء عنابر العام، قـررت الكـف عـن محاولتي، خشيت أن يعرض فضولي الأحمق نادر وأصدقاءه للخطر.

وأحسست بمن يسير خلفي فالتفت إلى الوراء، فرأيـت على مبعدة خطوات قليلة النزيل الذي يضع على عينيه نظارة سوداء، ويلصق ذراعه بجنبه، وما إن وقع عليه بصري حتى استدار، وابتعد.

ناديته فلم يلتفت إلي، تساءلت، ما حقيقة هـذا النزيـل الذي يوجد بالمستشفى باعتباره مريضا بالهستيريا التحويليـة وأراه في كل مكان؟

وفي عنبري كان الأنبا شـنودة يقـف أمـام النافـذة المجاورة لسريره، واستبد بي الفضول من جديد.

وقفت إلى جانب الأنبا شنودة، وسألته باسما:

- ما أخبار الرومان يا أبانا؟

ونظر في وجهي بعينيه السوداوين وبهما بقايا النـوم، وابتسم:

- لابد أن يخرجوا من ديارنا كما خرج من سبقوهم.

وأضاف، وهو ما يزال يبتسم.

- لا تخش منهم يا ولدي فأنا هنا لأدافع عن المسيحي والوثني، عن كل المصريين.

همست له:

- أنا طبيب، وأستطيع أن أميز المريض من مـدعي المرض.

فأشار إلى سطوحي، وقال بصوت عالٍ.

- إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر مـن أن يـدخل غني إلى ملكوت الله.

تذكرت أنني لم أعطه جلسة كهرباء واحدة منذ أسـند إلي الإشراف على العنبر، ولم يتناول أمامي أبدا شـيئًا مـن الدواء، قال وهو ينظر من النافذة:

- جميع الذين آمنوا كانوا معا، كان عندهم كل شـيء مشتركًا، لم يكن فيهم أحد محتاجا، والأملاك والمقتنيات كانوا

يبيعونها، ويقسمونها بين الجميع، كما يكـون لكـل حسـب احتياجه، لقد أمات الرب الزوجين حنانيـا وسـفيره لأنهمـا اختلسا من ثمن ملكهما الذي باعاه.

وكان أبو ذر الغفاري متربعا على سريره يمسد لحيته ويتمتم بشفتيه، تأملت آيات الورع بوجهه، ألقيت عليه تحيـة الصباح فرنا إلي وقال بشيء من الحدة:

- كنت أنا وعمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود ومالك بن الأشتر صحابة رسول الله، وأقرب النـاس إليـه، وكنـا فقراء.

ورفع ذراعه، وأشار إلى سطوحي:

- وبشر الكافرين الذين يكنزون الذهب والفضة بمكاوٍ من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم يوم القيامة.

قلت باسما:

- ستُنفى وتجوع، وتموت في صحراء الربذة، ستموت وحيدا دون أن تجد زوجك العجوز ما تكفنك به.

فقال بجهامة:

- مهما يكن لن أنحني أمام من جعلـوا الـدين ملگـا عضودا.

لابد أن هؤلاء النزلاء مرضى بالفعل، لا يظهر على أحد الارتباك عندما يفاجأ بالسؤال، لابد أن كلا منهم كان قبل إصابته بالمرض معجبا ومتأثرا بالشخصية التي تستبد به.

ووقف إلى جانبي النزيل عمر وأخذ ينقل بصره بيني وبين أبي ذر، كان تشخيص مرضه بأنه ذهان الاكتئاب والمرح الدوري، وكان في نوبات الاكتئاب لا يغادر سريره إلا نادرا، ومنذ حوالي شهر دخل نوبة المرح فاستبد به النشاط الزائد، وأصبح لا يكف عن الحركة داخل العنبر وخارجه، وكثيرا ما يكون في صحبة صديقه النزيل مختار.

تأملت وجهه المستدير الرقيق وعينيه الملتمعتين خلف نظارته، وقلت، لا شك أنه مريض هو الآخر.

نظرت إلى سطوحي المتربع على سريره يلتهم إفطاره الخاص، وقد زاد أتباعه واحدا، قلت، أنت يا سطوحي لا يمكن أن تكون أنت، ولابد أنك دفعت بسخاء للمدير أو غيره حتى تبقى هنا لتمارس تجارتك غير المنظورة.

ووقف في طريقي الأستاذ رستم القصير، النحيل بغضون وجهه المستقيمة وجلبابه السمني النظيف، الموظف السابق المصاب بوسواس قهري.

تساءل بأدبه الجم المتملق، وابتسامته المداهنة التـي لا تفارقه:

- يا سعادة الباشا، متى يأتي الباشا المدير؟

واقترب عترة بلطجي العنبر، الحلنجي الذي تلوح على وجهه الداكن البارز الوجنتين وعينيه المقتحمتين وحركـات ذراعيه علائم الفهلوة، أخذ رستم من ذراعه وهو يقول:

- أنا سأخبرك متى يحضر الباشا المدير.

وفي طريقنا إلى السكن لمحـت الشـيخ (ع) رئـيس الممرضين يدفع بمريض إلى حائط أحد أبنية الاقتصادي وهو يمسك بخناقه.

أسرعت إليهما، وخلصت النزيل من يد الشـيخ، وأنـا أسأله عما فعل النزيل فاحمر وجهه، وقال غاضبا:

- إنه يسرق زملاءه.

فقال النزيل الناحل رث الجلباب بغضب:

- لم أسرق أحدا، هو الذي يفرض علينـا الإتـاوات، ويأخذ منا كل ما نملك.

وهم الشيخ بصفعه فأمسكت ذراعه، واعتذرت إليه عن النزيل، وأخذت النزيل وابتعدت.

نظر إلي النزيل بوجهه الشـاحب البـارز الـوجنتين، وقال:

- سأقطع رأس هذا السجان.

قلت له:

- إنه رئيس الممرضين، وليس سجانًا.

وأفلت ذراعه، وحدجني بنظرة كارهة:

- كلكم سجانون تستحقون الذبح.

نادر شوقي

تمشيت مع نور أمام العنبر الذي يقيم فيه مع ثلاثة من الأصدقاء في نهاية عنابر العام، كان علي أن أبلغه بالقرارات الجديدة باعتباره مسئول الاتصال في السراية، قلت:

- تقرر أن يشترك وائل في حماية المعلم، أن يكـون بالقرب من إيبوور وزكريا وقرمط وجاليليو.

توقف عن السير متسائلا:

- ولماذا وائل بالذات؟

- لأنه كما تعرف يتمتع بالقوة البدنية، ومدرب علـى فنون القتال.

- لكننا لا نحتاج إلى من يتمتعون بـالقوة البدنيـة أو المدربين على فنون القتال.

مرت سنوات والحراسة يقوم بهـا عـدد كبيـر مـن الأصدقاء لم يشترط فيهم غير اليقظة وشدة الإخـلاص لـ (ش).

- لولا قوة المعمدان لنجح شالوم في الوصـول إلـى (ش).

- المعمدان بادر باللحاق بشالوم بمفرده، كان يمكـن لصديقين أو ثلاثة من الموجودين في الفناء أن يمنعوا شالوم من دخول المبنى، وقد زدنا من عدد الأصدقاء الذين يتناوبون الحراسة.

قلت:

- على أي حال هو لن يفعل شيئًا إلا بموافقة إيبـوور زكريا وقرمط.

قال متفكرا وهو يستند إلى حائط العنبر:

- وائل كثيرا ما يتعامـل مـع الأصـدقاء والنـزلاء بخشونة وجفاء.

ولم أستطع أن أدافع عن ذلك القرار أكثر مـن هـذا فقلت:

- هذا ما قررت لجنة القيادة... هناك قرار آخر..

ونظر إلي متوجسا:

- تقرر منع النزلاء والأصدقاء من الدخول إلى (ش).

وحدق إلي باستنكار:

- منع النزلاء والأصدقاء من الدخول إلـى (ش)؟!.. ولم؟!

قلت وأنا أبعد عيني عن عينيه:

- حتى لا يتسال إليه نزيل مدسوس من الإدارة.

وبدا الغضب على وجهه:

- هل أخذتم رأي (ش) قبل إصدار قراركم؟

- لا.. ولكن القرار اتخذ لحمايته.

- وهل من حق أحد أن يصـدر قـرارا كهـذا دون الرجوع إليه؟

- المفروض أن لجنة القيادة هي التـي تقـود العمـل لحمايته وخروجه من السراية.

وخطا بين زهور عباد الشمس وهو يقول برنة غضب:

- لا لجنة القيادة ولا غيرها تملك أن تصـدر قـرارا يتصل بعلاقات (ش) بالأصدقاء أو النـاس، إن مكانـة (ش) مصدرها حبه للناس وارتباطه بهم وحب الناس لـه، وهـو يسعد بزيارة أي صديق أو نزيل.

وتساءل:

- ولماذا لم تأخذوا رأي الأصدقاء قبـل أن تصـدروا مثل هذا القرار؟

- منع الزيارة سيكون لفتـرة مؤقتـة حتـى تتـوفر إمكانيات الحماية الكاملة للمعلم.

ووقف في مواجهتي وهو يقول بحدة:

- لجنتكم ليست فوق (ش)، ولا فوق الأصدقاء، لقـد أصدرتم من قبل قرارا بمنع (ش) من الخروج إلى الأصدقاء والنزلاء بحجة حمايته، والآن تمنعون حتى الأصـدقاء مـن رؤيته!... هل تنوون أن تحولوا المعلم إلى كائن غيبي تُخلق حوله الأوهام والأساطير؟

قلت وقد ضاق صدري:

- المفروض أن اللجنة تقدر كل الظروف قبل اتخـاذ قراراتها.

- وإذا أصر صديق على الدخول إلى (ش) هل نمنعه بالقوة؟

قلت:

- ستصدر الأوامر للأصدقاء الممرضين الذين يقومون بحراسة الحجرة بمنع دخول أي مـن النـزلاء، وعليـك أن تطلب من أصدقاء الحراسة إبعاد الأصدقاء والنزلاء عن باب المبنى بافتعال حركات الاختلال العقلي.

وأمسك بذراعي، وحدق في عيني:

- ماذا كان موقفك أنت يا نادر من هذا القرار؟

وتجنبت حدة عينيه:

- أنا واحد من أعضاء اللجنة، والمفروض أن القـرار قرارنا جميعا.

وخفض رأسه، وقال:

- منذ سنوات لم ينعقد المؤتمر الذي يحاسـب لجنـة القيادة وينتخب أخرى جديدة، ويقرر خطة عملنا.

قلت:

- سنعقد المؤتمر في أقرب فرصة ممكنة.

وابتسم بسخرية:

- حذركم الزائد جعل (ش) حبيسا في السراية أربعـة عشر عاما، ولا أحد يدري ما يمكن أن يحدث في السـنوات القادمة.

قلت أهون الأمر:

- كل القرارات يمكن مناقشتها من جديد وإلغاؤهـا أو تعديلها، وأعدك بأن أحاول إلغاء هذا القـرار فـي أقـرب فرصة.

وأطال النظر إلي:

- أرجو أن يتم إلغاؤه في أقرب وقت.

وتركت نور وأنا مصمم على العمل من أجـل إلغـاء قرار منع الزيارة في أقرب وقت ممكن.

توقع أن يكون انضمام حسن الدمياطي إلى لجنة القيادة مفيدا بالرغم من علاقته الحميمة بفكري سالم، وافتقاره إلـى الثقافة والإلمام الكافي بفكر المعلم فبعد انضمامه لن يوجد ما يسمى بترجيح جانب الرئيس، تساءلت لماذا لا يكـون رأي وموقف كل صديق من أعضاء لجنة القيادة مـن القـرارات التي تصدرها معروفًـا لكـل الأصـدقاء داخـل السـراية وخارجها؟ لماذا لا تنشر في الأوراق التي تصـدر وتـوزع على الأصدقاء المناقشات التي تدور في اللجنـة ووجهـات النظر المختلفة؟

ورحت أبحاث عن فهمي الوقاد لأبلغـه هـو الآخـر بالقرارات الجديدة باعتباره المسئول عن تنظـيم اجتماعـات الأصدقاء في العنابر وتأمينها.

رأيته واقفًا بابتسامته الدائمة أمام عنبر (٣)، مـررت من أمام باب العنبر فلحق بي، قلت له:

- تقرر أن يشترك وائل في حماية مبنى المعلـم، وأن يكون بالقرب من إيبوور وزكريا وقرمط، كما تقـرر منـع الأصدقاء والنزلاء من زيارة المعلم.

واختفت ابتسامته، واتسعت عيناه المستديرتان، وحملق إلي:

- ولماذا يمنع الأصدقاء والنزلاء من زيارة المعلم؟

- هذا إجراء مؤقت لحماية المعلم بعد الحادثة الأخيرة.

وبدا في وجهه الضيق:

- لكن هذا القرار سيغضب الأصدقاء، ويخلق كثيـرا من المشاكل.

قلت وأنا أبتعد:

- القرار مؤقت، وسيلغى في أقرب فرصة، المهم الآن أن يلتزم به الأصدقاء.

وبين عنبر (٤) عنبـر (٥) رأيـت سـعيد السـاعي ومحمود حجازي وعماد يوسف يمارسون رياضتهم اليوميـة بالألعاب السويدية، وفوجئت بحميد البسطويسي منضما إليهم، وقد عرى كل منهم جذعه الذي تفصد بالعرق.

تأملت الأصدقاء الأربعة، سعيد الساعي طالب الحقوق وبطل الجمهورية في الملاكمة بوجهه البيضـاوي المـدبب الملامح الذي تبدو عليه طيبة ساذجة، الصديق الذي يضرب به المثل بنقائه وحسن أخلاقه، والذي لم يستخدم قوته البدنية يوما في مواجهة أحد، واستخدمها فقط في حماية الأصـدقاء والصدام مع رجال الأمن قبل أن يـدخل السـراية، وعمـاد يوسف السمين الممتلئ الوجه الذي يتصدى لرفـع الأحمـال مهما كان ثقلها، ومحمود حجازي بقامته الرشـيقة العضـلية التي تميل إلى الطول ووجه الصغير العظمي، والذي كثيـرا ما أراه خلف أحد العنابر في أي ساعة من سـاعات النهـار يمارس رياضته البدنية، وكان كل همـه أن يربـي ويبـرز عضلاته، وحميد البسطويسي ابن بلدة عـم فـارس ببدنـه المدكوك الذي يميـل إلـى القصـر، وسـرواله الفلاحـي الفضفاض، ووجه داكن السمرة بارز الوجنتين الذي يشـف عن ذكائه ويقظته، كان يصر على تعلم القـراءة والكتابـة، ويسرع دائما إلى نجدة الجميع، ويتنازل عن الجزء الأكبـر من نصيبه من التغذية إلى من يحتاجه مـن الأصـدقاء، ولا

يكف بلهجته الريفية عن السخرية الطيبة والذكية مـن كـل شيء.

سألت البسطويسي:

- مالك أنت والرياضة يا بسطويسي؟

وكبرت بسمته بالخجل وهو يحرك ذراعيه:

- قد نحتاجها أيها الصديق.

وقال حجازي وقد توقف عن حركاته:

- انضم إلينا أيها الأخصائي ففـي الرياضـة فوائـد كثيرة.

قلت آسفًا:

- لم يشجعني عليها أحد في صباي.

وتساءل سعيد الساعي:

- لماذا لا يمارس كل الأصدقاء الرياضـة؟.. نحـن نحتاج أيضا إلى القوة البدنية.

قلت:

- ليس لدي مانع، شجعهم على ذلك.

وفي فناء الاقتصادي سار قرمط إلى جانبي وهو يشتل بساقه، تطلع إلي بوجهه المستدير وعينيه الرماديتين اللتـين

تشعان ذكاء وحيوية، الصديق الذي فُصل من مصنع النسيج الذي كان يعمل به في القاهرة فعاد إلى قريته وعمل بين الفلاحين، ولم تمض سنوات ثلاثة حتى قاد هبة فلاحين كبيرة، وعندما قبض عليه وعذب منذ عامين تظاهر بالجنون ليدخل السراية ويشارك في حماية المعلم والعمل على خروجه، اختار أن يتقمص شخصية زعيم ثورة القرامطة التي كان شغوفًا بجمع أخبارها.

قال قرمط بصوت خفيض:

- قرار منع زيارة المعلم خطير حتى ولو كان مؤقتًا، زيارة الأصدقاء له ترفع من معنوياتهم، وتساعدهم على البقاء في السراية.

قلت:

- سيلغى هذا القرار في أقرب فرصة.

ومرر كفه على صلعته اللامعة.

- ألا ترى أن وجود الأصدقاء في السراية قد طال دون أن نفعل شيئًا حقيقيا لإخراج المعلم؟

قلت:

- عندما يكتمل استعدادنا سنخرجه هو والأصدقاء.

والتمعت عيناه:

- إن عددا قليلا من الأصدقاء الموجودين هنا يمكـنهم إخراج المعلم بسهولة، لو تركتم الأمر لي.. و..

قاطعته باسما:

- هل استبدت بك بالفعـل شخصـية زعـيم ثـورة القرامطة؟

وشوح بذراعه:

- لا أفهم سر بطئكم، ماذا تنتظـرون وقـد حشـدت السراية بالأصدقاء؟

قلت:

- بعض أصدقاء لجنة القيـادة يـرون أن إمكانياتنـا بالخارج لا تسمح بتوفير الحماية للمعلم وحرية حركته بـين الناس، ويخشون تكرار ما حدث بعد هروب عام ١٩٦٨.

- الحركة المحدودة في الخارج أفضـل كثيـرا مـن الحبس في غرفة مغلقة هنا.

- علينا أن ننتظر.

فقال بإلحاح:

- الانتظار ليس في صالحنا، لقد بدأ الملـل والفتـور يفقدان الأصدقاء حماسهم.

- أعتقد أن الوقت لن يطول بنا حتى يتم الخروج.

وابتعد قرمط وهو يشتل بسـاقه اليسـرى القصـيرة الملتوية القدم، والتي لم تكن تعوقه عن سرعة الحركة والقيام بكل الأعمال التي تطلب منه.

ووقف ابن المقفع في طريقـي، حـدق إلـي بعينيـه المتحفزتين:

- هل منعتم زيارة الأصدقاء والنزلاء لـ (ش)؟

قلت:

- أجل، من أجل حمايته ولفترة محدودة.

تساءل بحدة:

- هل أنتم الذين تقومون بحمايته أم أصـدقاؤه الـذين يتظاهرون بالمرض ويعانون من وجـودهم فـي مستشـفى الأمراض العقلية؟

وهز سبابته في وجهي:

- أنتم تساهمون في سجن (ش) وحبس أفكـاره عـن الناس، هل تكتفون بمحاولة التطبيق الشائه لأفكاره في هـذا المكان البائس وبين حفنة من الأصدقاء والنزلاء؟

وهممت بالكلام فشب بصدره الضيق البارز:

- أنا سأزوره في أي وقت أريد، ولن يمنعني أحد.

أمسكت بذراعه وقلت محذرا:

- لا تخلق لنا المشاكل أيها الصديق.

وأفلت ذراعه، وابتعد.

توقعت أن يخلق ابن المقفع المشاكل لعملنا فقد كان قبل دخوله السراية صحفيا لا يتنازل عن كلمة، وكان حادا فـي خلافاته التي تتصل بالمبدأ.

أمين زاهر

ما إن جلست ظهر اليوم إلى جانب مجدي في عنبـره حتى أخبرني هامسا أنه قد جرت محاولة منذ أربعـة أيـام لاغتيال (ش)، وأنها فشلت بفضل صديق لنادر كان قد أدخله السراية لحماية (ش) قام بقتل النزيـل الـذي كـان مكلفًـا بالاغتيال، خفق قلبي بعنف، ولم ينته مجدي من كلامه حتى أقبل نادر باسما.

سلمت عليه بحرارة، وجلس إلى جانبي، وأخذ يتظاهر بقراءة بعض الأوراق، وعندما اتجه مجدي إلى نزيل متهيج وسط العنبر همس لي نادر:

- الأستاذ فكري سالم يريد أن يراك:

فقلت غاضبا:

- وأنا لا أريد أن أراه.

وابتسم:

- أنا أعرف ما دار بينكما.

وحدقت إليه دهشًا، ما علاقة هذا الشاب بفكري سـالم حتى يعرف ما دار بيننا؟

وأضاف مخافتا من صوته:

- الأستاذ فكري سالم ليس كما تظن، سيخبرك بكـل شيء. يمكن أن تراه الليلة في بيته.

وأعماني خفق قلبي المتسارع، ولم أنتبه لما قاله مجدي عن النزيل المتهيج، واستأذنت في الانصراف.

فتح لي فكري سالم باب مسكنه باسـما فأخذتـه فـي أحضاني، وعانقته بحرارة.

جلس أمامي مخفضا رأسه ومبتسما بارتباك، رأيت فيه الصديق فكري سالم القديم، قلت لو أن فكري سالم تغير حقًا وهجر فكر (ش) وتنكر لصداقته لكان ذلـك ضـد طبيعـة الأشياء، ضد البدهيات التي أعرفها عن الـنفس الإنسـانية، تمثل لي فكري سالم بمعتقل الفيوم وهو يجلـد مائـة جلـدة ويتحول جسده إلى كتلة لحم دامية دون أن ينطق بآه واحدة، قلت معاتبا:

- لماذا تركتني أسئ الظن بك؟

وابتسم في خجل:

- كان علي أن أحرص على سرية كـل تصـرفاتي، وتحمل نظرات الأصدقاء المستنكرة وسوء ظنهم.

وتساءل في عتاب:

- وأنت، كيف صدقت أنني يمكن أن أتنكـر للمعلـم، وأن أتحمل العمل في المكان الذي يسجن فيه كمجرد موظف أرشيف.

وأضاف:

- عندما رأيتك أول مرة في السراية ارتبكت، وخشيت أن يكشف لقاؤنا شيئا أو يثير الشكوك حولي.

وكبرت بسمته:

- لقد عانيت كثيرا وأنا أتظاهر أمامك فـي زيارتـك الأولى باللامبالاة إزاء مصير (ش)، وهممت وأنت تغادرني غاضبا أن أخبرك بكل شيء.

وحكى لي فكري سالم الرحلة التي عاشها منـذ عـام ١٩٦٥ وأنا أنظر إليه ذاهلا ومعجبا، وخجلا من غبائي.

وعندما انتهى من حكايته تساءلت كيف وصـل بـي الأمر إلى حد الاعتقاد بأن الأصدقاء الـذين شـاركوا (ش) فكره ونضاله قد انفضوا كلهم من حوله، ولم تتبق إلا القلـة العاجزة، ومن يشوهون كلماته ويتاجرون بها؟.. كيف عشت وهم خلو بلادي من الطيبين، وضياع عشرات السـنين مـن

العمل والتضحيات سدى.. أنا الذي كنـت أقـول دومـا إن الكلمات الصادقة لا يمكن أن تموت؟

وقاومت ترددي، وانسقت وراء فضولي، وتساءلت:

- وهل عدد الأصدقاء داخل السراية وخارجها كبير؟

قال:

- لا بأس به.. أنت تعرف الظروف التي عشناها بعد خروجنا من المعتقل، والأحوال التي مرت بها بلادنـا بعـد ذلك.

وأضاف:

- كان علينا أن نبدأ من جديد، وبأساليب مختلفة تماما عن أساليبنا القديمة.

وتزاحمت بعقلي الأسئلة:

- والمجلة التي تنشر المقالات الموقعة باسم (ش)؟

وزم شفتيه الصغيرتين، وقال:

- لا نستطيع أن نفعل شيئًا حيالها، ولا نملك وسـائل نشر نرد بها علي أكاذيبها.

- لماذا لا تعجلون بإخراج (ش) من السراية، خاصـة وأنه قد يتعرض لمحاولة اغتيال أخرى.

- لابد أن نضمن نجاح خطة فراره وخروج الأصدقاء معه، وحرية عمله، وحمايته خارج السراية.

وهيمن علينا الصمت لحظات، وفاجأني فكري قائلا:

- أتعرف أن (ش) قرأ كل كتبك؟

وحدقت إليه دهشًا:

- كتبي أنا؟!

- أجل.. كان يطلب كتبا بعينها وكنـا نـدخلها إليـه، ويعلق على بعضها في كتاباته، وكان منها كتبك الستة.

وأضاف ببسمة صغيرة:

- كتب مرة يعتب عليك لجرعة الأسى الزائـدة فـي الكتابين الأخيرين.

ولم أتمالك دموعي.

وصلت كتاباتي إلى المعلم، أنا الذي كثيرا ما تعـذبت بشدة الحصار حولي وحول كلماتي؟!... ألا يعرف المعلم ما يمكن أن يسببه غيابه عن أصدقائه كل هذه السنين؟.. لـو أن المعلم لم يسجن في السراية، ولم يتفـرق آلاف الأصـدقاء، ويضيعوا في الطرق المسدودة، ويرتعش الحلـم، ويمـتحن اليقين كل يوم، هل كان يمكن أن تنضـح كلمـاتي بـالحزن

والمرارة؟.. لو أن (ش) يخرج من سجنه وينطلق بين الناس، وتعود للكلمات عافيتها وللعيون تألقها الأمل.

وتجسد لي وجه المعلم، ولقائي الأول به، قلت:

- لابد أنه أصبح طاعنًا في السن.

فقال فكري مؤكدا:

- ما زال يحتفظ بقوته وكل يقظته برغم اقترابه من الثمانين، ما زال يكتب ونقوم بتوزيع كتاباته على الأصدقاء داخل السراية وخارجها. إنه يكتب عن الأحداث الهامة التي نعيشها، ويمدنا بالنصائح والتوجيهات.

وتجرأت بالسؤال:

- وكيف يكتب عن الأحداث التي لا يعيشها أو يقترب منها قربا كافيا، وهو الذي كان يوصينا بمعايشة الواقع حتى نستطيع معرفته وتغييره؟

ونظر في راحة كفه الصغير:

- نحن نمده بالصحف والمجلات والكتب، ويتحدث معه بعضنا.

تذكرت ما كان يقوله بعض الأصدقاء عن فكري سالم برغم إعجابهم به، من أنه يعايش الكتب أكثر مـن معايشـته لحياة الناس.

وتساءلت بشيء من الحرج:

- هل يمكن أن أقرا بعض كتاباته الأخيرة؟

وزم شفتيه وقال:

- سأوفر اك بعضها.

قلت:

- تحادثت مع نادر مرات.

- إنه صديق ممتاز، كان أبوه صديقًا حميما لـ (ش).

وعقد ما بين حاجبيه:

- لا يعيبه إلا بعض الحماس الزائد بحكم السن.

قلت:

- أنا مستعد لتقديم كل ما تطلبه مني.

فقال باسما:

- سأبلغك بكل ما نحتاجه منك.

وفيما كنت أهم بالانصراف بدا على فكري التردد ثـم قال:

- بودي أن تكف عن الذهاب إلـى السـراية لفتـرة قصيرة حتى تهدأ الأمور بعد حادث القتل.

وأضاف وهو يمسك بذراعي:

- سأدبر لك في أقرب فرصة زيـارة عنبـر عـزل المجاني، ستفيدك زيارته كثيرا ككاتب.

قلت وأنا أضمه إلى صدري:

- سأفعل كل ما تأمر به.

(٥)

قبيل الغروب خلا فناء الاقتصادي إلى من الأصـدقاء القائمين بحراسة (ش) وأفراد قلائل من النزلاء.

كانت عيون إيبوور وزكريا وقرمط وجـاليليو معلقـة بنافذة (ش) المفتوحة لأنه كان يقف أحيانًا وراء القضبان في مثل هذا الوقت قبل أن يضيء ضوء غرفته.

أسند إيبوور رأسه على كفه وقد بدا وجهـه الأسـمر الداكن شاردا، وفي عينيه السوداوين القلقتـين هـم ظـاهر، اقترب منه قرمط، وقف إلى جانبه، وتساءل باسما:

- مالك أيها الصديق؟

وحاول إيبوور أن يبتسم:

- أبدا يا قرمط.. لا شيء.

قال قرمط مشفقًا:

- هل تلح عليك ذكراها؟

ومازج الخجل بسمة إيبوور، وشوح بيده:

- لا.. لقد تغلبت على مشاعري نحوهـا منـذ وقـت طويل.

- أعرف أن الحب في الكبر أقسى من حب الشباب خاصة إذا كانت المحبوبة شابة حلوة.

وخفض إيبوور رأسه:

- أحببتها كما لم أحب امرأة أخرى، وقد أحببت الكثيرات في بلاد كثيرة، ولكن عندما ألحت علي في الزيارة الأخيرة للخروج من السراية قررت ألا أراها مرة أخرى.

ورنا إلى نافذة (ش):

- إن ما يشغلني هو خروج المعلم، سنوات ونحن هنا دون أن نتمكن من إخراجه، وأخشى أن..

واغرورقت عيناه بالدموع، وتكدر وجه قرمط، وقال بشيء من الغضب:

- يبدو أن فكري سالم قد أعدى الآخرين بحذر كاتب الأرشيف الزائد.

ونظر إليه إيبوور بعتاب:

- وهل تنسى مسئولية الآخرين؟.. هل تنسى مسئوليتنا نحن أيضا؟.. لقد أصبحنا مراتب ودرجات، رؤساء ومرءوسين يطيعون بطريقة عمياء، وقد كان المعلم يعاملنا كلنا كأنداد له.

واقترب منهما زكريا وجاليليو فنظـر إيبـوور إلـى زكريا:

- صمتنا كصمت زكريا الدائم، كلنا في انتظار أوامر أصدقاء القيادة الذين أصبحوا وكأنهم ليسوا منا.

وافتر وجه زكريا الجامد الملامح عن بسمة صـغيرة محاذرة، وهمس:

- يبدو أنك لم تعد تحتمل الجلوس الدائم على هرمـك الصغير، وقد كنت تجوب بلاد العالم تنقل رسـائل المعلـم، وترى كثيرا من الأصدقاء.

ورفت على وجه إيبوور بسمة حنين:

- أيام لا تنسى.. كنت كل يوم فـي بلـد جديـد أرى أصدقاء جددا، أنقل إليهم كلمات المعلم، وأنقل إليه كلمـاتهم، وأجمع أخبار ثوراتهم وانتفاضاتهم لأضيفها إلى التاريخ الذي أعشق جمعه.

وهز جاليليو البوصة التي يمسك بها، وابتسـم وجهـه المتطاول بأسى:

- وأنا، بعد صنع القنابل لمواجهة رجال الأمن وأنا طالب، وبعد أن كنت مشروع عالم أصبحت أمسك ببوصة، وأتظاهر عاجزا بالنظر من خلالها إلى نافذة المعلم.

وزادت غبشة الغروب كثافة، وأقبل الدكتور فاضل زكي الذي كان عليه الدور في نوباتجية المبيت بالسراية، ابتسم لهم وهو يلقي تحية المساء، قال:

- اشتقت إلى الجلوس معكم.

كان بين فترات متباعدة، وفي أثناء نوباتجيته الليلية يجلس معهم متظاهرا بالحديث إليهم كطبيب.

وأسرع ممرض صديق، وأحضر كرسيا من مبنى الإدارة، وجلس فاضل إلى جانب إيبوور، وتجمع أصدقاء الحراسة وأصدقاء آخرون بينما كان وائل يروح ويجيء أمام باب مبنى (ش).

أشار قرمط إلى وائل موجها كلامه إلى الدكتور فاضل:

- أليس من المضحك أن يحل هذا الوائل محل يوحنا في حراسة المعلم؟

ورمقه الدكتور فاضل ببسمة أسيانة.

وأضيئت المصابيح الصغيرة المتباعدة في الفناء، وقال فاضل لإيبوور باسما:

حدثنا أيها الصديق، حرك دماءنا بحديث أسلافنا.

وبدا التردد والخجل على إيبـوور فاسـتحثه قـرمط والبسطويسي وسعيد الساعي.

وانطلق إيبوور يحكي بطريقة حكـاء مـاهر يجسـد أحداث حكاياته عن إحدى الثورات المعاصرة.

شعت وجوههم وهم ينصتون إليـه بعيـون مفتوحـة، وتقاربت أجسادهم، وعندما توقف عن الحديث رنا إلى نافـذة (ش) التي يطل منها الضوء فتطلعت عيونهم إليها.

ونظر إيبوور إلى الدكتور فاضل:

- هل تذكر أيها الصديق؟

وأدرك فاضل أن إيبوور يشير إلى نجاحهم في عملية هروب (ش) الأولى فخفض رأسه:

- أجل أذكر يا إيبوور.

وأذن بلال أذان الفجر فتلاقـت عيـونهم، وابتسـموا وكأنهم يفيقون من حلم جميل، ونهض الدكتور فاضل، نقـل

بصره بين الأصدقاء، بدا وجهه الكهل مشعا بالدفء، وقـال بصوت خفيض:

- لابد أن نخرج من هنا في وقت قريب نحن والمعلم.

ومشى باتجاه سكن الأطباء.

وتَسحب الأصدقاء غير المكلفين بالحراسـة، وتباعـد زكريا وقرمط وجاليليو، واعتدل إيبوور في جلسـته علـى هرمه الصغير، وعيناه باتجاه باب مبنى (ش).

فاضل زكي[٤]

٦/٢١ سنة ١٩٨٦

لماذا أكتب الآن مذكراتي أو ما يشبه المذكرات، ولـم أكتب من قبل شيئًا يتصل بحياتي؟

ولم أهتم يوما بأن أترك ورائي أثرا يخصني، أي أثر، ولكن الأسابيع الأخيرة تراودني رغبة لا أستطيع مقاومتهـا في الكتابة عن صديقي ومعلمي (ش) وعن رحلتـي معـه، والتي كانت بدايتها البداية الحقيقية لحياتي.

ما زالت أذكر كل شيء، لم أنس شيئًا مما دار بيننا ولا من الأحداث التي عشتها معه منذ اليوم الذي التقينا فيه قبـل أربعين عاما.

الوجه المنبسط ذو القسمات المتسقة المتألقـة فـي ود والتي تشيع فيه بسمة ذكيـة آسـرة، والعينـان الواسـعتان الصريحتان والمحبتان، كان لابد للمرء أن ينجذب إليه مـن النظرة الأولى.

---

(4) تم العثور على مذكرات الدكتور فاضل زكي في بيته فـي نهايـة سبتمبر ١٩٨٦.

قدمني إليه مساء ١٤ يوليه ١٩٤٦ الدكتور عبد الفتاح القاضي الذي كانت تربطه بأسرتي آصرة قربى، وعندما تكلم كان لكلماته حياة خاصة، كان يزن الكلمات ولا يزنها، كـان يسأل أكثر مما يجيب، أسئلة بسيطة قد تبدو أحيانًـا سـاذجة ليساعد المرء على الوصول إلى الحقيقة بنفسه.

في لقائنا الأول تحدث عن الإنسان كما هو وكما ينبغي أن يكون، تكلم بفهم وحنو غريبين ففاجأتني كلماتـه بضـوء جديد كشف لعيني وبصيرتي واقع الإنسان في بلادي والعالم والآفاق الرحبة التي تنفسح أمامه، وأومأت الكلمات الواثقـة إلى الطريق الذي ينبغي أن أسير فيـه إذا أردت أن أعـيش حياة حقيقية تليق بالإنسان، وحين انتهى من حديثه أحسسـت بأنني على مشارف بداية جديدة لحياتي، ولما سلم علي فـي نهاية اللقاء وعانق كفه الدافئ كفي أدركـت أننـي التقيـت بالصديق الذي لن أفترق عنه أبدا.

ليلتها لم أنم، لازمتني بسمته وكلماته، وفـي الصـباح كنت قد اتخذت قراري فسعيت إليه لأقول له في تلعثم فـرح إنني سأكون تلميذه حتى نهاية العمر.

يومها ضحك ضحكته الصافية، وقال بخجله العذب:

- لست أستاذًا لأحد، نحن أصدقاء وصحبة.

كنت في السنة الثانية بكلية الطب، وكنت غارقًـا فـي كتابة الشعر الرومانسي عن حبي لزميلتي الأرستقراطية التي لم تكن تلتفت إلي، كنت قد ورثت عن أبي ثروة لا بأس بها، وأعيش بمعزل عن الأحداث التي تعيشـها بـلادي والعـالم فوجدت نفسي بعد لقائه في صحبة طيبة في قلـب أحـداث بلادي، وأصبح كل شيء في العالم يعنيني ويخصني.

وجدت في (ش) مثلا أعلى جديرا بأن أحتذيه فحاولت قدر طاقتي أن أتخلق بـبعض صـفاته، أن أكـون التلميـذ والصديق الجدير بصحبته.

كان غريبا ذاك الصديق، لم يملك شيئًا أبدا، ولا سعى لامتلاك شيء، لم يكن له بيت يستقر فيه بعد أن هجر أسرته الثرية، كان يعيش من الأعمال التي يقوم بها بعد أن فصـل من مصنع النسيج الذي التحق به في صدر شبابه، عمل فـي مهن كثيرة كان آخرها صنع البيوت الصغيرة مـن خشـب الأركيت، كان يمشي ساعات طويلة بالحذاء المثقوب ليـوفر ثمن رغيف لأحد الأصدقاء أو هدية لابنه أو ابـن صـديق

معتقل، وأبدا لم تكن بسمته الحلوة تفارقه، وكأنه كان يـودع بها هبةً طيبةً في قلب كل إنسان يلتقي به.

حين خبأته في بيتي عند محاولة اعتقاله عـام ١٩٤٨ عشت معه أياما لا يمكن أن أنساها ما حييت، أياما ما زلـت أزهو بيني وبين نفسي لأنني عشتها مع ذلك الإنسان والمعلم.

كان يهتم بي ويحنو علي كأم، يستيقظ فـي الصـباح الباكر، وينظف البيت بعناية، ويعد إفطارنا ثم يوقظني، كان يلح علي بأن أواصل مذكراتي على أن يقوم هـو بخـدمتي، وفي نهاية الليل كان يقرأ لي من كتاب فكر أو فن، وكثيرا ما كنت أشعر به وهو يدثرني في الليل بغطاء انحسر عني.

حين زارني مع أحد الأصدقاء لأول مرة في عيـادتي الجديدة بالحي الشعبي، ورأى زحام الفقراء كبـرت بسـمته وقال:

- شيء طيب أن نقدم للإنسان شيئًا في محنة مرضه.

وعندما قال الصديق الذي كان معه، ولم أكن أعرفـه، إن ما أقوم به طريقة جيدة للوصول إلى الناس ونشر أفكارنا التفت إليه بغضب ولوم:

- ينبغي أن تصدر أفعالنا عن حب حقيقي للمتعبين قبل أي شيء أخر.

في مستهل حياتي معه، ومن شدة تعلقي بـه أُغرمـت بحفظ بعض نصوص كتاباته، وفي جلسة جمعتنـا وبعـض الأصدقاء استشهدت في حديثي بفقرة طويلة من أحـد كتبـه فاكتسى وجهه بالأسى، وقال في عتاب:

- طريق المتعبين إلى ثورة الخلاص ليس موصـوقًا في أوراق منزلة، لقد حاولت أنـا أن أعـرف، وينبغـي أن تحاولوا أنتم أيضا، ولتكن معارفنا انطلاقًا لنا جميعا.

ذات مساء كنا نسير معا، والتفت إلي باسـما، وقـال بصوت خفيض:

- لديك قدر وافر من الرومانسية يا فاضل.

ورنوت إليه متسائلا وقد خفق قلبي فوضع يده علـى كتفي، وقال وقد كبرت بسمته:

- الرومانسية ليست مرفوضة في ذاتها، إنهـا تولـد الشوق وجسارة الحلم، ولكنني أرى أن علينا أن نتجنب بقدر ما نستطيع جموحها وأساها.

كثيرا ما كان يسألني آسفًا عن سبب توقفي عن كتابة الشعر، وكان قد قرأ بعض أشعاري وأثنى عليها، وقد حاولت مرات ولكن يبدو أن طاقة الشعر التي كانت لدي ذابت في الفعل الذي أقوم به.

كان المعلم يرفض الكذب والمناورة، كنت وبعض الأصدقاء قد أجرينا حوارا مع ممثلي جماعة تختلف معنا واستخدم أحد الأصدقاء أساليب المناورة والمقاطعة والتشويش كي نصل إلى قرارات في صالحنا، وعندما أخبره ذلك الصديق، مزهوا بما فعل اكفهر وجهه: وقال بغضب:

- الكلمة الصادقة لا تغش ولا تناور.

فقال الصديق:

- إنهم خصوم لنا، ومن واجبنا أن نلجأ معهم إلى كل الأساليب التي تحقق مصالحنا.

فقال (ش) بحدة:

- ما أعرفه أنه ينبغي أن تتجسد فينا كثير من صفات إنسان المستقبل الذي نريده، وفي غير الحروب المعلنة يجب أن تكون الكلمة الصادقة ذكية لا غشاشة ولا مناورة.

حين اعتقل في ليلة الأول من يناير ١٩٥٩ مع معظـم الأصدقاء واصلات العمل، في ليالٍ كثيرة كان الشـوق إليـه يستبد بي حتى أنني كنت أتمنى أن أعتقل أنا الآخر لأكـون معه في مكان واحد.

وفي نهاية ١٩٦٤ عندما انفـض مـن حولـه أكثـر الأصدقاء التقينا ذات مساء، سرت إلى جانبه وأنا ممرور بلا حد، وكان هو حزينًا، قلت له مخافتًا من صوتي:

- لقد انتهى كل شيء.

وحدجني بنظرة قاسية لم أرها منه من قبل:

- لا.. انتهى شيء، ولابد أن تبدأ أشياء.

عندما أمسكوه، وأودعوه السراية سـارعت بـإغلاق عيادتي وسعيت للعمل هناك.

حين رآني أدخل عليه وأنا أحاول أن أتمالـك نفسـي حدق إلي دهشًا فقلت:

- أنا الطبيب المختص هنا.

وسطعت بسمة عينيه:

- أهلا بخير الأطباء.. كنت أعرف أنك ستفعلها.

وهمس لي ويدي في يده:

- لا تعرض نفسك للخطر.. يكفي واحد منا.

كنت أسرع مبكرا إلى السراية، وأترقب متلهفًا الوقـت الذي أدخل فيه إليه، وحين أغادر السراية بعد مواعيد العمل الرسمية بكثير كنت أدفع بنفسي دفعا إلى الخارج.

كثيرا ما كان يستبقيني لمناقشتي في أفكـاره الجديـدة وكتاباته، وأبدا لم يفقد وهو سجين السراية جسارة ورحابـة فكره، ومحاولة التواصل مع الواقع خارج السراية.

كنت أكتب له الأدوية كفصامي وفقًا للتشخيص الـذي أدخلاوه به، وأتخلص منها، وأحضـر لـه خفيـة المقويـات والأغذية.

ما كدت أدخل إليه ذات صباح في عام ١٩٦٨ حتـى دفع بورقة إلى يدي وهو يقول:

- أريد الخروج.. في هذه الرسالة تفاصيل ما يجـب عليك عمله.

وتمكنت من إخراجه من السراية بعـد أن رتبنـا أنـا وبعض الأصدقاء من الإسكندرية أمر سفره إلـى الخـارج، ومن هناك كانت تأتيني رسائله التي توافيني بأخباره وكتاباته الجديدة وأسماء الأصدقاء الذين ينبغي أن أتصل بهم للعمـل

معهم، وكان من أسود أيام حياتي يوم رأيتهم يعيدونه مكـبلا إلى السراية في ديسمبر عام ١٩٧٢.

أدخلت السراية كثيرا من الأصـدقاء لحمايـة المعلـم والعمل على إخراجه، وسعيت بحجة النظريات الجديدة فـي الطب النفسي والعقلي وبمساعدة أصـدقاء وأطبـاء خـارج السراية إلى استصدار قرار بترك أبواب العنـابر والأبنيـة مفتوحة طوال النهار والليل حتـى يـتمكن الأصـدقاء مـن حمايته.

حاول الهرب مرتين، وفي كل مرة كانوا يمسكون بـه قبل أن يخرج من البوابة الخارجية. كان يمكن أن يخرج في المحاولة التي دبرناها أنا وفارس زياد وعلي النجـاتي منـذ خمسة أعوام، كانت الخطة محكمة، وكـان تنكـره جيـدا. اعترض بعض الأصدقاء طريقنا عند العيادة الخارجية بتدبير من فكري سالم، ومنعت أنا فارس والنجاتي مـن التصـدي لأولئك الأصدقاء حتى لا يكشف أمرنـا ويعـرض المعلـم للخطر.

كان يمكن أن يخرج ويخرج معه الأصدقاء منذ سنين لولا حرص ووساوس فكري سالم.

فكري سالم(٥)

قابلت (ش) مساء يوم ٤ يوليو عام ١٩٤٣، عرفني به (م.إ) الذي كنت قد تعرفت إليه في نفس العـام فـي إحـدى الندوات الثقافية التي كان يؤمها الأجانب وقليل من المصريين في القاهرة.

كنت في السادسة عشر، وأعجب بي (م.إ) عندما وقفت أجادل أحد كبار المفكرين، وفي نهاية الندوة قدم إلـي (م.إ) نفسه، وتكرر لقاؤنا ومناقشتنا حتى توثقت علاقتنا.

كنت أيامها أقرأ بنهم وقد توقفت دراستي عند الشهادة الابتدائية بسبب ظروف أسرتي، كنت أبحث عن طريق بـين متاهات الأفكار والفلسفات، وأرشدني (م.إ) الـذي أعجبـت بسعة ثقافته ومحاولة صدقه إلى بعض الكتب التـي ينبغـي قراءاتها، وأعارني بعضها.

---

(5) أخذت أقوال فكري سالم من مسودات كتاب بدأ في كتابته عام ١٩٨٥ عن علاقته بـ (ش)، وقد أتاح لي الاطلاع على المسودات أحد أبناء فكري سالم، ويقال إن جـزءا من الكتاب نشر في الخارج عام ١٩٨٩.

وذات مساء عرض علي أن يعرفني بصديق يعتقد أنه من أفضل المثقفين في بلادنا، وفي مقهى صغير بحي الدرب الأحمر لا زال موجودا حتى الآن التقيـت بـ ـ (ش) ومـن الدقائق الأولى استحوذ على إعجابي وتقديري.

لم يكد يبدأ الكلام حتى وجدتني أنصت إليـه بكليتـي، تدفق في الحديث الهادئ الذكي عارضا لمختلـف الفلسـفات ورأيه فيها، ورؤيته لواقع بلادنـا والطريـق إلـى تغييـره فأدركت ضآلة ثقافتي وضآلة معارفي أنا الذي كنت كثيرا ما أزهو بنفسي وأنا أتصدى لمجادلة من يسمونهم بكبار الكتاب والمفكرين.

كان (ش) إلى جانب ثقافته الواسعة ثاقب النظرة، دقيقًا وواضحا في تعبيره، ينفذ إلى جوهر الأشياء مباشرة، وكـان له حسه النقدي المرهف الذي لا يخيب.

عندما استأذن منا بعد نحو ثلاث ساعات معتذرا بموعد هام سألت (م.إ) مبهورا بصديقه:

- في أي كلية تخرج صديقك؟

وضحك (م.إ):

- صديقي لم يحصل على أية شهادة.

وتعددت لقاءاتي بـ (ش) وفي كل مرة يزداد إعجابي به وبفكره، قرأت كل ما كان قد صدر له من كتب، ووعيت جيدا ما يقوله عن واقع حياة البسطاء في بلادنا ابـن الحـي الشعبي الذي عانى وعانت أسرته الكثير فآمنت بالطريق التي يدعو إليها لأنها أوضح الطرق وأكثرها واقعية بـرغم أنهـا أطولها وأكثرها صعوبة، ولم تمض شهور حتى كنت واحدا من أصدقاء (ش) المقربين، وكان أصدقاؤه في ذلك الوقـت قلائل.

سعيت دائما لأن أكون مثله في ثقافته وقدرتـه علـى التأثير، كنت أعي كل كلمة يتفوه بها وكل لفتة أو إشارة حتى اعتبرني البعض ولم تمض على علاقتي به سـنوات قليلـة أقرب الناس إلى فكره، وكان هذا يسعدني، ويجعلني أحـس بأنني أطول قامة من الكثيرين، وكم كانت فرحتي كبيرة يوم رشحني هو لأشارك في قيادة عملنا.

تحدثنا يوما، وكنت لا أتجاوز العشرين وسط مجموعة من الأصدقاء في إحدى قضايا فكره، وكان هـو حاضـرا، وبعد أن انتهيت من حديثي بين نظرات الإعجاب انتحى بـي جانبا، وقال بشيء من العتاب الخجول:

- حديثك جيد.. ولكن أليس من الأفضل أن تقول نحن بدلا من أنا؟

ومن يومها وأنا أحاول أن أنكر ذاتي وأقاوم زهوي.

كان لا يساوم في مبدأ وكان في نفـس الوقـت يتسـم بالمرونة في محاورة الآخرين، كان واضحا وحادا كسـيف، وكانت شجاعته مضرب المثل في السجون والمعتقلات التي دخلناها معا منذ عام ١٩٤٦، كانت شجاعته عاقلة وواثقة من نفسها.

في أوردي أبي زعبل عام ١٩٥٩ كان يقف دائما فـي الصف الأول ليتلقى الضربات عن الأصدقاء، ويتزعم رفض الهتاف باسم الحاكم المستبد، حاولت، وحاول الكثيـرون أن يبعدوه عن الخطر فلم يلتفت لنا، كان يسارع بتكسير طريحة الأحجار المطلوبة منه ليقوم بمساعدة الآخرين فـي تكسـير أنصبتهم وخاصة المرضى منهم، وكثيرا ما لمحت الحـزن الصامت والعتاب في عينيه لأنه لا يجد كثيرين يتصدون معه لمحاولة التحطيم الإنساني والفكري لنا.

وفي ليل الأنات الطويل، بعد عناء وعذابات جـروح النهار كان يطلق ضـحكاته الصـافية وتعليقاتـه اللماحـة

الساخرة، وبصوته الهادئ وكلماتـه البسـيطة يـتكلم عـن تاريخنا، ويحكي عن شهداء العقيدة والفكر في بلادنا والعالم.

عندما صلبوه على العروسة في معتقل الفيوم، وجلدوه كما لم يجلدوا أحدا منا وهو مسبل العينين دون أن يتفوه بـآه واحدة تذكرت ما قرأته عن سبارتاكوس والمسـيح وبـلال، وأحسست بدموعي جمرات تنساب على قلبـي، حاولـت أن أحطم القضبان التي كنت أُحبس خلفها لأصاب أنا بدلا منـه، وحين دفعوا به إلينا كان وجهه المغتسل بالعرق والدم يبتسم، ما زلت أحتفظ بملابسي التي خلعتها حينذاك لأستر بها بدنـه الجريح.

قلت له يوما وأنا أسير إلى جانبه في معتقل الواحات:

- أنت قديس حقيقي.

فالتفت إلي بحدة:

- لست قديسا، ولا أتمنى أن أكون، كل ما أريـده أن أكون مشروعا لثائر.

عندما كنا نميزه بشيء حرصا علـى صـحته كـان يرفض بشدة:

- أنا للأصدقاء وليس الأصدقاء لي.

ذات مساء كنا نسير معا بعد خروجه من الاعتقال الذي لم أزامله فيه، وبعد أن تكلمت عن العمل الذي أنجزته في غيبته هز رأسه راضيا:

- حصاد جيد.. ولكن..

وتطلعت إليه قلقًا فقال ببسمة صغيرة:

- لو أن لديك قدرا من الجنون.

لمح مرات بأهمية أن أترك العمل بأرشيف وزارة العدل لأتفرغ لعملنا وللكتابة، وهممت أكثر من مرة بتنفيذ رغبته، ولكنني كنت أخشى التعرض لمخاطر الحاجة التي يمكن أن تربك عملي وتعرض زوجتي وأولادي لمتاعب لا مبرر لها، أدركت بعد سنوات طويلة أنني لو كنت أخذت بنصيحته وتفرغت للعمل لتغير حالنا كثيرا.

عندما أُفرج عنا عام ١٩٦٤ كنت أشاركه رأيه بضرورة العمل بأساليب جديدة. وحين تفرق معظم الأصدقاء، واختاروا سبلا أخرى، واختلطت كل الأوراق اعتكفت ببيتي حائرا ومترقبا. ويوما زارني في ساعة متأخرة من الليل، قال محذرا:

- انتبه جيدا، واعتصم بحذرك حتى ينقشع الضباب.

وبعد شهر زارني عند الفجر ومعه فارس زايد وعلي النجاتي وفاضل زكي وتناقشنا في أوضاع بلادنـا والعـالم، وكان كعادته ثاقب البصيرة، واتفقنا على بـدء العمـل مـن جديد، ولم تمض أيام حتى قبض عليه وأودع السراية.

ونفذت خطتي، قطعت علاقتي بالجميع، تظاهرت بأنني قد يئست من كل شيء، وسعيت لنقلي إلى السراية كموظـف أرشيف، وما كاد يصدر قرار النقل حتى كان (ش) قد تمكن من الهرب والرحيل إلى الخارج.

راسلني مرات، ودلني على بعض الأصـدقاء الـذين يجب أن أعمل معهم وانطلقت في العمل حـذرا، وبأسـاليب جديدة حتى قبض عليه في الخارج وأعادوه إلـى السـراية، ومن يومها قررت أنا والأصدقاء أن نعمل بـالنفس الطويـل حتى نتمكن من إخراجه وتوفير الأمان الكامل لحمايته وعمله بين الناس دون أن يقع في يد الأعداء مرة أخرى.

مر نحو أربعة عشر عاما ونحن نعمل لإخراج (ش). أصبح لنا عدد كبير من الأصدقاء داخل السراية وخارجهـا، أصبح فاضل زكي الطبيب الوحيد المختص من قبـل الإدارة بمتابعة حالة (ش)، وهو أخصائي العيادة الخارجيـة الـذي

يقرر من يدخل السراية ومن لا يدخلها، وفارس زايد حارس البوابة الخارجية، ونادر شوقي المسئول عن عملنـا داخـل السراية، والمشرف على الـدمياطي فـي توزيـع الأغذيـة والملابس التي ترد في الزيارات من الأهالي ومن أصـدقاء الخارج. وعادة ما يكون الممرض الذي يقوم بحراسة حجرة (ش) واحدا من الممرضين الأصدقاء، وبفضل وجـود وداد فارس وغيرها من الأصدقاء بمبنى الإدارة أصبحنا نعـرف أسرار إدارة المستشـفى ونـتحكم فـي توزيـع الأصـدقاء والمرضى على العنابر، لقد أصبح لنا أصدقاء في كل العنابر والأبنية وحتى في قسم النساء، والكثيرون من النزلاء الـذين نوزع علـيهم جـزءا مـن وارد الزيـارات يحبـون (ش) ويتعاطفون مع الأصدقاء. لقد أصبحنا نهيمن بالفعـل علـى السراية ونتحكم في معظم شئونها، المشكلة أنه لـيس لـدينا خارج السراية من الأصدقاء والإمكانيات ما يكفـي لتـوفير الحماية الكاملة وحرية الحركة لـ (ش) والأصـدقاء عنـد خروجهم.

نادر شوقي

عند وصولي إلى السراية ذهبت إلى الدكتور فاضل في العيادة الخارجية فأعطاني أوراقًا للمعلم أخذها منه في زيارته الأخيرة، وطلب مني توصيلها لوداد لتسليمها لفكـري سـالم الذي يشرف على طباعة أوراق المعلم وكتابات الأصدقاء.

أخفيتها بين أوراقي، وفي طريقي إلـى مبنـى الإدارة خطر لي أن أنزوي في مكان بعيد وأقرأها، كانت قد مـرت شهور دون أن أمسك بنسخة أصلية من أوراق المعلم، قاومت رغبتي الملحة احتراما للنظام الذي وضعناه لعملنا، وذهبـت إلى حجرة السكرتارية، جلست إلى جانب وداد، ودسست لها الأوراق بين الملفات على مكتبها، واتفقت معها على موعـد لقاء في المساء.

وفي فناء الاقتصادي، وأمام مبنى المعلم كان كل مـن إيبوور وزكريا وقرمط وجاليليو في مكانـه، وكـان وائـل يتمشى بقامته الربعة وكتفيه العريضين وقد عقد ذراعيه على صدره.

كانت نافذة حجرة المعلم مواربة، أحسسـت بالشـوق إليه، تلكأت أمام المبنى، فكرت في أن أتسـلل إلـى البـاب

وأدخل لأراه، كان قد مر أكثر من خمسة شهور على آخـر مرة رأيته فيها، وذهبت إلى الكانتين وأخذت كرسيا وجلست في الخارج وعيناي مشدودتان إلى مبنى المعلم الذي يلـوح على مقربة مني خلف سور عنابر العام، وتـذكرت لقاءنـا الأول منذ سبعة أعوام.

أدخل إليه متهيبا خافق القلب فأجده جالسا إلى المائـدة الصغيرة منهمكًا في الكتابة، يرمقني بنظرة سـريعة، ويهـم بالعودة إلى كتابته ولكنه يعاود النظر إلي بنظرة فاحصة وقد عقد ما بين حاجبيه الأشيبين، أبتسم مرتبكًا، وأخطـو نحـوه متعثر الخطى ودقات قلبي تسرع، أقول متلعثما:

- أنا نادر بن شوقي منصور.

وتتفتح أسارير وجهه الوسيم عن بسمة كبيرة، وينهض واقفًا، أمد له يدي فيأخذني إلى صدره ويطـوقني بذراعيـه، ويتأملني بعينيه السوداوين الواسعتين الباسـمتين، أرى أثـر السنين تجاعيد حول عينيه وفمه.

- أنت تشبهه إلى حد كبير.

ويقول ببسمته المحبة الحانية التـي سـكنت ذاكرتـي سنين:

- كان أبوك من أعز الأصدقاء، كان رائعا.

بدا لي أنه ازداد نحولا عما كان في ذلك الزمن البعيد، وأن قامته مالت قليلا إلى الأمام، وأصبح شعره الطويل أشيب، وثمة أسى شفيق يطوف بوجهه الباسم المتعب.

ويجلسني إلى جواره وأنا ما زلت مرتبكًا:

- أنا أعمل في السراية، أنا...

ويربت على كتفي:

- أعرف يا ولدي.

تشرد عيناه، يحدثني عن أبي وبعض مواقفه ونوادره، وتتخلل حديثه ضحكة رقيقة صافية، ويسألني باهتمام عن أحوالي وقراءاتي، يحدثني عن موضوع المقال الذي كان يقوم بكتابته عند دخولي، وفي آخر اللقاء يشد على يدي، ويطلب مني أن أُكثر من زيارته.

يومها خرجت منتشيا وعازما على العمل بكل طاقتي من أجل خروجه في أسرع وقت ممكن، يومها أدركت أن سنين الانتظار والعناء التي أمضيتها كي أصل إليه وأشارك في حمايته وخروجه لم تضع عبثًا، يومها رحنا أنا ووداد

نستعيد ذكرياتنا المشتركة عن المعلم إلى ساعة متأخرة مـن الليل.

- شيء طيب أن يرتبط ابن شـوقي منصـور بابنـة فارس زايد.

كان يحثنا على التعجيل بالزواج، عندما علـم بـأمر إصراري أنا ووداد على التبرع بالمبلغ الذي اقتصدناه لإتمام الزواج لمساعدة الأصدقاء في عملهم بان عليه الضيق، وقال إنه يجب على الأصدقاء ألا يقبلوا بذلك.

أسأله في المرة الأخيرة:

- ألا تريد شيئًا يا معلمي؟

ويبتسم بأسى:

- أريد شيئًا واحدا تعرفونه كلكم، أن أخرج إلى الناس ويخرج معي كل الأصدقاء.

وأعطاني آخر كتاباته، وطلب منـي أن أقرأهـا فـي حضوره، وأن أبدي رأيي وملاحظاتي، قلت إنـه ينبغـي أن أسلمها أولا إلى فكري سالم باعتباره المشرف على طباعـة أوراقنا فشوح بيده:

- اقرأها الآن.

وقرأتها، وكانت تصف أحوال السراية وعنبر عـزل المجاني كما لا يستطيع أحد منا بالرغم من زياراته القليلـة والمتباعدة لعنابر السراية.

- لو كان (ش) معنا.. لو كان بالخارج.

كثيرا ما كان يقولها أبي وعم فارس عندما كان المعلم في المعتقل، وبعد أن قبضوا عليه وسجنوه في السراية عـام ١٩٦٥.

في مستهل صباي، وفي الأمسيات يجلسني أبـي إلـى جانبه، ويحكي عن (ش) صديقه ومعلمه الذي التقى به هـو وصديق عمره فارس زايد عام ١٩٤٦ في إحدى المظاهرات الكبيرة بشبرا الخيمة، يشف وجه أبي بالحب والأسى، وتشرد عيناه مفعمتين بالشوق، ويحكي لي عن جسارة مواقف المعلم في الإضرابات والمظاهرات، ومواقفه من الأصدقاء فأتخيله فارسا فارعا قويا لا يقهر كالفرسان الذين أراهم في صندوق الدنيا، وذات يوم في أبريل عام ١٩٦٤ يقبل أبـي مـتهللا، ويعلن أن (ش) سيزورنا في المساء، وتبتهج أمي، وتسـارع بتنظيف حجرتنا كما لم تنظفها من قبل، وتعد طعاما لا نأكل

مثله إلا في الأعياد، وأرتدي أنا ملابس العيد الجديدة، ويأتي عم فارس ووداد وأمها، وننتظر جميعا في ترقب ولهفة.

ويدخل (ش) باسما، أحملق إليه دهشًا، لم يكـن كمـا صوره خيالي وأنا أستمع إلى حكايات أبي، كان يميـل إلـى الطول والنحافة، لا تبدو عليه علائم القـوة البدنيـة، ولكـن لشيء ما في وجهه ونظرة وبسمة عينيه يميل المرء إليه من النظرة الأولى.

عانق أبي وعم فارس عناقًا حارا، وشد بكلتا يديه على يد أمي ويد أم وداد، ومد إلي ذراعيه باسما فأجفلـت فمـال علي، وقبلني، وقدم إلي الكتب والألوان المائية التي أحضرها لي لأن والدي كان قد أخبره أنني أحب الرسم، وضـم وداد إلى صدره وقبلها وأعطاها العروسة التي أحضرها لها.

وحول الطبلية تجمعنا، وانطلقت ضحكاتنا. كان كواحد منا.

ليلتها وحتى ساعة متأخرة من الليل جلس هـو وأبـي وعم فارس على الكنبة العربي يتحادثون، وجلست أنا ووداد وأمي وأمها على الحصير ننظر إليهم، ونستمع إلى حـديثهم الذي لم أفقه منه شيئًا.

بعد أيام سمعت أبي يهمس لأمي:

- لم أر (ش) حزينًا من قبل كما أراه هذه الأيام، لقـد تخلى عنه كثير من الأصدقاء.

ويوما أسمع أبي يقول لعم فارس وهو يهز رأسه:

- لن يتركوه حرا هذه المرة..

ويوم أمسكوه، وأودعوه السراية بكى أبي كما لم يبـك من قبل، وبكت أمي.

كانت أمنية أبي في ساعاته الأخيرة وهو يقيء دما أن يرى المعلم ولو للحظة واحدة، وعلى صدر عم فارس نظـر إلي نظرته الأخيرة، وهمس لصديق عمره:

- أتمنى أن يكون نادر معكم بدلا مني.

وطوال العامين اللذين أمضيتهما عند أعمامي التجـار ببورسعيد عاشت بداخلي ثلاثة وجوه، وجه أبي ووجه (ش) ووجه وداد، وكان وجه أبي ملازما دائما لوجه المعلم.

وأنا في الرابعة عشر يقدمني عم فـارس إلـى علـي النجاتي تلميذ أبي وصديقه:

- نادر بن شوقي منصور، كان شوقي يريده أن يكون واحدا منا.

وتبتسم عينا علي النجاتي الذكيتان والطيبتـان خلـف نظارته، وتتلألأ فيهما الدموع، ويضمني إلى صدره.

- سأرد بعض دين عم شوقي منصور:

وتنبهت على عم رزق يقف أمـامي بوجهـه الكبيـر الداكن السمرة وعينيه الصغيرتين، أحد زملاء وأصدقاء أبي، والذي أدخله عم فارس السراية منذ عشرة أعوام.

وقفت، وسلمت عليه:

- كيف حالك يا عم رزق؟

فقال بصوته الأجش وهو يحرك عصاه التـي يتوكـأ عليها:

- طولت يا بن صاحبي.

وابتسمت:

- كل أول وله آخر.

- الصحاب نايمين في الخل نوم.

- بكره الخل يبقى عسل.

وهز رأسه:

- مش باين.

واقترب شهاب، وقف على مقربة منـي يحـدق إلـي بنظرة مبهمة.

تأملت وجهه البارز الوجنتين وعينيه الحادتين ولحيتـه الكثة وشعره الهائش، صديق الصبا وزميل الدراسة، المثقف الذي كان لا يكف عن السؤال، دخل السراية منذ أكثر مـن خمسة أعوام متظاهرا بالفصام، وانطلق في تثقيف الأصدقاء ولم يمض عام حتى اتهمنا بالخروج على مبادئ (ش) والعمل على بقائه محبوسا، وجن، وبقي في السراية يرفض أن يأخذ أي علاج. يطوف بأسماله في الأفنية وخاصة أمـام مبنـى المعلم، وينام خلف العنبر الصغير بلا غطاء.

قلت لعله يكون في إحـدى لحظـات إفاقتـه النـادرة فاتجهت إليه ووقفت أمامه:

- شهاب.

والتمعت الدموع في عينيه الواسعتين، واستدار وابتعد.

مجدي عبد السلام

علمت في نهاية يوم العمل أمس أنه تقرر أن أشـرف على قسم النساء إلى جانب الإشراف على عنبـري، وذلـك لغياب الدكتورة سناء في إجازة لمدة شهر ففرحت، وأمضيت بقية اليوم قلقًا أترقب مرور الوقت.

واليوم بكرت في الذهاب إلى قسم النساء، كان قلبـي يسرع في خفقانه وأنا أخطو من بوابة فناء القسـم كمراهـق يذهب إلى أول لقاء غرامي في حياته. اتجهت فور دخـولي إلى عنبرها، واندفعت عيناي إلى سريرها بجوار النافذة فلـم أجدها، تلفت في أنحاء العنبر ودقات قلبي تسرع، واقتربـت مني الممرضة السمينة السمراء، وهمست لي بخبث وشـيء من شماتة:

- نقلت إلى عنبر المدمنات.

صعقت، هممت بأن أسأل الممرضة عمن تعنيها بقولها فألجم لساني، ما علاقتها هي بالإدمان والمخدرات؟.. لم يبـد عليها أنها تتعاطى المخدرات سرا، هل دسـت لهـا إحـدى النزيلات مخدرا نكاية فيها؟

هممت بالاندفاع إلى عنبر المدمنات بقسـم الإدمـان، ولكني تمالكت نفسي حتى لا أفضح حقيقة مشاعري نحوها، وقررت أن أرجئ الذهاب إلى ذلك العنبر إلى نهاية اليوم.

تمشيت في العنبر أستعرض وجوه النزيلات، وأنظـر في استمارات الفحص المعلقة على الأسرة وأنا غائب الذهن، أشرت بصرف العلاج اليومي لبعض النزيلات، وقمت بجولة سريعة في العنبر الآخر، ثم ذهبت إلى الحجرة المخصصـة لطبيب القسم.

ضقت بالحجرة الصغيرة فأخذت كرسيا وجلست فـي الفناء، في ظل الحائط، تساءلت لماذا أربـط نفسـي بهـذه النزيلة؟.. ماذا آمل منها؟.. لابد أن تخرج يوما وتعود إلـى زوجها أو تسوء حالتها ولا تجد من يخرجها فتقضـي بقيـة عمرها في السراية مثل الكثيرات. لماذا لا أقاوم أحاسيسـي نحوها خاصة وأنا أسعى للنقل إلى سوهاج؟

وخرجت معظم النزيلات، وتفرقن في الفناء، جلسـت مجموعة من النزيلات المرتديات للسواد في دائرة صـغيرة على مقربة مني، وسرعان ما بدأت إحـداهن فـي العديـد، أنصت إليها وأنا أتذكر العديد الذي حفظته عن جدتي وأمي:

ما أقدرش أنا على بعـدهم عنـي   تلفوا منامي وغيـروا ظنـ ـ ـي
ماقدرش أنا على بعدهم يـا نـاس   تلفوا منـامي وكتـروا الهلـواس

وقالت أخرى:

فارقتكم فارقت كـل النـ ـ ـ ـاس   فارقت عقلي ما دخل لـي راسـي
فارقتكم فارقت كـل أهالـ ـ ـ ـي   فارقت عقلي ما دخـل فـ ـ ـ ـي

وفاضت أشجاني وذكرياتي، عادت بي الذكريات إلـى قريتي إخميم، وعديد النساء وندبهم في المآتم، وأمـي التـي ارتدت السواد منذ أن مات أبي من أكثر من عشرين عامـا، تذكرت الرسالة التي بدأت في كتابتها ردا على خطاب أمـي ولم أتمها، آخر مرة رأيتها فيها كانت منذ مـا يزيـد علـى خمسة شهور. هل بلغ بي الجحود إلى ذلك الحد؟.. ماذا لو لم يتم نقلي إلى سوهاج والعيش في إخميم؟

هل يمكن أن أعيش في السراية سنين كما عشت فـي القصر العيني؟

وطفت ذكريات قديمة، تمثل لي وجه هناء التي أحببتها أربعة أعوام كاملة في أثناء دراستي الجامعية، وفرق بيننـا أهلها لأنني ابن فلاح لا يملك شيئًا يذكر وهي بنت الإقطاعي

القديم الذي يملك الخمسين فدانًا في الظاهر ويملـك المئـات سرا بعقود بيع صورية لأقاربه وأتباعـه، تـذكرت شـهور الضياع التي عشتها لعجز هناء عـن التمـرد علـى أهلهـا والارتباط بي، تمثلت لي وجوه فتيات ونساء ربطتني بهـن علاقات عابرة أو مشاعر مصطنعة، ها أنـا أشـرف علـى الأربعين وليس لي حتى سكن مستقل، ولا آمـل فـي زواج وأسرة، تساءلت عما تخبئه لي الأيام القامة.

توقفت عيناي على فتاة في نحو السادسة عشر تقـف إلى جوار حائط العنبر المواجه، وجهها الأبيض المدور رقيق القسمات وشاحب، وضفيرتا شعرها الأشقر تنسـدلان علـى قامتها الناحلة، مددت إليها البصر، أدركت من انكسار عينيها اللتين تحيط بهما هالتان داكنتان، ومن وقفتها أنهـا مصـابة باكتئاب حاد، التقت عيناها بعيني فأشرت لها بالاقتراب.

اقتربت بخطى مترددة ومرتبكة، أحضرت كرسيا مـن حجرة الطبيب، وأجلستها إلى جانبي، سـألتها عـن اسـمها فرفعت إلي عينين سوداوين بنظرة جامـدة، ولـم تنطـق، ابتسمت لها، وسألتها عن تاريخ دخولها المستشـفى فظلـت

تحملق إلي دون أن يرف لها جفـن، واقتربـت الممرضـة، وقالت بصوت غليظ خشن:

- إنها خرساء، وهي بنـت بـواب أدخلهـا أبوهـا المستشفى من سنتين ولا يزورها أحد.

أطلت النظر إلى وجهها وهي تجلس إلـى جـانبي لا تختلج، وددت أن أعرف شيئًا عن ظروفهـا. نحـن أطبـاء السراية لا نقابل أهالي المرضى - إذا قابلنـاهم - إلا لقـاء عابرا يوم إدخال المريض، ولا يدون عـادة فـي اسـتمارة الكشف كل الأعراض والتاريخ المرضي للنزيل، وكثيرا مـا يكون التشخيص المدون بالاستمارات خاطئًا. سألت الممرضة عما تلاحظه من أعراض وسلوكيات للنزيلة فقالت، إن الفتاة تنام كثيرا وتستيقظ قبل الفجر وقلما تتناول وجبات طعامهـا. طلبت منها إحضار استمارة الفحص، كان التشخيص فصاما وهلاوس بصرية فشطبت عليه، وكتبـت اكتئـاب عقلـي، وأشرت باسم الدواء ومواعيد الجرعات.

وأطالت الفتاة النظر إلي ثم قامت ودخلت العنبر.

وجاءت امرأة في نحو الأربعين تتقصع، وتتثنى، وتتضاحك في مجون هستيري، كانت على شيء من البدانة، وفي وجهها الملطخ بالمساحيق شيء من ملاحة، سألتني:

- إنت الدكتور الجديد؟

- أجل.

قالت في ميوعة:

- ضهري بيوجعني يا دكتور.

أجلستها إلى جواري وأنا أدرك أنها حالة هستيريا. أخذت تتصنع الحياء، وترمقني بنظرات إغراء فجة وهي تحكي حكايتها.

قالت إن زوجها الذي توفي منذ شهور أدخلها المستشفى لأنه كان يريدها ولا تريده، وإنه لم يكن يعرف كيف يفعل ذلك الشيء الذي ذكرت له اسما شائعا، وحدثتني عن الآلام التي تعانيها في ظهرها وفي موضع آخر.

وفاجأني صوت ضجة أشبه بقرع طبول الزار تصدر من أحد العنبرين فاندفعت إليه، وادهشتي وجدت امرأة ملقاة على الأرض متشنجة، متخشبة الأطراف والرغاوي تسيل من فمها المطبق، وحولها عدد من النزيلات يضربن على

آنية الطعام وتتطوحن بحركات الـزار، وممرضـة العنبـر تمسك بأحد الآنية وهي تتضاحك.

أسرعت الممرضة بإلقاء الإناء:

- أصل عليها أسياد.

وصحت في النزيلات فابتعدن عن المرأة المصروعة، وهمت يدي بصفع الممرضة السمينة التي تحملق إلي بصفاقة وقحة، وهددتها بإبلاغ الإدارة إذا تكرر مثل هذا الأمر.

وأفاقت النزيلة الشابة، ونظرت حولهـا فـي ذهـول فأخذتها إلى فراشها، وأشرت على استماراتها بصرف علاج الصرع وأنا أدرك أن الدواء لن يصرف، وأن حفلات الزار ستتكرر.

وفي طريقي إلى خارج العنبر واجهتني امرأة تتجاوز الخمسين، وأخرجت ثديها الضامر، وأخذت تدلك حلمته وهي تنظر إلي مفتوحة الفم لاهثة.

نظرت في ساعتي فوجدتها تقترب من الثانية عشـرة، قررت أن أذهب إلى عنبر المدمنات ثم أقوم بالمرور علـى نزلاء عنبري.

عند باب عنبر المدمنات لقيـت الـدكتور محجـوب، حياني ببسمته الكريهة فلم ألتفت إليه، ضايقني أن يكون هـو الطبيب المشرف على العنبر الذي توجد به نزيلتي.

لمحتها جالسة على سرير في نهاية العنبـر، ابتسـمت عيناها فور أن رأتني، وخفضت رأسها، واستبقيت يدها فـي يدي، وجلست إلى جانبها وقلبي يرتجف، همست لي وهـي خافضة الرأس:

- أريد الخروج من هنا.

فقلت لها:

- سأحاول إخراجك في أقرب وقت ممكن.

وسألتها:

- هل وجدوا معك شيئا؟

ورفعت عينيها في تساؤل، فقلت:

- هل وجدوا أي نوع المخدرات؟

قالت في استنكار غاضب:

- مخدرات؟!.. أنا لا أعرف مثل هذه الأشياء.

وسالت دموعها، وقالت بصوت خافت مرتجف وهـي تنظر إلى باب العنبر بخوف إن الدكتور محجـوب حـاول

الاعتداء عليها في حجرة الطبيب في غياب الدكتورة سـناء فقاومته، وبعد ساعات نقلوها إلى عنبر المدمنات.

اندفعت الدماء إلى رأسي، تنبهت على بعض النزيلات وقد تجمعن حولنا ورحن يتغامزن ويبتسمن فقلت وأنا أقـوم من جانبها:

- ستخرجين من هنا في أسرع وقت.

أسرعت إلى مبنى الإدارة وصدري يزدحم بالغضـب، قررت أن أخبر كبير الأطباء بما فعله محجوب، وأن أطلـب منه إجراء التحاليل للتأكد من عدم تعاطي النزيلة لأي مخدر.

واستوقفني نادر، سألني عن وجهتي وسـبب غضـبي فأخبرته بما قالته السمراء، وما أنوي فعله فتكـدر وجهـه، وأمسك ذراعي واتجه بي صوب الكانتين وهو يقول:

- لا فائدة من محادثة أحد هنا، أنـت تعـرف كبيـر الأطباء، والدكتور محجوب عميل للمدير ولمكتب الأمن، ولا يرفض له طلب، خاصة وأن نزيلتك دخلت السـراية مقابـل رشوة كبيرة دفعها زوجها البلطجي ليتخلص منها ويسـتولي على الثروة التي ورثتها عن أبيها.

حدقت إليه ذاهلا:

- ومن أدراك أنت بذلك؟

فقال:

- أعرف ذلك من مصادر موثوقة.

- ولكنها توجد في عنبر محجوب، وتحت رحمته، ما الذي يمكن عمله؟

ومرر أصابع يده على جبينه.

- أنت لا ظهر لك وإلا لكنت قد نقلت في يوم تقديمك لطلب النقل.

وتفكر قليلا:

- يمكن عمل شيء قد يأتي بنتيجة، ابعـث ببرقيـات تلغرافية إلى المسئولين بوزارة الصحة لعله يوجد مـن لـم يصل إليه تأثير زوجها الثري.

وأضاف:

- أرى ألا تذكر اسمك أو شيئًا عن الدكتور محجوب. طالب بالكشف عليها وإخراجها من السراية أو على الأقل من عنبر المدمنات.

وقال ونحن نفترق:

- إذا لم تحقق البرقيات شيئًا يمكن أن نفكر معا فـي حل آخر.

وتحمست لاقتراح نادر، وذهبت إلى عنبري، ومكثـت فيه نحو ساعة وأنا شارد الفكر عن النـزلاء ثـم غـادرت السراية، وأرسلت خمس برقيات إلى وزير الصحة ومسئولين آخرين.

أمين زاهر

بدأ الفيض والسطوع، بدأت الكتابة.

خرجت من بيت فكري سالم، وانطلقت في الشـوارع وصدري يموج بشتى الأحاسيس، أحاسيس عشتها منذ ثلاثين عاما حين عرفت (ش) وأحببته واخترت طريقه، وأحاسـيس عشتها وأنا في نشوة وذرى الإبداع، وأحاسيس جديـدة لـم أعشها من قبل.

انطلقت في الشوارع بفرح وخفة وعزم صباي، تغيرت في عيني دلالات كثيرة من الأشياء، تغيرت نظرتـي إلـى حركة الناس وهم يمضون ويسرعون في الطرقات، لم أر في أهل مدينتي البشر المهـزومين والعـاجزين عـن العطـاء والتائهين كما كنت أراهم فـي سـنوات الجـدب وشـهور الاكتئاب، رأيت فيهم البشر الذين برغم كثرة ما عانوا آلاف السنين كانوا الأم التي أنجبت (ش) والأصدقاء، والتي تحميهم الآن وتُخفيهم عن العيون حتى تقدمهم هبة حياة للعالم وأيامه القادمة.

مضيت في الشوارع كيفما ساقتني قـدماي وعينـاي والمشاعر والأشواق التي تحتشد وتنتقد بداخلي.

وفي ميدان التحرير جلست أمام المتحف المصري وأنا أتأمل الناس الذين استعدت القدرة على فهمهم وحبهم وتلمس الأعذار لهم. وتنبهت إلى أنني أجلس أمـام المكـان الـذي أمضى فيه حافظ أمين العامين الأخيرين قبل أن يقهر عقلـه ويدخل عنبر عزل المجاني بالسراية.

تجسد لي وجه حافظ وهو يقول لي وقد التمعت عينـاه خلف نظارته ببريق غريب:

- ذهبت إلى كل القاعات، خاطبت الآلهـة والملـوك والأقزام والكاتب المصري، ولم يدلني أحد على السر.

وأحدق إليه دهشًا ومرتعبا:

- أي سر؟!

ويخافت صوته، ويهمس لي بكلمات لا أتبينها ثم يقول بإصرار:

- لابد وأن أصل إلى السر، وأعلنه للجميع حتى ولـو كلفني هذا حياتي.

أحدق في بريق عينيه الغريب، ويستبد بي القلق، أتذكر ما أفضى به إلي ذات مسـاء عـام ١٩٧٠ حـول دخولـه

مستشفى الأمراض العقلية عام ١٩٦٧ وحياته في عنبر عزل المجاني، يومها همس لي:

- لو رأيته لرأيت الجحيم.

أخشى عليه من تكرار تلك التجربة، أحـاول تهدئتـه، وأخذه إلى الخارج فينفلت مني إلى القاعات، وبعـدها بأيـام أعرف أنه قام بأفعال انتهت به إلى عنبر عزل المجاني مـن جديد.

تتابع في جلستي كثير من مشاهد علاقتي بحافظ منـذ عرفني به أحمد البكار ذات ليلة عام ١٩٥٧ عنـد شـاطئ البحر في الإسكندرية، وفجأة تتشابك بعض الخيوط، وتلتـئم بعض المشاهد، وتُشع فتولد التجربة، تشف ملامحها العامـة فأسرع إلى بيتي والتجربة تتنامى وتتحدد ملامحها كروايـة عن حافظ أمين الشاعر ورحلته التي انتهت إلى السراية.

وفور وصولي إلى البيت جلست إلى مكتبـي، وبـدأ الفيض. مرت الساعات وأنا أكتب بلغة لم أكن أعرف أننـي أمتلكها فأيقنت بأنني سأبدع عملا يكون أفضل ما كتبت.

وها قد مرت ثلاثة أيام وأنا أواصل الكتابـة منتشـيا وقادرا وسيدا.

مجدي عبد السلام

دخلت قسم النساء، نظرت إلى النافذة التي اعتادت أن تجلس إلى جانبها، أحسست بالشوق الأسيان إليها، مر أسبوع على إرسال البرقيات دون أن يظهر لها أثر. قاومت رغبتي طوال الأسبوع في الذهاب إلى عنبر المـدمنات، واكتفيـت بإرسال الطعام إليها مع ممرض عنبري.

واستقبلتني الندابات:

مالك تشيل عينـك تكـب دمـوع   يا ريتني حكيم ومعايا دوا الموجوع
مالك تشيل عينـك تكـب كيمـان   يا ريتني حكيم ومعايا دوا العيـان

كانت معظم الحالات اكتئاب عقلي وهيستيريا وذهـان الشيخوخة، وكان التشخيص في كثير من الاستمارات خاطئًا فغيرت التشخيص وأنواع العلاج، واستمعت فـي جلسـات طويلة إلى بعض النزيلات، وعرفت المزيد من المآسي.

دخلت العنبرين، وسرت بين الأسـرة، تحادثـت مـع بعض النزيلات، وأشرت بتغيير العلاج والجرعـة بالنسـبة لبعضهن، وذهبت إلى حجرة الطبيب، وأخذت أتصفح جرائد الصباح التي أصبحت أُعنى في الأيـام الأخيـرة بأخبارهـا

السياسية بعد أن كنت أكتفي بالمرور السريع على العنـاوين الرئيسية وقراءة صفحة الوفيات.

لمحت الفتاة الخرساء ذات الشعر الأشقر واقفـة إلـى جانب الحائط، وطُرق الباب المفتوح طرقات خافتة، وظهرت فيه امرأة في نحو الأربعين ترتدي ثوبا أسود حائل اللـون، تنطفئ من وجهها الداكن السمرة المهزول البارز الـوجنتين عينان سوداوان فيهما جحوظ وحول، وتعصب رأسها بمنديل أسود، نظرت إليها مستفهما فقالت:

- شفت أخويا؟

كان وجهها ينضح بالأسى، سألتها:

- أخوكي مين؟

قالت:

- أخويا محمد اللي خطفوه.

طلبت من منها الجلوس على كرسي أمـامي فجلسـت على حافته محاذرة استرعى انتباهي وجود قطن فـي كلتـا أذنيها، سألتها:

- مين اللي خطفوه؟

قالت وهي تحرك ذراعا مرتعشة:

- الأفندية.

وانطلقت في كلام سريع ومتوتر:

- أنا ستوته أخت محمد محمود عثمان، سماني أبويـا على اسم أمي ستوتة أحمد الشرقاوي، كان أخويا محمد طيب وابن حلال، يقلع قميصه لحبيبه ويدي اللي في جيبه لصاحبه، ويخدم كل الناس، بيحكوا عنه إنه كان بيطلع في المظاهرات ضد الإنجليز والملك، وكان يكافح الكوليرا لما كانت الشوطه في كل البلد، وخطفوه الأفندية، قال لأمي إنه مسافر لصاحبه في طنطا، وجالنا الخبر إن الأفندية خطفوه من هنا، وأمـي وأبويا دوروا عليه في كل حتة مالقيهوش، ناس قالوا سجنوه، وناس قالوا قتلوه، ومات أبويا مـن الحسـرة بعـد خطفـه بجمعتين، وراحت أمي تدور على محمد في كل حتة، مخلتش دورت في كل البلاد، كانت تسـد ودانهـا بـالقطن عشـان متسمعش أدان العيد، ضاعت واحدة من عينيها من كتر البكا، وكترت عليها الأمراض، وليلة ماتت وصتني، قالت لي يـا ستوتة لازم تلاقي أخوك حي أو ميت، ورحـت أدور عليـه مخلتش، سألت كل الناس، وجيت هنا وبرضه مـالقيتهوش، ماتعرفش حاجة عنه.

أدركت أنني أمام مأساة مناضل خُطف وقتل، تساءلت، متى كان ذلك؟.. أيعرف أمين زاهر ذلك المناضل؟.. أيكون واحد من أصدقاء (ش) الذين طوردوا واضطهدوا دوما؟

نظرت إلى ستوته التي تحملق إلي بحزن أمل، فكرت، ماذا يمكن أن يساعد على شفائها، أن أؤكد لها القول بمـوت أخيها وعدم إمكان العثور على قبره أم أترك لها الأمل فـي العثور عليه؟.. قلت:

- لازم محمد مات.

وحدقت إلي بفزع ثم خفضت رأسها، وقالت بصـوت خفيض مرتعش:

- أشوف قبره.. أنا فكرت لما أطلع من هنا أدور عليه في كل الترب يمكن ألاقي تربته.

وأبعدت عنها عيني:

- يمكن يكون عايش، سأبحث لك عنه.

وابتسمت عيناها:

- صحيح.. صحيح يا بيه، أنت صـحيح أفنـدي زي الأفندي اللي خطفوه لكن باين عليك إنك ابن حلال وطيـب،

كان لمحمد أخويا أصحاب أفندية، كانوا طيبين وولاد حـلال دورت على بيوتهم ومالقتش حد منهم.

وربتت على ظهري:

- ربنا يخليك يا بيه.. متنساش.

كان الحزن يملأ صدري.

نظرت في ساعتي، كانت تجـاوز الواحـدة، طويـت الجرائد، وعندما هممت بالقيام دخلت المرأة التـي تتقصـع وتتثنى وقد زادت كمية المسـاحيق علـى وجههـا، حالـة الهستيريا، كانت طوال الأسبوع لا تفارق فراشها وتشكو من آلام شديدة في مواضع متفرقة من جسدها.

سحبت الكرسي من أمام المكتب، وجلست إلى جانبي.

سألتها متحفظًا عن أحوالها فنظرت إلي بجانب عينيها بإغراء فج، أمسكت بيدي وقالت:

- أنا باحبك.

وسحبت يدي فمالت علي بوجهها.

- باحبك وعايزاك.

طلبت منها في حزم أن تعود إلى عنبرهـا فاتسـعت عيناها، وابتسمت في اشتهاء وقد تدلت شفتها السفلى.

قمت، واتجهت إلى باب الحجرة فسبقتني إليه وأغلقته، واستندت إليه وهي تشب بصدرها الممتلـئ، وتباعـد بـين شفتيها.

مدت يدي لأزيحها جانبا فطوقتني بذراعيها، وانهالـت على وجهي تقبيلا وهي تلتحم وتحتك بي.

دفعتها، وفتحت الباب وأمرتهـا بـالخروج فالتمعـت عيناها الخائبتان.

بنظرة مهددة، وقالت موعدة:

- كده.. هوريك.

وخرجت خلفها فوجدت محجـوب أمـامي يضـحك مقهقها.

أشحت عنه، واندفعت إلى سكن الأطبـاء مضـطرب الفكر والمشاعر.

وفي الصباح عرفت أنه أسند إلى محجوب الإشـراف على قسم النساء بدلا مني، وأن النزيلة السمراء أعيدت إلـى عنبرها بالقسم.

نادر شوقي

كنت جالسا إلى جانب نافذة الكانتين أتظاهر بمراجعة السجلات، وكان بعض الأصدقاء والنزلاء يتوافدون لأخذ أنصبتهم من أغذية وارد الزيارات، وكان حسن الدمياطي يصر كعادته على أن يقفوا في طابور منتظم حتى ولو كانوا اثنين أو ثلاثة.

وجاء دور ناصح، الفلاح الذي كنت أعجب بنكاته وسخرياته من زملائه والعاملين بالإدارة ومن نفسه، وكان يأخذ حصته من الأغذية على أنها جزء مما يرد إلى الأستاذ (ش) المحبوس بالسراية ظلما، والذي زاره مرات في حجرته كما يفعل بعض النزلاء وأحبه وأعجب به لطيبته وكلامه العاقل والحكيم ككلام جده لأمه خريج الأزهر.

سألته باسما:

- كيف الحال يا ناصح؟

فقال وهو يعدل طاقيته على رأسه:

- ما حد خالي من الهم حتى قلوع المراكب.

وسألته قاصدا الأنبا شنودة وأبا ذر:

- وكيف حال أولياء الله الصالحين؟

فقال، وعيناه الصغيرتان تتابعان يد الدمياطي الذي يعد له نصيبه:

- هم بركتنا.

- والمعلم سطوحي؟

- قاعد على تلها.

قلت:

- ألا تكف عن السخرية منه حتى لا يؤذيك؟

فشوح بيده:

- المفلس غلب السلطان.

وأقبل أدهم زعيم شلة المشاغبين كما يسميه وزملاؤه الأربعة بعض الأصدقاء طلبة كلية الإعلام الذين دخلوا السراية منذ حوالي سنة. كانوا يقيمون معا في حجرة بأحد أبنية الاقتصادي القريبة من مبنى (ش) وقد ظهر عليهم القلق ونفاد الصبر في الشهور الأخيرة فأخذوا يتعاملون مع موظفي الإدارة باستفزاز وعداء ظاهر. كانوا يعلنون عدم رضاهم على أسلوب لجنة القيادة، ويرون أن إخراج (ش) لا يحتاج إلا إلى هجمة مفاجئة من بعض الأصدقاء في أثناء أحداث الارتباك والفوضى في السراية.

قال أدهم الذي يميل إلى النحول للدمياطي وهو يأخذ حصته وحصة زملائه:

- متى تنتهي طوابير المتسولين؟

قلت باسما:

- لا بأس من قدر من النظام والانضباط.

قال مخاطبا الدمياطي:

- أهل دمياط مشهورون بالكرم الزائد، ألست منهم؟

فقال الدمياطي بضيق وهو يشير بإصبعه إلى شعر أدهم الطويل ومنامته المتسخة:

- منذ كم أسبوع لم تستحم ولم تغير ملابسك أنت وشلة الأنس؟

فابتسم أدهم ساخرا:

- تركنا الماء والصابون لم يهتمون بنظافة جلودهم أكثر من نظافة عقولهم.

وقال لي:

- وأنت أيها الأخصائي، هل أصدروا لك واحدا من قراراتهم بالامتناع عن زيارتنا؟

كنت أزورهم أحيانًا في مبناهم، وأستمتع بالمناقشة معهم لأنه برغم حدتهم في التعبير عن خلافاتهم كانوا طيبين ومرحين.

وقال وهو ينصرف:

- لا تجعل من نفسك عجوزا محافظًا كالآخرين قبل الأوان.

بعد صدور القرار بمنع زيارة الأصدقاء لـ (ش) وقف أدهم في طريقي، وقال بغيظ:

- هم يسجنون (ش) وأنتم تحولونه إلى معبود غيبي.

ونظر إليه الدمياطي في نفور وهو ينصرف:

- لو ترك الأمر لهم لدمروا كل شيء.

قلت:

- هم برغم كل شيء أصدقاء، وإذا كانت لهم أفكارهم الخاصة فهذا حقهم.

أصبح فكري سالم يضيق بوجودهم في السراية، طلب إبعادهم إلى بناية تبعد كثيرا عن مبنى (ش) خشية أن يقوموا بعمل متهور يضر بنا، ورفضوا هم تنفيذ هذا الطلب فاقترح في لجنة القيادة فصلهم من صفوف الأصدقاء، وعارضنا أنا

والدكتور فاضل وعم فارس لأننا كنا نرى أنه لا يوجـد أي ضرر في اختلافهم معنا ومع الأصدقاء.

كان الدمياطي يتحرك في الكانتين ببدنه الذي يميل إلى البدانة، ورأسه الأصلع الذي ينغرس بين كتفيه بدون رقبـة، ووجهه الممتلئ المشرب بحمرة، وعينيه المستديرتين اللتـين تلتمعان خلف زجاج نظارته السميك.

كان في أثناء البيع للنزلاء من بضاعة المتعهد وقبـل توزيع وجبة الغداء يقوم بتوزيع ما يرد إلينا في الزيارات من الأغذية والملابس، وكان خبيرا باعتباره بقـالا سـابقًا فـي استلام وبيع الأغذية، يتشاحن كثيـرا مـع عمـال المتعهـد لاستكمال الأصناف الناقصـة والوفـاء بـأكبر قـدر مـن المواصفات.

ها قد أصبح الدمياطي عضوا بلجنة الأصدقاء دون أن يعلم بذلك إلا القليلون منهم، لا علاقة له بالثقافة، نـادرا مـا يقرأ ورقة من أوراق (ش)، وليس له تفكيره المتميز، يحاذر دائما حذر التاجر الصغير، ولكنه يتسم بالدقة الشديدة، وقلمـا يشكو أحد من الأصدقاء من طريقة توزيعه. يسميه بعضـهم بـوزير التمـوين، ويسـميه الأصـدقاء الخمسـة بالبقـال

البيروقراطي العفن، منذ أيام عرض علي أن نقوم بأخذ جزء من بضاعة المتعهد وإضافته إلى وارد الزيارات على أن يتم تغطية ذلك بالدفاتر فانفجرت فيه، ووصـفت هـذا العمـل بالسرقة، قال إنها سرقة من الإدارة التي نعاديهـا لمصـلحة الأصدقاء فرفضت غاضبا، وقلت إنه مهما كانت المبـررات فهي سرقة ونحن لسنا لصوصا فتراجع عن اقتراحه وقد بدا عليه عدم الاقتناع.

وبادرني ابن رشد بالتحية فابتسمت وسألته:

- ما هي منزلة العقل يا أبا الوليد؟

وابتسم وجهه الكبير المسن المليء بالتجاعيد:

- هو أداة النظر، والعقل الجمعي، عقل النوع الإنساني كله خالد.

وعدل عمامته الكبيرة، ومال على نافذة الكانتين هامسا بأدبه الجم:

- أرجو أن تعيدوا النظر في قرار منع زيارتنا للأستاذ لأنه بلا مبرر ويغضب أهل النظر.

قلت باسما:

- سنفعل يا أبا الوليد.

وجاء نور بجلبابه الأبيض بقبته الهلالية وكميه الواسعين القصيرين، ووجهه الأبنوسي يشع بوهج خفي كما يكون في أوقات الإبداع، دخل الكانتين كما يفعل هو وبعض الأصدقاء عندما أكون جالسا فيه، وجلس إلى جانبي باسما، وقال بصوت خافت:

- عندي قصيدة جديدة.

كان يحفظ قصائده مهما كان طولها.

وابتسمت واعتدلت في جلستي، وأنشد قصيدة سماها (الباب الرمادي) تلاها بصوته الدافئ الشجي وتعبيرات وجهه المتسق الملامح، كانت ككل قصائده حافلة بالصورة المركبة والرموز، قد لا تفهم دلالتها أو يصعب تحديد ملامح رؤيتها ولكنها تُحس، وتجعل العقل أشد يقظة وانتشاء، وتثير تساؤلات جديدة. كانت القصيدة تصور رحلة إنسان عارٍ يقطع الخلاء وظلمة الغابات، ويجتاز عالم الجماجم والسهوب الثلجية ليصل إلى الباب الرمادي الذي يفتح على عالم التحقق والأشواق، وتنتهي القصيدة والإنسان العاري يقرع الباب بإلحاح وإصرار بقبضته المتعبة.

أعجبتني القصيدة وتساءلت، لماذا يرفض فكري سالم توزيع قصائد هذا الصديق على أكبر عدد من الأصدقاء والنزلاء داخل السراية وخارجها؟.. يقول إن قصائد نور غامضة وغير مفهومة، وسيربك توزيعها جهاز الاتصال الذي يقوم بتوزيع أوراق (ش) وكتابات الأصدقاء. كانت القصائد ترسل إلى المعلم، وكان يسعد بها، وكثيرا ما كان يطلب نور لمناقشته فيها، وكان بعض الأصدقاء يستمعون إلى قصائد نور بين متحمس ورافض.

تأملت وجه نور ببسمته العذبة وألق عينيه، الشاعر الذي ضممته أنا إلى صفوفنا بعد أن لفت انتباهي إليه الدكتور فاضل الذي اكتشف أن نور قرأ معظم كتب (ش) وأعجب بفكره قبل أن يدخل السراية منذ سبعة أعوام، وأنه يقرأ بنهم كل ما يصل إليه من كتب ترسلها له صديقة بالخارج زارته مرات. عندما أصبحت مسئولا عن العمل في السراية اخترته ليكون مسئول الاتصال لحدة ذكائه وسعة حيلته وجسارته وعلاقاته الطيبة بمعظم الأصدقاء والنزلاء وبعض العاملين بالإدارة.

تذكرت ما قاله عن أبيه الذي أنفق عمره وثروته فـي محاولة تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب وفق وصفات كان يقرؤها في كتب قديمة، والذي مات لفشله في تحقيق حلمه.

ونظر نور باتجاه مبنى (ش) الذي يفصلنا عنه سـور فناء العام المنخفض، ودس ورقة صغيرة مطوية فـي يـدي وهو يهمس:

- خطة لخروج المعلم أعددتها بعـد مناقشـة بعـض الأصدقاء.

ودسست الورقة في جيب سروالي، وابتعد نور وأنـا أتساءل، هل سيرفض فكري سالم خطة نـور كمـا رفـض غيرها من قبل؟

وجاء عم إبراهيم بقامته التي تميل إلى الطول والبدانة، وعينيه الصغيرتين المقرحتي الأجفان، الدامعتين دوما، وقـد دفع بطاقيته إلى الخلف فظهرت مقدمة صـلعته القلقاسـية، الصديق الذي كان فتوة لأحد أحياء الإسكندرية منذ أكثر من ستين عاما، وحبس بسبب إحدى مشـاجراته، والتقـى فـي السجن بـ (ش) فأحبه وأعجب بأفكاره، وخرج من الحـبس صديقًا له، كان يستخدم قوته في حماية مظاهرات العمـال،

والقيام بأي عمل يطلب منه، وقد ساهم في تهريب المعلم إلى الخارج عام ١٩٦٨، ودخل السراية منذ أكثر مـن عشـرة أعوام.

كان يعمل بمطبخ السراية، ويقـوم هنـاك بمسـاعدة صديق بطبع أوراقنا على جهاز الرونيو الـذي يخفيـه فـي مخزن الغلال.

وقفت، وابتسمت له:

- أهلا بعمنا.

فقال دون أن يبتسم:

- عمكم تعب منكم.

فسألته باهتمام:

- ولم؟

وخافت من صوته:

- الشبعان يفت للجعان فت بطيء.

وفهمتها كما أفهم رموزه وأمثاله، كان يقصـد تـأخير وصول جهاز الطباعة الجديد الذي كنا نعد لإدخاله السـراية عن طريق أسرة صديقة بقسم النساء فقلت:

- الهدية ستصل خلال أسبوعين لا أكثر.

وهز رأسه:

- أرجو ألا تضيع في الطريق كما ضاعت غيرها من الهدايا.

ولمحت على مبعدة ثلاثة من الشبان الملتحين يحاصرون ابن رشد وهو يحرك إصبعه مهددا:

أسرعت إليهم:

- ما لكم به؟

فقال أحدهم وهو ينظر إلى ابن رشد في غل:

- كافر، زنديق، يردد أقوال الملاحدة.

وابتسمت، أسلاف لهم حرموا كتب ابن رشد وأحرقوها، وأذاقوه العذاب.

قلت مهددا:

- إياكم أن تقتربوا منه.

فقال ابن رشد وقد أمسك بالخف الذي ينتعله:

- لا شأن لك أيها الأخصائي.. ليس عندي لهم غير هذا.

وتجهم الثلاثة، وتعوذوا بالله، وابتعدوا وأحدهم يقول:

- كلهم كافرون، نحن في دار حرب.

مجدي عبد السلام

كنت أسير أمام قسم النساء في الطريق إلى عنبري في الصباح، وكعادتي ألقيت بنظرة جانبية عبر البـاب المفتـوح لعلي أراها، وما كدت أبتعد خطوات حتى سمعت من يناديني فالتفت، ولدهشتي رأيت الفتـاة الصـغيرة ذات الضـفيرتين الشقراوين، نظرت إليها دهشًا، هـل كـان بكمهـا عرضـا هستيريا شفيت منه.

واقتربت مني، وهمست لي وقد بدا عليها القلق:

- الست تعبانة.

وخفق قلبي بعنف:

- من؟

وتلفتت حولها:

- الست قريبتك اللي كانت في عنبر المدمنات.

وتحيرت فقلت:

- بلغي الدكتور محجوب فهو طبيب القسم.

فقالت بعجلة ونفاد صبر:

- هو في أجازة لمدة يومين، عندها انهيار.

واندفعت إلى عنبرها.

كانت تجلس في سريرها متخشبة، وعيناهـا تبرقـان بذهول وتتجمد فيهما الدموع، وشعرها الأسود مهوش وملبـد على خديها وجبينها، وكان ثوبها الأسود ممزقًا عند الكتفـين والصدر، يكشف عن خدوش دامية.

لم تنظر إلي، ولم يطرف لها جفن. غلـى الـدم فـي عروقي، وأمرت الممرضة التي كانت تنظر إلي فـي بلـه بسرعة إحضار حقنة منومة.

وتجمع حولي عدد من النزيلات، وبرز وجه سـتوتة وهي تقول:

- الأفندي التاني هو السبب.. وضربناه.

وقالت نزيلة شابة:

- أخذ الدكتور محجوب عددا مـن النسـاء للكشـف عليهن في حجرة الطبيب في نهاية يوم أمس، وكانت مـنهن، وعندما جاء دورها أغلق الباب، وحاول الاعتداء عليها، ولما سمعنا صراخها هجمنا على الباب، وخلصناها منـه وهـي تقاومه صارخة، وبكت كثيرا ثم أصبحت بهذه الحالة.

أعطيتها الحقنة وهي في استسلام كامل، ونظرتهـا لا تشي بشيء.

مددتها على السرير بمساعدة إحدى النزيلات، وجلست إلى جانبها وهي تحملق في السقف حتى أغمضت عينيها.

وضعت يدي على جبينها لأول مرة، استشعرت مـس الجبين الدافئ يسري في أطرافي، تمنيت لو أنحنـي وأقبـل خدها الأسمر النقي، ولما انتظمت أنفاسها انتزعت نفسي من جانبها.

ربتت ستوتة على كتفي وهي تقول:

- ماتخافش.. كلنا معاها.

ولمحت الفتاة الصغيرة تنظر إلي وقد شـف وجههـا الأبيض الشاحب بابتسامة رضى فابتسمت لها ممتنًا.

وغادرت القسم وأنا أتساءل عما ينبغي أن أفعل لـذلك المحجوب.

وفي الطريق إلى عنبري رأيت نادر واقفًا أمام بـاب الكانتين يحادث أحد النزلاء، ولما رآني أنهـى حديثـه مـع النزيل وسار معي في اتجاه عنبر (١).

أخبرته بما حدث، فتكدر وجهه:

- ابن الكلب!!.. ماذا يمكن أن نفعل معه؟!

وحدق إلى الأمام صامتًا:

- لا أعرف بماذا أنصحك هذه المرة.. هـذا الكلـب عميل لمكتب الأمن وللمدير كما أخبرتك من قبل.

وتوقف:

- لماذا لا تحاول أن تنسى هذه المرأة حتـى لا تجـر على نفسك المشاكل؟

قلت له بضيق:

- لا أستطيع، أنا أحبها فعلا، وبالأمس علمت برفض طلب نقلي بحجة أن ظروف المستشفى لا تسمح بذلك.

بدا وكأنه خطر له خاطر مفاجئ:

- اسمع.. هل تنتظر حتى يخرج (ش)؟

فتساءلت مستغربا:

- وما دخل (ش) في موضوع النزيلة؟

قال:

- يمكن أن تخرج مع الأصدقاء الذين سيخرجون مـع (ش)، يمكن أن أرتب لك ذلك.

قلت ساخرا:

- (ش) في السراية منذ سنوات طويلة، ويبـدو أنـه سيمكث فيها بقية حياته.

فقال مؤكدا:

- لا.. لا.. شهور ويخرج (ش) من السراية، ويمكـن أن تخرج نزيلتك مع الأصدقاء.

وأضاف متفكرا:

- سأدبر أمر حمايتها، سأكلم وداد.

وخطر لي سؤال، لماذا لا تكون الفتاة ذات الضفيرتين الشقراوين، والتي كانت تدعى الخرس على علاقة بأصـدقاء نادر؟

وفي عنبري جلست أفكر. لابد من عمل شيء لتأديب ذلك المحجوب، لابد من وسيلة لإبعاده عن قسم النساء وعنبر المدمنات أيضا، يمكن أن يكرر فعلته مع نزيلة أخرى، هـو عميل للإدارة ومكتب الأمن كما يقول نادر وكما تؤكد حرية حركته في السراية واستجابة الإدارة لكل مطالبه. أمثاله لهـم مكانتهم وسطوتهم، يمكن أن يلحق بي ضـررا لـو أراد، لا يهم، المهم هو إبعاده عن قسم النساء وعنبر المدمنات وعـن السراية كلها إن أمكن ذلك، هل أجرب وأرسل باسمي عـددا من البرقيات إلى المسئولين أتهمه فيها بمحاولة الاعتداء على السمراء؟.. ما دليلي على ذلك؟.. شهادة نـزيلتين أو ثـلاث

يمكن الطعن في شهادتهن بأنهن مريضات عقليا، هذا إذا قبلن بالشهادة؟... وإذا حدث وخرج (ش) وأصدقاؤه فـي وقـت قريب وخرجت معهم فأين يمكن أن تـذهب؟.. أيـن يمكـن إخفاؤها وهي المتزوجة من بلطجي له نفوذه وإمكانياتـه؟.. هل يمكن إخفاؤها في إخميم في بيت أمي حتى أجـد حـلا لمشكلتنا؟

وعذبتني التساؤلات دون أن أفعل شيئًا.

أمين زاهر

حملتني الموجات إلى عرض البحر، وسـطع صـيفي الإبداعي، فرحي وعرسي.

تفتحت وانتشيت ثم توهجتُ وسطعتُ حـد الشـفافية، ومن القارات المجهولة بداخلي فاضت أسخى الينابيع فتحولت إلى مبدع يعاين الأسـرار الخبيئـة، ويلامـس المكونـات العصية، ويرى ويسمع ما لا يراه أو يسـمعه البشـر غيـر الخالقين، فرحتُ أستقطر دم القلب كلمات جديدة تشكل وتهب الحياة.

أنهض قبيل الفجر في توقيت محدد وكأنه بنداء خفـي فأنكب بطاقة لا أعرف مصدرها علـى الأوراق، وتنسـال الكلمات، تتشكل الشخوص والأحداث والمصائر، أعيش فرحة الخلق، وفور أن يتلكأ القلم وتتباعد الكلمات أتوقف عن فعـل الكتابة.

وطوال النهار أكون ممتلئًا وشفافًا، أترك عقلي وبدني على سجيتهما لا أقهرهما على شيء، وأعيش صبى الـذاكرة فتطفو ذكريات السنين البعيدة بأدق تفاصيلها، ويجمع تـوقي واشتهائي لكل ما في العالم، الحـب، والعطـاء، والكـلام،

والطعام، والشراب، حتى الموت، أتوق لأن أعـيش تجربـة الموت كي لا تفوتني أية تجربة.

ومع إيزيس وشوق وفرحة أكون حنوا وسخاء، ومـع الآخرين أكون أشد حبا وتعاطفًـا وفهمـا، تسـعدني اللفتـة العابرة، ويخدش صدري الحرف الذي يجفو الصدق، وتمـر الساعات وأنا أعايش إبداعات إخوتي الخالقين من كل الـبلاد والعصور فأنصت إلى عمل موسيقى أو أقرأ قصيدة أوأقلـب في سجل لوحات تشكيلية، وحبيبتي وربة معبدي إيزيس تقدم لي زادا من خفقات قلبها وندى بسماتها وأمل وحنو عينيهـا، وعند الأصيل أو في المساء أجدني مـدفوعا إلـى الأوراق لأعيش ذروة الفرح ساعات أُخر.

هذه المرة لست متعجلا، لا أخشى أن أموت قبـل أن ينتهي عملي كما كنت في نوبات إبداعي السابقة لأنني الآن أدرك أن العمل الذي لا أنجزه أنا ويكون جديرا بالوجود لابد أن يعطيه العالم لمبدع آخر.

أي حظ سعيد أن أكون كاتبا؟!

كيف أجرؤ في بعض الأحايين، فـي سـاعات العقـم والجدب على إدانة كلمات الفن أو حتى لعنها؟.. كيف أضـع

الكتابة مقابل الفعل وقد كانت الكلمـات طريقـي وطريـق الكثيرين إلى البصيرة والفعل؟.. كيف أجرؤ على أن أقلل من شأن الفن والفن ذروة فعل الكائن الإنساني؟

عندما أمارس فعل الكتابة أمـارس إنسـانيتي كلهـا، طاقتي الخفية، وإمكانياتي التي أعرفها والتـي لا أعرفهـا، وأبدع السحر الذي يضيء البصر والبصيرة ويـومئ إلـى الطريق، ويكون الصدق والنبوءة.

عرف الصديق فكري سالم هويتي الحقيقية. قال باسما ولم تمض أيام على لقائنا بسجن القناطر:

- أنت تتعامل بصدرك.

قالها بلهجة عتاب لائم، لكنني فرحت بها لأنها كانـت وصفًا صائبا لحقيقتي فأنا ومنذ أن وعيت أتعامل مع البشـر والأشياء بمشاعري وحدسي، لا ألغي عقلي، ولكنني أرهـف السمع للأحاسيس والمشاعر، وأبدا لـم يكـن عقلـي يعقـل الحسابات الباردة.

عندما انغمست بكليتي في فعل التغيير منذ عام ١٩٥٦ فهجرت الكتابة كنت أخبئ أملا، أن توجد يوما علـى أرض بلادي قوى التغيير الحقيقية والقادرة فأتفرغ في ظـل ودفء

فعلها للكتابة، لأقدم عطيتي التي لا أملك أفضل منها، وعندما انفض سامر الأصدقاء عـام ١٩٦٥، وقـبض علـى (ش)، وفشلت محاولتي وبعض الأصـدقاء لخلـق بدايـة جديـدة اضطررت إلى العودة إلى الكتابة لعلي أقدم شـيئًا للطريـق الذي اخترته وضاعت منه الخطى، كثيرا ما كنـت أعـاني أحاسيس الخيبة والمرارة، فأهجر الكتابة وأتمرد عليها، ولكن حين بدأ نشر الكتابات الموقعة باسم (ش) والتي تزيف فكره، وتطمس معالم طريقه انتشلت نفسي من مرارتي، وصـممت على مواصلة الكتابة وفاء لفكر (ش) الحقيقـي والأصـدقاء الذين ضحوا حياتهم من أجله، وأستطيع الآن، وبـرغم كـل شيء أن أشهد لنفسي، برغم العذابات والمغريات حاولت أن أكون صادقًا في كل كلمة خطها قلمي، لم أخـش قـوة ولـم أساوم، لم أتنازل عن حرف واحد. وعنـدما كانـت ظلمـة الحصار أو اليأس تطبق علي كنت أقول لنفسي فلتكن كتاباتي أوراقًا مضيعة في الريح، ويكفيني أنني عشت صادقًا.

وها أنا آخذ جائزتي، ولا أروع منهـا، شـهورا مـن الإبداع في أغلب الأعوام التي عشتها منذ أمسـكت بـالقلم، شهورا تساوي دقائقها سنين من حيوات أخرى.

هل حالة الإبداع التي أعيشها في السنوات الأخيرة نوع من الجنون؟.. هل هي برهة بـين وقـدة العقـل وانفـلات الجنون؟

قبل عام ١٩٧٣ لم أكن أكتب بهذه الطريقة ولا بهـذا التوهج والسطوع. كنت أنتشي وأستغرق بكليتي في الكتابـة لكنني لم أرق أبدا إلى هذه الذرى، كنت أكتب فـي أي يـوم وأي فصل من فصول العالم طالما ولـدت التجربـة الفنيـة وحفزتني لتجسيدها، أصبحت منذ ذلك العام أعيش الكتابة في موجات تأخذني في مستهل الربيع، وتنحسر عني في بدايات الخريف، ومنذ عام ١٩٧٦ أخذت الموجـات تتنـاوب مـع نوبات اكتئاب تغرقني في مستنقع الكآبـة والمـوت طـوال الخريف والشتاء. فهل عشت في السنين العشر الأخيرة نوعا من المرض العقلي الذي لا يصل إلى حد الغياب عن العالم؟

إن كان ما بي جنونًا فليتني أعيشه ولو عمرا قصـيرا يتوهج ويحترق في أعلى القمم.

منذ أيام اعتكفت ببيتي كعـادتي عنـدما تنـدفع بـي الموجات، أخذت إجازة طويلة من عمل كسب العيش الـذي

ضقت به، وآمل أن تكون إجازتي منه دائمة ونهائية لأنني لا أصلح لشيء إلا الكتابة.

لم أذهب إلى السراية استجابة لطلب فكري سالم، اتصل بي مجدي ليسألني عن سبب امتناعي عن زيارته فأخبرته بأنني مشغول بالكتابة، وسأنشغل بها عدة أسابيع. مر أسبوعان دون أن أدخل المكان الذي يسجن فيه (ش) ومات فيه حافظ، وما يصبرني أنني أكتب عن الشاعر الذي مات بطاقة الصدق التي أخذتها عن (ش).

حلمت يوما، حلمت دوما بعالم الغد الذي أعطى من أجله (ش) وكل الأصدقاء الطيبين حياتهم فرأيت أكثر بني الإنسان كتابا وفنانين وعلماء فمتى يتحقق الحلم ويعيش البشر، كل البشر فرحة الخلق التي أعيشها الآن؟..

نادر شوقي

كنت أقف في فناء الاقتصادي مع وائل عندما جاء حسام الإسكندراني. كان صديقًا خفيف الظل لا يكف عن التهريج مع الأصدقاء، وكان مصورا دخل السراية منذ شهور قليلة، تساءل وعيناه الخضراوان تبتسمان:

- ألا تريدون أن تحلوا المشكلة؟

وابتسمت:

- لا.. لن نحلها.

وتساءل وائل:

- أية مشكلة؟

فقال له حسام بجدية:

- أرى أن يحل الأصدقاء مشكلاتهم إياها مع نزيلات قسم النساء.

وتجهم وجه وائل، وتساءل بغضب:

- أتريد شيوعية نساء؟!

- ورجال أيضا، كل النساء لكل الرجال، وكل الرجال لكل النساء.

قلت لوائل وأنا أحاول أن أنهي الحديث:

- دعك من كلامه، إنه يهرج.

وقال حسام:

- ومتى ترتبط بوداد؟.. هل تنتظر ما تسميه الزواج؟

قلت باسما:

- أجل.. سأنتظر لأنني ما زلت متخلفًا.

قال:

- الاختيار الحر يكون..

وقاطعته:

- الاختيار الحر يكون عندما تصبح أنت وأنـا وكـل الآخرين أحرارا بالفعل.

وشوح بذراعه وهو يبتعد:

- أنتما متخلفان.

ونظر وائل في أعقابه:

- لا أستريح لحسام هذا منذ أن دخل السراية، يبدو أنه كان فاسقًا قبل دخولها.

قلت:

- هو صديق جيد، ولا يتجاوز دائرة الكلام.

وسرت في اتجاه عنابر العام.

متى ترتبط بوداد؟.. تردد السؤال بداخلي، متى نتزوج ونعيش في بيت واحد؟.. مر أكثر من أربعة أعـوام علـى خطبتنا. لا أعرف متى بدأ حبي لها وحبها لي. نشأنا معـا، سمعنا من أبوينا نفس الحكايات عن المعلم وأحببنـاه معـا، وعشنا آمالا وأحلاما واحدة، عندما مات أبي وأخذني أعمامي إلى بورسعيد لم أنسها، ولم تمر أيام على عودتي إلى القاهرة حتى وجدتني أصارحها بحبي. في الشهور الأخيرة قد تمـر أسابيع دون أن ننفرد ببعضنا، كل ما شغلنا الآن هو خـروج المعلم في أسرع وقت. قـدمنا تحويشـة الـزواج مـرتين للأصدقاء لأنهم كانوا في حاجة إليها. متى يجمعنا بيت واحد؟

واستوقفني غائب وحسان أمام عنبر (٢)، وشوح غائب بذراعه بعصبية:

- متى يخرج (ش) أيها الأخصائي؟

قلت باسما:

- عندما لا يغيب كل منا عما ينبغي عمله.

كان غائب ربعة يميل إلـى الامـتلاء، يقـول عنـه الأصدقاء الذين يعيشون معه في العنبر إنه يتعامل بكتفيه لأنه يعاملهم بخشونة برغم طيبة قلبه وسرعة اعتـذاره، كـان لا

يفارق حسان الطويل عريض الكتفين، مائـل الـرأس إلـى الوراء، مغمض العينين نصف إغماضة دائما وكأنه يسـرح في ملكوت خاص، كان فيه شيء من البرود والتلاحة، وكان الاثنان قد دخلا السراية منذ أسابيع بعد أن فصلا من ميكانيكا الطيران بحجة المرض العقلي.

قال حسان دون أن ينظر إلي:

- الأوضاع هنا ليست كما كنا نتوقع، لابد أن نسـرع بالخروج.

قلت:

- المفروض أن نشارك جميعا في تحسين الأوضـاع هنا حتى يتم الخروج.

وما كدت أبتعد عنهما حتى التقيت الثنائي الآخر، حامد العطار وفوزي الأسيوطي، كانا كعادتهما مشتبكين في النقاش مع أحد الأصدقاء. كان حامد قصيرا، عريض الكتفين، كبير الفكين بفم واسع، وجبهة بارزة، وكان الأسـيوطي قصـيرا، وجهه مدور ممتلئ تنغرز فيه عيناه الصغيرتان، وكان حـين يتكلم يشبك أصابع يديه، ويحاول أن يبدو هادئًا ككائن بوذي. كانا من طلبة كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، دخلا السراية

منذ شهور، ولا يكفان عن الكلام والمناقشات فـي كتابـات (ش) التي يحفظان الكثير منها عن ظهر قلب، كـان حامـد العطار يسارع باتهام كل من يختلف معـه بـالخروج عـن مبادئ المعلم، وكان يتفنن في مقاطعة وتشـتيت ذهـن مـن يناقشه.

نادانى العطار فلم أتوقف، ووعدتهما بالعودة إليهما بعد دقائق.

وانشقت الأرض عن نمرود، وجدته يمشي إلى جانبي، نظر إلي بعينيه اللتين تلتمعان خلـف نظارتـه كخـرزتين صغيرتين، الصديق الذي أدخله فكري سالم السراية منذ أكثر من عام، والذي يبدي اهتماما ظاهرا بتسقط أخبـار النـزلاء والعاملين بالإدارة دون أن يكلفه أحد بذلك.

همس:

- حصة عنبر عزل المجاني من الأغذية لاتصل إليـه منذ أكثر من أسبوعين.

وحدقت إليه دهشًا:

- وكيف عرفت ذلك؟

- أخبرني نزيل أعرف أنه متعاطف معنا وهو مرحل إلى مستشفى خارجي.

وتركته وأسرعت إلى الكانتين، كان الـدمياطي يقـوم بالكتابة في أحد السجلات فجابهته بالسؤال:

- هل تصل إلى عنبر عزل المجـاني حصـته مـن الأغذية؟

وثبت نظارته في أرنبة أنفه:

- لا.. لم تصل إليه منذ أيام لأن الممرض الصـديق الذي كان هناك نقل إلى عنبر آخر.

قلت محتدا:

- ولماذا لم تخبرني بذلك؟

واحتقن وجهه:

- كنت أنتظر تدبير أمر توصيل الحصة إلى العنبر.

- وأين ذهبت حصته في المرات التي لم تصل إليـه فيها؟

وأخذ يقلب صفحات السجل:

- قمت بتوزيعها على حصص العنابر الأخرى وقسـم النساء.

قلت غاضبا:

- لابد أن تصل حصة العنبر إلى نزلائه بانتظام أكثر من غيرهم.

وفي طريقي إلى مبنى الإدارة استوقفني صديق من المتظاهرين بالاكتئاب:

- أريد الخروج من هنا.

ونظرت إلى وجهه الأسمر الممتلئ وعينيه القلقتين:

- ولم؟

قال بعصبية:

- لم أعد أحتمل.. تظاهرت بالاكتئاب حتى أُصبت به بالفعل.

حاولت أن أبتسم:

- شهور قليلة ونخرج كلنا مع (ش).

فقال في جفاء:

- مر عام كامل وأنا هنا دون أن تفعلوا شيئًا لخروجه.

قلت:

- سأوصل رغبتك للجنة القيادة.

فتركني وهو يقول:

- لن أنتظر.. سأهرب بطريقتي الخاصة.

هممت باللحاق به فابتعد مسرعا، وفي اليـوم التـالي عرفت أنه فر من السراية في أثناء زيارة الأهالي للنـزلاء، وكانت هذه حالة الفرار الثالثة في شهر واحد.

فكري سالم

أكثر الأصدقاء يتعجلون الخروج، لا يقدرون الأمـور حق قدرها.

أنا وحدي أستطيع أن أقدر الأمور جيدا لأنني أعـرف إمكانياتنا الحقيقيـة داخـل السـراية وخارجهـا، وأعـرف الصعوبات الكبيرة التي تحيط بعملية إخراج (ش) والأصدقاء وانطلاقهم في الخارج بأمان وفعالية، فلابد أن تكون خطـة الهروب كاملة الإحكام لا يوجد أي احتمال لفشلها، ولابد من وجود أمكنة كثيرة آمنة في الخارج يستطيع (ش) أن ينتقـل بينها، ولابد أن تتوفر له حرية الحركة دون أن يكون معرضا للقبض عليه وإعادته مرة أخرى إلى السراية.

أنا الآخر أريد الخروج في أسرع وقت ولكنني ضـد المغامرة، وضد نفاد الصبر، ضد أن يضيع في لحظات مـا فعلناه في أكثر من أربعة عشـر عامـا ومـا عملـه (ش) والأصدقاء طوال أكثر من ستين سنة، لا يمكـن أن نقـامر بالقضية التي وهبها الكثيرون أعمارهم.

يتهمني البعض بالحذر إلى حـد الوسوسـة، الـبعض يتهامسون بأنني أصبحت حبيس حجرة الأرشيف والملفـات،

وصل الأمر بأحدهم أن يقول في وجهي إنني أتصرف بعقلية موظف الأرشيف، وأنني أساهم بطريقتي فـي حـبس (ش) وحجب أفكاره عن الناس.

في بداية عملنا داخل السراية لم تكـن الأمـور بهـذا التعقيد، أيامها كان فارس زايد وعلي النجاتي وفاضل زكـي يرون أننا يمكن أن نخرج (ش) ولـو كـان عـددنا قلـيلا وإمكانياتنا محدودة ثم نتحرك في الخارج بحرص يقـل مـع تزايد عددنا وإمكانياتنا. كان فارس والنجاتي يريان أنه فـي زحام وشهامة أبناء أحد الأحياء الشعبية يمكـن أن يتحـرك (ش) ونتحرك معه، وكنت أنا بحكم خبرتي الكبيـرة أرى أن يؤسس عملنا جيدا ثم نخرج فننطلق دون مخاطر لأنه ستكون المصيبة كبيرة إذا كُشف أمرنا وقُبض على (ش) مرة ثالثة، قد يقتلونه في حادث يبدو عابرا، إذا لم نكن بالغي الحرص.

كان يمكن أن يضيع (ش) ويضيع كـل شـيء فـي المحاولة الرعناء التي قام بها فـارس والنجـاتي وفاضـل لإخراجه من وراء ظهري. كانوا سيخرجونه إذا نجحوا فـي ذلك إلى العراء، ولابد أن (ش) أطاعهم وخرج من حجرتـه

لأنه لم يكن يعرف حقيقة إمكانياتنا في الخارج. كـان دائمـا يحذرنا من المغامرة والمقامرة.

فور أن علمت بأمر محاولتهم، وكان يمكن أن يتسرب خبرها أو قد تسرب بالفعل إلى أعدائنا سارعت بإحباطهـا. أيامها غضب مني (ش)، ورفض أن يقابلني لفترة طويلـة، واحتد علي عندما رآني كان ذلك بالغ القسوة علـى نفسـي لكنني تحملته من أجل (ش) وقضيتنا المشتركة. بعـد تلـك المحاولة أصبحت حذرا تجاه الثلاثة، وتجاه نادر شوقي الذي انضم إلى لجنة القيادة بعد ذلك، رتبت الأمور بحيث أكون أنا وحدي من يعرف إمكانياتنا خارج السراية ويتصرف فيهـا، وحرصت على أن أعرف كل كبيرة وصغيرة داخل السراية، ولا أكتفي بما يقدم من تقارير في اجتماعاتنا.

بالرغم من حركتي المحدودة في السراية فأنا أعـرف كل الأصدقاء فيها، وإن كان لا يعرفني إلا الأصدقاء الـذين دخلوها عن طريقي، وأحفظ عن ظهر قلب بيانات الكثيـرين التي توجد في ملفاتهم بالأرشيف، وأحرص على وجود علاقة مباشرة لي مع أصدقاء أنتقيهم بحرص. وبالنسبة للأصـدقاء الذين يضمهم إلينا في الخارج فارس وفاضل ونـادر أقـوم

بتنظيمهم بطريقة تجعلهم تحت مسئولية أصدقاء أثق أنا بهـم وتكون علاقتهم بي مباشرة، وذلك استنادا إلى مسئوليتي عن العمل في خارج السراية، وفي تقاريري التي أقدمها للجنـة القيادة أتعامل بالأسماء الحركية، وأخفي الإمكانيـات التـي أعتقد أنها على درجة كبيرة من السرية.

إنني أجد صعوبات كبيرة في الوقوف فـي مواجهـة تعجل الأصدقاء خاصة في لجنـة القيـادة، وفـي مواجهـة اقتراحاتهم الحمقاء التي يمكن أن تدمر عملنا. نادر يطالـب دائما بأخذ رأي الأصدقاء في كل شيء حتـى فـي خطـة الهرب، وبأن نلتزم بقرار الأغلبية، أية أغلبية وأقلية في مثل هذه الأمور؟!

أنا من أشد أنصار الديموقراطية، وأرى أنها لابـد أن تكون أساس عملنا، ولكن في مثل ظروفنا الاستثنائية يجـب أن نكون على درجة عالية من الحذر.

فارس يلح في أخذ رأي (ش) في كل صغيرة وكبيرة، كأن المعلم يعرف أدق ظروف عملنا وهـو معـزول فـي محبسه، يكفي أن نستهدي في عملنا بفكـره وتعاليمـه، ولا

معنى لأن نقسره على إبداء الرأي في أمور لا يعـرف مـا يحيط بها من ملابسات وظروف.

حتى كتابات (ش) الثمينة يريدون تعريضها للخطـر، يريدون تعريضها للفقد أو التلف بتبادلها بين من يقدر علـى استيعابها ومن لا يقدر، سخر بعضهم من رغبتي في القيـام بجمع أهم نصوص وأفكار (ش) في كتيب يتداوله الأصـدقاء بدلا من كتاباته الأصيلة، سأنفذ أنا هذه الفكرة في أقرب وقت ممكن، وسأحتفظ بأصول كتابات المعلـم عنـدي حتـى لا تتعرض كلمة منها للضـياع. يمكـن تصـنيفها وتبويبهـا وإصدارها في كتب مشروحة شروحا وافية بعد خروجنا من السراية، لابد من المحافظة على نقاء فكـر المعلـم، ومنـع العبث به من أي كان.

أنا أكثر أصدقاء المعلم فهما واستيعابا لكتاباته. لازمته، ووعيت عنه منذ سنوات عمله الأولى، وسجنت واعتقلت معه في معظم مرات سجنه واعتقاله، نمت إلى جواره في ليـالٍ كثيرة أستمع إلى حديثه وهمسه، وأنا من وقف إلـى جانبـه عندما انفض من حوله وخانه أكثر الأصدقاء القدامى، ومـا كان لأحد من أعضاء لجنة القيادة أن ينجز شيئًا دون فكـري

وخبرتي والعلاقات التي تبقت لي خارج السراية. يجـب ألا أنساق أبدا وراء تهورهم وحماقاتهم.

(٦)

في منتصف الليل فـتح (ش) بـاب حجرتـه فهـب الممرض الحارس واقفًا، رنا إلى وجه (ش) وتساءل مرتبكًا:

- هل يريد المعلم شيئًا؟

فقال (ش) بصوت خافت وهو ينزل الدرج:

- أريد الأصدقاء.

لم يعرف الممرض الصديق ماذا يفعل، فمنذ أكثر من شهر كان هو نفسه الذي أبلغ (ش) برجاء لجنة القيادة بوقف الزيارات الليلية التي كانت تتم عادة بترتيب مسبق يقوم بـه مسئولو الاتصال فهرول الممرض خلف (ش).

ظهر (ش) بباب المبنى، كـان يميـل إلـى الطـول والنحافة، وكان المصباح الكهربائي الصغير فوق الباب يلقي بضوئه الواني على وجهه المسن فيبدو بظلاله شاحبا ومهيبا، تشف ملامحه المتسقة عن عزم هادئ.

وتنبه الأصدقاء الذين كانوا في نـوبتهم الليليـة أمـام المبنى، أسرع إليه قرمط وإيبـوور ووائـل، تطلعـوا إليـه صامتين فألقى عليهم تحية المساء باسما.

قال قرمط:

- أتريد شيئًا يا معلمي؟

فقال وهو يخطو إلى الخارج:

- سأرى الأصدقاء.

قال وائل في تردد:

- لم نقم بأية ترتيبات للزيارة، قد تتعـرض حياتـك للخطر.

ولم يلتفت إليه (ش)، وسارع قرمط بالقول:

- لا.. لا.. لا يوجد أي خطر.

وقال لوائل آمرا:

- اذهب أنت وشاغل موظف الأمن فـي مكتبـه، ولا تستخدم معه العنف إلا عند الضـرورة، وسـأكلف بعـض الأصدقاء بمشاغلة الممرضين الثلاثة بمبنى الإدارة.

ومد إيبوور ذراعه مرحبا بـ (ش):

- تفضل يا معلمنا، كلنا في اشتياق إليك.

وسار إيبوور عن يمين (ش) وقرمط عن شماله، ونظر (ش) إلى إيبوور باسما:

- هل شخت أيها الصديق؟

فرد إيبوور بارتباك:

- لا.. أبدا يا معلمي، أنا هنا أشارك في حراستك.

وهز (ش) رأسه:

- حراستي ؟!

وتجمع حولهم بعض الأصدقاء الذين كانوا في فناء الاقتصادي، وبعض النزلاء الذين كان الأرق قد استبد بهم فتركوا أبنيتهم.

نقل (ش) عينيه بين إيبوور وقرمط، وتساءل:

- أين زكريا؟

فقال إيبوور:

- يأخذ حصته من النوم في عنبره.

ورف الأسى بوجه (ش):

- وكيف حال يوحنا؟

فقال قرمط:

- بخير.. ما زال في عنبر الإجرام.

- ألم تدبروا أمر هروبه بعد؟

فرد قرمط:

- لا نعرف ما تنوي لجنة القيادة عمله.

واقترب ابن رشد، وسلم على (ش) فسأله ببسمة كبيرة:

- كيف حالك يا أبا الوليد؟

فقال ابن رشد:

- بخير طالما أستاذنا بخير.

وخرج ابن المقفع من بين الأصدقاء فبادره (ش).

- وأنت أيها الكاتب الألمعي؟

فقال ابن المقفع لاهثًا:

- لست بحال طيبة طالما أنت في هذا المكان.

وأضاف شاكيا:

- لجنة القيادة قررت منع زيارة الأصدقاء والنـزلاء لك.

وضع المعلم يده على كتف ابن المقفع:

- سأكون بينكم دائما، إذا طال المنع وبطل سببه فليأت إلي من يشاء.

وأضاف (ش):

- منذ شهور لم أقرأ لك شيئًا.

ونظر ابن المقفع إلى (ش) دهشًا:

- ولكني كتبت في الشهر الأخير ثلاث مقالات حـول أوضاع الأصدقاء في السراية كان آخرها منذ أسبوع.

وتوقف (ش):

- لم يصلني شيء منها، سأسأل عنها الأصـدقاء، لا تكف عن الكتابة.

واجتازوا باب عنابر العام، أسرع إلى (ش) الأصدقاء الذين كانوا يتفرقون في فناء العام، وأصدقاء من العنابر، كلم الكثيرين بأسمائهم، سأل عـن أحـوالهم وأحـوال أسـرهم بالخارج، واستمع بانتباه إلى شكاوى بعضهم.

اتجه والأصدقاء إلى العنبر الصغير في نهاية عنـابر العام الخمسة، والذي كان يلتقي فيه بالأصدقاء في زياراتـه الليلية، توقف أمام زهور عباد الشمس، وابتسم.

كان نور نائما، وعندما أحس باقتراب الخطـى هـب واقفًا وهو يفرك عينيه، ابتسم له (ش):

- هل ينام الشعراء كثيرا هذه الأيام؟

وسطع وجه نور الأبنوسي ببسمة كبيرة:

- لن نعرف راحة النوم إلا بعد أن تخرج إلى النـاس ونحقق كل ما نريد.

- ما أخبار الشعر يا نور؟

وأجاب نور في خجل:

- ثمة قصيدة تعذبني ولادتها.

وامتلأ العنبر بالأصدقاء. أزاحوا الأسرة، وجلس (ش) على سرير نور في صدر العنبر، وتجمع إلى جانبيه وأمامه الأصدقاء، تصفح الوجوه ببسمة محبة، سأل عـن النـزلاء المتعاطفين مع الأصدقاء والذين كان يـراهم فـي زياراتـه السابقة.

قال الأنبا شنودة الذي كان جالسا أمام (ش) وإلى جانبه أبو ذر الغفاري:

- نريد الخروج لنواجه الرومان.

وضحك (ش) ضحكة صافية رحبة، وضج الأصـدقاء بالضحك فقال الأنبا شنودة خجلا:

- نريد الخروج لـ..

فقال (ش):

- لابد أن نخرج.. لابد أن تخرجوا يوما.

ونظر إلى أبي ذر:

- وأنت أيها الصحابي الجليل، لـم أرك منـذ وقـت طويل.

فرفع أبو ذر ذراعه:

- نريد أن يشهر الفقراء، كل الفقراء سيوفهم.

وابتسم (ش)، وقال رزق:

- لجنة الأصدقاء لا تفعل شيئًا جادا من أجل الخروج.

وخفض (ش) عينيه ثم رمق رزق بنظرة فيها عتـاب ولوم:

- وهل تنتظر أيها الصديق العجوز أن أخبـرك بمـا ينبغي أن يفعل؟!

دار نقاش طويل بين (ش) والأصدقاء، كان فيـه (ش) رحب الصدر، جسور الفكر كعادته، ينصت كثيـرا ويـتكلم قليلا، وقبيل الفجر نهض، وسار الأصدقاء حوله، اتجه إلـى عنبر عزل المجاني، وقف على حافة الخلاء الـذي ينتهـي بالباب الخلفي للعنبر، اكتسى وجهه بالأسى، وقال نور:

- لم نرتب الأمور حتـى يكـون العنبـر وحجراتـه مفتوحة.

وهمس (ش) بحزن فيه شيء من الغضب:

- كل هذه السنوات ولم تمتلك أياديكم مفاتيحـه كـي يكون من في الداخل كمن في الخارج؟!

وأطال النظر إلى العنبر الذي تلفه العتمة ثـم اسـتدار ومضى في الطريق إلى مبناه.

وقف شهاب في طريقه وابتسم زائغ العينـين، نظـر (ش) في عينيه وتنهد، وربت على كتفيه فكبـرت بسـمته، وهمس (ش):

- لو يفقهون قولك الصامت أيها الصديق.

وعندما وصل إلى باب المبنـى نقـل بصـره بـين الأصدقاء وشف وجهه بابتسامة، ودمعت عينـاه، واسـتدار واختفى في المبنى.

ولم ينم الأصدقاء وبعض النزلاء الذين رأوا (ش) بقية الليل.

نادر شوقي

عند دخولي السراية همس لي عم فارس باسما:

- المعلم زار الأصدقاء الليلة الماضية.

فرحت، قلت إنه شيء طيب أن يغادر المعلم غرفتـه، وأن يرى الأصدقاء ويروه برغم قرارنا الخائـب، ورحـت أسأل عددا من الأصدقاء عن تفاصيل الزيارة وعمـا قالـه المعلم. كان الكل منتشيين برغم سهرهم طوال الليل.

وبادرني ابن المقفع قائلا بشيء من الغضب:

- كتاباتي لا تصل الأستاذ.

فقلت دهشًا:

- لقد سلمت كتاباتك كلها للمختص بلجنة القيادة، ومـا أعرفه أن كل كتابات الأصدقاء تصل إلى المعلم.

- أخبرني الأستاذ أنه لم يقرأ شيئًا لي منذ شهور.

قلت:

- سأسأل عن مصير كتاباتك في أقرب فرصة.

وحرك ابن المقفع إصبعه مهددا:

- قل لأصدقائك إنني سأسلم كتاباتي بنفسي إلى الأستاذ إذا حجبوها عنه، لن يمنعني أحد من رؤيته والشكوى إليه.

وهممت بمحاولة تهدئته فانصرف عني.

ورأيت نور، كان وجهه باسما وعيناه تأتلقان، قلت له: رتب الأمور بحيث تكون زيارات المعلـم للأصـدقاء آمنة إذا أراد في أي وقت رؤيتهم.

وما كادت وداد تراني في مبنى الإدارة حتى قالت:

- فكري سالم يريد أن يراك، اذهب إليه الآن.

دخلت حجرة الأرشيف التي قلما كنت أدخلها حرصـا على الأمان، جلست إلى جانب فكري الذي لقيني ضاما شفتيه والقلق في عينيه الصغيرتين، أخذ الرشفة الأخيرة من فنجان قهوته. نظرت إلى مكتبه فوجدت المكتب الصـغير الكـالح نظيفًا جدا كعادته، والملفات مصفوفة على جانبيه في عناية، قلت لابد أنه مارس كل طقوسه الصباحية التي نعرفها عنـه، مسح المكتب، وصف الملفات، وألقى نظرة على صورة (ش) في الملف الخاص به ثم طلب قهوته.

همس بصوت مضطرب:

- (ش) خرج من حجرته في الليلة الماضـية والتقـى بالأصدقاء.

ولم أقاوم الابتسام:

- عرفت.. عرفت كل ما دار في اللقاء.

وعقد ما بين حاجبيه، وشبك أصابع يديه الصـغيرتين فوق المكتب:

- ماذا يمكن أن نفعل؟

قلت:

- لا نملك شيئًا إزاء رغبته في الخروج.

حدجني بنظرة حادة:

- قد يعتدي عليه أحد النزلاء الذين لا يتعاطفون معنا أو المدسوسين من الإدارة.

- الأصدقاء يكونون حوله، ولا يمكن لأحد أن يمسـه بسوء.

قال بضيق:

- قد يخبر أحد النزلاء الذين يحتفظون بوعيهم الإدارة بخروجه فتقيم حوله حراسة لا يمكن اختراقها.

قلت:

- لا داعي للقلق، كثير من النـزلاء يحبـون المعلـم ويتعاطفون مع الأصدقاء، ولا يجرؤ نزيل أن يفعـل شـيئًا

يسبب له المشاكل مع زملائه، والإدارة لا تهتم عادة بكـلام أحد النزلاء باعتبارهم مرضى.

حدق في الفراغ متفكرا فقلت:

- طلبت من نور أن يرتب الأمـور بحيـث تكـون زيارات المعلم المفاجئة للأصدقاء آمنة.

وأطال النظر إلي وهو يزم شفتيه ثم قال:

- تعليمات الإدارة تقضي بأن يغلق الممرض الحارس الباب بالمفتاح ويحتفظ به.

فتساءلت مستنكرا:

- بماذا تفكر؟

وبدا عليه شيء من الارتباك:

- لا.. لا شيء.

وحاول أن يبتسم:

- سأبعث إلى (ش) أرجوه أن يمتنع عن الخروج من حجرته في هذه الظروف.

قلت:

- لنناقش هذا الأمر في لجنة القيادة أولا.

فقال بإصرار:

- سبق أن أبلغناه برجائنا الجماعي بأن يمتنـع عـن الخروج ليلا من حجرته حرصا على الأمان. سـأبعث إليـه برجاء شخصي.

قلت:

- أظن أنه لن يستجيب لرجاء أحد هذه المرة.

وعندما هممت بالقيام تذكرت ما قاله ابن المقفع فقلت:

- لماذا لم ترسل كتابات ابن المقفع إلى المعلم؟.. لقـد أخبره المعلم أنه لم يقرأ له شيئًا منذ شهور.

قال:

- ليس من المفروض أن ننقـل علـى المعلـم بكـل الكتابات أيا كانت قيمتها، وكتابات ابن المقفع الأخيرة حـادة وجارحة، وليس لها أية قيمة.

قلت:

- لقد طلبها (ش)، ونحن لا نملك أن نمنع عنه شـيئًا من كتابات الأصدقاء مهما كانت قيمتها، وهو ما جرى عليه العمل دائما.

ونظر في ملف أمامه:

- سأبعث بها إليه.

وعدت إلى وداد فقالت إن الصديقة (ن) لم تتمكن مـن إدخال جهاز الطباعة الذي أحضرته أسرتها فـي زيارتهـا الأسبوعية.

أحسست بالضيق، قلت:

- لتحاول في الزيارة القادمة.. نحن في أمس الحاجـة إليه.

وفي فناء الاقتصادي وقف زكريا في طريقي وهو يعقد ساعديه على صدره، وقال وبسمة كبيرة تشيع في وجهه:

- لقد انتهت الأربعون يوما، والأربعون ليلة.

حدقت إليه ذاهلا:

- ماذا تقصد؟

فقال بصوت مسموع:

- لقد صدقت البشارة، برغم شيخوختي، وما كان من عقم زوجتي، فإنها تضع الآن مولودها وإن كانـت الـولادة متعثرة.

ارتبكت، وتلفت حولي خشية أن يكون قد سمعه أحـد. ها هو واحد من الأصدقاء الأساسيين في حراسة (ش) يخرج عن دوره.

قلت مخافتًا من صوتي:

- ماذا تنوي أن تفعل؟

وحدق في وجهي باسما:

- سأفعل ما ينبغي فعله، وأقول ما يجب قوله.

وأضاف وقد علا صوته قليلا:

- سأقول كل ما هو مكتوب، سأقول إنه بعد خروجنـا من مصر، وعندما أسقط لنا الرب المن والسلوى أمرنـا أن نلتقط منهما كل واحد حسب أكله، وقال لموسى لا يبقى منهما شيء إلى الصباح، وعندما كان يبقي أحد شيئًا منهمـا كـان يتولد فيه الدود وينتن.

وخفض صوته، وقال بإصرار:

- سأقول إنه ينبغي ألا يمنع أحد من رؤية المعلم، لأنه لا أحد يملك أن يحول بين المعلم ومحبيه، وإنـه يجـب أن نكون نحن أصدقاء المعلم، حراسه وحماته لا أحدا بعينه.

وهممت بالكلام فقال:

- وسأقول أيضا إنه ينبغي أن نسارع بالخروج حتـى لا نكون نحن أيضا سجانين لمعلمنا، وحتى لا تذبل أفكـاره هنا وفي الخارج.

فرحتْ وخفتْ، تأملت وجه زكريـا الكبيـر الـداكن السمرة، عامل الحديد والصلب، صديق أبي وعم فارس الذي قُبض عليه في إضراب كبير منذ ستة أعوام فادعى الجنـون ليدخل السراية، وفضل دور زكريا لأنه يزهد في الكلام.

قلت له:

- قل ما تشاء، ولكن لا تتخل عن مظهـر المـريض الفصامي حتى لا تسبب ضررا لـ (ش) والأصدقاء.

قال باسما:

- أعرف ما ينبغي قوله وعمله، ولا تنس نفسك يا ابن أخي.

واستدار وابتعد.

بحثت عيناي عن إبيوور وقرمط وجاليليو. نظر إلـي إيبوور وابتسم. تساءلت، هل ينوي هو الآخـر أن يفعـل أو يقول جديدا؟.. واقتربت منه، تظاهرت بقراءة استمارة بيدي، وسألته:

- ماذا حدث في الثورة الأولى أيها الحكيم؟

فهمس باسما:

- أليس من الأفضل أن نتكلم عن الثورة الأخيرة؟

وقبل أن أنطق قال بصوت خفيض لا تخش شيئًا أيها الصديق الشاب. دوري ما زال كما هو، وسأردد نفس الأقوال حتى أرى ما ستفعلون.

ورفع صوته وهو، ينظر إلى مبنى المعلم:

- سيأتي من يطفئ اللهيب، ويقال عنه راعي كل الناس، ولا يحمل في قلبه شرا، وحين تكون قطعانه قليلة فإنه يصرف يومه في جمع بعضها إلى بعض، فأين هو اليوم؟.. هل هو بطريق الصدفة ينام؟

وهمست له:

- إنه لا ينام.

فقال مخافتًا من صوته:

- لن ينام أبدا برغم كل شيء طالما أننا نراه ويرانا.

وفي مبنى الإدارة لقيتني وداد باسمة:

- انضمت إلينا اثنتان من الفتيات بقسم النساء أمس، أصبح عدد الصديقات بالقسم خمس عشرة صديقة يقمن بعمل جيد بين النزيلات.

قالت:

- أسرعي في التحضير لإدخال المطبعة الجديدة فعـم إبراهيم يلح في طلبها.

فقالت:

- ستدخلها أسرة إحدى الصديقات في الزيارة القادمة.

وتواعدنا على أن نلتقي في المساء.

(٧)

وقعت في يد الإدارة ورقة من أوراق (ش) المهمة.

ففي صباح ٣٠ يونيو أبلـغ الـدكتور سـمير الإدارة بمرضه فكلاف كبير الأطباء الدكتور محجوب بالمرور علـى عنبر (٥) إلى جانب إشرافه على قسم الإدمان وقسم النساء. وعند دخول محجوب العنبر فجأة في نحو الساعة العاشـرة صباحا وجد نزيلا هستيريا جالسا على سريره يقـرأ ورقـة باهتمام واضح فأخذها منه، وقرأها، وأسرع بها إلى مبنـى الإدارة، وكانت الورقة تتحدث عن الظروف التي يعيش فيها النزلاء بعنابر العام وعنبر عزل المجاني والدور الذي ينبغي أن يقوم به الأصدقاء في أثناء وجودهم بالسراية.

سارع النزيل، وكان واحدا مـن الأصـدقاء بـإبلاغ مسئول الاتصال بالعنبر بما حدث فراح المسئول يبحث عـن نور، ولم تمض دقائق حتى كان مدير مكتب الأمن وعدد من العاملين فيه وبعض العاملين بالإدارة يتجهون إلـى العنـابر الخمسة ويغلقونها على النزلاء الموجودين بهـا، ويقومـون بتفتيشها فعثر على عدة نسخ من نفس الورقة كما عثر علـى مخبأ في أرضية عنبر (٥) به عدة أوراق للأصدقاء تتحـدث

عن أفكار (ش)، وأخذ النزلاء الأربعة الذين عثر معهم على الأوراق إلى مبنى الإدارة، ولم تمض ساعة حتى رحلوا إلى جهة غير معلومة.

وساد الاضطراب بين الأصدقاء، وتحرك نادر ونـور ومسئولو الاتصال بين العنابر وأبنية الاقتصادي لتأمين مـا فيها من أوراق وكتب.

ومر اليوم على الأصدقاء في قلق وترقـب لكـن لـم يحدث شيء من جانب الإدارة حتى انتهاء يوم العمل.

وفي المساء التقى فكري سالم، وفاضل زكي وفـارس زايد ونادر والدمياطي في بيت أحد الأصـدقاء مـن غيـر العاملين بالسراية بأحد الأحياء الواقعة في أطراف القاهرة.

التف الخمسة حول المائدة الصغيرة، ودعا فكري سالم وهو متجهم الوجه نادر إلى عرض الموقف باعتباره المسئول عن عمل الأصدقاء ونشاطهم داخل السراية فقدم نادر كل ما جمعه من معلومات عن الحادث.

وضم فكري يديه الصغيرتين على المائدة، ونقل بصره بين زملائه:

- هذه مشكلة يمكن أن تعرض عملنا كلـه للخطـر، فلأول مرة منذ وجودنـا بالسـراية تقـع أوراق لـ ـ (ش) والأصدقاء في يد الإدارة، وهذا يكشف للإدارة وجود أصدقاء لـ (ش) داخل السراية.

وتساءل الدكتور فاضل:

- ما هي الأمراض التي يتظاهر بها الأصدقاء الـذين عثر معهم على الأوراق؟

كان المرض الذي يتظاهر به كل صديق يتفق إلى حد كبير بعيد مع طبيعة شخصيته. فقال نادر:

- اثنان يتظاهران بالاكتئاب، وواحد وسواس قهـري، وواحد ذهان الاكتئاب والمرح الدوري.

وذكر نادر الأسماء التي يتعامل بها الأصدقاء الأربعة داخل السراية فتفكر الدكتور فاضل لحظة، وقال:

- يمكن أن يصمدوا لأية ضغوط، ويمر الحادث دون مشاكل.

وأضاف وقد عقد ما بين حاجبيه الكثين:

- الموضوع خطير ولا شك، وسيؤدي إلى بعض الصعوبة في عملنا، ولكن يمكن تقليل الأضرار إذا درست أوجه القصور وتم تلافيها.

وقال نادر:

- نظام توزيع الأوراق وتداولها دقيق، ولم تقع في يد الإدارة أو مكتب الأمن أية أوراق طوال الخمس سنين التي توليت فيها مسئولية العمل والتي تولى فيها نور مسئولية جهاز الاتصال، ولا يعدو الأمر أن يكون قلة حرص من الصديق الذي وجدت معه ورقة (ش).

ودفع الدمياطي نظارته السميكة فوق أرنبة أنفه، وقال وهو ينظر إلى فكري:

- الأمر خطير جدا، فمعنى العثور على الأوراق أن (ش) يكتب أوراقًا يأخذها أصدقاء له داخل السراية ويوزعونها فيما بينهم وقد يوزعونها في الخارج. ستشدد الإدارة رقابتها على (ش) والنزلاء، وسيكون لهذا أثره الخطير على عملنا وعلى سعينا لإخراج (ش).

قال فارس زايد بشيء من الضيق:

- الأمر ليس بكل هذه الخطورة فكثيرا مـا وجـدت الإدارة أوراقًا في غرفة (ش)، ولابد أن تقع في عملنا مثـل هذه الحوادث، المهم هو زيادة حذر الأصدقاء، وإيجاد مخابئ آمنة للأوراق.

وتساءل الدمياطي وقد التمعت عيناه خلف نظارته:

- إذا اعترف أحد من الأصدقاء الذين قُـبض علـيهم وهذا غير مستبعد ألا يسبب هذا كشفًا لأصدقاء آخرين؟

قال نادر:

- إذا حدث هذا سيكون الضرر محدودا لأن كل واحد من الأصدقاء لا يعرف إلا اثنين أو ثلاثة من أصدقاء عنبره، والأصدقاء الذين دخلوا السراية في العامين الأخيرين ومنهم ثلاثة من الأصدقاء الذين قُبض عليهم دربهم أطباء من خارج السراية لا يعرفون أسماءهم الحقيقية.

وزم فكري شفتيه الصغيرتين، وقال:

- أرى أن نمنع ولو لفترة تداول الأوراق بالسراية.

فسارع نادر بالاعتراض:

- لا يوجد أي مبرر لهذا، يمكـن زيـادة الحـرص والحذر.

وقال فاضل زكي:

- يمكن تضييق نطاق تداول الأوراق لفترة محدودة.

ونظر الدمياطي إلى فكري:

- المنع الكامل لتداول الأوراق يعطينا أمانًا أكثر.

قال نادر:

- سيغضب الأصدقاء إذا منع توزيع الأوراق خاصـة وقد منعناهم من زيارة المعلم.

وكان فارس شاردا يحدق في الفراغ فسأله الدمياطي:

- ما رأيك أنت أيها الصديق؟

وافترت شفتا فارس عن بسمة ساخرة:

- أنا لا أعرف القراءة والكتابة، ويكفيني ما عرفته من (ش) شخصيا.

ونقل نظرة سريعة بينهم، وقال بنفاد صبر:

- منذ أيام منعنا الأصـدقاء مـن زيـارة (ش) والآن نمنعهم من قراءة أوراقه؟.. أليس من الواجب أخذ رأي (ش) نفسه قبل اتخاذ هذا القرار؟

وشوح فكري بيده:

- (ش) لا يعرف ظروف عملنـا بالسـراية، ولا داع للإثقال عليه بمثل هذه الأمور.

وقال الدمياطي:

- (ش) يعلمنا الحذر وتجنب التهور والمغامرة، ولابد أن نضع الظروف الجديدة في حسابنا.

وشوح فكري سالم بيده:

- أنا لا أقصد المنع على إطلاقه فهذا مستحيل ويتنافى مع طبيعة عملنا، أنا أقصد وقف توزيع الأوراق لفترة حتـى يمضي الوقت الكافي على حادث اليـوم وترتـب الأمـور بطريقة تمنع تكراره.

وتساءل فاضل:

- وما هي المدة التي ترى منع الأوراق فيها؟

فقال فكري وهو يحدق إليه بعينيه الصغيرتين:

- بالطبع لا يمكن تحديدها الآن، يمكن أن نحددها في اجتماع قادم على ضوء الظروف.

وأضاف:

- يمكن إبلاغ الأصدقاء شفاهة بأهم الأفكار التي ترد في كتابات (ش).

وابتسم نادر:

- ومن الذي ينفرد بقراءة الأوراق وتلخيص أفكارهـا التي تبلغ للأصدقاء؟

فقال فكري:

- أي واحد منا، الأوراق تحفظ عندي كالعادة ويقـوم أي واحد منا بقراءات وتلخيصها، وتقوم أنت بإبلاغ جهـاز الاتصال بمضمونها.

وحدق فارس إلى فكري وبسمة ساخرة تشيع في وجه الأسمر:

ستقوم أن تحديدا بقراءتها وتلخيصها، وستكون وصـيا على فكر المعلم.

فقال فكري:

- لا.. لا.. ليس لأحد منا أية وصاية، يمكن لأي واحد منا أن يقرأ الأوراق، ويقوم بتلخيصها.

وقال فاضل زكي في تسليم:

- أنا لا أمانع في وقف توزيع الأوراق لفترة محـددة ولتكن هذه الفترة أسبوعين أو ثلاثة.

وقال الدمياطي:

- لنترك التحديد لاجتماع قادم كما يقول فكري، فلنجر التصويت على اقتراح فكري.

وأُجري التصويت فأيد الاقتراح فكـري والـدمياطي، وعارضه فارس ونادر، وامتنع فاضل زكي عن التصـويب، ورجح جانب فكري سالم باعتباره الرئيس.

قال نادر وقد بدا عليه الضيق:

- أرى ألا نبلغ الأصدقاء بهذا القرار إلا بعد أن تستقر الأوضاع في السراية.

ووفق على اقتراح نادر.

وتساءل فارس:

- وماذا عن الأصدقاء الذين قبض عليهم؟

فقال فكري:

- سأتصل بالأصدقاء خارج السراية لمعرفة أخبـارهم ومدهم بالمساعدة اللازمة.

وأضاف وهو ينهي الاجتماع:

- أعتقد أنه لابد أن نقلل من اجتماعاتنا حرصا علـى الأمان، ويمكن أن يتصرف كل واحد منا على مسئوليته وفي حدود اختصاصه في الفترات الفاصلة بين الاجتماعات.

وقال وهو يهم بالقيام دون أن يوجه الكلام إلـى أحـد بعينه، وبطريقة عابرة:

- أفكر في جمع أهم كتابات (ش) في كتـاب صـغير يمكن أن يطبع خارج مصر ويوزع بالداخل.

فسارع الدمياطي بالقول:

- فكرة رائعة تجنبنا مخاطر توزيع أوراق كثيرة.

وتبادل فاضل وفارس النظر، وابتسم نادر.

(٨)

في اليوم التالي ليوم العثور على الأوراق شددت الحراسة على مبنى (ش) فأُوقف اثنان من العاملين بمكتب الأمن أمام باب المبنى، وصدر قرار بمنع زيارة الأهالي للنزلاء، وفي غرفة كبير الأطباء عقد اجتماع حضره مدير مكتب الأمن وكبير الأطباء والدكتور محجوب، وطلب المجتمعون من الأرشيف ملفات كثير من نزلاء عنابر العام وخاصة عنبر (٥) الذي ضبطت فيه ورقة (ش). وفي نحو الواحدة والنصف أبلغت وداد نادر بأن الإدارة تنوي تغيير تسكين النزلاء في العنابر الخمسة.

رأى بعض الأصدقاء مقاومة إعادة التسكين، ولكن نادر ونور رفضا ذلك حتى لا يحدث ما يزيد الموقف سوءا خاصة، وأن نظام اليوم الكامل المفتوح الذي يسمح بفتح العنابر وتواجد النزلاء خارجها ليلا أو نهارا يمكنهم من تلافي مشاكل إعادة التسكين.

وعند توزيع وجبة العشاء علقت على أبواب العنابر قوائم بأسماء النزلاء في كل عنبر، والتزم الأصدقاء بهذه القوائم برغم اعتراض البعض واتهامهم للجنة القيادة بالتهاون

في مواجهة الإدارة. وفي إعادة التسكين نُقل الأنبا شنودة إلى عنبر (٢) ونقل أبو ذر إلى عنبر (٥).

وفي ساعة متأخرة من الليل أخـذ العـاملون بمكتـب الأمن ثلاثة من النزلاء منهم واحد من الأصـدقاء، ورحلـوا إلى جهة غير معلومة.

وفي الصباح عرف أنه قد صدر قرار بمنـع تواجـد النزلاء خارج العنابر وأبنية الاقتصادي بعد الخامسة مسـاء، وذلك وفقًا للنظام القديم الذي كان معمـولا بـه قبـل سـت سنوات.

علم نادر من وداد ونمرود بصدور القـرار الجديـد، واتجاه الإدارة إلى تنفيذه في نفس اليوم، ورأى نادر وشاركه الرأي نور أن النظام الجديد يمكن أن يعـرض حيـاة (ش) للخطر إذ سيجعله بدون حراسة من وقت غلق العنابر إلـى صباح اليوم التالي، الأمر الذي يعني إمكانية تكرار محاولـة الاغتيال خاصة وأن الأصدقاء لم يتمكنوا بعد من جعل كـل الممرضين القائمين علـى حراسـة (ش) مـن الممرضـين الأصدقاء، ورأى الاثنان مقاومة تنفيذ القرار ولو بالقوة.

أسرع نادر إلى العيادة الخارجيـة، وأخبـر الـدكتور فاضل بالقرار الجديد، وبرأيه هو ونور فطلب الدكتور فاضل أخذ رأي فكري سالم وفارس زايد وحسن الدمياطي على أن يقوم هو ببذل مساعيه لدى الإدارة لإلغاء القرار خاصة وأنه صاحب فكرة اليوم المفتوح.

وعند البوابة الخارجية أخبر نادر فارس زايد بالقرار، وعلى الفور قال فارس إنه يجب مقاومة تنفيذ القرار ولو أدى الأمر إلى دخول معركة مع الإدارة.

وفي الكانتين رفض حسن الدمياطي فكرة مقاومة تنفيذ القرار بحجة الحرص على أمان الأصدقاء.

وأخبرت وداد نادر بأن فكري سالم يـرفض مقاومـة تنفيذ القرار حتى لا يدخلوا معركة لم يعدوا أنفسهم لها إعدادا جيدا، وأنه يرى الاكتفاء بقيام الدكتور فاضل ببذل مسـاعيه عند الإدارة على أن تجتمع لجنة القيادة في المساء لدراسة ما يمكن عمله. كان فكري سالم يرى إحناء الـرأس للعاصـفة حتى تمر.

ودخل الدكتور فاضل إلى مدير المستشفى، بـين لـه خطورة تنفيذ القرار على الصحة النفسية للنـزلاء فـأخبره

المدير الذي كان يعامله باحترام ظاهر كطبيب مسن وكـفء أن القرار يتصل بأمن السراية وهو مقدم علـى اعتبـارات الصحة النفسية، طلب منه الدكتور فاضل عقد اجتماع لأطباء المستشفى لأخذ رأيهم فقال المدير إن القـرار صـادر مـن جهات عليا لا يمكن مراجعتها فيه. وفور خـروج الـدكتور فاضل من مكتب المدير طلب من أحـد الأصـدقاء بجهـاز الاتصال إبلاغ نادر بنتيجة مقابلته مع المدير، وبأنـه يـرى مقاومة تنفيذ القرار ولو بالقوة.

وسارع الدكتور مجدي فور علمه بالقرار بالذهاب إلى كبير الأطباء، وكلمه عن خطورة تنفيذ القرار علـى حالـة المرضى، وأثره على سمعة المستشفى، وكان مجدي وهـو مدفوع في محاولته باعتبارات مهنية يدرك أنه بهذه المحاولة يساعد نادر وأصدقاءه الذين يقومون بحماية (ش). واسـتمع إليه كبير الأطباء وهو نصف نائم ثم قال بصوت فاتر إنه لا يعرف شيئًا عن صدور القرار، وإنه يمكنـه الـدخول إلـى المدير إذا شاء.

واندفع الدكتور جلال إلى مكتب المدير غاضبا، لم يكن قد أفاق تماما من سكرة الصباح، وتلقاه المدير ببسمة ساخرة،

وسأله متخابثًا عما يهمه هو من أمر هذا القـرار أو غيـره فرمى الدكتور جلال المدير بكلمات قاسية عن سوء إدارتـه، وغادر السراية بالرغم من أنه كان عليه الدور في نوباتجيـة الليلة.

التقى نادر بنور والوقاد وقرروا بناء على اقتراح نور أخذ رأي أكبر عدد ممكن من الأصدقاء في كيفيـة مقاومـة القرار.

وعند الظهر عرف أنه صدرت تعليمات المدير بعـدم انصراف أحد من العاملين الذين يتصـل عملهـم بالتعامـل المباشر مع النزلاء في موعد الانصراف الرسمي فتأكد عزم الإدارة على تنفيذ القرار في نفس اليوم.

ساد الترقب بين النزلاء والأصدقاء في أفنية السراية، وخرج إلى الأفنية نزلاء قلما كانوا يخرجون إليها من قبل.

ومر نادر ونور والوقاد على عدد كبير من الأصـدقاء لأخذ رأيهم فيما ينبغي عمله فطالب معظم من أخـذ رأيهـم بمقاومة تنفيذ القرار، وطالب عدد من الأصدقاء وفي مقدمتهم أدهم وأصدقاؤه الأربعة بانتهاز هذه الفرصة وما يمكـن أن

يحدث فيها من فوضى لإخراج (ش)، وتحمس للمقاومة إيبوور وزكريا وقرمط وبلال وابن المقفع وابن رشد.

وقبيل الساعة الثانية اتخذ نادر باعتباره مسئول العمل في السراية قراره بمقاومة تنفيذ القرار والتجهيز للمعركة المحتملة مع الإدارة ومكتب الأمن، وتحرك بحذر هو ونور والوقاد والعاملون بجهاز الاتصال للإعداد للمعركة.

حددوا الأماكن التي ينبغي الاشتباك فيها، والأصدقاء الذين عليهم أن يشتركوا في المقاومة، والأصدقاء الذين يجب أن يظهروا فقط معارضتهم، والأصدقاء الذين ينبغي لاعتبارات الأمان أن يبتعدوا تماما عن الصدام، كما حددوا الأصدقاء الذين عليهم أن يستغلوا الشخصيات التي يتقمصونها، ومن يتخلى عنها عند الضرورة.

وعند الثانية والنصف غادر فكري سالم السراية دون أن يعلم بالقرار الذي اتخذه نادر، لم تخبره وداد بشيء، وسأل هو أحد الأصدقاء على درج مبنى الإدارة فأخبره بأنه لا يعرف شيئًا، ولم يكن من عادته أن يكلم فارس زايد وهو خارج من السراية أو داخل إليها حرصا على الأمان.

وفي تمام الخامسة خرج مـن مبنـى الإدارة مـدير المستشفى وكبير الأطباء ورئيس مكتب الأمن إلـى الفنـاء المواجه لمبنى الإدارة والمسمى بفناء الاقتصـادي، والـذي يطل عليه مبنى (ش)، وتبعهم الأطباء وموظفو مكتب الأمن والممرضون وبعض العاملين الإداريـين وعمـال النظافـة والخدمات، وشد المدير قامته المفرطة الأناقة، وبشيء مـن الارتباك والعصبية أصدر أمره بإدخال النزلاء العنابر وأبنية الاقتصادي فتفرق العاملون بالإدارة وبمكتب الأمن في فنـاء الاقتصادي وفناء العام، وأذّن بلال، وانطلق يطـوف بأذانـه وخطواته الواسعة في أنحاء السراية.

دخل بعض النزلاء عنابرهم دون اعتراض، وأظهـر البعض معارضتهم، وعند الشروع في استخدام القوة معهـم سارعوا بدخول العنابر، وهاج النزلاء الفصاميون وبعـض مرضى الذهان بأعراض أمراضـهم وهلاوسـهم، ووقعـت صدامات واشتباكات جماعية في أماكن متفرقة.

وقعت أكبر المعارك وأشدها بالقرب من مبنـى (ش)، وقد شارك فيها إيبوور بصياحه بأقواله عن الثورة المصرية الأولى، وزكريا الذي استخدم قوته البدنية غير العاديـة دون

أن ينطق بلفظ، وقرمط الذي كان يشتل بساقه قافزا هنا وهناك ليشجع ويوجه الضربات، ووائل الذي تظاهر بالبارانويا وراح يكيل الضربات الموجعة لعمال وموظفي الإدارة ومكتب الأمن، واستخدم سعيد الساعي والبسطويسي وحجازي وعماد يوسف وغيرهم من الرياضيين فنون القتال، كما شارك بشكل ظاهر أدهم وأصدقاؤه الأربعة، وخرج الأنبا شنودة من عنبره كما خرج أبو ذر، وراح الأنبا شنودة يصيح بضرورة مقاومة الرومان وطردهم من مصر، وأخذ أبو ذر يحرض الأصدقاء والنزلاء بأقواله عن ضرورة امتشاق الفقراء لسيوفهم، وكان شهاب الذي قيل إنه كان في إحدى حالات وعيه النادرة يغمغم بكلام غير مسموع ويتحرك من مكان لآخر ويوجه ضرباته، واشترك في المعركة من عنبر (٤) عمر ومختار وناصح والرسام والملواني ونزلاء عاديون كانوا ضد القرار أو متعاطفين مع الأصدقاء، وكان اشتراك نزلاء الاقتصادي من غير الأصدقاء محدودا.

كان الشيخ عبس كبير الممرضين يقف إلى جانب المدير متمتما بشفتيه، ومحركًا حبات مسبحته حتى ضاق به

المدير واضطر إلى انتهاره فتباعـد دون أن يشـارك فـي المعركة.

وكان الدكتور محجوب أكثر الأطباء حركة وأشـدهم قسوة على النزلاء خاصة من كان منهم لا يتمتع بشيء مـن القوة البدنية، وقد انفرد به ثلاثة من النزلاء خلف عنبـر (٤) وانهالوا عليه ضربا وهم يصفونه بجاسوس الإدارة.

وتظاهر الدكتور فاضل بالوقوف إلى جانـب الإدارة، وتحرك في الفناء يهمس للأصدقاء ببعض الملاحظات وعيناه على باب مبنى (ش).

حاول الدكتور مجدي إدخال النزلاء وخاصة أصحاب الحالات الحرجة، واضطر إلى صفع ممرض علـى وجهـه لأنه جر أحد النزلاء المسنين ليدخله عنبره عنـوة، وعنـدما رأى حماس النزلاء في المقاومة كف عن محاولة إدخـالهم، وأخذ يحفز بعض النزلاء الذين دخلوا العنابر على الخـروج ومشاركة زملائهم في المقاومة. وكان الدكتور باهر يقف إلى جانب المدير وكبير الأطباء وهو يدفع بنظارته السداسية فوق عينيه ويسوي ربطة عنقه، ويبدي تقـززه واسـتياءه مـن المرضى الذين يعصون أوامر الإدارة ويقاومون العـاملين.

وكان الدكتور مهران بقامتـه القصـيرة الممتلئـة يتحـرك خطوات مراوحا في مكانه وهو يتباعد عن الاشتباك فنالتـه بعض الضربات الطائشة، وتظاهر الممرضون من الأصدقاء بمحاولة إدخال النزلاء إلى العنابر وهم يحرضونهم ويدفعون بهم إلى الأفنية.

كان نادر يتحرك في كل اتجاه متظاهرا بالمشاركة في إدخال النزلاء وهو يوزع تعليماته على الأصدقاء ومسـئولي اتصال العنابر، وكان نور والوقاد يتحركان بطول السـراية وعرضها يدفعان الأصدقاء إلى مواضع الاشتباك، ولم يتمكنا من منع نفسيهما من توجيه بعض الضربات إذا ضمنا عـدم رؤية أحد من العاملين بالأمن لهما، واستمر بلال يؤذن دافعا الأصدقاء من مكان لآخر.

وفي نحو السادسة ظهرت قـوة مـن رجـال الأمـن المركزي، وسرعان ما قامت بالهجوم على النزلاء وضربهم بالهروات فاشتدت المعركة عنفًا، وجذبت الكثيرين من أبنيـة الاقتصادي وبعض من دخلوا العنابر، واسـتخدم الأصـدقاء والنزلاء الطوب وقطع الأخشاب والحديـد، وجـنح بعـض

العاملين في الإدارة إلى التباعد عن الاشتباك بـل وشـارك بعضهم خفية في الدفاع عن النزلاء.

وجاءت السابعة دون أن يغلق عنبر واحد على نزلائه، وانسحب المدير، اختفى في مبنى الإدارة، وبعد دقائق خـرج ليخبر قائد قوة الأمن المركزي ورئـيس مكتـب الأمـن أن الجهات المسئولة قررت إرجاء تنفيذ القرار إلى وقت آخر.

وانسحبت قوة الأمن المركزي يشيعها النزلاء بالطوب والحجارة، وتراجع العاملون بالإدارة ومكتب الأمن إلى مبنى الإدارة، وقد جرح بعض النزلاء وعدد من الجنود والعاملين بالسراية.

وانتشى الأصدقاء والنزلاء بانتصارهم. بقي الكثيرون منهم في فناء العام وأفنية الاقتصادي إلى ساعة متأخرة مـن الليل، وانطلق فاضل والدكتور مجدي لتضميد جراح النزلاء ذوي الجروح الخطرة.

وقبيل الفجر دخل السراية عدد من رجال مباحث أمن الدولة متنكرين في ثياب الممرضين، وفـي تحـرك سـريع وهجمات خاطفة أخذوا من الأفنية والعنابر وأبنية الاقتصادي عددا من النزلاء احتجزوا بعضهم بعنبر الإجـرام، وأخـذوا

البعض الآخر إلى خارج السراية، وكان من الذين أخذوا إلى الخارج الأنبا شنودة وزكريا وأدهم.

وبعد يومين عرف أن الأصدقاء الذين قبض عليهم عقب ضبط الأوراق قد عذبوا تعذيبا بشعا فمات واحد، وجن آخر، وأودع الاثنان الآخران أحد السجون على ذمة المحاكمة، وأن الأصدقاء الذين أخذوا ليلة إعادة التسكين قد تم حجزهم بعنبر الإجرام بمستشفى الخانكة.

وبعد يوم آخر عرف أن زكريا والأنبا شنودة حبسا بأحد السجون تمهيدا للمحاكمة، وأن أدهم مات نتيجة التعذيب البشع.

(٩)

في اليوم التالي بدا معظم النزلاء أكثـر جـرأة فـي مواجهة العاملين بالإدارة والممرضين والأطباء، ولم يغـادر العاملون بالأمن مكتبهم في مدخل البوابة الداخلية للسـراية، وتجنب رجال الإدارة الاحتكاك بالنزلاء، وسعى بعضهم إلى محاولة إزالة آثار المعركة من نفوس المرضـى المصـابين بأمراض نفسية أو عقلية لا تمنع أصحابها من الإدراك، بـل وقام أفراد منهم بالاعتذار إلى النزلاء الذين اعتدوا علـيهم، وتبرير ما وقع منهم باضطرارهم إلى إطاعة أوامـر الإدارة حرصا على لقمة العيش.

وفي اليوم التالي، ولدهشة الأصدقاء أبعـد العـاملون بمكتب الأمن عن مبنى (ش) وإن صدرت تعليمات مشـددة للممرضين الذين يقومون بحراسة حجرتـه بمنـع أي مـن النزلاء من الدخول إليه. وصدر قرار بأن تكـون زيـارات الأهالي في يوم الأحد من كل أسبوع بعد أن كان مسموح بها كل يوم، وأن يتم تفتيش ما يرد إلى النزلاء من أغذية وطرود بمعرفة أحد العاملين بالإدارة في حضور واحد مـن مكتـب الأمن.

وقد قام نادر ونور والوقاد بتنظـيم جهـاز الاتصـال وعلاقة الأصدقاء على ضوء الدور الذي قام به كل منهم في المعركة، ووفقًا لنظام التسكين الجديد حتـى تحـتفظ البنيـة الهرمية لعمل الأصدقاء بسريتها ويمكن مواجهة أي هجـوم من الإدارة، وبطريقة تكفل دقة مراقبة مبنى (ش) وحمايتـه، وضم إلى إيبوور وقرمط وجاليليو ووائل عدد من الأصدقاء المتظاهرين بالاكتئاب يتفرقون بالفناء، ويتناوبون التواجد فيه طوال الأربع والعشرين ساعة.

وبفضل مساعي الأصدقاء خارج السراية نشرت بعض الصحف أخبارا وتعليقات عن القرار الذي صدر ومحاولـة فرضه باستخدام الأمن المركزي، وعن سوء أحوال نـزلاء السراية واعتقال أصحاب الفكر فيها بحجة إصابتهم بأمراض عقلية، وطالبت إحدى الجرائد الواسعة الانتشار بالتحقيق فيما جرى من تعدٍ على النزلاء ومعاقبة المسئولين عنه.

وفي مساء اليوم الثالث، وبناء على طلب فكري سـالم اجتمعت لجنة القيادة في بيت أحد أصدقاء الخارج.

كان الخمسة في حالة توتر ظاهر، وكان فكري سـالم مزموم الشفتين بادي التجهم. ركز نظرة حادة على نادر.

- ما قمت به جريمة كان يمكن أن تنتهـي بالقضـاء على (ش) وعملنا كله في السراية.

واحتقن وجه الدمياطي الممتلئ المستدير، ودفع نظارته على أنفه:

- كان استخدام القوة خطأ فادحا.. وكان..

وقاطعه فكري سالم بشيء من الحدة.

- أنا لست ضد استخدام القوة عند الضرورة، ولكـن يجب أن يكون ذلك بإعداد مسبق وجيد حتـى لا يتعـرض عملنا للمخاطر أو تلحق بنا خسائر كبيرة.

حاول نادر أن يبتسم:

- كان لابد من استخدام القوة لمنع تنفيذ القـرار وإلا فشل عملنا كله وتعرض المعلم للخطر.

وضرب فكري سالم المائدة بقبضة يده:

- لقد أبلغتك بموقفي عن طريق وداد، والمفروض أنه بين اجتماعات اللجنة أنا الذي أصدر القرارات.

وحاول نادر أن يتحكم في أعصابه:

- أنا المسئول عن العمل داخل السراية، وقد طلبـت أنت نفسك في الاجتماع الأخير أن نتباعد اجتماعاتنـا، وأن يتصرف كل منا منفردا في حدود مسئوليته.

واستند فكري إلى ظهر كرسيه، وخفف قليلا من حدته:

- في مثل ذلك الموقف الخطير كان يجـب الالتـزام بقراري الذي أبلغتك به.

قال فاضل زكي:

- لقد أخذ نادر رأينا كلنا، ووافقـت أغلبيتنـا علـى مقاومة تنفيذ القرار ولو بالقوة.

وارتعشت كف فارس اليسرى:

- على أي حال لقد استخدمت القوة، وحققت المطلوب منها.

ونقل فكري بصره بين فارس وفاضل:

- لقد خسرنا كثيرا من الأصدقاء، وعدم قيـام الإدارة بفرض تنفيذ القرار حتى الآن لا يعني أنها لن تحاول تنفيـذه مرة أخرى خاصة وقد أصبحت على يقين من وجود أصدقاء لـ (ش) داخل السراية، ولا شك أنهـا أدركـت أن أولئـك الأصدقاء هم الذين تزعموا مقاومة تنفيذ القرار.

ورفع الدمياطي يده:

- أقترح توجيه لوم لنادر، وأن يقدم نقدا ذاتيا يـوزع على الأصدقاء.

وضحك فارس ضحكة أجشة:

- نقد مكتوب في ورقة؟!.. لقد منعتم توزيـع الأوراق داخل السراية حتى أوراق (ش).

وقال فاضل زكي بصبر نافد:

- الأمر لا يستحق لوما أو نقدا، كان نـادر ممتـازا طوال عمله بالسراية، وقد أدار معركة مقاومة القرار بطريقة جيدة.

وابتسم نادر:

- أنا مستعد لترك مسئولية العمل بالسراية بل الاستقالة من لجنة القيادة.

وهز فكري رأسه:

- لا.. لا.. كل ما أرجوه أن تكون أكثر انضباطًا في عملك حتى نحقق هدفنا بأقل الخسائر الممكنة.

وقال فاضل:

- المهم الآن أن نعمل على خروج (ش) والأصـدقاء في أسرع وقت ممكن... لندرس خطة نور للخروج.

وتململ فارس في مكانه:

- تعبنا من الكلام والمناقشات، المهم أن نبدأ في عمل حقيقي من أجل خروج المعلم.

وشف وجه فكري ببسمة صغيرة:

- المفروض فعلا أن نسعى للخروج في أسرع وقـت ممكن، علينا بعد أن تستقر الأحوال داخل السراية أن ندرس خطة نور وبعض الأفكار التي تجمعت لـدي عـن كيفيـة الخروج والعمل في الخارج.

تبادل نادر وفارس زايد نظرة غـيظ خائـب، وضـم فكري سالم أصابع كفيه في قبضة واحدة على المائدة:

- والآن..

وتوقف لحظة ثم قال وهو ينتقي كلماته دون أن ينظر إلى أحد من أصدقائه:

- أرى أن ننظم عملنا بطريقة تضـمن حمايـة (ش) وتجعلنا قادرين على مواجهة أي موقف مفاجئ. وأقتـرح أن يسند إلى وائل ومجموعة من الأصدقاء الذين يتمتعون بالقوة

البدنية مهمة حماية مبنى (ش) والمواجهة في أي معركة قـد نضطر إلى الدخول فيها، وأن يشكل نمرود مجموعة أخرى تكون مهمتها جمع الأخبار والمعلومات من الإدارة ومن كل أنحاء السراية حتى لا نفاجأ بشيء من قبل الإدارة ومكتـب الأمن.

وتجهم وجه فارس:

- عظيم.. دولة كاملة!!.. قوة من الرجـال الأشـداء وجهاز مخابرات، هذا ما انتهى إليه عمل الثوار!!.

وانعقد حاجبا فاضل الكثين:

- لقد تعرضنا لمناقشة مشابهة ونحن نناقش موضوع انضمام وائل إلى الأصدقاء الذين يقومون بحراسـة مبنـى المعلم.

ونظر الدمياطي بإعجاب ظاهر إلى فكري سالم:

- ما المانع في وجود تخصص بين الأصدقاء؟.. كـل واحد له قدراته الخاصة والمهم هو حماية (ش).

فقال فاضل بضيق:

- (ش) يحميه أصدقاؤه الذين تركوا شـئون حيـاتهم لحمايته وإخراجه من السراية، ومعركة مقاومة تنفيذ قـرار الإدارة شارك فيها كل الأصدقاء وكانت ناجحة.

قال فكري:

- كان يمكن خوض المعركة بخسائر أقل لو تصـدت لها مجموعة تتمتع بالقوة البدنية وعلى دراية بفنون القتـال، ولا تنس أننا كنا نعتمد على قوة المعمدان وزكريـا لحمايـة (ش) وهما ليسا معنا الآن.

ونظر إلى نادر الذي أسند ذقنه بيده، وأخذ يخطط فـي ورقة أمامه:

- ما رأيك أنت يا نادر؟

ورفع نادر عينيه، وأطال إليه النظر:

- أعتقد أن القوة التي تنشأ منفصلة عن الأصدقاء لابد وأن ينتهي بها الأمر إلى ممارسة قهرهـا علـى الأصـدقاء أنفسهم، ونحن لا نحتاج إلى مثل هاتين المجمـوعتين لأننـا نظمنا عملنا بطريقة تكفل حماية المعلم والاستعداد الجمـاعي لأية هجمة مفاجـأة، وبالنسـبة لجمـع المعلومـات فـوداد والأصدقاء الآخرون بالإدارة يقومون به بشكل جيد.

وضم فكري شفتيه ومدهما متفكرا ثم قال:

- يمكن أن يكون دور المجموعة التي يكونها وائل هو حماية مبنى (ش) فقط، وأن يكون عمل مجموعة نمرود بين العاملين بالإدارة ومكتب الأمن، وأن يكون عمل المجموعتين تحت إشرافك أنت.

ووضع فارس يده المرتعشة على المائدة:

- عندي اقتراح جيد.

وحدق إلي فكري سالم.

- أقترح أن تستقيل لجنتنا، وتترك للأصدقاء اختيـار لجنة أخرى في مؤتمرات صـغيرة تعقـد داخـل السـراية وخارجها.

ومال بصدره إلى الإمام:

- يبدو أننا شخنا، ولا تنسوا أن بعضنا أوشـك علـى الإحالة إلى المعاش، بالنسبة لي لم يتبق لي في السراية غير خمسة شهور.

وسارع فكري بالقول:

- ليس لدي مانع، ولـيكن ذلـك بمجـرد أن تسـتقر الأوضاع داخل السراية.

وهز فارس رأسه ساخرا:

- أنت منذ أربعة عشر عاما تنتظر استقرار الأوضاع.

قال فاضل بعصبية:

- الوقت ليس مناسبا الآن لهذا الاقتراح، المهـم هـو سرعة العمل على خروج (ش) والأصدقاء.

وزاد ارتعاش كف فارس:

- اقتراح آخر.. أن ننتخب رئيسا بدلا منك يا فكري.

وبهت الجميع، وشدت عيونهم في الصمت إلى وجـه فارس المتجهم المتحفز، وانتقلت إلى وجه فكري سالم الـذي احتقنت أذناه. حاول فكري أن يبتسم، وقال بصوت مختنق:

- ولماذا يا فارس؟.. هل ارتكبت جريمـة أو خطـأ كبيرا؟

واندفع فارس بغضب لا يقاوم:

- أكثر من أربعة عشر عاما ونحن نعمل في السراية دون أن يخرج المعلم، وذلك بسببك أنت.

وشحب قليلا وجه فكري سالم:

- قراراتنا كلها تصدر بأغلبية الآراء، لم أنفـرد أبـدا بتقرير شيء.

وضحك فارس:

- أغلبية الآراء؟!.. دائما تلح برأيك، وعندما كان يتغيب أو يتردد واحد منا، فاضل أو نادر أو أنا كان يرجح الجانب الذي فيه أنت.

وتمالك فكري نفسه، حاول أن يبتسم:

- نحن الآن خمسة، ولا مجال لترجيح جانب على آخر.

وهم نادر بتأييد اقتراح فارس زايد، فرصة لتغيير رئاسة اللجنة، للتخاص من حذر فكري سالم الزائد. يمكن أن يختاروا الدكتور فاضل أو عم فارس. هل يمكن أن تؤدي إزاحة فكري سالم من رئاسة اللجنة إلى وقوع انقسام بها وحدوث مشاكل في العمل؟.. وتردد نادر، يمكن أن يتم إخراج المعلم والأصدقاء في وقت قريب، وبعد الخروج لابد أن ينعقد مؤتمر ينتخب قيادة جديدة.

ونقل فاضل بصرا حائرا بين أصدقائه:

- دعونا مما فات، لقد عملنا معا سنين طويلة، وكنا أصدقاء.

والتمعت عينا فارس بالغضب:

- عندي اقتراح ثالث.....

حملقوا إليه في ترقب، هم بالكلام، ولكنه خفض رأسه وحدق في المائدة.

وقال الدمياطي بتلعثم وقد احمر وجهه وصلعته:

- لنطرح اقتراح فكري للتصويت.

قال فاضل:

- لنبحث عن شخصين آخرين غير وائـل ونمـرود فوائل شخصية بارانويية بالفعل، وفضول نمرود الزائد وميله لمعرفة الأخبار نتيجة وسواس قهري حقيقي وإن لم يبلغ حد المرض.

وتساءل فكري سالم وقد بدا أنه استعاد هدوءه:

- من يمكن أن يكون بدلا منهما يا نادر؟

وعقد نادر ما بين حاجبيه:

- يمكن أن يكون سعيد الساعي أو البسطويسي بـدلا من وائل.

وسارع فكري بالرفض:

- لا.. لا.. سعيد الساعي أطيب من الـلازم، ولـيس لديه الحزم الكافي، والبسطويسي لا يجيد التصرف.

وقال الدمياطي:

- البسطويسي سليط اللسان، وليس عنده غير الضحك والتهريج.

قال فكري:

- لنبدأ بوائل ونمرود، ويمكن أن نغيرهما فيما بعـد، المهم أن يكونا تحت إشرافك أنت، وألا يتدخلا فـي عمـل الأصدقاء.

وأُجري التصويت، وافـق علـى الاقتـراح فكـري الدمياطي، وعارضه فارس ونـادر، وامتنـع فاضـل عـن التصويت، ورجح جانب الرئيس.

نظر فارس إلى فاضل دهشًا، وابتسم ابتسامة مبهمة.

وهموا بالقيام، اقترب فكري من فارس فسارع فـارس بالخروج دون أن يلتفت إليه.

نادر شوقي

ما كدت أخرج من مبنى الإدارة حتى لقيني وائل باسما:

- أبلغني الدمياطي بالقرار الجديد، وبدأت في تنفيذ ما يخصني منه.

تساءلت وأنا أتأمل وجهه الأبيض المشرب بحمرة، وشاربه الصغير المشذب بعناية، وكتفيه العريضين، وقامته المدكوكة:

- وماذا فعلت؟

قال وهو يسير إلى جانبي:

- بدأت في اختيار أفراد المجموعة التي ستعمل معي، وقد قررت أن يقوم خمسة بحراسة مبنى (ش) من السابعة مساء، وخمسة آخرون في فترة الليل على أن تتغير النوبة كل أسبوع، وأن ينوب عني واحد أختاره من كل مجموعة عندما أذهب للنوم.

قلت وأنا أخطو مبتعدا:

- اقترح الأسماء لنختار أفراد المجموعتين معا.

وتنبهت لأمر فرجعت إليه:

- يجب أن يبقى إيبوور وقرمط وجاليليو في أمـاكنهم للمشاركة في حماية المعلم.

وابتسم:

- ليس لدي مانع، وإن أصبح وجودهم في الفناء بـلا معنى.

قلت آمرا:

- لا تتصرف في شيء دون الرجوع إلي.

فقال بلهجة شبه عسكرية وهو يبتسم:

- أمرك أيها الصديق.

تساءلت، ماذا يمكن أن يفعل وائل ومجموعته في الأيام القادمة؟... بطل المصارعة الـذي زاملنـي فـي الدراسـة الجامعية، ورسب كثيرا حتى فصل فعمل مدربا في الأنديـة الرياضية، كان في المظاهرات التـي اشـتركنا فيهـا فـي السبعينيات واحدا من القوة الصدامية التـي لا تفكـر، كـان مخلصا وصريحا، ولكنه بالرغم من حماسـه لفكـر (ش) لا يقيم وزنًا للثقافة، ونادرا ما يقرأ حتى كتابات (ش)، ومنذ أن دخل السراية قبل عامين بعد إلحاح فكـري سـالم كـان لا

يضايقني منه إلا تنفيذه للتعليمات دون مناقشة أو سؤال وكأنه آلة صماء.

ولحق بي قرمط، سار إلى جانبي، وهمس:

- ما هذا القرار الجديد الذي أصدرتموه؟.. المفروض أن الأصدقاء كلهم يشاركون في حماية (ش).

قلت دون أن أنظر إليه:

- ماذا نفعل وقد حرمنا من قوة زكريا والمعمدان؟

قال غاضبا:

- لن يقوم الأشداء المتخصصون بحماية المعلم بشكل جيد.

- ستبقى أنت وإيبوور وجاليليو في الفناء تشـاركون في حمايته.

- لن يكون لوجودنا أهمية، وسيكون لوائل وزملائـه الكلمة الأولى والأخيرة.

- لن يفعل وائل شيئًا دون الرجوع إلي، ويمكن مناقشة القرار في اللجنة مرة أخرى.

وأطال إلي النظر وهو يهز رأسه، وابتعد.

واسترعى انتباهي وجه إيبوور المتجهم الذي أشاحه عندما رآني فاقتربت منه وهمست:

- سعدت صباحا أيها الصديق..

وتطلع إلي بعينين غاضبتين:

- فعلتموها أيها الأخصائي؟.. أقمتم جماعة العسكر بحجة حماية (ش)؟

قلت:

- ستبقى أنت والأصدقاء الآخرون في أماكنكم تشاركون في حماية المعلم.

أيقنت أن القرار الذي كنا في غنى عنه سيسبب لنا الكثير من المشاكل، ونظر إلي إيبوور بجانبي عينيه:

- فرصة أخيرة يا نادر لأنني أحبك وأثق بك كما كنت أثق بأبيك وفارس زايد، وإذا لم يلغ هذا القرار في أسرع وقت سيكون لي موقف آخر.

وعندما مررت إلى جانب جاليليو لم يلتفت إلي وظل مقرفصا ينظر في تلسكوبه الخشبي.

وخاف العنبر الصغير، رأيت نور جالسا إلى جانب شهاب المستلقي على الأرض يحاول إطعامه شيئًا بيده،

وعندما رآني نهض وأقبل إلي، سار إلى جانبي فـي اتجـاه المطبخ والمغسل، بدا وجهه الأسود متجهما:

- هل صحيح أنكم أصدرتم قرارا بمنع تـداول أوراق (ش) بين الأصدقاء؟

أدركت أنه لم يعلم بقرار تكـوين مجمـوعتي وائـل ونمرود.

- أجل.. لفترة محدودة.

- ولم؟

- حرصا على أمان عملنا بعد الذي حدث.

وتساءل بلهجة استنكار:

- وهل وقوع بعض الأوراق في يد الإدارة يسـتدعي وقف تداول أوراق المعلم بـين الأصـدقاء؟.. ألـيس مـن المفترض إمكان وصول بعض أوراقنا إلـى يـد الإدارة أو مكتب الأمن؟

وهممت بالرد فتساءل:

- هل رجعتم إلى (ش) قبل اتخاذ هذا القرار؟

قلت:

- الظروف لا تسمح الآن بأخذ رأي (ش).

ورفت على وجهه الأسود بسمة ساخرة:

- الظروف؟.. أكل ما يروق لكـم تفعلونـه بحجـة الظروف؟

لم يكن نور قد كلمني من قبل بهذه الطريقـة، عنـدما كان لا يعجبه قرار أو موقف كان ينظر إلي بعتاب، ويناقش بلا غضب أو سخرية.

قلت:

- المنع سيكون لفترة محدودة، وسـيلغى بمجـرد أن تستقر الأمور.

وتوقف عن السير، وواجهني بحدة:

- لا يملك أحد أيا كان منع كتابات (ش) عن الأصدقاء بأية حجة، ولا منع كتابات الأصدقاء عنه كما فعلتم بكتابـات ابن المقفع، ولو عرف المعلم بذلك لغضب منكم.

قلت وأنا أتجنب عينيه:

- قررت لجنة القيادة تكوين مجموعـة بقيـادة وائـل لحماية مبنى المعلم. ومجموعة أخرى بقيادة نمـرود لجمـع المعلومات التي تهمنا داخل السراية.

وحدق في وجهي بذهول:

- بدأتم تفعلون كما تفعل كل قوى القهر؟!

حاولت أن أبتسم:

- لا تبالغ.. نحن في حاجة إلى عـدد مـن الأشـياء لحماية المعلم، وفي حاجة لمعرفة ماذا يدور حولنا أولا بأول.

وسألني بشيء من الحدة وهو ينظر في عيني:

- ماذا كان موقفك أنت يا نادر؟

وارتبكت، تساءلت، لماذا لا تكون آراء ومواقف كـل أعضاء اللجنة معروفة للأصدقاء؟.. واندفعت قائلا:

- اعترضت على منع توزيع الأوراق، وعلى تكـوين المجموعتين.

وعم فارس والدكتور فاضل؟

نظرت إليه في تردد، ها أنا أنساق إلى كشف أسـرار لجنة القيادة، قلت:

- اعترض عم فارس، وامتنع الدكتور فاضـل عـن التصويت.

وانعقد ما بين حاجبيه:

- امتنع الدكتور فاضل عن التصويت؟!.. ما أعرفـه أن الامتناع عن التصويت هو موقف العاجز أو مـن يريـد

إمساك العصا من منتصفها، ولا أظن الدكتور فاضل واحـدا من الاثنين.

هممت بأن أقول إن الدكتور فاضل كان كثيرا ما يمتنع عن التصويت في الشهور الأخيرة، وإنني لا أعرف ما جرى له لأنه كثيرا ما يبدو متعبا وكأنه أوشك علـى اليـأس مـن خروج المعلم.

وحدق نور في الخلاء:

- أحوالنا تسوء يوما بعد يوم، يبدو أنه في ظل قيادتكم لن يخرج (ش) من السراية أبدا.

وخطا إلى الأمام وهو يقول:

- إذا استمر الحال هكذا سأترك العمـل فـي جهـاز الاتصال.

نظرت إليه وهو يبتعد بجلبابـه الأبـيض وخطواتـه الواسعة وقد استبد بي الضيق، وأمسك الصداع برأسي، وما كدت أستدير حتى رأيت نمرود إلى جـانبي وكـأن الأرض انشقت عنه:

- صباح الخير أيها الصديق.

قلت بحنق:

- صباح الخير يا نمرود.

نظرت إلى رأسه المائل ونظارته الجانبية مـن خلـف نظارته الداكنة، وذراعه اليمنى المثنية والملتصقة بجنبه، ماذا يمكن أن يأتي من وراء هذا النمرود الذي لم أسترح إليه منذ أدخله فكري سالم السراية؟

قال ببسمته التي يمتزج فيها الخبث بالغموض:

- كانت قرارات عظيمة تلك التي أصدرتها قيادتنا، لقد سعد بها كثير من الأصدقاء أيها الصديق.

وابتسمت ممرورا وقد زاد ضيقي:

- أمتأكد أنت من هذا؟.. هل أجريـت اسـتفتاء بـين الأصدقاء؟

وحك ضحكة مكتومة:

- أنا لا يخفى علي شيء في السراية، وأعـرف آراء الكثيرين من الأصدقاء.

تساءلت وأنا أنظر إلى بسمته التي أنفر منها:

- وهل تقوم بالتجسس على الأصدقاء أيضا؟

وارتجفت ذراعه الملتصقة بجنبه:

- أبدا.. أبدا.. أنا لا أتجسس على أحـد، الكثيـرون يحبونني ويثقون بي.

قلت وأنا أحاول أن أنهي الحديث:

- هل اخترت من سيعملون معك؟

- ليس بعد.. سأختارهم بعناية ممن أثق بهم وبقدرتهم وتكتمهم، سأحتاج لبعض الوقت.

قلت:

- اعرض علي أسماء من تقترح أن يعملوا معك حتى أحدد أنا أفراد مجموعتك.

واتسعت بسمته، ومازجها النفاق:

- طبعا.. طبعا.. من لا يروق لك نستبعده.

وهممت بالانصراف عنه فاستوقفني، وهمس:

- بالمناسبة.. الصـديق حسـام وبعـض الأصـدقاء يشربون الهبهب في عنبر (١).

- وما هو الهبهب هذا؟

وابتسم بخبث:

- ألم يخبرك عنه أحد من الأصدقاء الـذين سـبق أن سجنوا أو اعتقلوا؟.. إنه نوع من المسكر يعمل من العسـل الأسود.

- وهل يعربدون أو يعتدون على أحد عندما يشـربون ذلك الهبهب؟

وشوح بذارعه:

- إن شربه لا يليق بأخلاقنا ومثلنا.

واختنقت بالغيظ:

- لم يكلفك أحد بمراقبـة أخـلاق الأصـدقاء، إيـاك والاقتراب من أحدهم.

وبدا عليه الارتباك، وقال بتلجلج:

- أنا لا أتلصص على أحد أيها الصديق.

وأشفقت عليه، رأيت أنه لا مبرر لحدتي فوضعت يدي على كتفه، وقلت وأنا أحاول أن أبتسم:

- اسمع يا نمرود.. حتى نعمل معا بلا مشاكل أرجـو ألا تتدخل في شئون الأصدقاء.

فقال وهو ينظر بجانبي عينيه:

- أمرك يا نادر.

وما كدت أتركه حتى خطر لي أن أرى حسام لأسأله فيما قاله نمرود، وجدته واقفًا يضحك مع اثنين من النزلاء فأشرت له، فجاء وسار إلى جانبي:

- ما حكاية الهبهب الذي تشربه أنت وبعض الأصدقاء في عنبرك؟

ورفع حاجبيه متسائلا:

- ومن أخبرك بها؟

قلت:

- نمرود.

فقال بغضب:

- أليس لهذا النمرود مهمة غير التلصص على الأصدقاء؟!

وأضاف:

- جربنا عمله مرة واحدة أنا وأحد الأصدقاء، وفشلت التجربة.

قلت:

- لا داع لمثل هذه التصرفات، أنت تعرف أحوال النزلاء.

وابتسم:

- لا تقلـق.. لا ننـوي أن نشـرب إلا إذا سـمحتم بمسكرات حقيقية... وطبعا لن يحدث هذا لأنكم متخلفون.

- اغفر لنا تخلفنا، وتحمله حتى نخرج من هنا.

قال جادا:

- نخرج من هنا؟!.. لقـد دخلنـا لإخـراج المعلـم فحبستمونا معه، وها أنتم تقيمون، دولتكم الخاصة، وأرجو أن تبلغ المدعو نمرود أنني سأكسر رقبته إذا اقترب مني أو من أحد الأصدقاء.

وفي صباح اليوم التالي عرض علي وائل قائمة بهـا أسماء اثنا عشر صديقًا استبعدت منهم اثنـين كانـا مكلفـين بأعمال أخرى لا يعرفها وائل، وقد اسـتوقفني اسـم سـعيد الساعي فأكد لي وائل أنه رحب بالانضمام إلى مجموعته.

وفي نهاية ذلك اليوم، وعند مروري بفناء الاقتصـادي رأيت سعيد الساعي وعماد ومحمود حجازي وغائب وحسان متفرقين أمام مبنى (ش)، ولم يكن وائل معهم، لفت نظـري أن إيبوور وقرمط وجاليليو ليسوا في أماكنهم المعتادة، كـان إيبوور يجلس على حجره إلى جانب السور الفاصـل بـين

الاقتصادي والعام وقد خفض رأسه، وقرمط يتمشى على مقربة منه وقد عقد ذراعيه على صدره، وجاليليو يفترش الأرض بجوار السور، يمسك بتلسكوبه الذي تحول إلى قطعتين.

انتجهت إلى قرمط وسألته:

- لماذا تركتم أماكنكم أمام مبنى (ش)؟

فقال متجهم الوجه:

- طلب منا وائل الابتعاد حتى لا نربك زملاءه وهم يقومون بعملهم، وكسر محمود حجازي تلسكوب جاليليو.

وازدحم صدري بالغضب وأنا أرى إيبوور يرمقني بنظرة غاضبة معاتبة، قلت:

- ولكني طلبت من وائل أن تشاركوا في حماية (ش).

- حذرنا من الاقتراب من المبنى، وعندما ثار إيبوور هدأته حتى لا ينكشف أمرنا.

قلت بغيظ:

- سأتصرف مع وائل.

ولما هممت بالسير قال قرمط:

- لقد ضرب عماد الصديق شهاب.

انتفضت غضبا:

- ماذا؟

فقال بسخرية غاضبة:

- ضربه بحجة اقترابه من مبنى (ش) لدخوله.

- وأين شهاب؟

- لا أعرف.. قد يكون في المكان الذي اعتاد النـوم فيه.

وأسرعت إلى العنبر الصغير.

وعندما اقتربت من العنبر رأيت أحد الأصدقاء ينهض من جوار شهاب المستلقي على الأرض وبيده إنـاء، ولمـا رآني أشاح بوجهه، وابتعد.

كان شهاب يرقـد علـى الأرض بأسـماله المتسـخة الممزقة مغمض العينين، وفي وجهه جروح وخدوش. ملـت عليه، وناديته باسمه ففتح عينيه وحدق إلـي بنظـرة حـادة غريبة، وأغمضهما.

كان في لحظات إفاقته النادرة يتعرف علي، كان فـي تلك اللحظات يبتسم لي أو يهم بالكلام أو يحدق إلي عابسا.

غلى الدم في عروقي، عدت إلى فنـاء الاقتصـادي، رأيت وائل يتمشى أمام باب مبنى (ش) وقد شـبك سـاعديه على صدره، سألته غاضبا:

- لماذا ضربتم شهاب؟

وحملق إلي دهشًا:

- شهاب؟!.. أنا لم أضرب أحدا.

قلت:

- ضربه زميلك عماد.

ونظر إلى عماد الذي كان يتمشى وهـو ينظـر إلـى الأرض، وقال:

- لم يخبرني أحد بذلك، صحيح أن شـهاب اقتـرب مرات من مبنى (ش)، وبدا وكأنه يريد الدخول، ولكنـي لا أسمح لأحد بأن يمد يده إليه. سأتصرف مع عماد.

وبرغم غضبه الظاهر لم أسترح لطريقته في الكـلام، تساءلت:

- ولماذا أبعدت إيبوور وقرمط وجاليليو عـن مبنـى المعلم؟

فأشار إليهم وهم إلى جانب السور:

- ها هم هناك، لقد طلبت منهم الابتعـاد قلـيلا عـن المبنى حتى يستطيع زملائي القيام بمهمتهم.

قلت ولم ينته غضبي:

- بداية سيئة لعملك أنت وزملائك، سـيبقى إيبـوور وقرمط وجاليليو مشاركين في حماية المعلم، وإياك والتعرض لأحد من الأصدقاء.

قال بلهجة فيها شيء من الجفاء:

- أنا أعرف جيدا حدود مهمتي يا نادر.

قلت:

- عمل مجموعتك وفقًا لقرار لجنة القيادة يكون تحت إشرافي، وأرجو أن تلتزم بالتعليمات التي أصدرها لك، وألا تتجاوز حدود عمل مجموعتك في حماية (ش).

وحاول أن يبتسم:

- أنا طوع أوامرك أيها الصديق.

مجدي عبد السلام

خاض النزلاء معركة جيدة مع الإدارة لأنها أصـدرت قرارا بغلاق العنابر وأبنية الاقتصادي على النزلاء في تمـام الخامسة مساء كل يوم، وفشلت الإدارة في تنفيـذ قرارهـا برغم استعانتها بقوات الأمن المركزي، واكتشفت من خـلال رؤيتي لنادر وهو يتحرك في السراية في أثناء الاشتباكات أن أصدقاءه كثيرون، وأنهم هم الذين قادوا المعركة ضد الإدارة.

لقد ضبط الدكتور محجوب بيانًا لـ (ش) مـع أحـد النزلاء ففتشت العنابر وعثر على عدة أوراق أخـرى، وتـم القبض على النزلاء، وأعيد التسكين بالعنـابر، ونقـل مـن عنبري الأنبا شنودة وأبو ذر الغفاري اللذان أصبحت أشـك في أنهما من أصدقاء نادر لأنهمـا اشـتركا فـي المعركـة بصيحاتهما عن جند الرومان وضـرورة خـروج الفقـراء شاهرين سيوفهم.

وقد شارك في المعركـة ناصـح وعمـر ومختـار والملواني والرسام، وحاولت أنا مع كبيـر الأطبـاء لإلغـاء القرار لأن تطبيقه يمكن أن يضر بالصحة النفسية للنـزلاء، ويمكن أن يعرقل عمل نادر وزملائه. وخلال محاولة إدخال

النزلاء إلى العنابر حاولت إقناع بعـض النـزلاء المسـنين وذوي الحالات الخطرة بالـدخول إلـى عنـابرهم حتـى لا يتعرضون للأذى، واضطررت إلى ضرب أحد الممرضـين لاعتدائه على نزيل، وعندما رأيت شـدة مقاومـة النـزلاء للعاملين بالإدارة ومكتب الأمن رحت أحرض من دخل منهم العنابر على الخروج منها والاشـتراك فـي المقاومـة مـع زملائهم. وبعد أن انتهت المعركة في نحو السـابعة مسـاء وانصرفت قوة الأمن المركزي والمدير والعاملون مررنا أنا والدكتور فاضل على الأفنية والعنـابر نحـاول أن نضـمد الجروح الخطيرة لبعض النزلاء إلى ساعة متأخرة من الليل، كان معظم النزلاء في الأفنية منتشـيين بانتصـارهم، كـان الحماس والسعادة على وجوه المستبصرين بحالاتهم، وكانت إشارات وهذاءات الفصاميين تعبر عن الانتشاء.

وفي الصباح وأنا في طريقي إلـى عنبـري التقيـت بالدكتور باهر عاشق فرويد والتحليل النفسي، والذي يتعامـل مع النزلاء بأطراف أصابعه وتشنج ملامح وجهـه الوسـيم. كان في أثناء الاشتباكات واقفًا بالقرب من المدير مبديا تأففه واشمئناطه.

مررنا أمام مبنى (ش)، رنوت إلى نافذته المفتوحـة، وسألت الدكتور باهر:

- ما رأيك في (ش)؟

وتشنجت ملامح وجهه، وقال بحدة وحقد غريبين:

- يستحق الذبح.

ودهشت:

- ولم؟

والتوت شفتاه:

- إنه هدام خطير، شروره تلازمه في أي مكان يوجد فيه.

سألته ساخرا:

- أقرأت له شيئًا؟

ونظر إلي باستياء شديد:

- ولماذا أقرأ له؟

لماذا تقرأ له؟!... كنت قد قرأت في مسـتهل شـبابي بعض كتبه، واختلفت معه في بعض القضايا فلماذا لا أعيـد قراءة ما قرأته وأستكمل قراءة أعماله؟... هو واحد من أبرز مفكري بلادنا، واحد من أبرز مفكري اتجاه يتبناه الكثيـرون

في أنحاء العالم. صحيح أن تجارب المجتمعات التي تبنـت هذا الاتجاه لم تحقق ما سعت إليه من عدالة وحريـة بـرغم إنجازاتها الطيبة والكبيرة، ولكن يبقى ذلك الفكر آخر نتـاج في تراث الفكر الإنساني الذي يستهدف إقامة عـالم العـدل. لماذا لا أقرأه الآن بعيون تجربـة الأربعـين عامـا التـي عشتها؟... أنا لا أنوي اتخاذ موقف جديد أو القيام بأي دور، لكن يمكن للقراءة أن تساعدني على الرؤيـة فـي الضـباب الضارب حولي. وقررت أن أطلب من نادر بعض كتابـات (ش).

رأيت نادر واقفًا مع أحد النزلاء أمام حجـرة الأشـعة المغلقة فاتجهت إليه، وما إن رآني حتى ترك النزيل وأقبـل نحوي، قلت له بصوت خفيض:

- لقد خضتم معركة جيدة.

وابتسم، وتلفت حوله:

- هل أعجبتك؟

قلت:

- طبعا... يبدو أن أصدقاءك كثيرون.

- ليس كما تظن، لقد كان موقفك طيبا.

وأضاف وقد انعقد ما بين حاجبيه:

- يبدو أنهم قبضوا على بعض النزلاء، ومنهم الأنبـا شنودة الذي كان في عنبرك.

سرنا في اتجاه عنبري، تساءل:

- كيف حال سمرائك؟

قلت:

- ليس هناك جديد، ابن الكلاب ترك قسم الإدمان، ويقيم في قسم النساء.

وهز رأسه:

- لا تقلق بشأنها.. لنا صـديقات يقمـن بملازمتهـا وحمايتها.

سألته:

- هل عند كتب وأوراق لـ (ش)؟

وحدق إلي في دهشة:

- أجل.. ولم تسأل؟

قلت:

- أريد قراءة كل كتابات (ش).

وافترشت بسمة وجهه الكبير:

- عندي كل كتبه، وبعض الأوراق التي كتبهـا فـي السراية، سأحضر لك بعضا منها خلال يومين أو ثلاثة.

وأضاف:

- أظنك ستكون حذرا فأنت تعرف ظروف السراية.

وتركته، واتجهت إلى عنبري، كان عدد النزلاء فـي الفناء أكثر منه في الأيام السابقة، وكـأنهم يؤكـدون حقهـم وتحديهم للإدارة.

وأمام العنبر كان ناصح وعمر ومختـار والملـواني يتناقشون، وابتسمت لهم وقلت:

- كيف حالكم أيها المتمردون؟

فقال ناصح وهو يسوي طاقيته على رأسه:

- تمام التمام.

ودخل معي العنبر فسألته:

- لماذا اشتركت أنت في المعركة؟

وشوح بذراعه:

- الضرب بالسيف ولا حكم العويل في.

وأشار إلى سطوحي الذي يتصدر نهاية العنبر:

- الكل اشتركوا إلا اللصوص ومصاصي الدماء.

أضافوا:

- الحرامي رفع أسعاره بعد منع الزيارات.

نظرت إلى النافذة التي اعتاد الأنبا شنودة الوقوف إلى جانبها، وأحسست بالأسى للقبض عليه، واتجهت عيناي إلـى سرير أبي ذر الذي احتله نزيل آخر.

واقترب الرسام، قدم إلي ورقة رأيـت فيهـا رسـما لسطوحي وأتباعه وقد رسموا بالدوائر المتداخلة، وكان الرسم يعبر عن شراهة سـطوحي بشـدقيه المنتفختـين وشـفتيه المكتنزتين وكرشه الكبير. سألت الرسام الذي كان ينظر إلي باسما ومترقبا:

- هل كففت عن الرسم بأجساد النساء العاريات؟

وبدا عليه الخجل:

- قررت أن أكف عن ذلك العبـث، سأرسـم نـزلاء العنبر.

قلت، لعل هذا التحول يساعد على شفائه مـن ذهـان الزهري الذي لا توجد أدوية له في السراية.

وأقبل النزلاء الثلاثة الجدد الذين نقلوا إلى العنبر فـي التسكين الأخير. كنت أراهم أحيانًا جالسين إلى جانب الجدار

الخلفي للعنبر، وكانوا من النزلاء الذين شفوا ولكنهم لم يجدوا أقارب من الدرجة الأولى يطالبون بخروجهم.

شد الأسمر الطويل المتسق الملامح قامته، وأطال إلي النظر بعينيه الملتمعتين، وقال:

- أنا وسيم.

بدا ذا شخصية بارانواية.

وأشار إلى زميله الذي يقـف إلـى يسـاره بوجهـه المستدير الباسم الذي يلوح في ملامحه ود ظـاهر، ويبـدو شخصية نوابيه:

- وهذا صديقي خليل الشقره.

وأشار إلى زميله الثاني الذي يميل إلى القصر، وتبدو على وجهه الداكن الهضيم البارز الوجنتين علائم السيكوباتي، وفي بياض عينيه صفرة وعكارة أفيونجي قديم:

- وهذا صديقي عبده.

كان الثلاثة يرتدون منامات كاكيه.

وأضاف وسيم:

- يمكن أن يعتمد علينا في المحافظة على النظام هنا.

قلت:

- العنبر والحمد لله يسوده النظام، وليس في حاجة إلى من يفرضه عليه.

وأطال إلي النظر، وابتعد وإلى جانبه زميله المبتسـم، وخلفهما زميلهما الثالث.

وفي منتصف النهار لاحظت أن وسيم يتهـامس مـع مختار وناصح والملواني وهم واقفون في الممـر وعيـونهم باتجاه سطوحي.

(١٠)

قُتل الدكتور محجوب، وجد مطعونًا بسـكين ومهشـم الرأس إلى جوار السور الجانبي لقسم النساء.

كان عليه الدور في النوباتجية الليلية التي نـادرا مـا يكون يقوم بها، ولم يكن الدكتور مجدي قد تبادل معه كلمـة عندما جاء إلى سكن الأطباء في الثامنة مساء، ولم يحس بـه وهو يغادر السكن عند منتصف الليل، وفـي الصـباح رأى نزيل اكتئابي جثته وحولها بعض النزلاء الفصاميين يعبرون بهذاءاتهم السمعية والبصرية عن الدهشة والفزع والابتهـاج فسارع النزيل بإبلاغ أحد الممرضين النوباتجية الذي قام فور رؤية الجثة بإبلاغ الدكتور مجدي، فأسرع مجدي إلى مكـان الحادث ثم قام بإبلاغ السلطات المختصة.

شاع خبر قتل محجوب بين النزلاء فقابلـه الواعـون منهم بالرضا والإحساس بالراحة أو الشعور بالأسف المحدود لأنه كان مكروها من الجميع لقسوته في معاملة المرضـى، وأبدى الأصدقاء ارتياحهم لموته باعتبـاره عمـيلا لـلإدارة ومكتب الأمن، ولدوره في ضبط الأوراق وإعـادة التسـكين وفي المعركة التي خاضوها لمنع إلغاء نظام اليـوم الكامـل

المفتوح، وهيمن على الأصدقاء الترقب لـرد فعـل الإدارة ومكتب الأمن، وسارع نور بتأمين ما يحتفظ به الأصدقاء من أوراق وكتب.

وعندما تقاطر العاملون على السـراية بعـد الثامنـة صباحا كانوا يقابلون الخبر بالدهشة والوجوم، لأنه لـم يقـع مثل هذا الحادث لأحد من العاملين بالسراية منذ سنين طويلة. وقد أحس كثير من الممرضين والعاملين والأطباء بعد صدمة المفاجأة بالرضا لكرههم لمحجوب الذي كان يتجسس علـيهم هم أيضا، ويعامل معظمهم باستعلاء وجفاء.

وعند دخول نادر السراية أخبره فارس زايـد بوقـوع الحادث وبسمة صغيرة تشيع في وجهه الأسـمر، وللوهلـة الأولى أحس نادر بالابتهاج ولكن سرعان ما انتابـه القلـق، وألحت عليه التساؤلات عمن يكون القاتل، والسبب في وجود الجثة إلى جانب سور قسم النساء، وتوقع أن يحـدث القتـل مشاكل للأصدقاء.

لم يجد نادر إجابة لتساؤلاته، فمحجوب كان مكروهـا من الجميع، وقد سبق أن عبر له بعض الأصدقاء عن غيظهم ورغبتهم في التخلص منه. وكان لمحجوب فضائحه النسائية

التي تتعامى الإدارة عنها، وكثيرا ما حاول الاعتـداء علـى نزيلات بقسم النساء وعنبر المدمنات، كانت أخرهن السمراء صديقة الدكتور مجدي، كما كانت له علاقة معروفة بـامرأة هستيرية بالقسم كانت تسهل له تحقيق رغباته، وهي النزيلـة التي حاولت الإيقاع بمجدي.

بدا الهدوء القلق المترقب مهيمنًا على السراية وعلـى النزلاء في الأفنية والعنابر وعلى حركة العاملين بالإدارة.

رأى نادر الدكتور جلال خارجا من باب الإدارة، وما كاد يسأله عن الحادث حتى شوح جلال بذراعـه، ورائحـة الخمر تفوح من فمه:

- في ستين داهية هو وأمثاله.

وفي الحجرة الملاصقة لحجرة كبيـر الأطبـاء كـان يتجمع أطباء السراية، نظر الدكتور سمير إلى نـادر نظـرة طويلة، ولم يشِ وجهه الأسمر بشيء، وابتسـم لـه مجـدي ابتسامة صغيرة وشت بسروره بوقوع الحادث.

جلس نادر إلى جانب وداد قلقًا، همست له:

- استرحنا منه.

قال محدقًا في الفراغ:

- قد يأتي من هو أسوأ.

وقالت:

- كان كلبا حقيرا.

وتساءلت في توجس:

- من يكون القاتل؟.. هـل يمكـن أن يكـون أحـد الأصدقاء؟

زادت شكوك نادر، فالجريمة بالطريقة التي وقعت بها لابد أن يرتكبها أكثر من واحد، اسـتعرض وجـوه بعـض الأصدقاء الذين يتميزون بالاندفاع والحدة. لم يتوقـف عنـد واحد بعينه.

قالت وداد:

- مدير مكتب الأمن في حجرة المدير منذ أكثر مـن نصف ساعة، ولم يحضر رجال الشرطة والنيابة حتى الآن.

وفي فناء الاقتصادي كـان يقـف أمـام مبنـى (ش) حجازي وعماد غائب وحسان وسعيد الساعي، وكان وائـل يقف أمام باب المبنى، وعلى البعد عند السور كـان يجلـس إيبوور وقرمط وجاليليو ينظر في نصف تلسكوبه المكسور.

اقترب نادر من وائل، وهمس له:

- من فعلها يا وائل؟

فقال وائل من فوره:

- بالتأكيد ليس واحدا من رجالي.

تصفح نـادر وجـوه الأصـدقاء الخمسـة القـائمين بالحراسة، أحس بالضيق من كلمة (رجالي) تساءل بشيء من السخرية:

- ولماذا لم يحس بوقوعها أو يكتشـفها واحـد مـن رجالك؟

وشوح وائل بذراعه:

- الجريمة وقعت بعيدا عنا، إلى جانب سـور قسـم النساء الجانبي.

قال نادر وهو يبتعد:

- انتبهوا جيدا، قد يقوم مكتب الأمـن بالانتقـام مـن النزلاء.

والتقى نادر بنـور فـي العنبـر الصـغير، تبـادلا التساؤلات، ولم يصلا إلى إجابة، ولم يخمنا من يكون القاتل، واتفقا على الإجراءات الاحتياطية تحسبا لهجمة مفاجئة مـن الإدارة ومكتب الأمن.

وفي نحو العاشرة جاء رجال الشرطة والنيابة، وتمت معاينة الجثة في حضور مدير مكتب الأمن. وفي مكتب كبير الأطباء أُخذت أقوال الدكتور مجدي والممرض الذي أبلغـه بالحادث والنزيل المكتئب الذي اكتشف الجثة، ثم نُقل القتيـل من السراية، ومر اليوم دون أن يحدث شيء تجاه النـزلاء، وإن اتسمت تصرفات العاملين والممرضين والأطباء بالحذر والملاينة إزاءهم، وفي صباح اليوم التالي أشـيع أن النيابـة قيدت الحادث ضد مجهول.

وبعد الحادث بيومين، وفيما كان نادر يسير في الفنـاء الخاص بالاقتصادي اقترب منه أحد أصدقاء أدهم الذين كان بعض الأصدقاء يسمونهم بشلة المشاغبين، وسار إلى جانبه، وهمس له:

- نحن الذين قتلنا محجوب.

والتفت إليه نادر بحدة.

قال الصديق الذي يميل إلى القصر والنحـول، وفـي وجهه الرقيق بسمة مترددة:

- كان لابد أن ننتقم لأدهم والأصدقاء الذين قتلـوا أو سجنوا.

حدق إليه نادر، وخفض الصديق رأسه:

- قتلناه نحن الأربعة، عرفنا أنه الطبيب النوبـاتجي، وتربصنا به وهو خارج من قسم النساء في منتصف الليـل، وأمسكنا به، وكممناه، وطعنا في ظهره، وجررناه إلى جانب السور، وأجهزنا عليه بتحطيم رأسه.

تأمل نادر الصديق الرقيق الذي يكتـب الأدب، قـال الصديق بغل:

- كان لابد أن نتخلص منه.

ازدحمت المشاعر المتناقضة بصدر نادر، تساءل:

- هل أخبرتم أحدا بذلك؟

- لا.. أنت تعرف أننا نحبك ونثق بك.

فقال نادر وهو يخافت من صوته:

- لا تخبروا أحدا.. أي أحد.

وسار مضطربا وحائرا، حياه أحد الأصدقاء فلم يلتفت إليه... ماذا يفعل؟... وقرر أن يخفي الأمر عن الجميع حتى أعضاء لجنة القيادة كي لا يتعرض الأصدقاء الأربعـة لأي خطر.

وفي ليلة نفس اليوم قُبض على ثلاثة من الأصدقاء، ومنهم الصديق الذي أخبر نادر بقتلهم لمحجوب، وأخذوا إلى خارج السراية.

وفي الصباح، وفور أن علم نادر بالقبض على الأصدقاء الثلاثة سارع إلى مبنى الإدارة، وطلب من وداد دون أن يخبرها بشيء مما قاله له الصديق أن تبلغ فكري سالم بأمر القبض كي يقوم أصدقاء الخارج بالوقوف إلى جانب المقبوض عليهم فقال لها فكري سالم غاضبا إنه علم بأن التحقيق يجري معهم بتهمة قتل محجوب، وأنه يجب على الأصدقاء الابتعاد عن هذا الموضوع حتى لا ينسب أولئك القتلة إليهم.

ولما نقلت وداد إلى نادر ما قاله فكري طلب منها أن تبلغه برغبته في عقد اجتماع عاجل للجنة القيادة.

وحضر الاجتماع الأصدقاء الخمسة، حضره فارس زايد متضررا كان قد رفض الحضور فور أن أبلغه نادر بموعد عقد الاجتماع، ولكن عندما أخبره بسبب اقتراحه الاجتماع قرر الحضور من أجل الأصدقاء الثلاثة، بدت

الجفوة واضحة بين فارس وفكري سالم، نظر فكـري إلـى فارس باسما عند دخوله فأشاح فارس بوجهه:

بادر نادر بالكلام:

- يجب أن نقف إلى جانب الأصدقاء الثلاثة ونساعدهم كما نفعل لكل صديق يقبض عليه.

فقال فكري سالم:

- لقد ارتكبوا جريمة قتل، وعلينا أن نبتعد عنهم حماية لسمعتنا.

قال نادر:

- إنها مجرد تهمة ولم يثبت عليهم شيء بعد، وفي كل الأحوال يجب ألا نتخلى عنهم.

قال الدمياطي هو ينظر إلى فكري سالم:

- شلة المشاغبين كان دوما مصدر إزعاج لنا، وهـم كانوا على خلاف مع كل الأصدقاء.

فقال فارس بحدة:

- هم أصدقاء لنا، ونحن الـذين أدخلنـاهم السـراية، وعلينا أن نقف إلى جوارهم.

وحاول فاضل أن يبتسم وقد بدا وجهه متعبا:

- خلافات أولئك الأصدقاء معنا أو مع بعض زملائهم لا تدينهم في شيء، والمفروض أننا لسنا كلنا قالبا واحدا.

قال نادر:

- على فرض أنهم قتلوا محجوب فلابد أنهم ارتكبـوا فعلتهم بدافع الثأر لزملائنا، والتخلص مـن جاسـوس كـان يسبب لنا مشاكل كثيرة.

وحدق فكري سالم إلى فاضل زكي وسأله:

- هل تقر يا فاضل مبدأ التخلص من أحد الأعداء لأنه يسبب إزعاجا أو ضرر لنا.

وانعقد ما بين حاجبي فاضل:

- لا.. ما دمنا لسنا في معركة مباشرة، ولأن القتل في هذه الحالة لن يفيدنا بشيء، وقد يضـرنا، ولكـن إذا كـان الأصدقاء الثلاثة قد أخطئوا فلا يعني ذلك التخلي عنهم.

واندفع فارس قائلا بشيء من الغضب:

- أنا أقر قتل من تسبب في قتل أحد منا، ولكن بشرط ثبوت إدانته برأي جماعي، وكلنا نعرف أن محجوب تسـبب في قتل صديقين وجنون آخر والقبض على بعض الأصدقاء

وتعذيبهم، وإذا كان الأصدقاء الثلاثة قد قتلـوه فلابـد أنهـم أجمعوا على قتله.

ونقل فكري بصره بين فاضل وفارس:

- أقترح أن نبتعد تماما عن أمر هذه الجريمـة، وأن يفصل زميلهم الرابع من صفوفنا.

واندفع نادر:

- وما ذنب زميلهم الرابع؟

وتساءل فارس ببسمة ساخرة:

- ماذا تقصد بفصله وقد حبسناه داخل السراية؟

فقال فكري سالم:

- أقصد عزله عن بقية الأصدقاء، وحرمانه من وارد الزيارات، أما عن ذنبه فلابد أنه علم بنية زملائه ولـم يقـم بإبلاغنا بشيء، وحتى لا تنتقل عدوى أفكاره إلى أحـد مـن الأصدقاء.

ونقل نادر نظرة غاضبة بين فاضل وفارس زايد:

- هذه سابقة خطيرة في عملنا.

وقال الدمياطي:

- لنجر التصويت على اقتراح فكري.

وأيد الاقتراح فكري والدمياطي، وعارضـه فاضـل وفارس ونادر.

وابتسم فكري سالم، شبك أصابع يديه علـى المائـدة، وقال:

- سألتزم برأي الأغلبية، وسأطلب من أصدقاء الخارج ندب أحد المحامين للدفاع عن الثلاثة.

وقال وهو يحاول ينتقي كلماته:

- جريمة قتل المحجوب تكشف قصورنا في معرفة ما يحدث بالسراية، فالجريمة وقعت واكتشفت دون أن يحس بها أحد من الأصدقاء، كما تؤكد وجود خلل في انضباط البعض، ولذلك أرى أن يزيد وائل من الأصدقاء العاملين معه بحيـث يتواجد بعضهم في الأفنية والعنابر، وأن يفعل نمرود أيضـا حتى تكون رقابتنا وسيطرتنا كاملة على السراية.

واربد وجه فارس، وارتسمت على وجه فاضل بسـمة ممرورة، واندفع نادر بصدره إلى الأمام، وقال:

- الجريمة تكشف خطأ نظام الحراسة الجديد والطريقة الجديدة لمعرفة ما يدور في السراية، لأنه عندما كان يشترك عدد كبير من الأصدقاء في حماية (ش)، وعندما كـان كـل

صديق يقوم من جانبه بمعرفة ما يحدث في السراية لم يغب عنا شيء، كان الكل يقومون بالحراسة والسعي لمعرفة الأخبار، ولكن عندما خصصنا عددا من الأصدقاء لهاتين المهمتين انصرف عنها الأصدقاء الآخرون، ولذلك أرى إلغاء قرار إنشاء مجموعتي وائل ونمرود.

قال الدمياطي وهو يدفع بنظارته فوق أنفه:

- التخصص يفيدنا ولا يضرنا.

فقال نادر وهو يحاول أن يتمالك نفسه:

- لسنا بصدد مسألة فنية تحتاج للمتخصصين.

نظر الدمياطي إلى فكري سالم:

- زيادة عدد زملاء وائل ونمرود تضمن لنا عدم انفراد أحد من المتهورين بعمل يضر بنا.

فقال فاضل زكي بضيق:

- هذا يعني تدخل زملاء وائل ونمرود في شئون الأصدقاء أنفسهم، وأن يكونوا قوة فوق الأصدقاء.

قال فكري سالم بشيء من الصرامة:

- بعض الأصدقاء يحتاجون فعلا إلى نوع من الرقابة، يمكن لعدد من الحمقى أن يدمروا عملنا كله، المفـروض أن يتوفر لعملنا الانضباط الكامل.

وارتعشت يد فارس زايد، واندفع قائلا بغضب:

- لقد شاركتم الإدارة في حبس (ش)، والآن تريـدون أن تقهروا أصدقاءه.

وهب واقفًا:

- عندي اقتراح لن تصوتوا عليه، وكان علي أن أقدمه في الاجتماع الأخير... أنا مستقيل مـن لجنـتكم المـوقرة، ولتفعلوا ما تريدون، ويكفيني أن أكون عند البوابة الخارجية للمكان الذي يسجن فيه المعلم.

واندفع خارجا وسط ذهول الجميع.

ارتعش الصمت لحظات، وابتسم فكري سالم في حرج:

- يبدو أن هناك شيئًا شخصيا يضايقه ويوتره. فارس قلما كان يفقد أعصابه، سأزوره، وسيشارك في اجتماعاتنـا القادمة.

نقل بصره بين وجه فاضل الشاحب الشـارد، ووجـه نادر الذي انعقد حاجباه في ضيق وتفكر.

فكر نادر في أن ينسحب هو الآخر، ولكن بسمة رضا صغيرة على شفتي الدمياطي الممتلئتين استبقته في مكانـه، قرر ألا يترك القيادة للدمياطي وفكري سالم.

قال فاضل وهو يتململ في كرسيه:

- لنؤجل استكمال المناقشة إلى اجتماع قادم.

فقال فكري سالم في حزم:

- بعد وقوع جريمة القتل أصبح الأمر خطيرا، وعلى أي حال نحن لا نقرر أمرا جديدا، مجرد زيـادة فـي عـدد العاملين مع وائل ونمرود، وسيبقى عملهما تحـت إشـراف نادر شخصيا.

قال نادر:

- لنرجئ التصويت يوما أو يومين حتى نتفاهم مع عم فارس.

فقال فكري سالم في إصرار:

- لا.. الأمر لا يحتمل التأجيل.

وقال الدمياطي:

- لنناقش موضوع عصابة... أقصد الأصدقاء الأربعة مرة أخرى.

وانتهره فكري بحدة:

- لقد ناقشنا الأمر، وعلينا أن نلتزم برأي الأغلبية.

وتبادل نادر والدكتور فاضل نظرة ساخرة، يائسة، وأُجري التصويت فوافق فكري والدمياطي، وعارض فاضل ونادر، ورجح جانب فكري سالم.

نادر شوقي

تركت الاجتماع وأنا أحس بالدوار، همت في الشوارع وأنا أتساءل ما العمل؟.. بصدور القرارات الأخيرة ووجود الدمياطي في لجنة القيادة وانحيازه الكامل إلى فكري سالم وصل عملنا إلى طريق مسدود، وإذا استمر بهذه الطريقة لن يخرج المعلم من السراية، وستسوء أكثر أوضاع الأصدقاء.

كنت أعتقد يوم التحقت بالعمل بالسراية أنه لن تمر شهور حتى يخرج المعلم وننطلق معه بين الناس لنحقق أهدافنا، فرحت بإسناد مسئولية العمل بالسراية إلي، وترشيحي للجنة القيادة على أمل أن يساعد ذلك على سرعة خروجه، وها قد مرت سبعة أعوام كاملة دون أن نحقق هدفنا، زاد عدد الأصدقاء المحبوسين مع المعلم، وساءت أحوالنا بشكل ملحوظ في الشهور الأخيرة، وأخيرا جاءت تلك القرارات لتزيد من سوء أحوالنا وتعقد أسلوب عملنا.

لو أنني أيدت اقتراح عم فارس بانتخاب رئيس للجنة القيادة غير فكري سالم. كان يمكن أن يحل محله الدكتور فاضل أو عم فارس فيختلف أسلوب عملنا، كان يمكن أن يعارض الدكتور فاضل أو يمتنع عن التصويت فترجح كفة

فكري سالم، خشيت أن يحدث انقسام في صفوفنا يسبب لنـا المشاكل.

لماذا لا أفعل ما فعله عم فارس والدكتور فاضل وعلي النجاتي منذ خمس سنين؟.. لماذا لا أجمع عددا من الأصدقاء الذين أثق بهم ونعمل بعيدا عن لجنة القيادة لإخراج المعلم؟.. لا.. هل أخون أصدقاء اللجنة الذين عملت معهـم سـنوات ووثقوا بي وتعلمت منهم الكثير؟.. ولكن المهم هـو خـروج المعلم.. هل يكون وفائي لأصدقاء القيادة أكثر مـن وفـائي للمعلم لأنني أدين بالفضل لهم؟.. لكن أي عمل للخروج مـن وراء ظهر لجنة القيادة يمكن أن يفشل كما فشلت محاولة عم فارس وعلي النجاتي والدكتور فاضل بل ويمكن أن تعرض المعلم للخطر، لا أعرف من أصدقاء الخـارج إلا ثلاثـة أو أربعة، ولا أعرف حتى مدى ارتباطهم بنا الآن. فكري سالم باعتباره المسئول عن العمل في الخارج هو الذي يعرف كل الأصدقاء ويعرف إمكانياتنا، قمنا أنا وعم فارس والـدكتور فاضل بتسليمه الأصدقاء الذين ضممناهم إلينا في الخـارج، ودفع هو بالكثير منهم إلى داخل السراية، لكن أيـة محاولـة محكمة للخروج لا تحتاج إلا لعدد قليل من الأصدقاء ومكان

آمن يختبئ فيه المعلم، خطة نور لا يحتاج تنفيذها لعدد كبير من الأصدقاء، فقط السرعة والحزم والسرية الكاملة، رفضها فكري سالم للوهلة الأولى باعتبارها خيالية ومغـامرة، مـاذا يمكن أن أفعل؟.. فكري سالم ليس صديقًا سيئًا، هو مخلـص للمعلم والأصدقاء، ومثقف جيد، وشديد الذكاء، ولكن حـذره ودقته يصلان إلى حد الوسوسة والتردد. يميل إلى التمسـك برأيه، هل يمكن الانتظار أسابيع وحتى شهورا أخرى؟.. لو أنني أناقش وداد في فكرة العمل المستقل، ستتحمس لها على الفور، كثيرا ما تسخر من فكري سالم وتقول إنه يتصـرف بعقلية موظف الأرشيف، كثيرا ما تقـول للـدكتور فاضـل مداعبة إنه أصبح عجوزا متعبا.

الصداع يقبض على مؤخرة رأسي، يمكن أن أعـاود التفكير في فكرة العمل المستقل في وقت آخـر، يمكـن أن أنتظر أسابيع أو حتى عدة شهور، لأحاول إقناع عم فـارس بالعودة إلى لجنة القيادة، ولأناقش الدكتور فاضل في موقفـه وميله الجديد إلى الامتناع عن التصويت. كثيرا ما يعبر عن حرصه على وحدة اللجنة وتجنب التسبب في انقسامها.

وفي البيت تقلبت في الفراش حتى الفجر ألحت علـي الفكرة وعاودني التردد ثم نمت نوما متقطعا تتخلله الكوابيس، واستيقظت في العاشرة صباحا مصدع الرأس متعبا فقـررت عدم الذهاب إلى السـراية، وحاولـت النـوم مـن جديـد، واستيقظت عند العصر، وذهبت إلى بيت عم فـارس وبـي رغبة في الجلوس مع وداد.

كان عم فارس أمام مائدته الصغيرة يشتغل في أبنيتـه الخشبية، رد تحيتي بصوت خافـت دون أن يلتفـت إلـي، وانهمك في عمله. جلست وداد إلى جانبي وهمست:

- كان فكري سالم هنا منذ حوالي سـاعة، حـاول أن يناقش أبي في أمر استقالته فاحتد عليه.

مرت لحظات صمت دون أن ينظر إلينا عم فـارس، قالت وداد وهي تنظر إلى أبيها:

- لا يمكن أن ينتهي عملنا كله بهذه الطريقة.

وارتعشت كف عم فارس، توقف عن نشـر خشـبه، قلت:

- أريد أن نتناقش نحن الثلاثة.

رمقني بنظرة طويلة، خفض رأسه، وقـال بصـوت خفيض:

- لا فائدة.. فشل عملنا كله.

واندفعت قائلا:

- والمعلم؟.. هل نتركه بالسراية؟.. هل نتركـه بيـد المباحث والإدارة وفكري سالم والدمياطي؟

وأسبل جفنيه فقالت وداد:

- لا يمكن أن نتخلى عـن حمايـة المعلـم والعمـل لإخراجه وإخراج الأصدقاء، معظم الأصدقاء في السراية إلى جانبنا.

وتنهد عم فارس، قال وهو يعتصر يديه:

- لقد أخطأت عندما قبلت أن يكون فكري سالم رئيسا لنا، وقد كنت طول السنين التي عملتها مع (ش) لا أميل إلى المثقفين، ولا أثق بالكثيرين منهم، وكان المعلم نفسه يضـيق بكثرة كلامهم وترددهم وأساليب عملهم، وأخطـأت لأننـي تركت عملنا في السراية يتعقد بحجة حماية (ش) بـدلا مـن العمل السريع لإخراجه، وأخطأت أيضا لأنني قبلت باستمرار لجنة القيادة سنين طويلة دون تغييرها بمن يختارهم الأصدقاء

أنفسهم، وكان خطأي الأكبر يوم استجبت لرجاء فاضل زكي ولم أستخدم قوتي في مواجهة من وقفوا فـي طريقنـا عنـد محاولة إخراج (ش)، أيامها قبلـت تعنيـف فكـري سـالم، وترددت في القيام بمحاولة أخرى، ورضيت باستبعادي مـن التمريض إلى البوابة الخارجية.

وتجعد جبينه، وانعقد ما بين حاجبيه في ألم:

- فاضل هو السبب، فترت همته في السنين الأخيرة، وهو مثقف كالآخرين.

وأشار بإصبعه نحوي:

- وأنت الآخر.. ساهمت فيما وصلنا إليه.

قلت مدافعا عن نفسي:

- لقد طالبت دائما بسرعة خروج المعلم، ووقفت ضد أي قرار أو عمل يمكن أن يعطل خروجه، وكنت أطالب عند مناقشة أي أمر هام بالرجوع إلى الأصدقاء.

قال بغضب:

- أنت شاب، كنت أعتقد أنك أكثر همة وحماسا منـا، كان يمكن أن تفعل الكثير.

واندفعت قائلا:

- أفكر في تكوين مجموعة داخل تنظيمنا في السراية تعمل لإخراج المعلم وأكبر عدد من الأصدقاء في أقرب وقت ممكن.

وأحسست بالندم لتسرعي، لتصريحي بالفكرة التي لـم أقتنع بها بعد.

وحدق إلي عم فارس، وقالت وداد بحماس:

- ولم لا؟.. هذا هو الحل الوحيد.

وارتعش كف عم فارس، تساءل:

- تنظيم آخر؟.. تعقيد آخر الآن؟

وأضاف وهو يحدق في الفراغ:

- لقد خطرت لي نفس الفكرة مرات بعد فشل محاولتنا أنا وعلي النجاتي وفاضل، ولكنني لم أتمكن من تنفيذها وأنـا مقيد بالجلوس عند البوابة الخارجية.

قلت:

- خطرت لي الفكرة أمس بعد الاجتماع، واسـتبعدتها لأن في تنفيذها خيانة للأصدقاء الذين وثقوا بي، و...

وشوح عم فارس بيده مقاطعا:

- دعك من الكلام الفارغ، المهم هـو خـروج (ش) والأصدقاء، المهم هو الإخلاص للمعلم والأصـدقاء الـذين يريدون خروجه.

قلت:

- يمكن أن ندرس الفكرة جيـدا ثـم أستكشـف رأي الأصدقاء الذين أثق بهم، خاصة وأن خطة نور لا تحتاج إلى الكثيرين لتنفيذها.

وهز إصبعه في اتجاهي:

- إذا عملت على خروج (ش) خلال أسابيع فأنا معك.

وبدا عليه التردد لحظة ثم قال:

- يوجد عدد من الأصدقاء القدامى لـي ولأبيـك لـم أسلمهم لفكري سالم، وألتقي بهم بين فترات متباعـدة، وهـم مستعدون للاشتراك في أي عمل لإخراج (ش).

قلت:

- المهم أن تعود إلى لجنة القيادة، وأن نحاول الحد من أضرار القرارات الأخيرة وإلغاءها..

قال بإصرار وحدة:

- لا.. لن أعود إلى لجنة القيادة أبدا، لن أعمـل بعـد الآن مع الدمياطي وفكري سالم، لـن أسـاهم فـي إضـفاء الشرعية على تلك اللجنة بوجودي فيها.

وطُرق الباب، ودخل الدكتور فاضل، كان يبدو شاحب الوجه، متعبا.

نظر إلى عم فارس، وجلس على الكنبـة المواجهـة، ومرت لحظات صمت، ثم قال الدكتور فاضل موجها كلامـه إلى عم فارس:

- انسحابك أدى إلى صدور القرار بزيادة عدد أفـراد المجموعتين، كنا أنت ونادر وأنا نشكل الأغلبية، لو شاركت في التصويت لما صدر القرار.

فقال عم فارس بحدة:

- لا تغالط نفسك، الموضوع ليس أقلية وأغلبية، أنـت تعرف أساليب فكري سالم.

واستأذنا أنا ووداد في الانصراف، أردنـا أن نتـرك الصديقين القديمين وحدهما لعل الدكتور فاضـل يقنـع عـم فارس بالعدول عن الاستقالة.

وفي الطريق أمسكت وداد بيدي، ورنت إلي باسمة:

- لابد أن تبدأ على الفور فـي تنفيـذ فكرتـك، كلـم الأصدقاء الذين تثق بهم وهم كثيرون..

كنت ما زلت نادما على التصريح بفكرتي لعم فـارس قبل الاقتناع الكامل بها، قلت:

- أريد أن أتدبر الأمر جيدا حتى لا نلحق أي ضـرر بالمعلم والأصدقاء.

قالت بإصرار:

- لا تتردد.. لا يوجد طريق آخر للخروج.

وضغطتُ على كفها الدافئ فـي كفـي، وحاولـت أن أصرف الحديث إلى موضوع آخر.

وفي منتصف الليل عدت إلى بيتـي، وفـي الفـراش عادت الفكرة تلح علي، كنت أخشى الفشل وتعريض المعلـم للخطر، وبعد أن تقلبت كثيرا قررت أن أرجئ الشروع فـي العمل المستقل أسبوعين أو ثلاثة.

مجدي عبد السلام

في الصباح وأنا في طريقي إلى عنبري وجدت باب قسم النساء مواربا فدخلت بشيء من الجرأة كما بدأت أفعل منذ قتل الدكتور محجوب وإشراف الدكتور مهران على القسم إلى جانب إشرافه على عنبر (٣).

رأيتها في النافذة رائقة الوجه، باسمة العينين وقد لمت شعرها الأسود الطويل في ضفيرة واحدة، ابتسمت لي بسمتها الخجول وهي تخفض رأسها.

قالت وهي تقدم إلي الفتاة التي كانت تتظاهر بالخرس، وشابة سمراء تميل إلى البدانة، وكنت قد لاحظت أنهما تلازمانها في الأسابيع الأخيرة، وخمنت أنهما من صديقات نادر:

- صديقتاي.

قلت للفتاة التي كان تتظاهر بالخرس مداعبا:

- لا أظن أنك كنت خرساء بالفعل.

وابتسمت، وأحنت رأسها.

استبقيت يد السمراء لحظات في يدي، وقلت:

- ستخرجين قريبا.

ومنحتني عيناها النيليتان نظرة باسمة طويلة وآسرة.

خرجت منتشيا وسعيدا، وعند الباب لقيني الدكتور مهران، وابتسم لي وجهه الكبير المهدل وقد أصبح معتادا على رؤيتي في القسم.

كانت قد مرت عدة أيام وأنا أعيش فورة حماس زائد، كنت أسهر إلى ساعة متأخرة من الليل أقرأ كتابات (ش) التي يمدني بها نادر، وقد أصبحت أتفق مع (ش) في معظم أفكاره، وكنت أستيقظ مبكرا، وكثيرا ما كنت أطوف بالأفنية في الصباح وأنا أتأمل وجوه النزلاء وأتساءل، من منهم من أصدقاء نادر، ومتى يخرجون (ش) فتخرج السمراء؟

وأمام باب عنبري فوجئت بسطوحي مكوما على حجر، وفي جبهته جرح غائر، وفي خديه آثار خدوش، وعندما رآني هب واقفًا، وقال بصوت شاك غير مألوف منه وهو يشير إلى جبينه:

- ضربوني وطردوني من العنبر في الليل وأخذوا كل أشيائي، سأذهب إلى المدير، سأعرف كيف أربيهم.

دهشت، وأحسست بالشماتة وأنا أرى وجهـه البـاكي وتهدل كتفيه الممتلئين، ودخلت العنبر وقـد ثـار فضـولي لمعرفة ما حدث.

رأيت الكثيرين من النزلاء متزاحمين حـول كـراتين سطوحي في نهاية العنبر يتوسطهم وسيم بقامتـه الفارعـة وحوله صـديقاه وناصـح والمـواني ومختـار والشـابان الملتحيان.

أقبل إلي ناصح وهو يفرك كفيه سرورا:

- كرشنا التاجر الحرامي فـي الليـل، وأخـذنا كـل حاجاته.

وأشار إلى وسيم الذي بدا وجهه باسما:

- راجل من ضهر راجل، هو اللي بدأ الهجوم علـى سطوحي وأتباعه.

اقتربت من زحام النزلاء وصيحاتهم، سألت وسيم:

- ما الذي فعلتموه؟

فقال بأبهة زعامية.. وهو يوجه كلامه إلى النزلاء:

- ليس لفاسد مستغلٍ مكان بيننا.

ابتسمت:

- أهي ثورة؟

فرد زميله الأسود بطريقة متكلفة:

- إنها حركة مباركة.

وكتمت ضحكي، وقلت:

- أعطوا سطوحي أشياءه، ويكفي طرده من العنبر.

فقال مختار وهو ينظر إلى وسيم:

- لا.. لقد كون تجارته من دم النزلاء في هذا العنبـر والعنابر الأخرى، لن نعطيه شيئًا وليفعل ما يشاء.

قلت محذرا:

- سيشكوكم للإدارة، وستنصره عليكم.

وشب وسيم بصدره ، وشوح بذراعه.

- ونحن لها.. لا يهمنا الإدارة أو غيرها.

وزاد فضولي لمعرفة ما يمكن أن يفعله المرضى فـي هذا الموقف، تساءلت:

- ماذا تنوون أن تفعلوا بأشيائه؟

قال مختار:

- سنوزعها على...

وقاطعه وسيم:

- أسكت أنت.. سأقرر أنا وكل الإخوان مـا سـنفعله بها.

رفع ناصح ذراعه الناحلة، وهم بأن يتكلم فقـال لـه وسيم:

- انتظر يا أخي.. لم أفعل أنا ما فعلته إلا مـن أجـل أمثالك.

ووجه وسيم كلامه إلى النزلاء بطريقة خطابيـة، ردد كلمات عن العدالة والمساواة فصفق له كثير مـن النـزلاء، وهلل بعضهم، وقاومت الضحك، كان وسيم يجيد الخطابة.

وتحرك جميع النزلاء إلى وسط العنبر، ووسيم يلـوح لهم بذراعه وقد افترشت وجهه الأسمر بسمة كبيـرة فيهـا جاذبية خاصة.

وقفت بالقرب منهم أرقبهم بانتباه، وأرهـف سـمعي لكلامهم. واسترعى انتباهي الرسام وقد أسـند ورقـة علـى الحائط، وأخذت يده تتحرك عليها بسرعة.

قال مختار:

- لنجرد محتويات الكراتين، ونوزعها بالتساوي على كل النزلاء.

فقال وسيم:

- لا.. سنجرد ما في الكراتين، ونكّون لجنـة تقـوم بالمتاجرة باسمنا جميعا في جزء من ممتلكات اللص بأسعار رخيصة للإخوان في العنبر وبأسعار معقولة خارج العنبـر، وما يتحقق من ربح يوزع علينا جميعا، والجزء الآخر يقسم ويوزع بالقرعة على بعض الإخوان على أن يدفعوا جـزءا من أرباحهم لمجموع العنبر.

صاح الساعاتي مبتهجا:

- تمام.. تمام..

وصاح عترة:

- هذا هو العدل، يمكن أن أكون واحد مـن أعضـاء اللجنة.

ورفع العجوز رستم ذراعه القصيرة:

- كلامك دهب يا سعادة الباشا.

وقال مختار وهو ينظر إلى عمر الـذي بـدا مـتجهم الوجه:

- وأنا أوافق.. لننتخب اللجنة الآن.

حدجه وسيم بنظره استنكار:

- ننتخب؟!.. من الذي سينتخب؟.. سـأختارها أنـا، أقصد أنا وزميلاي من أصلح الإخوان في العنبر.

وتدخل خليل الشقرة صديق وسيم، وأشار إلى مختار:

- الزميل عنده حق، لينتخب كل الزملاء اللجنة.

ورماه وسيم بنظرة غاضبة:

- الزملاء؟!.. أي زملاء؟!

فقال خليل الشقرة باسما وقد احمر وجهه المستدير:

- لقد اشترك الجميع في طرد اللص وأعوانه.

وسأله وسيم بحدة وهو يشير بيده إلى مختار:

- أنت معنا أم معه؟

وارتبكت بسمة خليل:

- أنت تعرف أنني أؤيد كل ما تنوي عمله، ولكن فكرة هذا الشاب لا بأس بها.

وأطال وسيم النظر إليه ثم مال على زميلـه الأسـود هضيم الوجه هامسا فهز زميله رأسه عدة مـرات، وأشـار وسيم بإصبعه إلى الشقرة:

- أنت من الآن لست واحدا منا.

واختفت بسمة الشقرة، وتكدر وجهه:

- كيف؟!.. لقد هاجمت معكما اللص، وبـادرت أنـا بضربه.

فقال وسيم بحزم قاطع:

- إنك صديقي ولا أريد أن أصطدم بك، اعتبر وجودك في العنبر كعدمه، ويمكنك مغادرته إلى عنبر آخر.

حاول مختار أن يتكلم فانتهره:

- اسكت أنت، أفكارك هدامة كأفكار الشيوعيين، يبدو أنك واحد منهم.

وضحكت، تساءلت، ألا يوجد لنـادر أصـدقاء فـي عنبري؟.. أيكون مختار وعمر المتلازمان دائما صديقيه؟

ورفع الملواني ذراعه فابتسم له وسيم:

- نعم يا أخي.. قل ما تشاء.

قال الملواني وهو يشير إلى مختار:

- وجهة نظر الأخ سليمة، ويجب أن نشارك كلنا فـي اختيار اللجنة.

وحدجه وسيم بنظرة حادة ثم افترت شفتاه عن بسـمة صغيرة:

- لا أظن أفكارك كأفكاره، إن تنفيذ اقتراحه سيثير الخلافات والمشاكل بيننا.

ورفع ناصح ذراعه فقال له وسيم مشجعا:

- تكلم يا أخ.. تكلم.. المفروض أن تكون أنت أول المتكلمين.

وتلعثم ناصح:

- إنت عملت في العنبر اللي محدش عمله، ولكن كل شيء وله قانون، و..

وقاطعه وسيم:

- فاهم.. فاهم.. أنا لا أفكر في أمثالك، اطمئن.

وخفض ناصح رأسه، وعلى وجهه بسمة خائبة:

وقدم لي الرسام رسما يصور وسيم وزميليه يتصدرون بعض النزلاء.

وسمعت عمر يقول لمختار مؤنبا:

- قلت لك إنه شخصية مستبدة، وعلينا أن نقف في مواجهته.

فقال مختار:

- علينا أن نكسبه لصفنا لأنه يعمل لمصلحة النـزلاء، والنزلاء يقفون إلى جانبه.

وارتفع صوت وسيم:

- ستشكل لجنة من النزلاء الذين شاركوا في الهجـوم على سطوحي وأعوانه يرأسها صديقي وزميلي عبده.

ودارت عيناه على وجوه النزلاء الملتفين حوله، وأشار إلى عترة:

- أنت واحد من أعضاء اللجنة.

وقال أحد الملتحين، وكان قريبا منه:

- أنت لم تأخذ رأينا أيها الأخ.

فقال وسيم:

- أنتم إخوان لي، ولكم دوركم المهم.

وأشار إلى العجوز رستم:

- وهذا الرجل الكبير عضو في اللجنة.

واتجه عبده إلى كراتين سطوحي وعلى وجهه الأسود علائم الجدية والأهمية وخلفه عترة ورستم.

وسار وسيم في الممر بين الأسرة يوزع ابتساماته على النزلاء. وذهب إليه مختار وعمر، قال مختار لعمر محذرا:

- لا تكلمه بحدة، لا تثر غضبه.

وقال مختار لوسيم وهو يبتسم:

- أنت زعيم العنبر بلا منازع، ومن الأفضل أن تدار أمور العنبر في ظل قيادتكم بالديموقراطية، برأي الأغلبية.

وهز وسيم رأسه ساخرا:

- الديمقراطية؟!.. وأين توجد هذه الديمقراطية؟!

وتركهما وسيم واتجه إلى الملواني، وضع ذراعه على كتفه، ومال عليه هامسا بود.

وجاءني ناصح، قال وهو ينظر إلى وسيم أسفًا:

- الراجل ده جدع، بس مستبد برأيه.

وابتسمت وأنا أرى وسيم يلوح بيديه للنزلاء، والنزلاء يلوحون له.

وجاء ممرض العنبر، قدم إلي تذاكر النزلاء فانشغلت بالتأشير عليها بصرف الأدوية.

وعند الظهر رأيت سطوحي يقف بباب العنبر دون أن يجرؤ على دخوله، قال وهو يمد رأسه إلى الداخل:

- المدير مشغول، وكبير الأطباء طلب مني الـ ذهاب إلى عنبر (١) مؤقتًا، أريد أشيائي.

قلت له:

- أشياؤك انتهت، اذهب إلى عنبرك الجديد.

واقترب وسيم من الباب وحوله بعض النزلاء، حـدق إلى سطوحي مهددا فانسحب وهو يهدد ويتوعد.

وقبل الثانية كان الجرد قد انتهى، وقرأ عبـده قائمـة محتويات الكراتين، وكانت كثيرة، معلبات وملابس وأشـياء أخرى وقطعة أفيون كبيرة.

وألقى وسيم كلمة وعد فيها النزلاء بأيام طيبة تختلـف عن الأيام الماضية، وأعلن أنه سيتم إعدام قطعـة الأفيـون، ويمنع تعاطي المخدرات نهائيا، وأشار نحو زميله عبده:

- خذها وأعدمها بمعرفتك.

والتوت ملامح عبده بشبه ابتسامة، ودس قطعة الأفيون في جيبه وهو يقول:

- سأعدمها خارج العنبر.

وقُسمت ممتلكات سطوحي، خُصص جـزء صـغيرة لملكية النزلاء العامة، وقُسم الجزء الأكبر إلـى حصـص، وأجرى عبده القرعة بأوراق صغيرة قطعها الرسام. ووزعت

الحصص على سبعة مـن النـزلاء دون أن ينـال ناصـح والملواني وعمر ومختار والرسام شيئًا منها.

وفي صباح اليوم التالي وجدت عمر ومختار واقفـين أمام باب العنبر وهما يتناقشان بحدة، سألتهما:

- ما أخبار الحركة المباركة؟

قال مختار:

- وسيم طردنا من العنبر.

- ولم؟

قال عمر في غضب.

- يريد أن ينفرد بأمور العنبر وحده، لقـد اختلسـت اللجنة التي شكلها جزءا كبيرا من محتويات الكراتين، وعندما كلمناه في ذلك هاج وثار واتهمنا بخلق المشاكل.

سألتهما:

- وهل ستذهبان إلى عنبر آخر؟

قال عمر:

- لا.. لن نترك ذلك المستبد ينفرد بالنزلاء.

وطلبت منهما دخول العنبر، وما إن رآهما وسيم حتى أسرع نحونا، وأشار إليهما آمرا:

- لا مكان لمخربين بيننا.

ولم أتمالك نفسي من الضحك، وانتهرته:

- لا شأن لك بنزلاء العنبر.

فرفع ذراعه، وقال وقد أسرع إلينـا عبـده وبعـض النزلاء:

- أنا رئيس الإخوان هنا، وقائدهم.

وقال عبده بطريقته المتكلفة:

- إنه رئيسنا، ولا كلمة إلا كلمته.

وقال رستم وهو يرفع ذراعه القصيرة:

- لا رئيس ولا زعيم لنا إلا سعادة الباشا.

وانتهره وسيم برفق:

- لا داعٍ لأي ألقاب، نحن إخوة.

خشيت أن تعاود وسيم البارانويا، وأن تسـتبد بزميلـه عبده سلوكيات السيكوباتي، وفكرت في أن أنهي الأمور عند هذا الحد، ولكن فضولي تغلب علـي، فقـررت أن أنتظـر وأراقب وأتدخل في الوقت المناسب، وطلبـت مـن عمـر ومختار الجلوس على أقرب سرير من مكتبي.

فتشت عن ناصح فوجدته مستغرقًا فـي النـوم علـى مرتبته الموضوعة على الأرض بين الأسرة، وكان الرسـام ينظر إلى الخارج من إحدى النوافذ.

وقرب الظهر كنت أمر بين الأسرة فسـمعت وسـيم يحادث الشابين الملتحيين، قال أحدهما:

- لنطبق الحدود.

فتساءل وسيم.

- أية حدود؟

فقال الشاب:

- حدود الشرع.

وابتسم وسيم:

- سنطبقها طبعا، ولكن لابد من عمل أشياء كثيرة قبل تطبيقها.

وتجهم وجها الشابين، قال أحدهما:

- ألم نتفق على هذا عندما طردنا الكافرين؟

وكشر وسيم، وقال وهو يبتعد:

- أرجو ألا يأتي دوركما في الطرد أنتما أيضا.

واسترعى انتباهي عدم وجود خليل الشـقرة صـديق وسيم في العنبر، وأخبرني الملواني أنه أخذ أشياءه، وذهـب إلى عنبر آخر.

نادر شوقي

خرجت من مبنى الإدارة وأنا لا أعرف كيف أواجه الأصدقاء بعد صدور القرار الجديد، وما أن رآني وائل حتى أسرع إلي وسار إلى جانبي، قال وهو يبتسم:

- اخترت الأصدقاء الذين سيعملون في العنابر والأفنية، اخترت واحدا لكل عنبر، وثلاثة لأبنية الاقتصادي، واثنين لفناء العام، وقد بدءوا عملهم بالفعل.

نظرت بضيق إلى وجهه الباسم المزهو:

- لقد اخترت عددا كبيرا.

وقال وهو يعقد ساعديه على صدره:

- سأقوم بتدريبهم بنفسي في العنبر المهجور.

اتجهت عيناي إلى السور الذي اعتاد إيبوور وقرمط وجاليليو التواجد إلى جانبه منذ تكونت مجموعة وائل، لم أجد غير جاليليو مقرفصا على الأرض يمسك بقطعة من تلسكوبه.

وما كدت أجتاز الباب إلى فناء العام حتى وقف ابن المقفع في مواجهتي وقد احتدم وجهه بالغضب. مد صدره البارز إلى الأمام، وأشار بسبابته إلى صدري:

- فعلتموها أيها الأخصائي؟ خرجتم على مبادئ (ش) وأقمتم سلطة القهر؟

توقعت أن يسبب لنا ابن المقفع المشاكل كعادته منذ صدور القرارات الأخيرة، قلت:

- (ش) لم يدع إلى الفوضى.

فقال بحدة:

- (ش) نادى برأي الصحبة وحياة الصحبة لا تراتبية القهر.

قلت ملاينًا:

- ظروفنا في السراية تستدعي قدرا من الانضباط.

وابتسم بسخرية:

- ظروفنا؟!.. كل قوى القهر تتعلل بالظروف.

وأضاف مهددا:

- سأدخل لـ (ش) وأخبره بكل ما تفعلونه، وأكشف جرائمكم أمام كل الأصدقاء.

وابتعد عني...

أحسست بالضيق، خطر لي أن أخبر الأصدقاء بموقفي من ذلك القرار، من كل القرارات الأخيرة التـي أصـدرتها لجنة القيادة.

ولمحت قرمط خارجا من عنبر (١) ومقبلا نـاحيتي، وقفت أنتظره لكنه عندما رآني استدار وابتعد، ناديتـه فلـم يلتفت إلي.

وأمام عنبر (٣) رأيت إيبوور يتحادث مع البسطويسي، اتجهت إليهما، وسألت إيبوور:

- لماذا تركت مكانك في حراسة المعلم؟

وحدق في عيني بغضب:

- لقد انتهى دوري كما قررتم أنتم.

وزاد التماع عينيه الغاضبتين:

- أهذا ما تعلمتموه من فكر (ش)؟

قلت:

- المفروض أن نلتزم بقـرارات القيـادة حتـى يـتم إلغاؤها.

وافترت شفتاه عن بسمة ساخرة:

- هذا إذا كانت القيادة منتخبة، وكانت قراراتها تصدر بعد حوار حقيقي.

وضاق صدري، قلت برجاء:

- أرجوك، لا تترك دورك في حماية المعلم، ولنحاول إلغاء كل القرارات الأخيرة.

وخطا مبتعدا وهو يقول لي:

- أنا لن أتخلى عن المعلم مهما فعلتم أنتم.

ونظر إلي البسطويسي في عتاب:

- كيف أصدرتم هذا القـرار؟!.. كثـرت قـراراتكم الخائبة في الأيام الأخيرة.

وسارع بالإلحاق بإيبوور.

ولمحت فهمي الوقاد واقفًا وسط عدد من الأصـدقاء. وعندما رآني أسرع إلي وقد اختفت الابتسامة التي تشيع في وجهه، قال متهجما:

- قراركم الأخير خطير أيها الصديق.

قلت وما زال الضيق يستبد بي:

- علينا أن نلتزم به، ونسعى لإلغائه.

قال:

- سألتزم به، وأرجو أن تبلغ لجنة القيادة اعتراضـي واعتراض كثير من الأصدقاء عليه.

وعند عنبر (٥) كان نور واقفًا يتلفت حوله، نظر إلي بعينيه السوداوين الواسعتين، وقال بإصرار هادئ:

- سأترك العمل في جهاز الاتصال، يكفيني أن أكـون بالقرب من (ش) الذي آمنت بفكره، وأن أشارك في عمليـة خروجه إذا قمتم يوما بإخراجه من السراية.

وهم بالسير فأمسكت ذراعه أستوقفه:

- لا تتسرع يا نور، أنا كنت ضد هذا القرار، وكـل القرارات يمكن الرجوع فيها.

ورماني بنظرة قاسية لم أرها في عينيه من قبل، وأفلت ذراعه وهو يقول:

- أنا ضد كل ما تفعلون، ولا يمكن أن أشارك فـي عمل ضد (ش) وأفكاره..

وابتعد..

اختنق صدري بالضيق، وتملكتني الحيرة، من يمكـن أن يتولى مسئولية جهاز الاتصال بدلا من نور، أنا أعـرف أنه لا يتخذ قرارا إلا إذا فكر فيه جيدا، وعندما يقرر أمرا لا

يمكن لأحد أن يثنيه عن عزمه. خطر لي أن قرمط بذكائـه ونشاطه أفضل من يحل محل نور، وقـررت أن آخـذ رأي فكري سالم تجنبا للصدام معه قبل الوقت المناسب.

توقعت أن تكون المشاكل التي سيثيرها القرار الأخير مبررا لإلغائه، وعدت إلى مبنى الإدارة.

تطلعت وداد إلى وجهي، وتساءلت:

- ما لك؟

قلت:

- نور ترك العمل بجهاز الاتصال.

وبدت عليها الدهشة فقلت:

- أبلغني بذلك منذ دقـائق اعتراضـا علـى القـرار الأخير.

وأسندت رأسها بيديها:

- هو محق في قراره.. ولكن مـن يمكـن أن يحـل محله؟

- أعتقد أن قرمط أفضل من يصلح لذلك العمل، اسألي فكري عن رأيه وأبلغيه برأي.

وبدا الاستنكار على وجهها:

- ولماذا أسأل فكري؟!.. تستطيع أنت أن تتخذ قرارا باعتبارك مسئول العمل بالسراية.

قلت بضيق:

- لا أريد صداما أو مشاكل الآن.

ونظرت إلي بعتاب، وغابت دقـائق، وعـادت علـى شفتيها بسمة ساخرة.

- اختار نمرود، قال إنه يمكـن أن تقـوم مجموعتـه بمهمة جهاز الاتصال أيضا.

وتساءلت مصعوقًا:

- نمرود؟!!.. قولي له..

وقاطعتني بغضب وهي تجلس إلى مكتبها:

- قال، إن هذا القرار يجب تنفيذه فورا.

ودارت رأسي، خطر لي أن أطلب عقد اجتماع عاجل، واستبعدت الخاطر فلا جدوى من أي اجتماع لأنه سـيرجح جانب فكري سالم.

وعلى درج سلم الإدارة اقترب مني بلال، قال بصوت خفيض:

- لن أؤذن بعد اليوم.

وحملقت إلى وجهه:

- أنا لا أؤذن للعسكر.. أنـا أؤذن لـ (ش) ومـن يخلصون له فقط.

واستبد بي الضيق والعجـز فانـدفعت خارجـا مـن السراية، وفي أثناء خروجي لمحت قرمط جالسا إلى جانـب عم فارس يتهامسان.

فكري سالم

استقال فارس زايد من لجنة القيادة، حاولت بدافع العشرة الطويلة إقناعه بالعدول عن قراره فاتهمني باتهامات خطيرة مثل الاستبداد بالرأي، وتخريب العمل، والخروج على مبادئ (ش)، والمساهمة في سجنه بالسراية، وعلى أي حال لا يشكل خروج فارس من لجنة القيادة خسارة حقيقية لعملنا. فبرغم دور فارس في حماية (ش) منذ أن أعادوه إلى السراية عام ١٩٧٢، وبرغم علاقته القديمة به فإن دوره لم يكن فعالا ولا هاما، كان وجوده باللجنة يكاد أن يكون وجودا رمزيا، فهو لا يعرف القراءة والكتابة، ولم يتطور فكره تطورا ملموسا، توقف عند الأفكار التي تلقاها شفاهة من (ش) منذ سنوات طويلة. صحيح أنه مخلص وصبور وشجاع لكنه لا توجد علاقة بينه وبين عالم الفكر، وفي العام الأخير كثر صمته وشروده، وبدا كأن الهمود والكآبة يستوليان عليه. كان يبدو لي أحيانًا أنه يهتم بعمل أبنيته الخشبية التي يقول إن (ش) علمه كيف يصنعها أكثر من اهتمامه بمناقشاتنا وعملنا. أحيانًا كان يتغيب عن اجتماعاتنا وكأنها لا تعنيه. كان لا يخرج من صمته إلا ليخلق لنا المشاكل. يكفي أن

يجلس عند البوابة الخارجية يراقب الداخلين والخارجين، وقد كلفت أحد الأصدقاء الذين أثق بهم بمراقبته عن قرب حتى لا يصدر منه تصرف يضر بعملنا لأنني لا أنسى أبدا محاولتـه هو والدكتور فاضل وعلي النجاتي لإخراج (ش) مـن وراء ظهري، والتي كان يمكن أن تودي بحيـاة (ش) وأن تـدمر عملنا كله.

فاضل زكي ونادر شوقي يثيران هما أيضا كثيرا مـن المشاكل، ويتعجلان الخروج تعجلا أهوج وغير مسئول.

فاضل أقرب إلى الفنان الرومانسي، يبدو أن الشـاعر الذي كانه في صباه لم يمت فيه حتى الآن، يميل في السنوات الأخيرة إلى التوفيق بين الخلافات بتلفيق غريـب، لا يأخـذ الموقف الحاسم وكأنه يجامل فارس ونادر. بدأ في الشـهور الأخيرة يعبر عن أفكار غريبة لا تتفق مع فكرنا، تحدث أكثر من مرة عما يسميه بطاقات الإنسان الخفية والغريبة في دماغ الإنسان وأفعاله، (ينبغي أن نوسع فهمنا للواقع المادي، ينبغي أن تتسع حدود البيئة كما نفهمها) وكأنه مغرم بإزالة الحـدود بين كل الأشياء والأفكار. في آخر مناقشة بيننـا بعـد أحـد الاجتماعات قال إنه يعتقد أن الأفكار والأعمال الفنية العظيمة

والاكتشافات العلمية عبارة عن تجليات للواقع والعـالم فـي لحظات متميزة، وإنه بقدر صدق الإنسان الفرد، واقترابه من الحياة والواقع وتساوق إيقاعه مع إيقاع الواقع والعالم وتمثله للمعارف والخبرات السابقة ومعارف عصره تكـون قدرتـه على الكشف والوصول إلى الحقيقة، وعندما سـألته كاتمـا دهشتي وسخريتي عن مكانة فكر (ش) بين هذه التجليات قال إنه آخر وأصدق التجليات في مجال العلوم الإنسانية، ولكنـه لا يمكن أن يكون التجلي الأخير، لأنه لا يوجد تجـل أخيـر وكامل.

أفكار غريبة وغيبية ما كان يمكن أن تصدر من طبيب يتعامل مع العلم والواقع، طبيب ارتبط بـ (ش) في سـنوات نضاله الأولى ويحتل مكانة قريبة من نفسه، ماذا يكون شأننا لو تسربت مثل هذه الأفكار إلى الأصدقاء واقتنع بها بعضهم؟

عندما استمعت إليه ذاهلا أدركت مدى جسامة العـبء الواقع علي للاحتفاظ بنقاء فكر (ش) وسلامته. أدركـت أن استمرار أمثال فاضل زكي في صفوفنا يشكل خطرا كبيـرا على عملنا، وأن علي أن أسعى في المسـتقبل إلـى تجديـد

القيادة بعناصر تلتزم بفكر (ش)، وتطهير صفوفنا من كل من يخرج عليها.

صحيح أنني أحب فاضل، ولدي ذكريات عزيزة عـن عملنا المشترك في الســراية، ولكـن لا مجـال للعواطـف والمشاعر الشخصية في العمل الذي يتصل بـ (ش) وفكـره والقضية التي وهبناها حياتنا.

نادر شوقي، هذا الشاب الجيد ابـن شـوقي منصـور صديق (ش) وصفيه القديم، والذي شاركنا العمل في السراية منذ سبع سنين ذكي، ومثقف، يفهم فكر (ش) بطريقة لا بأس بها، ويجيد التصرف في المواقف الصعبة، ولكن ما زال بـه قدر من تهور الشباب وتعجله، التعجل الذي يصل أحيانا إلى حد الطيش. يريد إخراج (ش) في أسرع وقت وبأية طريقة. إنه مجنون بما يسميه الديموقراطية ورأي الأغلبية والأقليـة، لو كان قد سجن معنا في سجن أو معتقل لتعلم صرامة قواعد الانضباط.

الدمياطي أعرف إمكانياته الحقيقية، أعرف ضعفه إزاء حاجاته ورغباته. إنه مجرد بقال كما يسميه بعض الأصدقاء. بقال ضيق الأفق لا يصلح حتى لأن يتولى شـئون تمـوين

الأصدقاء فضلا عن الوجود في لجنة القيادة، لولا إشـراف نادر عليه في عمليـة توزيـع وارد الزيـارات لتصـرف تصرفات غير مناسبة. رشحته للعمل معنا في لجنة القيـادة لعمله بالسراية، ولعلاقتي القديمة به ويقينـه مـن صـواب مواقفي وأفكاري، لا يعنيني مديحه لي، ولا الكلمات الكبيـرة الفارغة التي يشيد بها بمواقفي وفكري، لابد أن يحل محلـه من هو أكفأ منه فور خروجنا من السراية.

لقد أقرت اللجنة اقتراحي بتكوين مجموعـة برئاسـة وائل لحماية (ش) وتكوين مجموعة برئاسة نمـرود لجمـع الأخبار من السراية أولا بأول، ثم أقرت اقتراحـي بامتـداد عمل المجموعتين إلى نشاط الأصدقاء، وذلك خطـوة هامـة لحماية (ش) والاستعداد لأي معركـة تفـرض علينـا فـي المستقبل، ولتحقيق الانضباط داخل السراية.

لقد اخترت وائل بالذات لأنني راقبته طويلا في أثنـاء مروري بفناء الاقتصادي، ولأن التقارير التي يقـدمها نـادر عن الأصدقاء تؤكد أنه صارم، ينفذ التعليمات بدون مناقشـة فضلا عن قوته البدنية وإجادته كرياضي لفنون القتال، وقـد شهد نادر بدوره المتميز في المعركة الأخيرة مع الإدارة. لقد

التقيت به مرات في حجرة الأرشيف، وفي أمـاكن أخـرى بالسراية، وأيقنت أنه أفضل من يقود مجموعة قوية تحمـي (ش) بدلا من الأصدقاء الهواة الجالسين أمام مبناه، والـذين تسببوا في قتل شالوم بلا مبرر.

واخترت نمرود لأنني أعرف ميلـه الطبيعـي علـى التلصص وتسقط الأخبار وتكتمه وصمته.

يمكن أن تكون مجموعة وائل ومجموعة نمرود بدايـة لتكوين جهاز قوي نستخدمه في الوقت المناسب لإخراج (ش) والأصدقاء.

لقد هاجم فارس الاقتراح واستقال لأنه لم يدرك أهميته وضرورته، وعارضه فاضل ونـادر لأنهمـا يقفـان عنـد الأساليب القديمة، عند عمل الهـواة، ولا يـدركان خطـورة عملية إخراج (ش) والأصدقاء وتأمين عملنا في الخارج.

لقد تنحى نور عن مسئولية جهاز الاتصال اعتراضـا على تكوين المجموعتين لا بأس فأنا لم أكن أستريح كثيـرا لهذا الشاعر برغم أنه كان نشيطًا ومحبوبا مـن الأصـدقاء والنزلاء، وبالرغم من إدراكي لعـدم خطورتـه واسـتبعاد ارتكابه لعمل يضر بنا لأنه يبدو مهتما كثيرا بأشـعاره فقـد

كلفت نمرود الذي حل محله في مسئولية جهاز الاتصال بأن يضع عينه عليه، ويراقب تحركاته.

من يوميات صديق مجهول[٦]

١٩٨٦/٧/٥

ها أنا أواصل كتابة هذه اليوميات، أدونها على الضوء الشحيح للعنبر عندما ينام الأصدقاء والنزلاء، وأخفيها في مخبأ أعددته في الجدار الملاصق لسريري يصعب الوصول إليه.

أنا مدفوع إلى كتابة هذه اليوميات بدافع لا يقاوم، لعله نفس الدافع الذي كان يحفزني إلى كتابة مذكراتي في صباي وصدر شبابي، أو لعلها الرغبة في تسجيل بعض أحداث حياتنا نحن أصدقاء (ش) في السراية لنرى أو يرى غيرنا يوما كيف كانت حياتنا في هذا المكان.

صباح اليوم استيقظت في نحو التاسعة متأخرا عن الموعد الذي أستيقظ فيه عادة، وجدت الدكتور سمير جالسا إلى مكتبه الصغير الكالح ينصت إلى أحد النزلاء بوجهه الداكن المكتوم الذي لا يشي بأي تعبير. يقال إنه واحد منا،

---

(6) أعطى أحد أصدقاء (ش) الكاتب هذه اليوميات الناقصة، وأخبره بأنه عثر عليها في عنبر (٥) وأنه شخصيا لا يعرف بشكل يقيني اسم الصديق الذي كتبها.

أنا لا أميل إليه، يبدو لي نصف ميت، يتحرك بفتور وصوته الخشن لا يكاد يبين، لا يفعل شيئًا طوال وجوده بالعنبر إلا الإنصات بصبر لا إرادي إلى ثرثرات النزلاء.

وقفت بباب العنبر، مر الصديق فهمي الوقاد مسرعا في سيره بقامته الضئيلة ووجهه الباسم، ألقى علي تحية الصباح باسما، لم يغير ذلك الصديق من معاملته لي بعد أن تركت صفوف الأصدقاء، ناقشني مرة فأبديت له مبررات خروجي الذي أسميته تجميدا لعضويتي من جانبي فأبدى احتراما لموقفي، ولم يفرق بعد ذلك في معاملته بيني وبين الأصدقاء في العنبر. هو واحد من الأصدقاء الذين أحبهم، نشيط وذكي، ويوجد دائما في المكان الذي يحتاج إلى مساعدة أو نجدة.

سرت في فناء العام، وجدت صديقي ابن رشد جالسا إلى جانب العنبر رقم (٣)، كان الشرود والأسى يكسوان وجهه الأبيض المغضن، الملتحي، ألقيت عليه التحية، وجلست إلى جانبه أدخن في صمت، لم أكن قد رأيته منذ أربعة أيام.

نظر إلي بعينيه النفاذتين، وسوى الفوطة التي يـتعمم بها، وتساءل:

- إلى متى تظل خارج صفوف الأصدقاء؟

قلت:

- لا أعرف..

وهز رأسه، وخفضها.

تساءلت كيف يتحمل هذا المفكر الثائر الوجود في ظل أوضاع الأصدقاء التي تقهر التفكير وتكرس التراتبية، وتبقي على (ش) حبيسا في مستشفى للأمراض العقلية ومعه حشـد من الأصدقاء؟

تذكرت اليوم الذي حدثني فيه منذ خمس سنوات ولـم يكن قد مر على تعارفنا في السراية غير أيام عن العقـل أداة النظر، والعقل الجمعي، كل عقول البشر، وهو أداة الوصول إلى الحقيقة لأن العقل الفردي لا يمكن مهما أوتي من الذكاء والمعرفة أن يصل إليهـا وحـده بسـبب مصـالح الـذات والتحيزات وأحادية زاوية النظر، قال إن عقول البشر جميعا في الماضي والحاضر والمستقبل هي التي تصل عبر بحثهـا وحوارها وتفاعلها المتبادل إلى الحقيقة في رحلة لا تنتهـي،

وإنه في رحابة وعمق العقل الجمعي تسطع بعض العقول الفردية، وهي عقول من كانوا أكثر صدقًا وعمقًا وتجردا وتواضعا وكدا، وهذه العقول تكون بمثابة منارات في العقل الجمعي الذي لا يحد. يومها، وعبر حواري مع ابن رشد الذي كان يتحدث بكلمات مدرس الفلسفة المحددة والبسيطة فُتحت أمامي نوافذ كانت مغلقة أنا الناقد الأدبي الذي عذبته التساؤلات وأوصلته إلى الاكتئاب ومستشفى الأمراض العقلية.

بعدها بأيام حدثني عن فكر (ش) باعتباره نتاج عقل كبير وعى فكر ماضيه وحاضره، ودرس بنزاهة وتجرد فوصل إلى بعض الحقائق والقوانين، قال إن علينا أن نتحاور ونتفاعل مع هذا الفكر باعتباره إحدى منارات الفكر الإنساني لنصل إلى نهج تغيير واقعنا ونخطو خطوات في طريق الحقيقة، ولم تمض أيام قليلة حتى أعطاني بعض كتابات (ش) فأثارت فكري، ووجدت فيها إجابات بعض الأسئلة التي تحيرني. وكشف لي ابن رشد وجود (ش) حبيسا في السراية، وبعد تفكير طويل قررت أن أنضم إلى الأصدقاء وقد وجدت العالم الذي يمكن أن أنتمي إليه وأفكر وأحاور في رحابه.

يوم أخبرت ابن رشد منذ نحو شهر أنني قـررت أن أترك صفوف الأصدقاء، وأن أبقى في السراية لـم يفاجـأ، ناقشني طويلا حول أهمية الاستمرار في صفوف الأصـدقاء والعمل على تغيير الأوضاع التي لا نرضى عنها، وعنـدما رأى إصراري على موقفي قال إنني لابد وأن أعود يوما إلى الأصدقاء لأن أوضاعهم لا يمكن أن تستمر بهذا السوء.

بدأ موقفي الجديد يوم حضر الصديق الذي يرأس لجنة القيادة اجتماعا لمجموعتنا في العنبر الصغير، كانت المـرة الأولى التي أراه فيها، وانطلق في الحديث، كأنـه محفـوظ ومعد سلفًا بالكلمة (قال ش.. قال المعلم) كل سؤال يوجه إليه أو يطرح هو يرد عليه بنص من كتابات (ش) التي يعيها عن ظهر قلب، وينطقها بورع وتقديس غريبين.

قلت له مترددا:

- المفروض أن فكر (ش) منطلق لنا نستهدي بمنهجه، ولكن لا يمكن لهذا الفكر أن يقدم إجابات لكـل التسـاؤلات خاصة تلك التي تطرحها أحداث لم يعشها (ش).

ومد شفتيه المضمومتين، وحدجني بنظرة طويلة:

- فكر (ش) أحاط بكل شيء، وهـو الفكـر العلمـي الوحيد.

قلت ما كان يقول ابن رشد وما أؤمن به:

- (ش) إنسان درس بنزاهة وتجـرد واقعـه وفكـر ماضيه وحاضره فاكتشف قوانين عامة وفكرا، ولكنه لا يمكن أن يحيط بكل شيء، ولا يمكن أن يكون فكره الكلمة الأخيرة.

سألني بلهجة محقق متحفز:

- هل ترفض فكر (ش) أو تشكك في سلامته؟

فقلت وقد ازددت جرأة في مواجهته:

- لا.. بالعكس.. إنني أجل هذا الفكر عـن أن يكـون تميمة أو تعويذة، أنا أنتمي إليه، وأتفاعل معه، وأنطلق منه.

قال منهيا كلامه بعصبية:

لابد أن تقرأ كتابات (ش) وتستوعبها جيدا.

ومال بوجهه على نور الذي كان يجلس إلـى جانبـه، وتهامس معه فنظر إلي نور، وابتسم بسـمته الطيبـة التـي أحبها.

وقتها تذكرت يوم دخلت إلى (ش) لأول مرة، وكـان ذلك بعد ارتباطي بالأصدقاء بأيام. الوجـه السـمح البـاش،

الودود، والعينان العميقتان والحانيتان. يومها كنـت أحمـل أسئلة كثيرة رحت أطرحها عليه وهو يبتسم ويشجعني علـى السؤال، أجاب على بعض أسئلتي بثقة متواضعة وبسـيطة، ورد على بعضها بقوله (أظن أن الأمر يحتاج إلى دراسـة) وفي مرات قال (لا أعرف، وينبغي أن نفكر وندرس معـا) في نهاية حديثنا اعتذر عن عجزه عن الإجابة علـى بعـض تساؤلاتي بقوله (لا تنس أنني حبيس هذه الجدران الأربعـة منذ سنوات، ولا أعايش الواقع كما تعايشونه أنتم).

يومها فرحت، أيقنت أنني أشارك في رحابة فكر ينفتح على العالم، فكر يشكل حقًا منارة في العقل الجمعـي لبنـي الإنسان.

في ذلك الاجتماع تأملت ذلك القائـد اليقينـي، ومـن ينظرون إليه بإكبار ويهـزون رءوسـهم لأقوالـه بتسـليم وتساءلت: إذا كان هذا الرجل هو قائد عملنا من أجل خروج (ش) وانطلاقنا بين الناس فهل سنتمكن من تحقيق هدفنا؟

عندما صدر قرار منع زيارات الأصدقاء والنزلاء لـ (ش) عبرت عن احتجاجي ثم جاء قرار منع توزيـع أوراق (ش) وتخصيص عدد من الأشداء لحمايته فقررت بعد تـردد

وعذاب ترك صفوف الأصدقاء، رأيت أن التاريخ يعيد نفسه بالنسبة لمصائر العقائد والأفكار التي تسعى إلى خلاص الإنسان.

مسافة كبيرة بين أوضاعنا الآن وأوضاعنا يوم ارتبطت بالأصدقاء. كنا نجتمع خمسة أو ستة من الأصدقاء، نناقش كتابات (ش) وكتابات الأصدقاء وكتب مفكرين آخرين بحرية كاملة. كان (ش) كثيرا ما يخرج إلينا ويلتقي بنا ونتحاور جميعا، الآن تهبط الأوامر من أعلى للتنفيذ بدون مناقشة، حتى أحوال معيشتنا أصبحت مختلفة، كنا نتنازل عن أسرتنا للنزلاء المرضى وينام أكثرنا على أرض العنابر، معظم السنين التي عشتها في السراية بعد انضمامي للأصدقاء كنت أفترش بطانية على الأرض وأتغطى بأخرى لا تكسو كل بدني، كان وارد الزيارات القليل يوزع علينا وعلى النزلاء المحتاجين بالتساوي، كان كل ما نملكه مشتركًا بيننا، كانت الصداقة الحميمة توحدنا، ويسعدنا هدف واحد وأشواق واحدة، الآن كم بعدنا كثيرا عن البدايات.

خرجت من صفوف الأصدقاء، ولم أخرج من السراية، لم أحتمل البعد عنهم وعن (ش) برغم كل شـيء، رفضـت محاولات شقيقتي لإخراجي، وأحاول قدر طاقتي وبطريقـة هادئة قول ما أعتقد أنه صواب.

سألت ابن رشد الشارد الوجه إلى جواري:

- هل يمكن أن تؤدي أوضاع الأصدقاء في السـراية إلى خروج (ش) والأصدقاء؟

وتنهد:

- لا..

- والعمل؟

- لا أعرف.. كل يوم يزداد ارتفاع وسـمك الجـدار الذي يفصل بيننا وبين أهدافنا، ولكنني ما زلت أحتفظ ببعض الأمل في انتصار العقل والصواب.

ومر نادر بصحبة أحد الأصدقاء، ألقى علينا التحيـة، تأملته وهو يبتعد، هذا الصديق الذكي والمثقف والطيب كيف يتعامل مع القيادة التي يرأسها ذلك القائد اليقيني؟.. وما موقفه من القرارات التي تصدر بالمخالفة لفكر وتعاليم (ش)؟

نادر شوقي

ما كدت أدخل فناء عنابر العام حتـى اقتـرب منـي صديق، وقال في همس لاهث:

- اكتشفنا جاسوسا في عنبر (٢).

وتساءلت دهشًا:

- جاسوس؟!

منذ عملي بالسراية لم نكشف وجود من يتجسس علينا لحساب مكتب الأمن أو الإدارة، كان يوجد بين العاملين مـن يتجسس على زملائه لحساب المـدير أو الأمـن كالـدكتور محجوب، وكان يوجد بعض الفضوليين من النـزلاء الـذين شفوا، وكنا نأخذ حذرنا منهم، وبعض المرضى الذين يدفعهم مرضهم إلى الشك فيمن حولهم فتصـدر عـنهم سـلوكيات مرضية لمعرفة مواقف زملائهم تجاههم، ولكن لم نكتشـف يوما نزيلا يتجسس علينا.

أسرعت إلى عنبر (٢)، لـم يكـن الـدكتور جـلال المشرف على العنبر هناك، وكان العنبر في حالة هياج.

رأيت اثنين من زملاء نمرود يمسكان بخناق نزيل يدفعان به إلى الحائط بين الأسرة، والنزيل ينقل عينيه المرتعبتين بينهما.

وبادرني أحد الصديقين هامسا وهو يومئ برأسه إلى النزيل:

- كان يتجسس على اجتماعات الأصدقاء بالعنبر.

وخلصت النزيل من أيديهما، ووقفت حائلا بينهما وبينه. كان النزيل قصيرا، مكتنزا يبدو وجهه الأسمر الممتلئ النابت اللحية خاليا من أي تعبير، وعيناه المستديرتان تدوران في محجريهما بخوف. كان لنا مجموعتان من الأصدقاء في العنبر فتساءلت:

- من هم الأصدقاء الذين كان يتجسس عليهم؟

وتقدم صديقان من المتظاهرين بالاكتئاب أحدهما نجار معماري كهل أدخله الدمياطي منذ شهور، والآخر عامل شاب لا يتجاوز العشرين دخل السراية منذ عام.

قال الصديق النجار:

- ضبطناه مرات يقترب من جلستنا ويتصنت علينا.

وقال الصديق العامل:

- رأيته أكثر من مرة يتهامس مع ممرض العنبر.

تساءلت بشيء من الحدة:

- هل كان يتجسس عليكم فعلا؟

فقال العامل في تردد واضح:

- أنا لم أره بنفسي.

وانبرى أحد زميلي نمرود، وكان شابا ناحلا مسحوب الوجه تبدو عيناه السوداوان حادتي الذكاء:

- رأيته بنفسي أكثر من مرة يقتـرب مـن جلسـات الأصدقاء بالعنبر.

وهمس الآخر، وكان قصيرا يميل إلى الامـتلاء فـي نظرته شيء من الخبث:

- بقليل من الضرب يمكن أن يقول كل شيء.

وانتهرته بشيء من الحدة:

- لسنا هنا من أجل امتهان أحد.

وأقبل نمرود وهو يبتسم، تساءل بنظرته الجانبية وهو يميل برأسه:

- ماذا نفعل أيها الصديق؟

قلت:

- لا أعتقد أن هذا النزيل جاسوس فعلا.

فقال مخافتًا من صوته:

- أرى أن نحتاط لأنفسنا، أن نجبره على الكلام، قـد يكون له شركاء بالعنبر.

- حدقت إليه متسائلا:

- وكيف نجبره على الكلام؟

والتوت شفتاه بابتسامة خبيثة:

- لا بأس من تهديده، وحتى ضربه بدون إيذاء ظاهر.

تساءلت غاضبا:

- وهل هذا أسلوبنا يا نمرود؟.. لقد بدأت بداية جيدة.

ومال برأسه، وفح بصوت خشن:

- نحن نبيح القتل في الدفاع عن أنفسنا، ولم يسـتنكر أحد قتل المعمدان لشالوم، ولا تنس قتل الدكتور محجوب.

وازددت غضبا:

- قد نضطر إلى قتل من يحاول قتلنا، ولكن امتهـان أحد بالتعذيب فلا.

ومال برأسه أكثر، وحدق إلي بنظرة جانبية. قلت:

- سأطلب من الدكتور سمير أن يفحص النزيل.

وطلبت من ثلاثة من الأصدقاء أن يحرسوا النزيل كما طلبت من نمرود وزميليه بلهجة حادة عدم الاقتراب منه.

وأمام عنبر (١) وجدت عم رزق غاضبا يرفع عصاه على أحد زملاء وائل فأسرعت إليهما، وسألت عم رزق عن سبب غضبه فقال وقد نفـرت عـروق صـلعته السـوداء وصدغيه:

- ابن الكلب يأمرني بدخول العنبر.

وانتهرت زميل وائل، وحذرته من الاقتراب من أحـد من الأصدقاء.

وبعد أقل من ساعة مر علـي الـدكتور سـمير فـي الكانتين، وقال:

- النزيل مريض بالوسواس القهري ورهاب الخـوف الذي يجعله يشك فيمن حوله، ويحاول أن يعرف ما يبيتونـه له، وأعتقد أنه لا يتجسس لحساب أحد.

وذهبت إلى عنبر (٢) وطيبت خاطر النزيل، وطلبـت من نمرود أن يمنع زملاءه من التعرض للنزلاء.

وفيما كنت أمر بفناء الاقتصادي استوقفني وائل:

- ماذا فعلتم بالجاسوس؟

فقلت:

- النزيل مريض وليس جاسوسا.

قال:

- ولكن بعض من دخلوا السراية من الأصدقاء كشف عليهم أطباء ليسوا منا، ومع ذلك اعتبروا مرضى.

- ينبغي أن نأخذ حذرنا دون وساوس ودون التعرض لأحد من النزلاء.

وابتسم وائل، بدا لي أن ملامحه زادت جمودا وبرودا في الأيام الأخيرة، وقال بشيء من السخرية:

- قلبك رقيق يا نادر، بأمثالك لن يخرج (ش) أبدا.

وكتمت غيظي حتى لا تسوء علاقتي به.

وما كدت أبتعد حتى لحق بي قرمط، وقال:

- حاول ابن المقفع الدخول إلى (ش) ومنعـه زمـلاء وائل فسبهم، وهم حجازي بضربه لولا تدخلي.

قلت له:

- قل لابن المقفع إنني أرجوه ألا يحاول الدخول إلـى (ش) حتى نتمكن من إلغاء قرار منع الزيارات.

ووقف في طريقي ابن رشد، وبادرني بلهجة غاضبة:

- لا عذر لمن قهر عقلا أو أخرس لسان كلمة.

قلت:

- قريبا سنخرج، ونقول ونفكر كما نشاء.

فقال بحدة:

- لن يكون خروج لقوم يقبلون بأن يسلط عليهم بعض منهم.

وابتسمت:

- لا تغضب أبا الوليد.. ستلغى كل القـرارات التـي يشكو منها الأصدقاء.

وعند الظهيرة التقيت بالوقاد، اقترب مني وقال هامسا:

- بعض الأصدقاء يتحدثون عن محابـاة الـدمياطي لبعض المقربين إليه ولأعضاء مجموعة وائـل ومجموعـة نمرود في توزيع وارد الأغذية، بل ويقول البعض إنه يسرق لنفسه بعض وارد الزيارات.

قلت:

- ولكنني كثيرا ما أتواجد في الكانتين عنـد توزيـع الأغذية ولم ألحظ شيئًا.

وبعدها ولعدة أيام حرصت على التواجد بالكانتين عند توزيع وارد الزيارات، ولم أكتشف شيئًا غير عادي، وإن لم تتبدد شكوكي تماما.

مجدي عبد السلام

أخذت أتابع ما يجري في عنبري باهتمام، كنت أقف وسط النزلاء أو بالقرب من تجمعاتهم أرقب سلوكهم، وأنصت إلى كلامهم، وما كان يحدث في غيابي كنت أعرف أخباره من ناصح.

بعد طرد عمر ومختار بيوم واحد سمح لهم وسيم بالتواجد في العنبر، وطرد الشابين الملتحيين بحجة محاولتهما الاعتداء عليه وضربه وهو نائم، قد شك ناصح وبعض النزلاء في صحة ذلك. وأسعد هذا الطرد عمر ومختار اللذين كانا يصفان الشابين بالرجعية كما سبق أن أسعد الملتحيان بطرد عمر ومختار ونسبا إليهما الكفر.

وفي اليوم الرابع من طرد سطوحي قام هو ومجموعة من نزلاء عنبر (١) الذي يشرف عليه الدكتور باهر بالهجوم على عنبري في الليل فتصدى لهم وسيم ومعظم النزلاء، ونشبت معركة انتهت بفشل سطوحي في دخول العنبر.

وفي الصباح وجدت ناصح والملواني وعمر ومختار والرسام أمام العنبر يتحادثون وقد بدا عليهم الابتهاج، سألتهم فقال مختار وتفاحة آدم تعلو وتهبط في رقبته الطويلة:

- لن يدخل سطوحي العنبر مرة أخرى.

وابتسمت عينا عمر خلف نظارته:

- لقد وعدنا وسيم بالمشاركة في إدارة شئون العنبر.

واسترعى انتباهي وقوف نزيل لم يكن من عنبري إلى جانب الباب، كان بدينًا، مفتول العضل، يعقد ساعديه علـى صدره، وفي وجهه القمحي الممتلئ بسمة فيها اعتداد وثقـة، وأشار إليه ناصح:

- محمد مساعد.

فتساءلت:

- ومن هو هذا المساعد؟

قال:

- شاركنا في الدفاع عن العنبر، وهو من عنبـر (٥)، ويقول عمر ومختار إنه صديقهما.

كان وسيم داخل العنبر يقف بين عـدد مـن النـزلاء باسما، بدت قامته أطول من قامات الجميع بشـكل ملحـوظ. وفوجئت برسم كبير يتصدر العنبر فوق السرير الذي كـان يحتله سطوحي والذي أصبح وسيم ينام عليه، كـان يصـور وسيم بابتسامة كبيرة واثقة، وأشار الرسام إلى الرسم مزهوا:

- إنه زعيم بحق.

وابتسمت.

أعلن وسيم يومها توزيع أول دفعة من أرباح التجـارة المشتركة فسعد النزلاء، وأعلن أنه ينوي أن يحول العنبر إلى مكان رائع لسكنى أصحابه، وشكل فرقة للنظافة كـان فيهـا ناصح والملواني بدأت من فورها في تنظيف العنبر، وكـون فرقة أخرى لطلائه يشرف عليها الرسام، ولم تمض ساعتان حتى كان الرسام قد أحضر ثلاثة جـرادل مملـؤة بـالطلاء الأزرق، لا أعرف من أين أتي بها، وشرع هو واثنان مـن النزلاء في طلاء العنبر، وبدأ عمر ومختار في محـو أميـة بعض النزلاء المستبصرين بحالاتهم تحت رقابـة وإشـراف وسيم.

لاحظت أن ثمة شلة من النزلاء تلتـف حـول وسـيم وترافقه أينما ذهب، كان من أفرادها عترة الذي كان يهتـف باسم وسيم ناعتًا إياه في كل خطوه بوصف جديـد، ورسـتم العجوز المغمض الوجه الذي بدا مبتسما دائما وهو يسـرف في مداهنة وسيم وزميله عبده.

ولازم الملتحيان حائط العنبر من الخارج، افترشا الأرض، وناما عليها. وبعد طردهما بأيام فوجئت بعمر ومختار جالسين بالقرب منهما، وقد تمزقت منامة عمر، وبدا جرح في جبهة مختار، وبادرني عمر قائلا:

- الكلاب المستبد طردنا من العنبر.

وقال مختار مهونًا من كلام صديقه وهو يمسح جرح جبهته.

- بالرغم من أنه مستبد إلا أنه عمل الكثير لنزلاء العنبر.

وفي الداخل وجدت وسيم يقف بين النزلاء فسألته:

- لماذا طردت عمر ومختار مرة أخرى؟

فشب بصدره: وقال:

- إنهما عميلان.

وضحكت:

- عميلان لمن؟

فقال بحدة:

- لجهات أنا أعرفها.

فكرت في التدخل لوقف الأمور عند هذا الحد، ولكن فضولي دفعني إلى الانتظار خاصة وأن أحوال العنبر بدأت في التحسن، قلت، إنه لن يضر الأربعة المطرودين وجودهم خارج العنبر لأن الوقت صيف.

وفي نفس اليوم أعلن وسيم بعد أن حشد حوله معظم النزلاء أنه قرر أن تكون كل تجارة العنبر المشتركة لأن من قاموا بالتجارة لحسابهم استغلوا نزلاء العنبر، وأوشكوا أن يصبحوا مثل سطوحي، وأنه لا يقبل الاستغلال، ولابد من التوازن بين مصالح الجميع.

صفق له كثير من النزلاء فأعلن أن لجنة التجارة المشتركة ستتولى الإشراف على كل تجارة العنبر، وسيوزع العائد بعد تجنيب جزء لتوسيع التجارة وخصم ما يصرف على نظافة العنبر والعناية به، وتكلم عن ملابس وملاءات جديدة وأدوية يمكن شراؤها من الخارج.

وفي اليوم التالي وجدت ناصح ينام على سرير إلى جانب نافذة من نوافذ العنبر والملواني على سرير آخر، بعد أن كانا ينامان على مرتبتين بين الأسرة.

اتجهت إلى ناصح فقال بارتباك وهو يترك السرير:

- أمرني وسيم بالنوم عليه بعد أن أخذ سـراير كـل التجار اللي أخذ تجارتهم، قلت له أنـا مـش متعـود علـى السراير لأني كنت بنام في البلد على المسطبه أو فوق الفرن لكنه صمم.

- وطبعا نوم السراير مريح؟

وابتسم في خجل:

- طبعا، بدال النوم على الأرض، والبهدلة من اللـي رايح واللي جاي.

سعدت بالتحولات التي طرأت على العنبر، أملت منها خيرا لمعظم النزلاء وإن انتابتني الهواجس.

وبعد يومين أعيد عمر ومختار إلى العنبر بعد أن أعلن وسيم العفو عنهما، وذهب الشابان الملتحيـان إلـى عنبـر الدكتور مهران الذي يكثر فيه الملتحون.

كان عمر ومختار سعيدين بالقرارات الجديـدة. قـال مختار:

- كنت أتوقعها من وسيم فقد عرفت حقيقة شخصـيته منذ اليوم الأول لدخوله العنبر.

وقال عمر:

- الظروف هي التي فرضت عليه هذه القرارات. يريد أن يبقى زعيما للعنبر بأية طريقة، والمهـم أن يتـولى كـل النزلاء إدارة شئون العنبر بما فيها تجارته.

انتعشت أحوال العنبر بشكل ظاهر، دهنت الجـدران، وأصبح العنبر ينظف كل يوم مرتين، وترش أمامه المياه في الظهيرة وعند الأصيل، ووزعت حصة من الأرباح، وكانت وافرة اشترى منها النزلاء أطعمـة وملابـس مـن اللجنـة المشتركة، وبدأت ملامح المكتئبين في الانفراج قليلا، وقلـت وساوس الموسوسين، وهدأت نسبيا حالات بعض الفصاميين، ونالني من ازدهار أحوال العنبر مفرش وضع على مكتبـي الكالح، وزهرية صغيرة جميلة.

ويوما لقيت نادر علـى درج مبنـى الإدارة بـادرني بالسؤال:

- ما أخبار الحركة المباركة؟

وانفرجت ضاحكًا؟

- وصلت أخبارها؟

وهمست له:

- هل لك أصدقاء في عنبري؟.. أرجو ألا يكون منهم وسيم وتابعه عبده.

فقال:

- لا.. لا يوجد أحد من أصدقائي في عنبرك.

وكنت أشك في أن عمر ومختار من أصدقاء نادر.

٢ـ من يوميات الصديق المجهول

١٩٨٦/٧/١١

إلى جانب أحد أبنية الاقتصادي، وبالقرب من المبنى الذي يحبس فيه (ش) جلس ابن رشد على الأرض وحوله عدد من الأصدقاء منهم ابن المقفع وبلال والبسطويسي، وراح ابن رشد يتحدث عن العقل الجمعي وحالات انتكاسه بقهر السلطات أو سيادة الجهل أو عمى التعصب. كان ابن رشد يتحدث بطريقته الهادئة الباسمة، وانتشى ابن المقفع فراح وهو يدفع بصدره الضيق البارز إلى الأمام يتحدث عن صنوف القهر وتشويهها لعقول ونفوس وعلاقات الأفراد، ودور الكتاب والمفكرين في مقاومة القهر. وظهر نمرود، شملنا بنظرة جانبيه من خلف نظارته السوداء، وهز ذراعه الملتصقة بجنبه، وتساءل ببسمة خبيثة:

- ماذا تفعلون أيها الأصدقاء؟

وابتسم ابن رشد:

- كما ترى... نتحدث ونتناقش في العقل الجمعي.

وأمال نمرود رأسه على كتفه:

- العقل الجمعي؟!.. وما هو هذا العقل الجمعي؟

قال البسطويسي ساخرا:

- شيء يمكن أن تشتريه من بائع البطاطا.

وأفسح ابن رشد مكانًا لنمرود إلى جانبه:

- تعال.. وشاركنا الحديث.

وهب ابن المقفع واقفًا:

- لا.. نحن لا نريد جواسيس بيننا.

وحاول ابن رشد تهدئة ابن المقفع:

- كلنا أصدقاء، ولا جواسيس بيننا.

وأشار ابن المقفع بيده إلى نمرود:

- هو جاسوس مهمته التلصص علينا، التلصص حتى على أفكارنا.

وكشر وجه نمرود، أطال النظر إلى ابن المقفع وهـز رأسه وابتعد.

وضحك البسطويسي:

- هو لا يمتلك أداة النظر.

وانفض الأصدقاء، وبقيت أنا وابن المقفع مع ابن رشد، قلت لابن المقفع معاتبا:

- لقد كنت حادا مع نمرود، وهو مهما كان واحد منا.

فقال بحده:

- لا.. ليس واحدا منا، من قبل أن يكـون جاسوسـا علينا لم يعد صديقًا لنا.

وأضاف محركًا يده بعصبية:

- اسمع أيها الصديق، هـذا الصـنف لا تنفـع معـه الملاينة، وإذا لم تقل الحق مرة ستخشى قوله مرات.. لابد أن تجاهر بما تراه صوابا مهما كانت الظـروف وإلا أصـبحت شريكًا في سيادة الخطأ أو الباطل.

قلت:

- سيشوه نمرود موقفك عند لجنة القيادة.

وزادت حدته:

- أنا لا يهمني أحد هنا إلا (ش)، وهو لا يرضى بمـا نحن فيه، ولم يمتنع هو يوما عن المجاهرة برأيه.

اتجهت إلى فناء العام، وأمام الكانتين كان عـدد مـن الأصدقاء يتدافعون ويتصايحون، وعلى مقربة كان يقف عـم رزق مستندا إلى عصاه وقد تجهم وجهه الداكن السمرة، قال:

- أترى كيف حولونا إلى كلاب تتنافس على كسرة؟!

قلت:

- لابد من قدر من النظام.

وشوح بعصاه:

- نظام طوابير الشحاتين؟!

وذهبت إلى العنبر الصغير لأرى نور فلم أجده.

وفي نحو السابعة مساء رأيت... (٧)

---

(7) لم يكمل الصديق المجهول كتابته عن أحداث ذلك اليوم.

مجدي عبد السلام

أيقظني أحد الممرضين بعد منتصف الليل:

- وقعت جريمة قتل في الاقتصادي.

وللفور تذكرت جريمة قتل النزيل الذي كان يـتقمص شخصية يحيى للنزيل شالوم.

وارتديت ملابسي على عجل، وأسرعت إلـى أبنيـة الاقتصادي، كان بعض النزلاء كالعادة في الفنـاء الـذي لا يضيئه إلا ضوء شحيح من مصابيح قليلة متباعدة وكأنهم لا ينامون أبدا، كان منهم نزلاء أعرفهم، وكـانوا جالسـين أو يتحركون وكأنه لم يحدث شيء.

وأمام إحدى بنايات الاقتصادي كان يتزاحم عدد مـن النزلاء، وما كدت أدخل إحدى حجرتي المبنى حتى رأيـت النزيل الفصامي الذي ينادونه بابن المقفـع طـريح الأرض، غارقًا في دمه، ورأسه مهشم وقد تناثر مخه، وبالقرب منـه اثنان من النزلاء الأشداء يمسكان بنزيل بالغ الطول، ممتلئ، تبدو على وجهه الصغير البلاهة وشيء من الدهشة، يحملـق بعينيه المشقوقتين إلى جثة ابن المقفع. كان يبدو أن لديه قدرا من التخلف العقلي.

قال أحد النزيلين، وكان متوسط القامة مدكوك البنية:

- هذا النزيل هو الذي قتل ابن المقفع، جره من سريره وهو نائم وانهال على رأسه بحجر كبير.

واقترب مني نزيل كهل، قصير، نحيل، وهمس لي وهو يشير إلى النزيلين الممسكين بالقاتل:

- هما اللذان حرضاه على القتل. منذ أيام وهما يحرضانه ويستفزانه.

وقال شاب طويل ملتحٍ وهو يشير إلى الجثة:

- كان يستحق القتل فهو كافر.

طلبت من الممرض الذي أيقظني وممرض آخر من نوباتجية الليل الإمساك بالنزيل القاتل الذي سار معهما دون أن ينطق بكلمة، وعلى وجهه البلاهة الممزوجة بالدهشة.

تقدمت الثلاثة إلى مبنى الإدارة لأقوم بالاتصال بالشرطة وعمل الإجراءات اللازمة. وفيما كنت أقترب من باب قسم النساء لمحت نزيلا خارجا من القسم، حدقت إليه فتبينت أنه وائل النزيل المصاب بالبارانويا، والذي كنت أراه كثيرا في الفناء أمام مبنى (ش) فأسرعت إليه، ناديته فلم

يلتفت إلي، وما كدت أندفع إليه حتى اعترض طريقي ثلاثـة من النزلاء الأشداء.

وقفوا أمامي يحدقون في وجهي دون أن ينطقوا بلفظ، ولمحت وائل يختفي بين أبنية الاقتصادي. تصفحت وجـوه النزلاء الثلاثة الجامدة، ولم أشأ أن أصطدم بهـم فـي هـذا الوقت فتركتهم ولحقت بالممرضين والقاتل.

احتجزنا القاتل في إحدى حجرات الإدارة. ولـم تـأت الشرطة إلا في الصباح. وأمام الشرطة والنيابة ذكـرت مـا قرره النزيل الكهل بشأن تحريض الشابين للقاتـل، وأدليـت بأوصاف الثلاثة، وكانت المفاجأة أنه لم يعثر علـى النزيـل الكهل ولا الشابين في كل السراية.

وعند الظهر، وبعد نقل جثمان القتيل إلى العربة التـي كانت تنتظر أمام عنبر الإدارة سار خلف الجثمان عدد كبير من النزلاء في صمت يتخلله بكاء بعضهم الأمر الذي أثـار دهشتي ودهشة العاملين بالسراية.

وبعد أن تحركت العربة لمحت النزيل وائل قرب مبنى الإدارة فأسرعت إليه، أمسكت بذراعه المفتول، وسألته بحدة:

- ماذا كنت تفعل في قسم النساء؟

ونفض يدي، وتساءل ببسمة باردة:

- أنا؟!.. وما شأني أنا بقسم النساء؟

- لقد رأيتك بعيني خارجا من هناك بعـد منتصـف الليل.

ورفع كتفيه العريضين:

- لا تدع علي كذبا يا دكتور، فتش عمن لـه عشـيقة هناك يرتدد عليها رغم عدم اختصاصـه بالإشـراف علـى القسم.

واستبد بي الغضب. وفي تلك اللحظـة أقبـل نـادر، وأخذني من ذراعي وسار بي مبتعدا، سألني عما فعله ذلـك النزيل معي فأخبرته بما رأيته فهز رأسه، وقال:

- أنت تعرف أنه مريض، وأن بعض النـزلاء لهـم علاقات مع نساء بالقسم.

وسألني عن تفاصيل ما أعرفه عن حادثة القتل باهتمام ظاهر.

وفي نهاية يوم العمل مررت على قسم النساء، دخلـت عنبر السمراء، وجدتها جالسة في سريرها إلى جانب النافـذة وإلى جانبها الفتاة التي ادعت الخـرس والشـابة الأخـرى،

سألتهن عما إذا كن قد أحسسن بتسلل أحد النزلاء إلى القسـم في الليل فقالت الشابة السمراء:

- لا.. لم نحس بشيء.. وإن كـان بعـض النـزلاء يدخلون القسم في الليل، ولكنهم لا يدخلون العنبرين.

نادر شوقي

قتل الصديق فوزي الأكشر الذي كان يتقمص شخصية ابن المقفع، وودعه الكثيرون من الأصدقاء بعد أن عرفوا أنه كان واحدا منهم.

لم يطاوعني قلبي على منع أحد من الأصـدقاء مـن وداع جثمان صديقهم، وسرت أنا على مقربـة مـنهم. كنـا نتبادل نظرات الحزن والغضب لأنها كانت المرة الأولى التي يقتل فيها واحد منا داخل السراية.

غالبت دموعي وجسد الصديق يـدفع إلـى العربـة، وتذكرت بعض مواقف ذلك الصحفي والكاتب الذي التقى بـ (ش) في الخارج وأحبه وارتبط بفكره، وعندما طالت غيبتـه في السراية أصر على دخولها منذ أربعة أعوام ليشارك فـي إخراجه، كان معتزا برأيه، لا يسكت عـن خطـأ، وتمكـن بأقوال منتقاة من كتابات ابن المقفع أن يجعل بعض النـزلاء ينجذبون إلى فكر (ش).

استوقفتني هيئة نور الذي سار إلى جانب العربة وهو يتلفت حوله بنظرات شاردة غريبة، وعندما رآني حدق إلـي بنظرة طويلة غائمة بالدموع.

وكان إيبوور يسير إلى جانب البسطويسي خافض الرأس، وعندما التقت عيناي بعينيه أشاح بوجهه.

كنت قد عرفت في الصباح جانبا من التحقيق، وفاجأني كلام الدكتور مجدي عن اثنين من النزلاء الأشداء قال أحد النزلاء إنهما حرضا القاتل على قتل ابن المقفع، وزادت دهشتي عندما تبين اختفاء اثنين من مجموعة وائل تنطبق عليها الأوصاف التي أدلى بها الدكتور مجدي، واختفاء النزيل الذي اتهمهما بالتحريض على القتل.

ذهبت قبل انتهاء التحقيق، وبعد نقل الجثة إلى مشرحة السراية إلى بناية الاقتصادي التي كان يقيم فيها ابن المقفع لمحاولة معرفة الحقيقة، وأمام البناية كان يقف بعض الأصدقاء، وبادرني أحدهم بالقول غاضبا:

- إذا كان الأمر قد وصل إلى حد قتل أحد الأصدقاء فإننا نحن الذين سنأخذ بثأره.

وتعالت الأصوات تتهم وائل وزملاءه بالاعتداء على بعض الأصدقاء، وتتهم نمرود بالتجسس عليهم، وحاولت أن أهدئ الأصدقاء، ووعدتهم بإجراء تحقيق في كل ما يثار من اتهامات.

ودخلت حجرة ابن المقفع فلم أجد أحدا من النزلاء، وأخبرني أحد الأصدقاء أن نزلاء المبنى يرفضون دخولهم حتى لأخذ حاجياتهم.

وما كدت ابتعد عن المبنى حتى اقترب مني حسام، وقال بصوت خافت:

- لقد حرض فوزي والشنواني زميلا وائل النزيل المتخاف عقليا على قتل ابن المقفع.

- وكيف عرفت ذلك؟

- سألت نزلاء البناية التي كان يقيم بها الصديق ابن المقفع والبناية المجاورة. لقد فعلا ذلك طوال يومين موهمين النزيل بأن ابن المقفع يسخر منه ويريد قتله.

وأضاف حسام وهو يتلفت حوله:

- الصديق الذي بقي من شلة أدهم حاول الانتحار أمس بسبب مضايقاتٍ أصدقاء نمرود له.

أعماني الغضب، اتجهت إلى مبنى الإدارة. ماذا أنتظر؟.. لماذا لا أبدأ الآن في تكوين المجموعة المستقلة التي تخرج المعلم والأصدقاء في أسرع وقت ممكن؟.. لماذا هذا التردد الذي يشملني؟.. وحدة الأصدقاء؟.. في ظل

الظروف التي نعيشها الآن تتمزق وحدتنا وتسوء أحوالنا، هل يمكن أن يكون قتل ابن المقفع مبررا كافيا لحل مجمـوعتي وائل ونمرود؟:.. هل يمكن أن يتمسك فكري سـالم بوجـود المجموعتين برغم ما حدث؟

وقررت أن أطلب عقد اجتماع عاجل للجنـة القيـادة لمناقشة موضوع قتل ابن المقفع لأرى ما يفعله فكري سالم.

وبالقرب من مبنى المعلم وقفت أمام وائل، وأخبرته بما قاله الدكتور مجدي فقال بشيء من العصبية:

- لا تصدق هذا الكلام، النزيل الذي ادعى تحـريض الصديقين مجنون لا يعي ما يقول.

وأضاف وهو يشوح بيده:

- لا يمكن لأحد من أعضـاء مجمـوعتي أن يلحـق ضررا بصديق.

قلت:

- علمت أن ابن المقفع حاول الدخول إلى (ش) فمنعه زملاؤك وسبهم، وحاول حجازي الاعتداء عليه.

- حدث هذا بالفعل، وقد أنبت حجازي بشدة، ولكن لا توجد علاقة بين ما حدث وقتل ابن المقفع.

تساءلت:

- وبماذا تفسر فرار الصديقين؟

- لابد أنهما خشيا اتهامهما بالتحريض على القتل ففرا بدلا من أن يقبض عليهما ويحبسا في عنبر الإجرام.

- واختفاء النزيل؟.. الشاهد الوحيد؟

قال بعصبية ظاهرة:

- لا أعرف.

قلت:

- لعلهما أخذاه معهما أو أخفياه ميتًا فـي مكـان مـا بالسراية.. لابد من إجراء تحقيق لمعرفة الحقيقة.

واتجهت إلى مبنى الإدارة والتساؤلات تستفزني. لـم يكن التحقيق قد انتهى، ولم يكن وكيل النيابة قد غادر حجرة كبير الأطباء. جلست إلى جانب وداد، وأخبرتها بمـا قالـه الدكتور مجدي وحسام فقالت:

- لا.. لا.. لا يمكن أن يفعلها أحـد الأصـدقاء.. لا يمكن أن تصل الأمور إلى هذا الحد.

واستدركت وهي تضيق عينيها:

- ولم لا؟.. لماذا اختفى الصديقان والنزيل أيضـا؟.. لابد أن يجرى تحقيق في الموضوع.

وأضافت شاردة:

- لا أعرف ماذا يمكن أن يصيبنا من تحت رأس هذا الوائل وعصابته التي انتقاها من أسوأ الأصدقاء.

وعند تشييع الجنازة رأيت الدكتور مجدي مشتبكًا مـع وائل في كلام حاد، وعندما سالت مجدي أخبرني أنه وهو في طريقه إلى مبنى الإدارة بعد معاينته لجريمة القتل رأى وائل خارجا من قسم النساء، دهشت وتملكني الغضب، وهممـت بالبحث عن وائل لمواجهته بما قاله مجدي، ولكنني تمالكـت نفسي وقد أيقنت أنه لابد سينكر هذه الواقعة أيضا.

وقبل انصرافي من السراية ذهبت إلى حجرة الأرشيف فاستقبلني فكري سالم بدهشة متسائلة، جلسـت إلـى جانبـه وأخبرته بكل ما قيل بخصوص قتل ابن المقفع ودخول وائل قسم النساء، ومحاولة صديق أدهم الانتحار، أنصت باهتمام، وبان على وجهه الغضب، وقال:

- لنعقد اجتماعا مساء الغد، أنا نفسي كنـت سـأطلب الاجتماع لمناقشة بعض الأمور.

وفي حجرة السكرتارية أخبرت وداد بما قاله الـ دكتور مجدي عن رؤيته لوائل وهو خارج منقسم النساء فقالت، إنها عرفت اليوم من صديقات القسم أن وائل على علاقة بنزيلـة كانت لها علاقة بالدكتور محجوب، وأن الصديقات يتربصن له لضربه إذا دخل القسم مرة أخرى، وأنها وافقـتهن علـى ذلك.

وعقد الاجتماع ببيت الدمياطي، ولم يحضره الـ دكتور فاضل بالرغم من أنني أبلغته بموعـده ومكانـه ودواعـي انعقاده.

وبدأ فكري الاجتماع بأن طلب مني أن أتحدث تفصيلا عن كل ما سمعته وعرفته، وبعد أن أنهيت كلامي بـاقتراح حل مجموعتي وائل ونمرود قال الدمياطي:

- أنا استبعد تماما أن يكون لوائل وزملائه دخل فـي قتل ابن المقفع، أنا أعرف النزيل الذي قتلـه، إنـه متخلـف عقليا، وابن المقفع كان سمجا وسليط اللسان.

تساءلت:

- والكلام الذي قاله النزيل الذي اختفى وأكده حسام؟

فقال بشيء من الحدة:

- النزيل مريض لا يؤخذ بكلامه، وحسام لا يوثق به، ليس له عمل غير السخرية من الأصدقاء، ومحاولـة نشـر الآراء الغريبة.

وقال فكري بطريقة هادئة:

- أنا أستبعد أن يكون لوائل وزملائه دخل في وقـوع الجريمة، ومع ذلك لابد من إجراء تحقيق لمعرفة الحقيقة.

قلت:

- إجراء تحقيق بشأن قتل ابن المقفع لن يكون مجـديا بعد اختفاء الصديقين والنزيل.

فقال فكري:

- لابد من معرفة مكان الصديقين وما جرى للنزيـل، وأرى أن تقوم أنت بإجراء التحقيق على أن يشمل كل ما قيل عن سلوك وائل وزملاء نمرود.

قلت بضيق:

- المفروض أن ننتهي من حكاية مجمـوعتي وائـل ونمرود حتى ننتهي من كل الأقاويل والمشاكل.

فقال فكري:

- سنناقش هذا الموضوع بعد انتهاء التحقيق.

وقررت عدم الدخول في متاهة التحقيقـات، وهممـت بالقيام فاستوقفني فكري:

- انتظر يا نادر.. لم ينته الاجتماع بعد.

وجلست مكرها، وتكلم فكري سالم عن أسفه لإصرار عم فارس على الانسحاب من لجنـة القيـادة بـالرغم مـن محاولاته المتكررة معه، وأطال النظر إلي:

- أرى أن يحل صديق آخر محل فارس حتى تتـوفر للجنة الممارسة الديموقراطية.

وقاومت الابتسام، وسارعوا بالقول:

- لنسارع بعقد مؤتمر ولو لأصدقاء الخارج وحـدهم، ونترك للمؤتمر مهمة اختيار لجنة قيادة جديدة.

ورفع فكري يده في وجهي:

- لا.. لا.. التحضير لمـؤتمر فـي هـذه الظـروف سيستغرق وقتًا طويلا، المهم الآن أن نوفر للجنـة إمكانيـة الممارسة الديموقراطية.

ونقل بصره بيني وبين الدمياطي:

- أقترح أن يكون الدكتور سمير عضوا باللجنة.

كان الدكتور سمير مجدا في عمله كطبيب، وقد ضمه إليه الدكتور فاضل. كان كتوما قليل الكلام، ينفذ القـرارات والتعليمات بدقة وانضباط دون أن يناقشها، نادرا مـا دارت بيني وبينه مناقشات فكريه. تساءلت، هـل يمكـن أن يـدفع وجود هذا الصديق في اللجنة عملها إلى الأمام خاصـة وأن علاقته طيبة بالدكتور فاضل؟.. وخطرت لي فكرة فقلت:

- ليس لدي اعتراض على الدكتور سمير، ولكن لماذا لا يكون العضو الجديد من أصدقاء الخارج؟

وسارع فكري بالرفض:

- لا.. لا.. أصدقاء الخـارج لا يعرفـون ظـروف السراية جيدا وهي مجال عملنا الأساسي لوجود (ش) فيهـا، ولأن هدفنا في هذه المرحلة هو إخراج (ش) والأصدقاء.

ووافقت أنا والدمياطي على ضم الدكتور سـمير إلـى اللجنة.

وفي الصباح مررت على الـدكتور فاضـل بالعيـادة الخارجية، وأخبرته بما دار في الاجتماع فحدق في الفـراغ، وقال:

- الدكتور سمير لا بأس به، ولكنه لا يعرف أن يقول لا.

وابتسم بأسى:

- على أي حال لقد أصبح وجودي ووجودك باللجنـة كخيال المآتة.

ولكنني أملت خيرا في انضمام الدكتور سمير إلى لجنة القيادة.

أمين زاهر

انحسرت الموجات، خلفتني في صهد القلق والتوتر.

منذ أكثر من أسبوعين أستيقظ عند الفجر، وأجلس إلى مكتبي والأفكار تتزاحم في عقلي، ومـا إن أمسـك بـالقلم وأشرع بالكتابة حتى تفر الأفكار، ويتبدد ما بصـدري مـن دفء. أحاول دفع القلم فتخرج كلمات جافة، باردة، يعوزهـا النبض، أعاود المحاولات مرات فلا أجد بداخلي إلا الخواء، وأجد عقلي متبلدا، أحاول أن أقرأ شيئًا لعل القراءة تحـرك ركود أحاسيسي أو تولد فكرة فأجدني على مسافة كبيرة مـن الكلمات التي أقرأها، لا أحسها ولا تشـع بمعنـى، أحـاول الاستماع إلى شيء من الموسيقى، إلى أعمال أحبها وعايشتها في بعض أيام الكتابة فتأتيني من بعيد مجرد أصوات تفصلني عنها متاهة جدب وجفاف، وسرعان مـا أنصـرف عنهـا. أحاول أن أنام، أقول إنه ينبغي أن أترك نفسي على سـجيتها حتى تعطي ثمارها بلا تعسف أو اعتصار فأتقلب وأتقلب في الفراش حتى يهد كياني وتُشـد أعصـابي دون أن أغمـض عيني.

أخرج إلى الطرقات، أحدق في الوجوه فلا يتحرك في نفسي نحوها إحساس محدد، وكأنني لا أنتمي إليها أو تربطني بها عاطفة أو شعور.

ذهبت مرات إلى السراية، في الصباح، وعند الظهيرة، وفي المساء، كنت أقف على مقربة من البوابة الخارجية أو أمشي إلى جانب السور، لم أتجاسر على الدخول احتراما لإدارة فكري سالم، كنت أسترجع الساعات التي قضيتها مع (ش) منذ ثلاثين عاما، وأحداثًا من السنين التي عشتها مع الأصدقاء، وتتابع أمامي عشرات الوجوه التي أحببتها وشاركتها الفكر والأمل والحلم، أتساءل عن أسباب فشل الرحلة التي أعطاها الآلاف من أعمارهم، وانتهائها بانفضاض الأصدقاء من حول (ش) وحبسه في السراية، أقول إننا لم نتمن المستحيل، ولم نسع إلى ما يجافي حقيقة الإنسان. كان شوقنا وسعينا إلى قفزة للإنسان في بلادنا والعالم تحرره من كثير من قيوده، وتفتح له طريق الانطلاق. لم أحلم أبدا بأن يكون فعلنا نحن تحقيق خلاص كامل أو نهائي، كنت أدرك أننا شوط في المسيرة التي لا

تنتهي، وأنه لا يمكن لنا أو لسوانا في أي عصر أن يمتلـك ناصية المصير كله أو يعانق شوق السنين أجمعها.

في مرات أعود إلى بيتي وأنا أحس بـأنني أصـبحت ممتلئًا ومستعدا للعطاء فأسارع بالجلوس إلى مكتبي، وأمسك القلم فأجدني فارغًا، وعاجزا، وفاشلا فـأدرك بمرارتـي أن حملي كاذب.

أقول لنفسي إنني ابتعدت طويلا عن مصادر الـدفء والأصدقاء، عن رحم حياة الناس، وتعايشت وحيدا أطول مما ينبغي مع الكلمات فكان من الطبيعي أن ينفـد سـريعا زادي ومصدر فيضي كفنان فأفقد الأمل في عطاء جديد، ويستبد بي اليأس.

أستخرج أحيانًا الأقوال التي جمعتها من الأصدقاء عن (ش) وأقرأها فتبعث الوجوه والمواقـف، وتتنضـح نفسـي بأحزان ومرارات قديمة، وتعذبني أسئلة بلا جواب.

أعيد قراءة الصفحات التي كتبتها من رواية حافظ فأجد الكلمات التي كنت محتفيا بها من قبل لا تُشكل، ولا تنـبض بحياة، وأجد البناء الكامل للرواية في عقلـي مجـرد هيكـل عظمي بلا لحم أو دم.

كان الشوط الذي قطعته في الرواية لابد وأن يفـيض بحافظ إلى الجنون، حاولت أن أغير هذا المصير، فهل كـان عجزي عن الكتابة بسبب تدخلي المتعسف لتعـديل المسـار الطبيعي والبنية العضوية للتجربة الفنية؟

فكرت منذ أيام في كتابة عمل أدبي عن (ش) أشـكله من أقوال الأصدقاء، وشرعت في نوبة حمـاس ليليـة فـي التخطيط، وسرعان ما توقفت عاجزا، وبررت عجزي بأنني لم أعش مع (ش) نفسه أوقاتًا طويلة كما فعل غيـري مـن الأصدقاء القادرين والجديرين بالكتابة عنه أكثر مني.

فكرت أيضا في كتابة دراسـة فكريـة عـن رحلـة الأصدقاء منذ بدايات القرن وأسباب انتكاسها وعدم تحقيقهـا لما كان يؤمل منها، وحددت مراجعي، وشـرعت بـالقراءة، ومع القراءة زادت المرارة، وأشاعت تعبا وهمودا في كياني.

ثمة ظاهرة استوقفتني منذ أيام قليلة، أحيانًا يعـن لـي خاطر، وسرعان ما يستحوذ علي ويستبد بي، وأعجز عـن الإفلات من اجتراره لوقت طويل، كثيرا ما يكـون الخـاطر تافها لا ينتمي على الواقع، صحيح أنه فـي أيـام الاكتئـاب يحدث لي هذا، ولكن ليس بنفس القوة ونفـس الاسـتحواذ،

وكأنني أعجز عن التحكم في مجرى تفكيري، وأحيانًا ينتقل فكري وحماسي من شيء إلى شيء آخر في لحظة أو لحظات أو يقفز عقلي من فكرة إلى أخرى لا رابط بينهما، وكأنما الأفكار تتطاير مني، ويحدث هذا أحيانًا في كلامي مع الآخرين. كثيرا ما أحس بالاختناق في مناقشة زوجتي وابنتي في أبسط الأمور فأثور لأتفه الأسباب أو بلا سبب، وتفلت مني ألفاظ جارحة لم يعهدنها مني ولم أعهدها من نفسي من قبل، وأسارع إلى الاعتذار، ويعذبني الندم فتنظر إلي إيزيس بإشفاق معذّب، ترجوني أن أترك نفسي على سجيتها، وتجنب المحاولة العمدية للكتابة حتى تواتيني بتلقائية وبلا قسر فأصدها بكلمات جافة.

حاولت أن أقاوم، قلت إن حالتي هذه تشبه في بعض أعراضها حالتي في أثناء التوهج والسطوع، وإن الاختلاف مجرد اختلاف في الدرجة لا النوع، وإنني لابد وأن أعود إلى الانتشاء والإبداع في وقت لا أدريه فحاولت أن أهدئ من إيقاعي، أن أتباعد عن الكتابة بمشاغل أخرى، ولكنني كنت أفشل في المحاولة.

وصل بي الحال في بعض الأوقات إلى موقف عدمي، فأقول لنفسي إنه سواء كتبت أم لم أكتب أنا أو غيري لأن ما نكتبه لا يعني شيئًا في حياة ومصير عالم نحن فيه ذرة على أرض هي نفسها ذرة في عالم بلا حدود، ولكن الرغبة فـي الكتابة ما تنفك تعذبني وتفسد حياتي كلها.

في الأيام الثلاثة الأخيرة زاد قلقي وتـوتري بشـكل ملحوظ، لا أنام في الأربع والعشرين ساعة غير سـاعتين أو ثلاث، وأتقلب في الفراش فيزداد قلقي وتـوتري، وأنهـض مهدودا يعذبني صداع شديد، وألتهم السجائر بلا توقف حتـى يطبق على صدري ويمتلئ حلقي بالمرارة، وأظـل طـوال اليوم مشدود الأعصاب بطريقة غريبة.

ما الذي أعيشه هذه الأيام؟.. لماذا انحسـرت سـريعا الموجات التي حملتني إلى قمم الانتشاء؟.. أكانت كلها فـورة موقوتة وانتشاء كاذبا؟.. هل استنزفت ينابيعي؟.. هل تبددت طاقتي بفعل سنين العناء التي عشتها فـي صـباي وسـنين العذاب والحاجة التي عشـتها منـذ تركـت الفعـل ولـذت بالكتابة؟.. هل يعوزني رصيد الخبرات والتجارب الذي يجدد مصادر الإبداع؟

هأنذا شحاذ يستجدي عبثًا.

أي لعنة أن يكون المرء كاتبا، أي لعنة أن يبتعد امرؤ ولو خطوة عن الإنسان العادي وعالمه المحدود!

ما هذا الذي كتبته الآن؟.. لن أقرأه ثانية، لـن أنظـر فيه، قد أقرأه بعد ساعة أو عام أو لا أقربه أبدا.

(١١)

في نحو الرابعة صباحا من الرابع عشر مـن يوليـه ١٩٨٦ أُطفئ المصباح الكهربائي المعلق على بـاب مبنـى (ش) والمصباحان القريبان منـه. وكـان غائـب وحسـان مستندين إلى الحائط الذي يفصل قسم الاقتصادي عـن قسـم العام يثرثران بأحاديث متراخية وقد حل بهما التعب، وكـان كل من عماد وحجازي قد أغفي وهو جالس فـي موضـعه المعتاد بالفناء، ولم يكن وائل الذي تسلل إلى قسم النساء منذ أكثر من نصف الساعة قد خرج من القسـم، ولمـح سـعيد الساعي وهو الوحيد من أصدقاء الحراسة الذي يظـل يقظًـا ومنتبها طوال الليل شخصا يهم بـدخول مبنـى (ش) بينمـا شخصان آخران يتسللان نحو الباب، واحد من يمين المبنـى والآخر من يساره فانتفض سعيد الساعي، واندفع إلى بـاب المبنى وهو ينادي زملاءه الحراس بصوت مسموع.

وانقض سعيد على الشخص الذي دخل المبنى وشـرع في صعود السلم، وأمسك بخناقه، وقبل أن يتبين ملامحه في الضوء الخافت بالداخل سمعه يهمس:

- أنا إيبوور.

وحدق سعيد في الوجه الذي يقبض على رقبته، وتبين ملامح إيبوور فتراخت قبضته وهو يتساءل:

- ماذا تفعل هنا في هذه الساعة؟

فقال إيبوور لاهثًا ومتعجلا:

- سنخرج المعلم الآن.

وسأله سعيد:

- وهل يتم هذا بالاتفاق مع أصدقاء القيادة؟

فقال إيبوور وهو يهم بصعود السلم:

- لا.. علينا أن نخرجه نحن وإلا فلن يخرج أبدا، عد إلى مكانك ولا تُفسد محاولتنا.

وأمسك به سعيد:

- اخرج فورا، ولا تقترب من المبنى إلا بإذن القيادة.

كان غائب وحسان قد سمعا نداء سعيد فنهضا، ورأيـا شخصين واقفين عند باب مبنى (ش) فأسرعا إليهما، وأمسكا بهما، وكانا قرمط والبسطويسي. وارتبـك غائـب وحسـان لا يعرفان ماذا يفعلان بالصديقين اللذين وقفا أمام المبنى دون مناسبة في هذا الوقت، وفجأة انقض على الجميـع صـوت وائل:

- مؤامرة ضد المعلم.

وقف وائل بالباب ينقل بصره بين المدخل الذي تشابك فيه إيبوور وسعيد وبين الأصدقاء الأربعـة فـي الخـارج، وصاح آمرا زملاءه:

- أمسكوا بهم.

قال غائب:

- إنهم أصدقاء.. إنهم..

- أمسكوا بهم.. إنهم خونة متآمرون.

واندفع ليمسك بقرمط الذي قبض حسان على ذراعـه فأبعد قرمط يده:

- اخرس.. أنت الخائن لا نحن.

وانهالت صفعة وائل على وجه قـرمط فهجـم عليـه قرمط، وتشابك الجميع، وأمسك إيبوور بذراع قرمط يبعـده وهو يقول لصديقيه:

- لا تقاوما.. لا تعرضا حياة المعلم للخطر.

وأسرع عماد وحجازي إلى داخل المبنى، وأمر وائـل زملاءه بحزم:

- أمسكوا المتآمرين عملاء مكتب الأمن والإدارة حتى نعرض أمرهم على القيادة.

وأضاف وهو يشير بذراعه:

- خذوهم إلى العنبر المهجور.

وأمسك عماد وحسان وحجـازي بـإيبوور وقـرمط والبسطويسي، ساقوهم إلى العنبر الـذي يقـع فـي أقصـى الجنوب من السراية، والذي سقط جزء من سقفه، وتصدعت جدرانه، وخرب إسفلت أرضيته منذ سنوات طويلة.

وفي الطريق إلى العنبر أفلت إيبوور من يـد عمـاد، وانطلق يعدو في اتجاه عنابر العام، وجرى عماد خلفه، ولما ابتعد عنه بمسافة كبيرة تركه وعاد إلى زميليه حتى لا يفلت منهما أحد من الآخرين، ودفع قرمط بحجازي، وأسرع يعدو في اتجاه إيبوور وهو يشتل بساقه فلحق به حجازي، وأمسك به، وسيق قرمط والبسطويسي إلى العنبر المهجور، وحبسـا في دورة مياهه التي وقف أمامها عماد وحسن وحجازي.

وفي الصباح شاع بين الأصدقاء خبر ما حدث، كمـا شاع خبر فرار إيبوور عن طريق سلم خشبي وجد مسـتندا على السور من الناحية الغربية للسراية فأسرع كثيـر مـن

الأصدقاء إلى العنبر المهجور، وحاولوا دخوله لرؤية قرمط والبسطويسي فمنعهم الأصدقاء الحراس.

وعندما ظهر نادر في فناء الاقتصادي في نحو الثامنة والنصف صباحا أسرع إليه وائل، قال وهو يبتسم مزهوا:

- أحبطنا محاولة لقتل المعلم.

وحملق إليه نادر متسائلا:

- مؤامرة؟!.. هل تسلل أحد النزلاء إلى مبنى (ش)؟

فقال وائل بشماتة:

- لا.. تسلل إليه من كنتم تأتمنونهم على حياة المعلم، إيبوور وقرمط ومعهما البسطويسي، أمسكنا بهم داخل المبنى قبل الفجر.

ذهل نادر:

- إيبوور وقرمط والبسطويسي؟!.. مستحيل!!

- فر إيبوور الخائن من السراية، وحبسنا الآخرين في العنبر المهجور، وأخبرنا الصديق فكري سالم فأمر باستمرار حبسهم حتى تنظر القيادة في أمرهم.

واندفع نادر إلى العنبر المهجور وقد غامت الأشياء في عينيه.

وقف أمام قرمط والبسطويسي اللذين نهضا واقفين عند رؤيته، نقل بصره بينهما غير مصدق، تساءل أمام الوجهين اللذين يحملقان إليه:

- ماذا حدث؟

فقال قرمط:

- كنا نريد إخراج المعلم.

- ومن أمركم بذلك؟

قال قرمط بشي من الحدة:

- لا أحد.. أردنا أن نخرجه لأنكم لا تعملـون علـى خروجه.

آلمته اللهجة الحادة، آلمه أن يسوي الأصـدقاء بينـه وبين فكري سالم والدمياطي.

أتقامرون أنتم الثلاثة بمحاولة إخراج (ش) فتعرضـوا حياته للخطر؟

فقال البسطويسي وهو يحدق إليه:

- كانت خطتنا محكمة، وكان المعلم سيختبئ في مكان آمن لا يمكن أن يصل إليه أحد.

وأحس نادر بوقوف عماد وحجازي إلى جانبه ونظراتهما المركزة عليه فنقل نظرة مشفقة بين وجهي قرمط والبسطويسي، واستدار خارجا.

وحين شق طريقه في تجمهر الأصدقاء أمام العنبر أحس بنظرات معادية تحدق إليه وتحاصره، وسمع همسات تستنكر حبس قرمط والبسطويسي.

وفي المساء التقى الأربعة، فكري سالم والدمياطي والدكتور سمير ونادر ببيت الدكتور سمير، وتخلف عن الحضور الدكتور فاضل.

بدا فكري متوترا وقد زم شفتيه، وكان نادرا يتململ في جلسته، ويبدو على وجهه الإرهاق والقلق، والتمعت عينا الدمياطي خلف زجاج نظارته وهما تنتقلان بين فكري سالم ونادر، وكان وجه الدكتور سمير كعادته لا يشي بشيء.

واخترق الصمت المتوتر صوت الدمياطي وقد احتقن وجهه:

الذين كنا نأتمنهم على حياة المعلم تآمروا لقتله.

واحتد نادر:

إيبوور وقرمط والبسطويسي لم يريدوا قتـل المعلـم، كانوا يحاولون إخراجه.

فقال الدمياطي وقد زاد احمرار وجهه:

- لقد قبض عليهم متلبسين.

قال نادر وقد زادت حدته:

- إيبوور وقرمط والبسطويسي كانوا أصدقاء المعلـم قبل أن تسمع أنت عنه.

فقال الدمياطي بغضب:

- الإخلاص للمعلم لا تحدده أقدمية التعـرف إليـه... و...

وابتسم فكري سالم بسمة صغيرة، وأشار بيده للدمياطي ليصمت، وقال وهو يحدق إلى نادر:

- أنا لا أعتقد أنهم كانوا يريدون إلحاق الأذى بالمعلم، ولكن ما أقدموا عليه تخريب لعملنا كلـه، كـان يمكـن أن يعرض حياة المعلم وحياتنا للخطر.

وحاول نادر أن يتمالك نفسه:

- ما فعلوه تهور دفعوا إليه لأننا لا نعمل شيئًا حقيقيـا لخروج المعلم.

وتساءل فكري ببسمة ساخرة وقد تحفز غاضبا:

- وهل يحق لأي واحد من الأصدقاء أن ينفرد بالعمل وقتما يشاء لإخراج (ش)؟

حاول نادر أن يهون من أمر فعله الأصدقاء الثلاثة:

- أنا لا أنكر أن ما فعلوه خطأ لابد أن يلاموا عليـه، ولكن يجب وضع قصدهم في الاعتبار.

وضغط فكري سالم على كلماته وهو مائـل بصـدره على المائدة الصغيرة:

- ما فعلوه خيانة لنا ولعملنا، ولابد أن يحاسبوا عليـه حسابا شديدا، لا تنس أن الطريق إلى جهنم مفروش بالنوايـا الحسنة.

وأضاف وهو يحدق في عيني نادر:

- لقد فعلها فارس زايد وعلي النجاتي وفاضـل مـن وراء ظهورنا، وكان يمكن أن يضيع فيها (ش) ونضيع كلنا لولا يقظتي أنا وبعض الأصدقاء وتدخلنا في الوقت المناسب.

ونقل نادر البصر بين فكري الدمياطي الـذي تطـامن رأسه بين كتفيه، والدكتور سمير الذي بدا ميت الوجـه، لـو كان الأصدقاء الثلاثة، وقد كان دوما قريبـا مـنهم وحمـيم

العلاقة بهم، قد فاتحوه في أمر رغبتهم في المحاولة قبـل أن يقوموا بها لاشترك معهم وأحكموا التدابير وتلافـوا أخطـاء تجربة عم فارس وعلي النجاتي والدكتور فاضل.

قال فكري سالم وهو ينظر إلى نادر:

- أنا أرى أن يفصل إيبوور وقرمط والبسطويسي من صفوف الأصدقاء، وأن يجبر قـرمط والبسطويسـي علـى الخروج من السراية في أسرع وقت ممكن حتى لا يصـدر منهما ما يضر بعملنا.. ما رأيكم أنتم؟

وسارع نادر بالقول:

- فصل وطرد بلا سؤال أو تحقيق؟!.. يجب التحقيق مع قرمط والبسطويسي قبل اتخاذ أي إجراء.

فقال فكري سالم:

- لقد كلفت نمرود بسؤالهما لمعرفة من كان يشاركهم عملهم التخريبي داخل السراية وخارجهـا فسـبوه وهمـوا بضربه.

- لنشكل لجنة من الأصدقاء للتحقيق معهما.

وتساءل الدمياطي:

- وما جدوى التحقيق؟.. ما فعلوه واقع لا يحتاج إلـى سؤال. وهما لن يبوحا بشيء عن تفاصيل المؤامرة، المهم أن نتنبه نحن، ونتخذ من الإجراءات ما يحول دون تكـرار مـا حدث من جانب أحد المتهورين.

وتساءل نادر ببسمة ساخرة:

- وإذا رفضا الخروج من السراية؟

قال فكري:

- لابد أن ينصاعوا لقرار القيادة، وأن يجبروا علـى تنفيذه عند الضرورة.

ونظر إلى سمير، سأله:

- ما رأيك أنت يا دكتور؟

ونقل سمير نظرة حائرة بين فكري ونـادر، وتسـاءل بصوت خفيض:

- ألا يمكن أن يخلـق طـرد قـرمط والبسطويسـي المشاكل لنا في الخارج؟.. أليس من الأفضل أن يكونا تحـت عيوننا ورقابتنا في السراية؟

قال فكري:

- لا يمكن لأحد أن يخلق لنا أية مشاكل خارج السراية لأنني الوحيد الذي يعرف كل أصدقاء الخارج.

ورفع الدمياطي يده:

- أنا أوافق على اقتراح فكري.

ونظر فكري إلى الدكتور سمير فنظر إلى نادر، وقال وقد خفض رأسه:

- وأنا موافق.

وابتسم نادر بأسى:

- وأنا لا أوافق.

وأسند فكري سالم ظهره إلى مقعده، قال وقد التمعـت عيناه الصغيرتان:

- يجب أن نكون حـازمين، وألا نتهـاون إزاء مـن يخرج على أوامر القيادة أو يقوم بأي عمل يمكن أن يعرض أماننا للخطر.

وأدرك نادر أن التحذير موجه إليه هو.

وأضاف فكري:

- لقد طلبت من نمرود أن يشدد هو وزملاؤه من رقابتهم ويقظتهم، وأن يخبرني فورا بأي تصرف مريب حتى نكون نحن كقيادة على دراية بكل ما يدور في السراية.

وهم نادر بأن يقول إن إطلاق نمرود وزملائه في التجسس على الأصدقاء أمر خطير يجب أن يناقش، وراح ينقل بصره بين الثلاثة.

قال الدمياطي:

- يقترح وائل أن يتبعه الممرضون الذين يقومون بحراسة (ش) فيأخذ الأصدقاء في الإدارة رأيه عند اختيارهم، ويكونون تابعين له مباشرة حتى تتكامل عملية الحراسة.

وعقد فكري سالم ما بين حاجبيه:

- فكرة جيدة.. ولكن من الأفضل أن أتولى أنا اختيارهم بنفسي بالرغم من أنني لا أحب التدخل في مثل هذا العمل.

وابتسم نادر بمزيج من السخرية والمرارة:

- ولكن اختيار الممرضين والإشراف عليهم من اختصاص الدكتور فاضل. وشوح فكري سالم بيده:

- يمكن أن نغير في الاختصاصات لمصلحة عملنـا، يجب ألا نكون جامدين.

وفي الصباح وقف نمرود يحيط به عمـاد وحجـازي وحسان، وأبلغ قرمط والبسطويسي وذراعه الملتصق بجنبـه ترتجف بقرار لجنة القيادة بفصلهما وطردهما من السـراية، وفصل إيبوور.

وارتسمت على وجه قرمط بسمة ساخرة:

- ونحن نوافق على الخروج حتـى لا نشـارك فـي جرائمكم في حق المعلم ومبادئه.

وقال البسطويسي بحدة:

- قل لمن أرسلوك إننا لن نكف أبدا عـن الإخـلاص للمعلم والعمل على خروجه.

وبعد يومين اختفى قرمط والبسطويسي من السراية في أثناء زيارات الأهالي للنزلاء.

نادر شوقي

كان من أقسى اللحظات في حياتي عندما وقفت أمـام قرمط والبسطويسي في العنبر المهجور بعد فشل محاولتهمـا هما وإيبوور لإخراج المعلم. كان في عيون الصديقين لـوم غاضب يدينني، وقتها أدركت عمق الهوة التي حفرت بينـي وبين أفضل الأصدقاء حتى أصبحوا ينظرون إلـي كغريـب عنهم، كواحد من لجنة القيادة التي يعادونها لتراخيهـا فـي العمل لإخراج (ش). تدافعت كلماتهما طعنات في صـدري فأحسست بالخجل، ولم أجرؤ على النظر في عيونهما.

وفيما كنت خارجا من العنبر المهجور أحسست بعيون الأصدقاء تحاصرني بعداء، وهمهماتهم المتذمرة تطـاردني فزاد سخطي على نفسي لأنني ترددت في المبـادرة بالعمـل المستقل منذ أن خطرت لي فكرته.

سرت إلى مبنى الإدارة وأنا لا أشـعر بمـا حـولي، استقبلتني عينا وداد بعتاب قـاسٍ، حططـت علـى المقعـد المجاور لمكتبها وأنا أتحاشى التقاء عيني بعينهـا، سـمعتها تتنهد وتقول هامسة:

- لو كانت محاولتهم قد نجحت.

وأحسست بعينيها تطيلان النظر إلي:

- لو كانوا قد أخبروك بما ينوون القيام به كان يمكـن للنتيجة أن تختلف.

واحتدم الغضب بصدري، الغضب من نفسي:

- هم الـذين تهـوروا، وسـارعوا بالعمـل دون أن يشركوني معهم وأنا أقرب الأصدقاء إليهم.

- ومن قال إنك ما زلت أقرب الأصدقاء إليهم؟.. فـيم يختلف موقفك عن موقف فكري سالم والآخرين؟

خطر لي أن أعود إلى العنبر المهجور لأوضح لقرمط والبسطويسي موقفي من كل قرارات اللجنة، تركت وداد دون كلمة، وعلى درج مبنى الإدارة استسخفت الفكـرة، وقفـت حائرا، أقترب من صديق، ومال علي هامسا بقرار لفكـري سالم باجتماع للجنة القيادة في السادسة مساء ببيت الـدكتور سمير، زادت حيرتي، ووجدتني أندفع خارجا من السراية.

سرت في الشوارع، جلست في إحدى المقاهي وسـط زحام الناس والعربات. ها هي محاولة أخرى لإخراج المعلم من وراء ظهر لجنة القيادة تفشل كما فشـلت محاولـة عـم فارس وعلي النجاتي والدكتور فاضل. لا يمكن أن تنجح أية

محاولة بعيدا عن لجنة القيادة التـي تضـم فكـري سـالم والدمياطي والدكتور سمير والأجهـزة التـي خلقـت فـوق الأصدقاء، لابد من إزاحة هذه القيادة وتشكيلاتها حتـى يـتم عمل حقيقي للخروج يشترك فيه أكبر عدد من الأصدقاء من داخل السراية وخارجها، فرض عقد المؤتمر !!.. هل يمكن تجميع موافقة عدد كبير من الأصدقاء بالسراية لفرض عقـد مؤتمر ينتخب قيادة جديـدة؟.. أكثـر الأصـدقاء يوجـدون بالسراية، ويمكن أن يوافق معظمهم على انعقاد المؤتمر. هل يقبل فكري سالم والآخرون بانعقاد المؤتمر إذا طالـب بـه أغلبية أصدقاء السراية؟.. لابد أن يقبلوا برغم إرادتهـم وإلا وجدوا أنفسهم في مواجهة الأغلبية، إذا رفضوا يمكن أن يعقد المؤتمر في غيبتهم وتنتخب قيادة جديدة. هـذا هـو الحـل للمأزق الذي نعيشه. لابد من التحـرك فـي سـرية كاملـة للحصول على موافقة أكبر عدد من الأصدقاء ثم مفاجأة لجنة القيادة بها، هذا هو الحل الوحيد، الحل الذي يمكن أن يجنبنـا أن انقسام في صفوفنا.

فكرت في عدم الذهاب إلى الاجتمـاع، مـا جـدوى الذهاب إذا كان صوتي لا قيمة له في اتخاذ أي قرار؟.. مـا

يريده فكري سالم هو ما سيوافق عليـه الآخـران، ولكـن وجودي يمكن أن يخفف من قسوة القرارات التي يمكـن أن تتخذ بشأن قرمط والبسطويسي، وذهبت إلى الاجتماع وأنـا متوتر ومتعب وفكرة جمع توقيعات لعقد المؤتمر تستبد بي.

وخرجت من الاجتماع غاضبا، وفور خروجـي إلـى الطريق خطر لي الذهاب إلى بيت الدكتور فاضل.

استقبلني بابتسامته الطيبة المرحبة، لم أكن قد زرته فـي بيته منذ أكثر من عام، خاصة وأننا لم نعقد أيا من اجتماعات لجنة القيادة عنده حرصا على الأمان.

قلت فور جلوسي:

- صدر قـرار بفصـل إيبـوور، وفصـل قـرمط والبسطويسي وطردهما من السراية.

وارتفع حاجباه في دهشة:

- ومن جرؤ على إصدار هذا القرار؟

- أغلبية لجنتنا الموقرة.

- ولكن لم يخطرني أحد بطلب عقد الاجتماع.

قلت بمرارة:

- لم يكن وجودك ليغير من الأمر شيئًا.

شرد وجهه، بدت التجاعيد متكاثفة حول عينيه، مرت عيناي على الكتب التي تصطف بارتفاع الجدران، وتتكـوم على مكتبه وفي الأركان، تذكرت الأيام التي كنت أزوره فيها لاستعارة الكتب منه، كان ينتقي لي الكثيـر بنفسـه، كـان يوصيني بقراءة كتب المعلم مـرات لاسـتيعابها لا لحفـظ نصوص منها كما يفعل البعض، توقفت عيناي على صـورة للمعلم معلقة على الجدار المواجه لمكتب الدكتور فاضل، لـم أرها عنده من قبل، صورة جانبية للمعلم وهو فـي عنفـوان رجولته يرنو باسما إلى الأمام.

قال الدكتور فاضل:

- فكرت كثيرا في مقاطعة اجتماعات اللجنة.

- أصبح وجودنا فيها بعد استقالة عم فـارس وضـم الدمياطي والدكتور سمير غير مجدٍ.

حدق في كفه الكبير:

- نحن المسئولون عما وصل إليه الحال بالنسبة لعمل اللجنة، أنا المسئول الأول، كان يجب إبعـاد فكـري عـن الرئاسة بعد تصديه لمحاولتنا لإخراج المعلم وإفشالها، خشيت دوما من انقسام صفوفنا.

وابتسم بمرارة:

- دوما كنت أعمل بدافع الحفاظ على وحدتنا، كثيرا ما كنت أتخذ مواقف توفيقية حرصا على تلك الوحدة الكاذبة.

قلت بشيء من الحماس:

- أفكر في مناقشة الأصدقاء بالسراية في أمـر عقـد المؤتمر، وعند موافقة الأغلبية نفرض على أعضاء اللجنـة الآخرين انعقاده، يوجد أصدقاء كثيـرون داخـل السـراية يصلحون لتولي قيادة العمل.

وارتسمت على وجهه بسمة سخرية حزينة:

- لو أجمع الأصدقاء داخل السراية وخارجهـا علـى انعقاد المؤتمر لن يسمح فكري بانعقاده، المشكلة أنه يعتقد أنه أحرص البشر على حياة (ش) وفكره، وأن كل شي في يـده الآن، أصدقاء وإمكانيات الخارج والتنظيمات التـي أنشـئت بداخل السراية فضلا عن لجنة القيادة.

قلت:

- سأحاول الحصول على موافقـة أكبـر عـدد مـن الأصدقاء، وليعقد المؤتمر حتى في غيبة فكـري. يمكـن أن ينضم إلينا الدكتور سمير لأنه علاقته بفكري ليست كعلاقـة

الدمياطي به، يمكن أن يكون لنا ثلاثة أصوات في مقابل صوتين.

ونفث دخان سيجارته:

- كنت أعرف إمكانيات الدكتور سمير منذ البداية، ولكن لم أتوقع أن ينساق تماما لفكري كما يفعل الدمياطي، يبدو أن طبيعته الفاترة وعدم استيعابه لفكر المعلم يجعلاه أقرب إلى مواقف فكري الحذرة.

- علاقتك به تسمح بمحاولة إقناعه بضرورة عقد المؤتمر.

- لا أعرف ما إذا كان يمكن إقناعه أم لا.. تباعدت لقاءاتنا منذ ضم إلى لجنة القيادة، وتحاشيت من جانبي الانفرادية خشية شبهة التأثير فيه.

وتذكرت ما قرره فكري سالم بالنسبة للممرضين الذين يقومون بحراسة حجرة المعلم فقلت:

- قرر فكري أن يختار بنفسه الأصدقاء الممرضين الذين يقومون بحراسة حجرة المعلم.

وهز رأسه:

- لا يهم.. لقد أصبح كل شيء في يده بالفعل.

وتركت الدكتور فاضل وقد نويت أن أتحرك بسـرعة وسرية شديدة بين الأصدقاء للحصول على موافقة أكبر عدد منهم على انعقاد المؤتمر، ومفاجأة فكري سالم والآخرين بها.

كانت الساعة التاسعة حين غادرت بيت الدكتور فاضل وقد تبددت حيرتي بعد القرار الذي توصلت إليه، أحسسـت بحاجتي إلى رؤية وداد والحديث معها فذهبت إلى بيت عـم فارس.

ردت وداد تحيتي بصوت خفيض، وخفضت رأسـها، ورد عم فارس بنظرة جانبية سريعة، وعاد إلى العمـل فـي أخشابه.

جلست وداد بالقرب مني، حاولت أن ألتقـي بعينيهـا، وطال الصمت دون أن تنظر إلي، وأخيرا قالت مخافتة.. من صوتها:

- لماذا تركت السراية قبل موعد الانصراف؟

قلت:

- ضقت بالوجود فيها فتركتها.

وعاد الصمت. قلت:

- قررت العمل للحصول على موافقة العدد الأكبر من الأصدقاء داخل السراية على عقد المؤتمر، وفرض انعقاده على فكري والآخرين، وتغيير القيادة.

لم يختلج قناع الأسى الذي يكسو وجه عم فارس، وقالت وداد بشيء من الجفاء:

- المؤتمر وتغيير القيادة؟!.. عدت إلى التردد من جديد ؟! ترددك أدى إلى محاولة الأصدقاء الفاشلة، لو بدأت العمل مبكرا لاختلاف الأمر.

نظرت إلى عم فارس، وقلت:

- منذ خمس سنوات فشلت محاولة تمت في ظروف أفضل كثيرا من ظروفنا الآن، لا يمكن القيام بعمل ناجح لإخراج المعلم في ظل وجود فكري والدمياطي والدكتور سمير في لجنة القيادة.

وتوقفت يد عام فارس عن العمل لحظة ثم عاد إلى عمله دون أن ينظر إلي.

قلت:

- صدر قرار بفصل إيبوور، وفصل قرمط والبسطويسي وطردهما من السراية.

وحدق إلي عم فارس، وارتعش كفه على مائدة عمله.

وقال وداد بلوم غاضب:

- فكري يستطيع أن يفعل أي شيء الآن.

وحط علينا صمت متوتر، أحسست بالضيق، نهضت مستأذنًا في الانصراف، وعندما هممت بالخروج استوقفني عم فارس:

- نادر.

والتفت إليه، أطال إلي النظر، وقال:

- كنت شريكًا لإيبوور وقرمط والبسطويسي في محاولتهم.

وحدقت إليه دهشًا، واعتدل في جلسته:

- كنا نلتقي عصرا عند البوابة الخارجية، ورتبنا كل شيء معا، وكان المعلم موافقًا على خطتنا.

تساءلت:

- ولماذا لم تشركوني في المحاولة؟

وافترت شفتاه عن ابتسامة أسيانة:

- أنت حتى الآن متردد تتحدث عن المؤتمر وتغيير القيادة.

وكانت وداد تحدق إلى أبيها ذاهلة، تساءلت:

- ولماذا لم تخبرني أنا؟

قال:

- اتفقنا على السرية الكاملة، وعلى إخراج الأصـدقاء بعد خروج المعلم.

مجدي عبد السلام

عدت إلى السراية في ساعة متأخرة من الليـل، ومـا كدت أضع المفتاح في باب سكن الأطبـاء حتـى أحسسـت بحركة في الداخل، دهشت لأن الدور في النوباتجية كان على الدكتور باهر وهو ينصرف دائما في المساء.

وفتح الباب عن رجل في نحو الخامسة والثلاثين يميل إلى الطول، يرتدي روب دي شامبر فاخرا، ويبتسـم وهـو يمسك البايب في يده.

ألقيت تحية المساء فبادرني بالقول:

- أنا الدكتور جميل المصيلحي الطبيب الجديد، أعتقـد أنك الدكتور مجدي.

تذكرت ما قام به عامل السكن طوال اليومين الماضيين من دهان وتنظيف للحجرة الثالثة بالسكن والتي كانت مغلقة.

رحبت بالضيف الجديد. قال إن كبير الأطبـاء حدثـه عني. ضايقني أن يكون مصدر معلوماته الأولى عني كبيـر الأطباء، وفتحت حجرتي ودعوته للدخول بالرغم من أنني لم أكن مهيئًا للكلام مع أحد.

دخل مترددا:

- لا أحب أن أسبب لك إزعاجـا فـي هـذا الوقـت المتأخر.

وجلس على أقرب كرسي.

استرحت إلى ابتسامته وتلقائيته، خطر لي أن وجـود طبيب مقيم يمكن أن يسهل أمر الموافقة على نقلي.

قال:

- أنا من الإسكندرية، كنت أعمـل بمستشـفى رأس التين، وطلبت نقلي إلى القاهرة لظروف عائلية.

قلت باسما:

- وأنا من إخميم نقلت من القصر العيني منذ حـوالي خمسة شهور، وأسعى لنقلي إلى الصعيد لظروف عائلية.

قام وتصفح الكتب المصفوفة على الرف، قال مجاملا:

- مكتبة جيدة.

قلت:

- كتب تقليدية، بدأت في جمعها لرسالة الدكتوراه التي لن أنتهي منها أبدا.

أمسك كتابا لأمين زاهر، قرأ الإهداء، وابتسم.

- إنه لكاتب صديق.

قال:

- أنا أحب قراءة الأدب، وإن كانت معظم قراءاتي في الأدب العالمي.

قلب في مجموعة الشرائط المكومة بجوار المسـجل، قلت:

- كلها لفيروز.

قال:

- أحب الاستماع إليهـا أحيانًـا، وإن كنـت أفضـل الاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكية التي أحببتها فـي أثنـاء دراستي للدكتوراه في السويد.

تأملته معجبا، قلت إنه شيء طيب أن يلحق بالسـراية طبيب مثقف درس في إحدى البلاد المتقدمة، تساءلت، هـل يمكن أن يتحمل مثل هذا الطبيب الوجود والعمل في السراية؟

قال وهو يتلفت في أنحاء الغرفة:

- السكن غير مجهز بشكل جيد.

قلت:

- ليت الأمر اقتصر على سكن الأطباء وحده.

لم أشأ أن أسبب له إحباطًا في الليلة الأولى لوجوده في السراية.

تساءل:

- لمن الغرفة الأخرى المغلقة؟

- للطبيب النوباتجي، وكثيرا ما يأخذ النوباتجية طبيب قديم ممتاز اسمه فاضل زكي، سيعجبك كثيرا.

قال:

- لم ألتق بغير كبير الأطباء، وصلت إلى المصحة في الساعة الواحدة والنصف ظهرا.

وابتسمت لكلمة المصحة ورجاني أن أصطحبه في المرور على العنابر والأقسام في الصباح فرحبت بذلك.

وفي الثامنة صباحا طرقت باب حجرته، وكان يتناول إفطاره.

استرعى انتباهي التلفزيون الملون وجهاز الفيديو ونوع جهاز التسجيل والثلاجة الصغيرة.

طلب مني أن أشاركه إفطاره فاعتذرت لأنني غير معتاد على الإفطار وأكتفي عادة بفنجان قهوة. لفت انتباهي ما يتناوله من إفطار متعدد الأصناف.

ارتدى بدلة أنيقة، ومعطفًا أبيض ناصعا، ووضع قفازا في جيب معطفه.

قلت ونحن نتجه إلى مبنى الإدارة:

- أرجو ألا تصيبك السراية بالإحباط.

تساءل:

- السراية؟.. أية سراية؟

وابتسمت:

- أقصد المصحة، كلنا نسميها السراية كما يسميها أهالي النزلاء.

استأذن لمقابلة المدير.

انتظرته في حجرة السكرتارية، سألتني وداد عن رأي في الطبيب الجديد فقلت لها:

- أميل إليه بالرغم من أنه يبدو من طبقة غير طبقتنا.

وأضفت:

- هو مثقف وحاصل على الدكتوراه من السويد لعله يساعد في إخراج السراية من العصور الوسطى.

خرج بعد دقائق شاردا، قال:

- يبدو أن مديركم...

قلت:

- يصلح أن يكـون مـديرا لمستشـفى فنـدقي مـن مستشفيات هذه الأيام، وهو يملك بالفعل واحدا منها.

قال:

- كبير الأطباء يبدو مغيبا عن الوعي.

- هو مغيب عن الوعي بالنسبة لأمور، وشديد الوعي بالنسبة لغيرها.

نظر إلى بعض النزلاء في الفناء، بدت عليه الدهشـة، وأشار إلى نزيل بجلباب مهلهل يكشف عورته:

- لماذا لا يصرف زي ملائم وموحد للمرضى؟

قلت:

- يمكن أن يحدث هذا في القرن الواحد والعشرين.

سار إلى جانبي واجما.

أدخلته قسم النساء، استقبلنا الدكتور مهران بابتسـامته المترهلة، وعندما قدمت له الطبيب الجديد رحب به بحفـاوة كبيرة ومرتبكة. اختلست النظر إلى السمراء فردت بنظـرة أسيانة وهي جالسة على سريرها، تمالكت نفسـي، وأدخلتـه العنبر الآخر، تأمل العنبر والنزيلات باهتمام، مر بعينيه على

بعض الاستمارات، أبدى استياءه من أحوال العنبرين ومـن مظهر النزيلات.

أمام أبنية الاقتصادي قال:

- سأختص بالإشراف على قسم الاقتصادي.

تذكرت القرار الذي صدر بإسناد قسم الإدمـان إلـى الدكتور فهمي، قلت:

- هو أفضل من غيره من حيث المظهر العام.

سأل عن قسم الجلسات الكهربائيـة وقسـم الجراحـة والمعمل، وقسم الأشعة، قلت وأنا أتمالك نفسي من الضحك:

- حجرة الجلسات الكهربائية ستراها بنفسك، وتوجـد حجرة مغلقة عليها لافتة قديمة تشير إلى أنها كانت يوما مـا قسما للجراحة، وحجرة أخرى كانت معملا، أما عـن قسـم الأشعة فيوجد بند له في الميزانية منذ خمس سنين.

وارتفع حاجباه في دهشة فقلت، أرجو أن تتعامل مـع هذا المستشفى دون أن تقارنه بأي مستشفى في العالم.

دخلنا بعض أبنية الاقتصـادي، وبـدا علـى وجهـه الاستياء، مررنا من أمام مبنى (ش) فأشـرت إلـى النافـذة المفتوحة التي يتشابك فيها الحديد:

- هنا يسجن (ش) المفكر والسياسي المعروف.

وتوقف، وتساءل دهشًا:

- ماذا تعني بيسجن؟

قلت:

- لقد حبس في السراية بقرار مـن النيابـة العامـة والمباحث منذ سنين طويلة.

وتساءلت وأنا أنظر إلى وجهه الذي بدا عليه الكدر:

هل قرأت له شيئًا:

قال:

- وهل يمكن أن يكون أحد مثقفًا دون أن يقرأ له؟!... لقد قرأت له كما قرأت لغيره من كبار المفكرين.

وانسقت وراء فضولي لمعرفة هوية الضـيف الجديـد فسألته وأنا أحدق إلى وجهه المورد:

- ما رأيك في فكره؟

نظر إلي نظرة جانبية سريعة:

- أعتقد أن أفكاره الأساسية يمكن أن تحقق دون عنف أو صراع.

وتساءل:

- ما موقف الأطباء من حبسه؟

- لا يستطيع أحد هنا أن يقول أو يفعل شـيئًا، الكـل يعتبرونه فصاميا بالرغم من أنه قـد لا يكـون مريضـا إلا باكتئاب تفاعلي نتيجة لحبسه لسنوات طويلة.

قال بلهجة حادة:

- لا يوجد مبرر لحرمان إنسان من حريته مهما كـان فكره.

وأشرت إلى السور الفاصل بين الاقتصادي والعام:

- هنا ينتهي قسم الاقتصادي، ويبدأ قسم العـام، (ش) يقيم وحده في المبنى الصغير، ويشرف عليه الدكتور فاضل زكي.

ومد يده باسما:

- أتعبتك معي.. أعتقد أنه لابد أن تذهب إلى عنبرك.

تساءلت:

- ألا تريد أن ترى عنابر العام؟

وشد على يدي:

- يمكن أن يتم ذلك في وقت آخر، يسعدني أن أجـد صديقًا في هذا المكان.

وفي نهاية يوم العمل لقيته في فناء الاقتصادي، كـان وجه شاردا.

بادره بالسؤال:

- كيف الحال؟

قال باستياء:

- هذا ليس مستشفى.

وابتسمت:

- لم تر شيئًا بعد.

- سأقابل المدير وأشرح له وجهة نظري.

قلت:

- لا فائدة.

فقال بلهجة غاضبة:

- لا يمكن السكوت على هذه الأوضاع.

نادر شوقي

اتجهت إلى العنبر الصغير لأناقش نور في أمر عقد المؤتمر فرأيته يمضي مسرعا في فناء العام، ناديت عليه فالتفت إلي ومضى في طريقه، لحقت به، وسألته وأنا أسرع إلى جانبه:

- مالك يا نور؟

ورماني بنظرة حادة:

- أخبرني صديق أن ابن رشد محبوس منذ يومين في العنبر المهجور.

واندفعنا في اتجاه ذلك العنبر، استبعدت أن يكون أحد من الأصدقاء هو الذي قام بحبس الصديق الذي يتقمص شخصية ابن رشد لأنه في غاية الرقة والهدوء لا يستفز أحدا، كان من الأصدقاء القدامى للمعلم، دخل السراية منذ خمسة أعوام، وأصبح محبوبا من كل الأصدقاء الذين كان يحدثهم عن الاتجاهات الفلسفية المتقدمة ومكانة فكر (ش) بينها.

وفي مدخل دورة المياه المهدمة رأينا اثنين من مجموعة نمرود سارعا بالفرار عند رؤيتنا، وفي الداخل

وجدنا ابن رشد مربوطًا إلى الحائط من خلافٍ ورأسه منكفئ على صدره.

رفعنا وجهه الملتحي المغضن فوجدناه شاحبا شـحوب الموت. طرفت عيناه المرهقتان الدامعتان، وتنهد. سـارعنا بفك الحبل المتين الذي قيد به، نقل بصره بين وجهينا، وقال بصوت واهن محشرج:

- لولا (ش).

وراح في غيبوبة.

مددناه على الأرض، أسندت رأسـه علـى صـدري، وسارع نور بإحضار ماء غسلنا به وجهه فأفاق، وفتح عينيه بنظرة زائغة، سألته:

- من الذي فعل بك هذا؟

ورمقني بنظرة عتاب حزين، مرهق:

- الأصدقاء الذين سلطتموهم على رقابنا.

- أي أصدقاء؟

قال بأسى يخالطه الغضب:

- نمرود ووائل وزملاؤهم الذين لا يربطهم شيء بـ (ش).

وتنهد:

- وكأنه لم يكفنا أن نسجن دوما دون أمل في خـروج المعلم.

علا الغضب بصدري، أخذناه أنا ونور لتوصيله إلـى عنبره، وما كدنا نخطو خطوات حتى وقف نور، ضـم ابـن رشد بذراعه وقال لي بجفاء:

- انصرف أنت لشأنك.. سأتولى أنا أمره.

وتحرك بابن رشد مبتعدا:

تسمرت ذاهلا وخجلا، حدقت إليهما وهمـا يبتعـدان، وتفصد جبيني بالعرق، لم أعرف ما أفعله فاندفعت أفتش عن نمرود.

كان نور منذ أن ترك مسئولية جهاز الاتصال يتجنبني. ذهبت مرات إلى العنبر الصغير وجلست إلى جانبه فلم ينظر إلي، ولم يبادلني كلمة. رأيت نمرود أمام عنبر (٢) يتلفـت حوله فانقضضت عليه، وأمسكت بخناقه:

- ما الذي فعلتموه بابن رشد؟

حملق إلي مرتبكًا، حاول أن يلوي شـفتيه بابتسـامة، أفلته من يدي خشية أن يراني أحد من العاملين بالإدارة، قال مخافتًا من صوته وهو يرفع إلي نظرته الجانبية:

- كان يهاجم (ش) أمام بعض الأصـدقاء والنـزلاء، ويحضهم على كراهيته.

قلت غاضبا:

- وما شأنك أنت إذا كان قد فعل ذلك؟

والتوت بسمته الشائهة، واستدار ليمضي وهو يقول:

- لا تتدخل في عملنا أيها الصديق، ألا تعـرف مـا أمرنا به صديقنا الكبير؟

هممت بضربه، ولكني تمالكت نفسي، وخطا مبتعدا:

- نحن ننفذ ما يصدر إلينا من أوامر.

حدقت إليه بغل عاجز.

سرت وقد غامت الأشياء في عيني، مر بي عم إبراهيم دون أن يتوقف أو يلقي بالتحية، تساءلت عما إذا كـان قـد رآني وتجاهلني.

اقترب مني صديق من المتظاهرين بالوسواس القهري، صديق كهل من المعروفين بصبرهم وقدرتهم على التحمـل

وقلة الكلام، وكان قد رفض العمل مع مجموعة نمرود وعبر عن استنكاره لتكوينها، همس لي:

- فر ثلاثة من الأصدقاء ليلة أمس من السراية.

وأضاف شاكيا:

- الأوضاع لم تعد تحتمل يا نادر، ويبدو أن المعلم لن يخرج من هنا أبدا.

ولم أنطق بلفظ فحملق إلي دهشًـا، وشـوح بذراعـه وابتعد.

حملتني قدماي إلى ما وراء العنبر العام وعينـا نـور بنظرتها العدائية وهو يبتعد وحده بابن رشد تتمثـل أمـامي وتزيد إحساسي بالألم والمهانة، وقفت أمـام عنبـر عـزل المجاني الذي تحيط به الخرائب وتفح منه الرائحة الكريهـة، طفت من ذاكرتي بعض المشاهد والوجوه التي رأيتهـا فيـه والتي لم أنسها أبدا، المشاهد والوجوه التـي أرعبتنـي فـي زيارتي الأولى له من سبعة أعوام، ها هو العنبر ملقى فـي نهاية السراية كما هو بل وزادت أحوال نزلائه سوءا، مجرد حصة ضئيلة من أغذية الزيارات نتصدق بها عليـه وقـد لا تصل إليه في أحوال كثيرة. مشاريع كثيرة لتحسين أحوالـه

فكرت وفكر فيها الأصدقاء ولم ينفذ منها شـيء. مشـاريع كثيرة فكرنا فيها لتحسين أحوال النزلاء في السراية في فترة وجودنا بها والتي تصورت أنها لن تطول عن شهور أو عام، لم نفعل شيئًا حقيقيا بل ودفعنا بعدد كبيـر مـن الأصـدقاء ليحبسوا مع المعلم ويتعرضوا للعناء والقهر، لجنـة القيـادة الموقرة وعلى رأسها فكري سالم بعقلية كاتـب الأرشـيف، ومعه البقال الذي كثر الكلام عن سرقاته وتهريبـه للأغذيـة والملابس وتمييزه لأعضـاء مجمـوعتي وائـل ونمـرود، والدكتور سمير فاقد الروح والهمة، انعقاد المؤتمر؟!.. يا لي من أبله!.. جمع توقيعات يستغرق شهورا ثم رفض من قبـل اللجنة الموقرة بمبررات كثيرة أو انعقـاد لمـؤتمر يحـدث الانقسام الذي كنت أخشاه دائما، تفكير ملتو أداري به التردد وخوفي من الفشل، فشلت محاولتان فما المانع من أن تـنجح الثالثة إذا أُعد لها جيدا واستفادت من فشـل الأخـريين، أي وحدة أحرص عليها؟... أين هي وحدتنا الآن؟... كل شـيء يوشك على الضياع، إن لـم نعمـل الآن لخـروج المعلـم والأصدقاء ضاع كل شيء.

واتخذت قراري، قررت أن أشرع من فوري في العمل المستقل لإخراج المعلم، وأن أستمر في لجنة القيادة كغطـاء لعملي، ولمعرفة ما يدور فيها أولا بأول ومحاولة الحد مـن أضرارها.

وانزاح عن كاهلي عبء ثقيل، وبخطو سريع اتجهـت إلى فناء العام وأنا أستعرض في عقلي بعض وجوه الأصدقاء الذين يمكن أن أبدأ معهم الحديث في العمل المستقل.

مر بي ثمانية من الملتحـين يسـيرون فـي صـفين مستقيمين بمشية عسكرية وقد بدت على وجوههم الجهامة.

وفي فناء الاقتصادي رأيت وائل أمام مبنـى المعلـم يسير وقد رفع كتفيه وعقد ذراعيه على صدره، خطر لي أن أتكلم معه فيما حدث لابن رشد، رأيت جاليليو قرب السـور وقد ارتكز على ساقه وأخذ ينظر إلى نافذة المعلم من خـلال بوصته المكسورة، اقتربت منه، وسألته باسما:

- ماذا ترى أيها العالم الجليل؟

قال بجفاء دون أن ينظر إلي:

- لا أرى شيئًا.

- ألا ترى نجوما أو مجرات جديدة؟

وزادت حدته:

- لا أرى غير سحب متكاثفة تحجب وجه الشمس.

قلت:

- من يدري لعل السحب تنقشع بعد قليل.

ورفع رأسه، وأطال إلي النظر:

- كيف ووجه الشمس يكاد يحجب تماما؟

قلت هامسا:

- سنلتقي أنا وأنت بعيدا عن هنا، ونتحادث في الأمر.

وفي مبنى الإدارة جلست إلى جانـب وداد، تشـاغلت عني بالنظر في بعض الأوراق، همست لها:

- لقد اتخذت قراري، وسأبدأ العمل المستقل منذ الآن.

وزرت أجفانها، وتفرسـتني بنظـرة طويلـة، قلـت بإصرار:

- سأبدأ العمل منذ اليوم.

والتمعت عيناها:

- لا تتردد لحظة واحدة، كثير من الأصدقاء سيكونون معك.

قلت:

- يمكن أن نخرج المعلم خلال أسابيع قليلة.

وحين هممت بالانصراف قالت:

المدير طلب بعض ملفات العاملين بـالإدارة، ويقـوم بفحصها مع واحد من خارج السراية، وصدر قرار بالسماح لمن يرغب من النزلاء بالخروج دون اشتراط موافقة أحد من أقاربه، وذلك بعد موافقة لجنة مكونة من الأطباء المصيلحي وسمير وباهر.

تساءلت عما ترمي إليـه الإدارة مـن وراء قرارهـا الجديد، والدور الذي يمكن أن يقوم به الدكتور سمير في هذه اللجنة.

وعلى درج مبنى الإدارة لقيت الدكتور مجدي فسألته:

- ما أخبار سمرائك؟

وابتسم:

- أراها كثيرا، المهم هو خروجها.

قلت له:

ستخرج عندما يخرج (ش)، وأظن أن ذلـك سـيكون قريبا.

مجدي عبد السلام

دعا المدير إلى اجتماع لأطباء السراية. وكان هذا حدثًا غريبا لأنه منذ عملت بالسراية لم تعقد أية اجتماعات، ولـم يؤخذ رأي الأطباء في شيء. وقد أخبرني الدكتور فاضل بأن هذا ما جرى عليه الحال منذ أن عين ذلك المدير بالسراية.

علمت أن الاجتماع كان بناء على اقتراح من الدكتور جميل المصيلحي فقلت لعل الإدارة تبدأ عهدا جديدا خاصـة بعد الأحداث الأخيرة ثم رجحت أن تكون الاستجابة لطلـب الدكتور المصيلحي نتيجة تدخل من خارج السـراية أو ذرا للرماد في العيون.

وحضر الاجتماع المدير وكبير الأطباء وكـل أطبـاء السراية إلا الدكتور جلال، وطلب المدير أن يكون الاجتماع مسجلا.

تنحنح المدير وابتسم وجهه الصقيل بسمة القواد وتاجر البضاعة المغشوشة، وانتقى كلمات كبيرة تتخللها مصطلحات وتعبيرات إنجليزية وفرنسية لا لزوم لهـا عـن ضـرورة النهوض بالمصحة، تذكرت حماسه وكلماته الملتهبة أيام كان طالبا بكلية الطب، وخيبته وارتباكه الخائف وهو يقود عملية

ضرب النزلاء لإدخالهم العنابر، تساءلت عن ماهية الصفقة الجديدة التي يأمل فيها.

وأسبل كبير الأطباء جفني عينيه الجاحظتين في وجهه الكبير الشاحب، وقال كلاما رثًا ومجففًا لم أتبين أكثره، وكان الدكتور فاضل يغالب بسمة ساخرة وهو يحدق في سطح المائدة.

طلب المدير بطريقة احتفالية من الدكتور فاضل أن يعرض اقتراحاته للنهوض بالمصحة باعتباره أقدم الأطباء فانتبه الدكتور فاضل واعتدل في جلسته، وشف وجهه عن ابتسامة، وقال:

- لقد تقدمت باقتراحات كثيرة من قبل ولم يؤخذ بها.

فقال المدير بأبهة نفاق:

- لا بأس من عرضها أمام الزملاء ومناقشتها، وما يقررونه سيتم تنفيذه.

وأضاف وهو يفتح ذراعيه:

- نحن في مرحلة جديدة.

وتكلم الدكتور فاضل بنبرة هادئة وهو ينقل بصره بيننا:

- أعتقد أن اقتراحاتنا ينبغي أن تكـون فـي نطـاق الممكن، ولا داع لاقتراحات لا تملك الإدارة سلطة تنفيذها أو تحتاج لنفقات غير متاحة الآن.

وقاطعه المدير:

- الإدارة خولت من قبل الوزارة بعمل كل ما تـراه، وهناك اعتمادات خاصة، وعروض منح للنهوض بالمصحة.

وابتسم الدكتور فاضل:

- هذا شيء طيب.. أقترح تقسيم المرضـى تقسـيما نوعيا فلا معنى لوجود المرضى النفسـيين مـع المرضـى العقليين في عنبر أو بناء واحد، وأرى أن نأخذ بسياسة الباب المفتوح التي تتيح للمرضى الذين تسمح حـالاتهم بـالخروج إلى ذويهم وحدائق المدينة والعودة إلى المستشفى في المساء.

وضحك المدير بشيء من السخرية:

- مثل سياسة اليوم الكامل المفتوح التي اقترحتها منذ سنوات وجرت علينا المصائب؟!

ورماه الدكتور فاضل بنظرة حادة:

- سياسة اليوم المفتوح تأخذ بها كثير من المصـحات في بلدان العالم المختلفة، هي تساعد على شفاء كثيرين مـن المرضى.

- وماذا أيضا يا دكتور؟

واندفع الدكتور فاضل:

- يجب غلق عنبر عزل المجاني، ونقل نزلائـه إلـى عنابر العام، والاهتمام بأحوال نزلاء تلك العنابر.

وقفزت البسمة إلى الوجه المصقول:

- أذكر أنك اقترحت منذ شهور دمج نـزلاء عنـابر المجاني والعام والاقتصادي أليست هذه الاقتراحات متطرفـة وتتنافى مع قواعد العلاج النفسي؟

فتساءل الدكتور بشيء من الحدة:

- وما علاقة ذلك بالعلاج النفسي والعقلـي؟.. ألـيس المفروض أن المرضى يعالجون وتقدم لهم الرعاية المطلوبة وفقًا لحالاتهم المرضية لا وفقًا لما يمتلكونه من مال؟

وتململ المدير في كرسـيه، وحـرك الأوراق أمامـه بعصبية ظاهر:

- سندرس كل الاقتراحات ونرى إمكانية تنفيذها.

وكبرت بسمة التاجر، وسوى ربطة عنقه، وقال مقدما الدكتور المصيلحي إنه زميل ممتاز وكفء حصل على الدكتوراه من أكبر جامعات السويد، وله دراساته العلمية المتميزة، وقد طلبته الإدارة من الوزارة بالاسم عندما طلب نقله إلى القاهرة.

قلت، صدق ظني فأنت لها يا سعادة المدير.

وبدا الحرج على الدكتور المصيلحي، وزاد احتقان الدم في وجهه الأبيض، وقال متمهلا:

- كلنا زملاء نعمل للنهوض بالطب النفسي والعقلي في بلادنا، وأنا أؤيد اقتراح الدكتور فاضل بشأن السماح للمرضى بالخروج من المصحة وزيارة أهليهم، وذلك بعد تصنيف المرضى تبعا لأنواع الأمراض وشدتها، وأرى أن نُخصص اجتماعا لمناقشة هذا الاقتراح.

وشدت عيون الأطباء إلى الدكتور المصيلحي حتى الدكتور مهران الذي بدأ يغفو في كرسيه. وركز الدكتور فاضل عينيه الرماديتين على وجه الدكتور المصيلحي.

وعرض الدكتور المصيلحي خطة للنهوض بما يسميها المصحة، كان يشرح تفاصيلها من أوراق أمامه.

تكلم عن ضرورة رفع مستوى معيشة النزلاء، وتجهيز العنابر للإقامة المريحة لهم، وتوفير زي ملائم وموحد لنزلاء كل العنابر، وزي خاص للمقيمين بأبنية الاقتصادي، وتزويد المستشفى بالمعدات الحديثة من رسام كهربائي للمخ، وأجهزة أشعة، ومعمل تحاليل، وغرفة عمليات، فضلا عن تزويـدها بمسرح ومدرسة وورش للتدريب المهني، والسـعي للأخـذ بالمناهج العلمية الحديثة في العلاج النفسي والعقلي.

قلت لابد أنه يحلم أو يعيش في كوكب آخر، وبعـد أن أنهى حديثه دارت عيناه على وجوهنا وشكرنا بأدب جم على حسن استماعنا.

وأشاد سعادة المدير بكلمات فخمة وبابتسامته إياها بكل الاقتراحات، وتساءل عن المصادر الممكنة لتـوفير المـال اللازم لتنفيذها. فقال الدكتور المصيلحي:

- أرى إنشاء قسم للعلاج الممتاز بأجر مرتفع يسـتفاد من عائده في توفير الإمكانيات اللازمة، ويمكن التوسع فـي العلاج الاقتصادي ورفع سعره قليلا، وعند الضرورة يمكـن البحث عن منحة من إحدى المنظمـات الدوليـة أو الـبلاد المتقدمة.

وسارعت بالقول:

- ولكن إنشاء قسم للعلاج الممتـاز سـيترتب عليـه حرمان الأقسام الأخرى من الخدمات واهتمام العاملين، وهذا ما أكدته التجربة في بعض المستشفيات الأخـرى، والمـنح الأجنبية يثار حولها كلام كثير هذه الأيام و....

وقاطعني المدير:

- انتظر يا دكتور حتى يكمـل الـدكتور مصـيلحي حديثه، وسيأتي دورك.

وابتسم الدكتور المصيلحي في حرج:

- لقد انتهيت من كلامي، ولابد من الاستفادة من خبرة الزملاء القدامى بالمصحة.

ونظر المدير إلى الدكتور باهر:

- ما رأيك أنت يا دكتور باهر؟

واعتدل الدكتور باهر في جلسته، وعدل وضع نظارته السداسية، وشب بصدره وهو يسوي رباط عنقه، وقال:

- كلام الزميل جيد، ولكن لابد أن نأخذ بمنهج التحليل النفسي، ونعتمد عليه في العلاج.

وابتسم المدير في ملل:

- تفضل يا دكتور مجدي.

وأضاف ببسمة خبيثة:

- كيف حال قسم النساء؟

قلت وأنا أكتم غيظي:

- لقد تركته منذ شهور، لم أعد أشرف عليه.

ونظرت إلى الزملاء، وقلت:

- ثمة أشياء أولية وبسيطة ينبغي توفيرها إذا كنا نحترم أنفسنا كأطباء، المعروف أن أرخص الأدوية غير متوفرة بالمستشفى، والممرضون يفتقرون إلى الحد الأدنى من الخبرة والحس الإنساني اللازمين لمعاملة المرضى و...

وقاطعني المدير وهو ينظر في ساعته:

- اقتراحات جيدة يا دكتور، ويمكن مناقشتها في اجتماع قادم.

ونهض واقفًا وعلى وجهه بسمته المداهنة:

- لقد كان اجتماعا ممتازا، وسنعقد أكثر من اجتماع لمناقشة كل الاقتراحات.

وهمس لي الدكتور فاضل الذي كان جالسا عن يساري:

- تمخط الجبل ولم يلد حتى فأرا.

وفي طريقنا إلى الخارج سألت الدكتور فاضل:

- ما رأيك في الطبيب الجديد؟

فقال شاردا:

- لا أعرف.. ستكشف الأيام حقيقته.

وافترقنا عند العيادة الخارجية، وبي رغبة في مغادرة السراية.

نادر شوقي

في اليوم التالي لاتخاذي قرار العمل المستقل عن لجنة القيادة لإخراج المعلم، وفور وصولي إلى السراية اتجهت إلى العنبر الصغير لمقابلة نور، وجدته جالسا على حجـر أمـام باب العنبر وعيناه تحدقان في زهور عباد الشمس التي كـان قد زرعها واعتني بها ثم أهملها في الأيام الأخيرة.

ألقيت عليه تحية الصباح فلم يرد، ولم يلتفـت إلـي، جلست إلى جانبه مقرفصا، بدا وكأنه لا يحـس بوجـودي، قلت:

- نور.

ولم ينظر إلي.

- قررت أن أعمل بعيدا عن لجنة القيـادة لإخـراج المعلم.

ونظر إلي وقد بدا بياض عينيه المتسع محتقنًا، أطـال النظر في عيني والشرود الأسيان يكسو وجهه.

قلت:

- إذا عملنا أنت وأنا وبعض الأصدقاء يمكن أن نخرج (ش) بعد أيام قليلة.

وخفض رأسه.

وخرج الوقاد من العنبر، نظر إلى نور، وقال:

- لم ينم، ولم يستقر بموضع طوال اليومين الماضيين.

رأيت أن أرجئ الحديث مع نور إلــى وقــت آخــر، وسرت مع الوقاد خلف صف عنابر العام، قلت مخافتًا مــن صوتي:

- سأعمل مستقلا عن لجنة القيادة لإخراج المعلم.

ورفع إلي عينيه مستفهما، قلت:

- لا فائدة من تلك اللجنة، إذا ظل الأمر بيــدها لــن يخرج المعلم من هنا أبدا.

والتمعت عيناه، وشع وجهه بابتسامة كبيرة:

- أخيرا يا نادر!!.. لقد بدأت أنا بالفعل في العمل من أجل نفس الهدف، اتفقت مع بعض الأصــدقاء فــي العنــابر المختلفة، وكنت أنوي الحديث معك قبل تنفيذ خطتنا.

فرحتُ لأن الوقاد فكر فيما فكرت أنا فيه، همست:

- علينا أن نكون في غاية الحذر حتى لا يتكرر فشــل إيبوور وقرمط والبسطويسي.

- المشكلة في أصدقاء الخارج، لابد أن ينضم إلينا بعضهم حتى نجد مكانًا آمنًا للمعلم.

قلت:

- يوجد بالفعل عدد من الأصدقاء الذين يمكن أن يتعاونوا معنا، لابد أن نضم إلينا بعضا من زملاء وائل ونمرود.

قال:

- معنا سعيد الساعي، ويمكن عن طريقه أن نكسب إلى جانبنا بعض الأصدقاء من المجموعتين.

وتساءلت دهشًا:

- سعيد الساعي؟!

كان سعيد الساعي قد ترك بعد محاولة الأصدقاء الثلاثة مجموعة وائل واعتزل الجميع، وأهمل هندامه، وأطلق لحيته. كان يتجنبني ويبتعد كلما رآني، ولم أحاول من جانبي محادثته في شيء.

وابتسم الوقاد:

- أخرجته من حالته، وتحمس للعمل معي، لنلتق نحن الثلاثة غدا في العنبر المهجور وقت توزيع الغذاء.

تركته وأنا سعيد بالبداية المشجعة.

وفي فناء العام لحق بي حسام، سار إلى جانبي، وقـال بصوت هامس:

- سأهرب من السراية يا نادر.

- ولم؟!

قال بسخرية:

- وهل الأمر يحتاج إلى سؤال؟.. أنتم لن تفعلوا شيئًا لخروج (ش)، أنتم تشاركون في حبسه وحبسنا معه.

لماذا لم يخطر لي أن أشرك حسام في محاولتي؟.. إنه برغم سخرياته وبعض آرائه المتطرفة صديق جيد أثق بـه وبإخلاصه لفكر المعلم، قلت مخافتًا من صوتي:

- سنعمل أنا وبعض الأصدقاء لإخـراج المعلـم دون علم القيادة في أقرب وقت ممكن.

والتمعت عيناه الخضروان وحملق إلي عاقدا ما بـين حاجبيه:

- معقول؟!

قلت:

- لقد بدأنا بالفعل في تجميع بعض الأصدقاء.

وابتسم:

- لقد كدت أسوي بينك وبين أعضاء اللجنة الآخرين.

وأضاف في حماس:

- أنا معكم بشرط أن نعمل بطريقة مختلفة عن عمـل تلك اللجنة. أن نمارس عملنا بطريقة جماعية دون تسلط من أحد.

قلت:

- يمكن أن نبدأ بلجنة مؤقتة ثم ننتخب قيادة لنـا فـي أقرب فرصة.

وشوح بذراعه:

- لا أحب تعبير أقرب فرصة هذا الذي بررت به كل القرارات الخائبة الأخيرة، ليكن عملنا بطريقة تتفق مع فكـر (ش) منذ البداية.

قلت:

- أنا أتفق معك، المهم الآن أن نقوم بتجميع أكبر عدد من الأصدقاء الجيدين، وأن يكون ذلك بأكبر قدر من ا لحذر.

وشع وجهه بابتسامة كبيرة:

- سأتحرك في أبنيـة الاقتصـادي، هنـاك بعـض الأصدقاء الذين يمكن أن يعملوا معنا.

- لنلتق غدا قبل انصرافي من السراية.

وفيما كنت متجها إلى قسم الاقتصادي وجـدت حامـد العطار والأسيوطي مشتبكين في مناقشة حادة مع ثلاثة مـن الأصدقاء. واستوقفني أحد الأصدقاء:

- لنأخذ رأي الأخصائي.

ولوى حامد العطار فمه الواسع بين فكيه الكبيرين كما يفعل عند الحديث:

- هل تعتقد أن كل أفكار (ش) صحيحة؟

قلت ساخرا:

- وهل يسأل مثل هذا السؤال من يحفظ معظم كتابات (ش) عن ظهر قلب؟!

قال

- أنا من أكثر الناس وعيا بأفكار (ش)، ولكن لابد أن ننظر إليها نظرة نقدية كما علمنا هو نفسـه، أنـا أعتقـد أن بعض أفكاره الأساسية خاطئة بدليل أننا فشلنا في العيش وفقًا لها في مكاننا الضيق هذا، ولذلك يجب علينا أن نعيد النظـر

في كل أفكار ومبادئ (ش) لنعرف ما هو خاطئ منها ومـا هو صحيح.

قلت:

- أعد أنت النظر، وأرجو ألا تجد كتابات مفكر آخـر تحفظها عن ظهر قلب.

وحرك الأسيوطي يده الصغيرة، وقال وهو يحاول أن يحتفظ بهدوئه البوذي:

- أنا أرى أن الخطأ في التطبيق لا فكر المعلم نفسه.

وشوح أحد الأصدقاء بذراعه، وكان من المتظـاهرين بالاكتئاب وقليل الكلام:

- نحن لم نطبق تعاليم (ش). خرجت عليها القيادة التي تستبد بنا، والتي علينا أن نطيح بهـا بـدلا مـن الثرثـرات الفراغة.

وهممت بالانصراف فأمسك العطار بذراعي:

- انتظر.. لا تهرب من المناقشة.

قلت وأنا أبتعد عنهم:

- تناقشوا كما تشاءون، وأبلغوني بما تصلون إليه.

ونويت أن ألتقي بالصديق المتظاهر بالاكتئاب لأعرض عليه الانضمام إلى مجموعتنا. وما كدت أخطو عدة خطوات حتى اقترب مني نزيل ناحل، قصير، ضامر الوجـه، وقـال متلعثما وهو يشير إلى حسان الذي استند إلى الجـدار علـى مقربة منا:

- هذا النزيل يأخذ مني كل ما يحضـره أهلـي فـي الزيارة.

كان حسان يدفع برأسه إلى الوراء وقد أغمض عينيـه نصف إغماضة، ويبتسم في بلادة، وأضاف النزيل والخوف في عينيه:

- إنه يفعل مع نزلاء كثيرين ما يفعله معي.

ووقفت في مواجهة حسان:

- ما قولك فيما يتهمك به هذا النزيل؟

تساءل بطريقة رخوة صفيقة:

- وهل تصدق المجانين أيها الأخصائي؟

قلت غاضبا:

- إذا تعرضت لأحد من النزلاء سأتصدى أنا لك.

وقهقه قهقهة مكتومة فقلت مغيظ:

- لقد حذرتك، وسترى.

وفي نهاية يوم العمل استبقيت يد عم فارس في يـدي، وهمست:

- لقد بدأت العمل بالفعل.

وارتسمت على شفتيه بسمة صغيرة مبهمة حرت فـي فهم دلالتها.

مجدي عبد السلام

لم يجمعني بالدكتور جميل المصيلحي لقاء في سكن الأطباء بعد ليلة وصوله إلى السراية، كان يبدو مشغولا طوال النهار. يغادر السراية عند الغروب ليأتي في ساعة متأخرة من الليل، وكان أحيانًا يمر عند عودته على الأفنية ونزلاء عنبره.

في بعض الليالي كنت أحس بحركة في حجرته فأفكر في الذهاب إليه للجلوس معه بعض الوقت، ولكن سرعان ما أسمع صوت موسيقاه الكلاسيكية فأتحرج من التسبب في إزعاجه.

في الأيام الأولى كان يجلس ساعات طويلة إلى مكتب صغير أمام إحدى بنايات الاقتصادي لا تبعد كثيرا عن مبنى (ش) يستمع إلى النزلاء مركزا على التحليل النفسي أكثر من غيره من مناهج العلاج، وكان يسعى إلى التعرف على أكبر من عدد من النزلاء، ويحضر لبعض المرضى من حسابه الخاص الأدوية التي لا تتوفر في السراية.

بعد أسبوع واحد من إشرافه على نزلاء الاقتصادي نقل إلى عنبر (١) بدلا من الدكتور باهر، ولم تفتر همته، بل

امتد اهتمامه إلى نزلاء العنابر الأخرى الذين يتواجدون فـي فناء العام.

استرعى انتباهي أنه يركز في عمله على النزلاء الجدد ومرضى الاكتئاب منهم بصفة خاصة، وعلل لي ذلـك بـأن حالاتهم لا تتطلب علاجا طويلا حتى يخرجوا من المصحة.

أعجبت به، وسعدت بوجوده في السراية بالرغم مـن أنني كنت أعتقد أن نشاطه لن يجدي كثيرا، وتضاربت بشأنه المواقف ووجهات النظر.

أحبه بعض المرضى في أبنية الاقتصادي ولا سيما من كان منهم من أصل موسر أو على قدر من التعليم، وعاملـه العاملون بالإدارة والممرضون باحترام كبير وخاصة كبيـر الممرضين (ع) كما عامله معظم الأطباء بـاحترام ظـاهر. ولاحظت أن الدكتور فاضل متحفظ في معاملته لـه، كـان يكتفي بالتحية العابرة، ولم يحاول أحدهما أن يسقط الحـاجز غير المنظور الذي قام بينهما منـذ اليـوم الأول لوصـول الدكتور المصيلحي.

قال لي الدكتور فاضل في إحدى ليالي نوباتجيته بعـد مضي نحو أسبوعين على وصول الدكتور المصيلحي.

- لسبب لا أعرفه لا أستريح إليه بالرغم مـن أنـه لا يوجد لدي ما آخذه عليه. ولما جاءت سـيرته مـع نـادر، وعبرت له عن إعجابي به لتفانيه في عمله وتواضـعه مـع الجميع قال وهو شارد:

- هناك سؤال يستوقفني، ما الذي يستبقي طبيبا مثلـه بالسراية وهو يستطيع أن يعمل في أحسن المستشفيات؟.. هل تصل به دوافعه الإنسانية إلى حد تحمل الوجـود فـي هـذا المكان؟

قلت:

- ما المانع؟.. الدكتور فاضل من أكفأ وأفضل الأطباء وهو يعمل بالسراية منذ سنوات ولا يسعى لنقله.

قال:

- الدكتور فاضل من نوع آخر.

وأضاف متفكرا:

- أخشى أن يكون المصيلحي محجوبا آخر عصريا.

ورأيت في كلام نادر شكوكًا في غير موضـعها فلـم ألتفت إليها.

وذات صباح رأيت الدكتور المصيلحي خارجا علـى عجل من مبنى الإدارة.

قال لي باسما:

يبدو أن الكثير من اقتراحاتنا في طريقها للتنفيذ.

ولم يمض يومان حتى ورد إلى السراية جهاز رسم مخ كهربائي من أحدث طراز، وفتحـت لـه وجهـزت إحـدى الحجرات في الأبنية المغلقة بفناء العام، وعين له فنـي مـن خارج السراية، وفي اليوم التالي وصلت معدات معمل تحاليل أُعدت له غرفة أخرى، وألحق للعمل به فني جديد.

ومنذ وصول جهاز رسم المخ والمعمل لم أر الـدكتور المصيلحي إلا متنقلا بينهما، وأمام حجرتيهما صـفان مـن نزلاء عنبره والعنابر الأخرى.

لم أتحمس كثيرا لورود الجهاز والمعمل لعدم وجـود أدوية العلاج الحديثة واللازمة بالسراية.

قال الدكتور جلال مشوحا بذراعه ورائحة الخمر تفوح من فمه:

- أرجو ألا تباع المعدات خردة بعد أسابيع لمتعهد من قبل الإدارة.

وتساءل الدكتور فاضل ببسمة متحفظة:

- ما جدوى المعرفة الدقيقة بالمرض ودرجة شدته في مستشفى لا يتوفر فيه إلا المهدئات والمنومات إن وجدت؟!

وفي جلسة مع نادر في عنبري قال بصوت خفيض:

- لا داع لاستخدام الجهاز والتعامل مع المعمل بالنسبة لمرضاك.

وتنبهت إلى هدفه فتساءلت:

- هل تخشى أن يكشف الجهاز أو التحاليل أحدا من أصدقائك؟

قال:

- أجل.

ولم أكن قد أخذت أحدا من نزلاء عنبري إلى حجرة الجهاز أو المعمل.

كنت منشغلا بمتابعة أحوال العنبر الذي أشرف عليه بفضول زائد لعل ما يجري فيه يساعدني كطبيب في معرفة النفس الإنسانية، ويساعد على تحسين حالات المرضى.

لم تمض أيام على ازدهار أحوال العنبر حتى تهامس النزلاء بكلام نقله إلي النزيل ناصح عن سلوك لجنة التجارة

التي شكلها وسيم والقائمين بالبيع، قيل إن عبده صديق وسيم الأسود الهضيم الوجه الذي يبدو كأفيونجي قديم يقـوم هـو وبعض أعضاء اللجنة ببيع أشياء لحسابهم في العنبر والعنابر الأخرى، وإنهم يستولون على جزء كبير من أرباح تجـارة اللجنة يوزعون بعضه على المتعاونين معهم والمقربين مـن وسيم، وقيل إن أحد النزلاء أخبر وسيم بذلك فصـفعه علـى وجهه أمام النزلاء وأمر بحرمانه من الأرباح.

قال ناصح آسفًا:

- حاميها حراميها.

وقال لي، إنه ظن في البداية أن وسيم لا يعـرف مـا يرتكب من سرقات ثم تأكد له أنه يعلم كل شـيء ويغمـض عينيه.

وكون عترة شلة من البلطجية من عدد من النزلاء لـم أكن قد اكتشفت فيهم أعراضا سيكوباتية، وراحت هذه الشـلة تتحرك في العنبر، تضرب نـزيلا تحـت سـتار الضـحك والصخب، وتبتز آخر بتهديده بالوشـاية بـه عنـد وسـيم، وعرفت أنه تم ضرب وإهانة بعض النزلاء أمام عيني وسيم وهو يسير مزهوا وباسما بين الأسرة. ونال ناصح والملواني

نصيبهما من القهر برغم احتفاظهما بسريريهما اللذين كلحت ملاءاتهما، وخرجت أحشاء حشيتيهما.

بدأت أحوال العنبر تسوء بشكل ظاهر وسريع، أخذت عيون كثيرة تنظر إلى وسيم وعبده وشلتهما بتوجس وخوف، وبدا الشحوب والهزال على كثير من النزلاء، ولاذ البعض بالأركان محاولين الابتعاد عن كل ما يدور في العنبر، وأطلق عدد من النزلاء لحاهم في دروشة ظاهرة، وفي الليل كان الصمت يطبق على العنبر فلا يفلت منه غير الأنات والتوجع.

أضحكني بمرارة نزيل طويل ناحل من الفصاميين اقترب من وسيم في تهيب، ولامس بإصبعه ذراع وسيم ثم لحس إصبعه.

قال ناصح وهو ينظر إلى وسيم متحسرا:

- يرى أنه خليفة الله في أرضه.

وهز رأسه:

- بس أنا باستجدعه وباحبه، على الأقل طرد سطوحي الكلاب من العنبر، قالوا في الأمثال، يا فرعون إيش فرعنك قال مش لاقي حد يردني.

واسترعى انتباهي أن الملواني الذي كان لا يكف عـن الحركة ومساعدة زملائه أصبح لا يغادر فراشه، وقل كلامه، وبدت عليه علائم الاكتئاب.

قال عمر في غضب وهو واقف بالقرب مني:

- ساءت أحوال العنبر بسبب العصابة ورئيسها.

وحاول مختار أن يهون الأمر:

- إنها أخطاء، يمكن إصلاحها إذا أديرت شئون العنبر بالانتخاب واحترام رأي كل نزيل.

قررت التدخل لمنع تدهور أحوال النزلاء، ناديت وسيم وأنا جالس إلى مكتبي فنظر إلي متسائلا ثم تحـرك مـتمهلا متبخترا ووقف أمامي وهو يرفع رأسه باستعلاء، طلبت منه باسما الجلوس إلى جانبي فتلفت حوله وجلس على مضض:

- ماذا تريد مني؟

قلت له:

- أحوال العنبر تسوء، و...

وهب واقفًا:

- لا شأن لك بأحوال العنبر.

ابتسمت:

- أنا الطبيب هنا، ومسئول عن كل نزيل.

فقال بحدة وهو يفرد قامته:

- أنا المسئول عن نزلاء العنبر جميعا.

وضحكت، أيقنت أن حالة البارانويا تستبد به.

وقال محذرا:

- لا تتدخل في شئوننا وإلا...

وتحيرت، ماذا يمكن أن أفعل؟.. هل أطلب من الإدارة نقله هو وصديقه عبده من العنبر؟.. وهل ستستجيب الإدارة التي لا يهمها أحوال النزلاء لطلبي؟

ولم تمض لحظات حتى جاءني وصديقه في حشد من النزلاء، ورفع ذراعه:

- اسألهم من هو زعيمهم والمسئول عنهم جميعا.

وارتفعت الأصوات واختلطت، وقال وهو يشير بإصبعه نحوي:

- إذا تدخلت في شئوننا لن يكون لك مكان هنا.

وقهقهت ضاحكًا، أدركت أنني أخطأت إذ تركته بدافع الفضول يتحكم في أحوال العنبر.

وفي مساء نفس اليوم جدد سطوحي هجومه بعدد كبير من نزلاء عنبر (١)، ودارت المعركة هـذه المـرة داخـل عنبري، وضرب فيها وسيم وزميله عبده ضربا مبرحا، وكما حدث في الهجوم الأول وقف إلى جانب وسيم الكثيرون مـن النزلاء منهم عمر ومختار وناصح والملواني والرسام، ولولا تدخل نزلاء من عنبر (٥) فـي اللحظـات الأخيـرة لكـان سطوحي احتل العنبر وطرد وسيم وعبده.

وفي الصباح أصيب وسيم بإسهال وقيء لـم يعـرف سببه، وارتفعت حرارته، وتجمع حوله النزلاء يطبق علـيهم الصمت، وحتى الظهر عجزتُ عن وقف الإسـهال والقـيء فأبلغت الإدارة، ولم تمض ساعتان حتـى حضـرت عربـة إسعاف أخذته إلى مستشفى خارجي. والغريـب أن معظـم النزلاء حتى المستبصرين بحالاتهم ودعوه بالحزن والدموع، حتى عمر ومختار بدا عليهما الوجوم والأسى عند خـروج وسيم من العنبر.

وفور خروج وسيم وقف صديقه عبده، ولوح بذراعه، ولوى فمه بطريقته المتكلفة:

- كان رجلا والرجال قليل.

وفرد قامته، وحرك ذراعه محاولا تقليد وسيم:

- كل شيء سيستمر كما هو، أنا صـديقه وسأمضـي على دربه.

ولم أتمالك نفسي من الضحك.

وجالت عينا عبده في العنبر، وتوقفتا عند عمر ومختار الواقفين عند الباب يتهامسان واتجه إليهما، وأشار بإصـبعه نحوهما:

- من الآن لن يعيش بيننا كفار.

فقمت إليه، وأمسكت ذراعه، وقلت بحدة:

- لن يطرد نزيل من العنبر بعد الآن، أنت نزيل كأي واحد من النزلاء الآخرين.

والتوت شفتاه ببسمة فيها رضوخ، وقال بشـيء مـن التفخيم:

- لا.. لن يطـرد أحـد مـن عنبـري، أنـا رجـل ديموقراطي.

واتجه إلى نزيل بدين عريض الكتفين لا يبـدو علـى وجهه أي تعبير كان قد دخل العنبر قبل يومين، وربت على كتفه، وقال بلهجته الفخمة المتكلفة:

- أنت خليفتي على الأرض، أقصد العنبر.

وبعد ترحيل وسيم من السراية بثلاثة أيام وجدت أمام العنبر في الصباح عمر ومختار وناصح والملواني واقفـين يبدو عليهم الوجوم بينما وقف النزيل محمد مساعد بـالقرب منهم وقد عقد ساعديه على صدره وتجهم وجهه، سألتهم عما حدث فأشار ناصح بإصبعه إلى الداخل.

وفي العنبر وجدت سطوحي متربعـا علـى سـريره القديم، وإلى جانبه عبده وأمامهما عدد من النزلاء.

بدا سطوحي مبتسما ومنتشيا في روبه الأصفر الفاقع، وتناهت إلي ضحكة عبده المتكلفة، والذي سرعان ما وقـف خطيبا في النزلاء وهو يلوح بذراعيه.

وقال لي ناصح إنه مساء أمس جاء سـطوحي ومعـه أحد العاملين بمكتب الأمن، ورحب به عبده الذي بدا وكأنـه كان ينتظره أو يتوقع حضوره.

وتناهى إلي تصفيق بعض النزلاء وصياحهم.

وجاء ناصح الذي فقد سريره، وقرفص إلى جـانبي، سألته:

- ماذا تنوي أن تفعل؟

قال بتسليم أسيان:

- اللي يرضى بحكم موسى يرضى بحكم فرعون.

وجاء الملواني، وقف أمامي بوجهه المكتئب وكتفيه العريضين، وقال:

- أريد أن أنقل إلى عنبر آخر.

تساءلت:

- وهل تعرف عنبرا أفضل من هذا العنبر؟

كنت أميل إليه لشهامته مع النزلاء فقلت:

- انتظر.. قد تتغير الأحوال هنا.

وتنبهت إلى وقوف الساعاتي بالقرب مني ينظر إلي من خلف زجاج نظارته السميك فسألته:

- الساعة كام؟

ولم ينظر إلى ساعته:

- لا أعرف.

ابتسمت مشفقًا:

- الثانية عشرة ونصف دقيقة.

ولمحت الشابين الملتحيين اللذين كان وسيم قد طردهما يتهامسان مع بعض النزلاء الذين كانوا قد أطلقوا لحاهم فـي أيام وسيم الأخيرة.

نادر شوقي

في الساعة الواحدة، وعندما بدأ توزيع الغداء تسللت إلى العنبر المهجور، وهناك وجدت الوقاد وسعيد الساعي. شد سعيد على يدي وهو يقول ببسمة يمازجها الخجل:

- سأكفر عن غلطتي الشنيعة.

فقلت باسما:

- كنت أقول إنه لو كان معنا كثيرون في مثل طيبتك لتغير حالنا كثيرا إلى الأفضل، وبعد انضمامك إلى وائل قلت إنه لو كثر أمثالك في صفوفنا لضعنا وضاع كل شيء.

وربت على كتفه وقلت:

- لقد أخطأنا جميعا، وأخطائي تفوق أخطاء الكثيرين، المهم الآن أن نعمل بهمة لخروج المعلم في أسرع وقت.

ونظرت ناحية دورة المياه وتذكرت ابن رشد وقرمط والبسطويسي فازدحم صدري بالغضب، وصممت على العمل لإخراج المعلم في أسرع وقت، وتخليص الأصدقاء من الأوضاع التي يعانون منها.

وانتحينا جانبا من العنبر، وعرض الوقاد أسماء الأصدقاء الذين كان قد ارتبط بهم، وكانوا في أغلبهم من

الأصدقاء الذين دخلوا السراية في العامين الأخيـرين وكـان سلوكهم طيبا، وأخبرتهم بانضمام حسام إلينا، وقلت إنه لابـد أن نضم لمجموعتنا بعض زملاء وائل ونمـرود لأن ذلـك سيكون ضروريا لنجاح أية خطة لإخراج المعلـم، وسـألت الساعي عمن يراه صالحا للانضمام إلينا من زمـلاء وائـل فقال:

- غائب أفضلهم، كثيرا ما ينتقد سلوك وائل وزملائه، ويرفض أن يأخذ من وارد الزيـارات حصـة تزيـد علـى حصص الأصدقاء الآخرين، حجازي ليس في دماغه عقـل، مفتون بعضلاته أكثر مـن أي شـيء آخـر، ويسـعده أن يستعرضها ويقوم باستخدامها حتى مع الأصدقاء، وعماد آلة عمياء في يد وائل، وحسان يستغل وجوده فـي المجموعـة لابتزاز النزلاء والأصدقاء، أما زملاء الوردية الأخرى فـلا أعرف أحدا منهم عن قرب، يمكن أن أتفاهم مع غائب.

قلت:

- لابد أن تكون حذرا جدا معه حتى لا يكشف أمرنـا أمام وائل.

وسأله الوقاد:

- لماذا لا تعود إلى مجموعة وائل حتى..

وسارع سعيد بالرفض:

- لا.. لا.. لن أعمل معهم أبدا.

واستعرضنا أسماء من نعرفهم من زمـلاء نمـرود، ووقع اختيارنا على ثلاثة منهم التزم الوقاد بمحاولة ضـمهم إلينا.

ونقلت لهما وجهة نظر حسام، واتفقنا على أن نتـولى نحن الثلاثة مسئولية تجميع الأصدقاء حتى يصـبح عـددنا معقولا وكافيا لأية محاولة ناجحة فنعقد مؤتمرا لاختيار قيادة لنا وإقرار خطة الخروج.

وتركت الصديقين، وخلف أبنية الاقتصادي رأيت بلال جالسا وحده، وقد وضع إصبعه بين شفتيه متفكرا، قلت:

- كيف حالك أيها الصديق؟

ورفع عينيه بنظرة عتاب، وقال في فتور وهو ينهض واقفًا:

- كما ترى.

قلت بصوت خفيض:

- أنا وبعض الأصدقاء نعمل لخروج المعلم في أسرع وقت، ونريدك معنا.

وأطال إلي النظر، وقال بأسى:

- لقد تأخر الوقت كثيرا يا نادر.

- يمكن أن نخرج المعلم خلال أيام قليلـة إذا عملنـا بهمة وبخطة محكمة.

قال بصوت خافت:

- عندما أرى أفعال الصادقين أكون معهم.

قلت:

- عندما نضع خطة الخروج، سيكون لك دور فيها.

فقال وهو يستدير ليبتعد:

- آمل أن يكون قد بقي في صفوفنا بعض الصادقين.

وتركت بلال وقد ألقى كلامه ظلا من الأسـى علـى نفسي.

دخلت عنبر (٥) وعنبـر (٤) أستكشـف اتجاهـات الأصدقاء لمعرفة المستعدين منهم للعمل معنا، وفوجئت بـأن الكثيرين منهم قد أصبحوا يائسين من إمكانية خـروج (ش)، ومنهم من يفكر جديا في الهرب من السراية بأيـة طريقـة.

وآلمني أن بعض الأصدقاء تعاملوا معي بفتور، ومنهم مـن حاول بشكل ظاهر تجنب الحديث معي. تلمست الأعذار لهم، وحاولت أن أهون الأمر على نفسي بالقول بـأن عملنـا لا يحتاج إلى عدد كبير من الأصدقاء.

وأمام عنبر (٣) خطر لي أن أذهب إلـى ابـن رشـد لأطيب خاطره، وأعرض عليه الانضمام إلينا.

كان جالسا على سريره في نهاية العنبر الخالي إلا من بعض النزلاء الملتحيين، وعندما رآني أقترب منـه خفـض رأسه، ألقيت عليه التحية وأنا أجلس أمامه فرد تحيتـي دون أن ينظر إلي. كان وجهه ما يزال بادي الشحوب والإجهـاد. ابتسمت، وحاولت أن أنتقي كلماتي:

أرجو أن تنسى أيها الصديق ما حدث. كان ذلك متوقعا من نمرود وزملائه.

ورفع إلي عينيه بنظرة حزينة معاتبة:

- وشاركت أنت فـي وجـود القـوة التـي تسـتبد بالأصدقاء؟!

قلت:

- لقد كنت معارضا لتكوين المجموعتين.

وهز رأسه بأسى.

قلت مخافتًا من صوتي:

- سأقوم أنا وبعض الأصدقاء بالعمل بعيدا عن لجنة القيادة لإخراج (ش).

وانعقد ما بين حاجبيه الأشيبين:

- وهل تستطيع أن تكون مختلفا عن الآخرين؟.. لقد شاركتهم العمل سنوات، وكنت معهم وهم يصدرون كل قراراتهم الأخيرة.

وهز رأسه:

- لقد فسد كل شيء، خروج (ش) يحتاج لعمل أصدقاء غير الموجودين هنا الآن.

- سنحاول أن نخرج المعلم قبل أن يضيع كل شيء.

والتمعت في عينيه الدموع:

- ألم يضع كل شيء بعد؟!.. لقد ضاع عمل (ش) وأصدقائه طوال عشرات السنين، ولن يخرج (ش) من هنا حيا.

وهممت بالكلام فأسكتني بهزة من يده:

- أنا لم أعد صالحا للاشتراك في أي عمـل، ولسـت واثقًا من نجاح أية محاولة، ولولا رغبتي في البقاء إلى جانب المعلم لفكرت في الهرب بأية طريقة.

ونكس رأسه، ولاذ بالصمت.

وتركته والحزن يثقل علي، وأنا أتساءل هل سـتنجح محاولتنا لإخراج المعلم والأصدقاء أم أنها سـتلاقي مصـير المحاولتين الأخريين الفاشلتين؟...

(١٢)

في الثامن والعشرين من أغسطس عقد اجتمـاع بنـاء على طلب الدمياطي لمناقشـة موضـوع توزيـع الأغذيـة والملابس والأدوية.

كانت كل الأغذية والملابس والأدوية التي تـرد مـن أهالي الأصدقاء بالسراية ومن أصدقاء الخارج يتم تجميعهـا في الكانتين بعيدا عن أعين الإدارة، وتوزيع الأدوية بمعرفة الدكتور فاضل وفقًا لحاجة الأصـدقاء والنـزلاء، وتوزيـع الأغذية والملابس بمعرفة الدمياطي تحـت إشـراف نـادر، وطلب أن يوزع كل شيء على الأصدقاء والنزلاء الـذين لا يتلقون زيارات.

وقد مر توزيع الأغذية والملابـس بمـرحلتين، فـي المرحلة الأولى، وعندما كان عدد الأصدقاء داخل السـراية قليلا كان يتم توزيع الأغذية عليهم بالتساوي، وكانت الملابس توزع وفقًا للحاجة، وعند التساوي فـي الحاجـات تـوزع بالدور، وكان يقتطع جزء من الأغذية يـتم توزيعـه علـى النزلاء القريبين من الأصدقاء، والذين ليس لهم من يزورهم أو يرسل إليهم ما يحتاجون من نقود أو أغذية، وفـي تلـك

المرحلة وقبل وصول نادر إلى السراية كان التوزيع يتم بمعرفة الدمياطي تحت إشراف الدكتور فاضل.

وفي المرحلة الثانية، كثر ما يرد إلى الأصدقاء، وتشابكت علاقاتهم داخل العنابر وأبنية الاقتصادي، وأصبح لهم عدد كبير من المتعاطفين معهم من النزلاء المستبصرين بحالاتهم فأصبح التوزيع يتم وفقًا لقاعدة جديدة، فالأغذية توزع بالتساوي بين الأصدقاء والنزلاء الذين لا ترد لهم زيارات، وذلك بعد اقتطاع جزء لقسم النساء، وجزء لعنبر عزل المجاني خاصة بعد أن قام (ش) بزيارة ذلك العنبر لأول مرة منذ سنوات، وكان هذا الجزء يتم توصيله إلى عنبر عزل المجاني بصعوبة نظرا لظروف ذلك العنبر، وكانت الملابس توزع بالدور على أساس الحاجة، وتوزع الأدوية وفقًا للحاجة إليها.

كانت الأمور تمضي بلا مشاكل تذكر، ومن خلال جهاز الاتصال الذي تعاقب على مسئوليته عدد من الأصدقاء كان آخرهم نور قبل أن يتم تشكيل جهاز خاص للتوزيع منذ نحو عام.

كانت توجـد بـالطبع بعـض الأخطـاء والسـرقات الصغيرة، وبعض الشكاوى من طريقة الدمياطي في التوزيع، لكن الأصدقاء كانوا يسوون الأمور فيما بينهم. وقد تعالت في الشهور الأخيرة بعض الأصوات تتهم الدمياطي بعدم العدالة في التوزيع، وتمييزه للمقربين إليه ولأعضاء مجموعتي وائل ونمرود، وبل وتهامس البعض بأن جهـاز التوزيـع يقـوم بتهريب بعض الأغذية والملابس إلى النزلاء الذين يقومـون ببيعها سرا. ولكن لم يثبت بدليل قـاطع شـيء مـن هـذه الاتهامات.

وبعد حادثة العثـور علـى الأوراق وتحديـد موعـد الزيارات بيوم واحد في الأسبوع قلـت حصـيلة الأغذيـة والملابس إلى النصف تقريبا فطلب الدمياطي عقـد اجتمـاع لإعادة النظر في طريقة توزيع الأغذية والملابس..

وعقد الاجتماع في بيت الدمياطي، وحضـره فكـري سالم والدكتور سمير والدمياطي والدكتور فاضل ونادر.

كان الدكتور فاضل يبدو منذ بداية الاجتماع شـاردا. وقد حضر الاجتماع تحت إلحاح نادر الـذي خشـي تغييـر طريقة التوزيع.

مسح الدمياطي زجاج نظارته بمنديله، ودفعهـا فـوق أرنبة أنفه، وعرض بصوت خفيض، وإيقاع فاتر ممـل مـا طرأ على وارد الزيارات من الأغذية والملابس من نقـص، وختم كلامه قائلا:

- لابد من قاعدة جديدة لتوزيع الأغذية والملابس لأن ما يأخذه كل واحد وفقًا للقاعدة القديمة ضئيل، ولا يسـاوي شيئًا.

وبادر نادر بالقول:

- لنأخذ رأي الأصدقاء داخل السـراية فـي كيفيـة التوزيع، وما تقرره الأغلبية نلتزم به.

واندفع فكري سالم قائلا بحدة:

- ما الحكاية يا نادر؟.. ألن تكف عن حكاية الأغلبيـة والأقلية هذه؟.. ما هو عملنا نحن إذن؟

وحاول نادر أن يبتسم:

- وما المانع في أخذ رأي الأصدقاء، هذا الموضـوع يتصل بظروف حياتهم داخل السراية ومن الأفضل أن نلتزم برأيهم فيه.

قال فكري سالم وهو يحاول أن يتحكم في أعصابه:

- لو اتبعنا هذه الطريقة في عملنا لـن ننجـز شـيئًا، وسيدمر أماننا داخل السراية، ونتعرض للخطر.

قال الدمياطي:

- أنا مع فكري فيما يقول:

وابتسم الدكتور فاضل بسمة سخرية مرة، ونظر فكري سالم إلى الدكتور سمير وسأله:

- ما رأيك أنت أيها الصديق؟.. أليس مـن حقنـا أن نصدر قرارا بشأن التوزيع؟

فقال الدكتور سمير بصوت خفيض:

- يمكن أن نستمر في التوزيـع بالطريقـة المتبعـة، خاصة وأن النقص يمكن أن يكون مؤقتًا.

وقال الدمياطي:

- إذا لم نغير طريقة التوزيع سيكون نصيب كل فـرد لا أهمية له.

وسأله نادر وهو يحدق إليه:

- وما الطريق التي تقترحها للتوزيع؟

ورفع الدمياطي النظارة فوق أنفه:

- أرى أن يخص الأصدقاء بنسبة كبيرة مما يرد مـن ملابس وأغذية ولتكن ثلاثة أرباع ما يرد، ويوزع الباقي على النزلاء القريبين منا في العنابر وأفنية الاقتصادي، وأن يكون التوزيع بين الأصدقاء وفقًا للمجهود الذي يقوم به كل مـنهم في حماية (ش).

واندفع نادر محتدا:

- وما هو المجهود الخاص الذي يقـوم بـه بعـض الأصدقاء، ويستلزم تمييزهم في الغذاء والملبس؟

أجاب الدمياطي:

- أنت تعرف أن بعض الأصدقاء يرابطون أمام مبنى (ش) أكثر من اثنتي عشرة سـاعة فـي اليـوم، وبعضـهم يجوبون السراية بطولها وعرضها بينما يوجـد آخـرون لا يفارقون عنابرهم وحتى أسرتهم.

قال نادر:

- المجهود الذي يقوم به بعض الأصدقاء وهم أعضاء مجموعة وائل ومجموعة نمرود لا يستدعي تمييزهم بشيء، ومن الأفضل أن يكون التمييز في التوزيع، إذا كان لابد من وجود تمييز وفقًا للظروف الصحية لكل صديق أو نزيل.

ونقل الدكتور فاضل بصره بين الأربعة، وتساءل:

- إذا ميزنا بين الأصدقاء وفقًا للمجهود الذي يبذله كل منهم فمن الذي سيحدد الذين يبـذلون مجهـودا والـذين لا يبذلون؟

فرد الدمياطي:

- يمكن أن تُشكل لجنة من جهاز التوزيع تقوم بذلك.

قال الدكتور فاضل ببسمة صغيرة:

- لجنة من جهاز التوزيع؟.. وهل لدى جهاز التوزيع الخبرة الطبية المطلوبة؟.. ولماذا يقتصر التوزيـع بالنسـبة للنزلاء على القريبين منا؟.. هل نقدم لهم الأغذية والملابـس ثمنًا لعلاقتهم بنا؟.. وماذا بالنسبة لعنبر عزل المجاني وقسـم النساء؟

وأضاف قائلا:

- أرى أن يستمر التوزيع بالطريقة الحالية مع حرمان نزلاء الاقتصادي من أي نصيب سواء كـانوا أصـدقاء أو نزلاء عاديين لأن الغذاء الذي يصرف لهم أفضل كثيرا مـن نزلاء العنابر.

قال نادر:

- أنا أؤيد اقتراح الدكتور فاضل لأنه في الظروف الصعبة ينبغي أن يكون الأصدقاء أول من يتحمل ويضحي، وفي ظروفنا الآن نحن لا تنقصنا المشاكل لنخلقها بين الأصدقاء.

ونظر الدمياطي إلى فكري سالم:

- هذه مثالية لا تناسب الظروف الجديدة، كثير من الأصدقاء يطالبون بتخصيص نسبة لهم من الأغذية والملابس التي ترد من أهاليهم.

وسارع نادر بالقول:

- الأصدقاء الذين يطالبون بذلك يعدون على الأصابع، وإذا انسقنا وراء أنانيتهم انتهينا إلى التخلي عن مبادئنا نفسها.

ونظر فكري سالم إلى الدكتور سمير فنقل نظرة مترددة بينه وبين الدكتور فاضل، وقال:

- يوجد بالفعل أصدقاء يبذلون جهدا كبيرا بالمقارنة بغيرهم. وأرى الأخذ باقتراح الدمياطي لفترة مؤقتة، ويمكن للدكتور فاضل أن يحدد أسماء من يأخذون حصصا متميزة.

نظر إليه نادر بغيظ، ورمقه الدكتور فاضل ببسمة آسفة.

وقال فكري سالم:

لنعرض الاقتراحين للتصويت.

وعرض اقتراح الدمياطي فرفـع الـدمياطي وسـمير يديهما ثم رفع فكري سالم يده.

وحدق نادر والدكتور فاضل إلى فكري سالم بدهشـة، وقال نادر:

- ولكنك كنت ترى الإبقاء على الطريقة القديمة فـي التوزيع.

فقال فكري سالم وهو يدفع برأسه إلى الوراء:

- اقتنعت بوجهة نظر الدمياطي والدكتور سمير.

وتنهد الدكتور فاضل، نقل عينيه بـين فكـري سـالم والدمياطي والدكتور سمير وهو يعض شفتيه السفلى ثم نهض واقفًا:

- أنا مستقيل من اللجنة، لا أستطيع الاستمرار في هذا العبث، وتحمل مسئوليته.

نظروا إليه بدهشة، فوجئ نادر، تساءل، ماذا يفعل هو الآخر؟.. وغادر الدكتور فاضل الغرفة وقد شحب وجهه.

أطال نادر النظر إلى فكري سالم فرد عليه فكري بنظرة ثابتة فنهض واقفًا وقال:

- وأنا أيضا مستقيل.

وهز فكري سالم رأسه وقال بهدوء:

- استقالتك مقبولة.

- سأكتفي بمسئوليتي عن العمل في السراية.

وارتسمت على شفتي فكري ابتسامة صغيرة:

- بقاؤك في ذلك العمل تقرره لجنة القيادة.

وسارع الدمياطي بالقول:

- يمكن أن أتولى أنا مسئولية العمل بالسراية.

وحدق فكري سالم إلى نادر:

- لا.. سيبقى نادر مسئولا عن العمل في السراية، وسيقدم تقاريره إلي، ويتلقى التعليمات مني أنا، وسيقوم الدكتور سمير بتحديد الأصدقاء الذين يأخذون حصصا متميزة.

هم نادر بالكلام، بالتخلي عن مسئولية العمل في السراية، ولكنه تمالك نفسه واندفع خارجا.

نادر شوقي

خرجت من الاجتماع وأنا أتساءل، هل تسرعت باستقالتي من لجنة القيادة؟.. ألم يكن من الأفضل أن أتحمل أوضاعها، وأبقى عضوا فيها أطول وقت ممكن غطاء للعمل لإخراج (ش) وحتى أعرف كل ما يدور فيها، وأحاول قدر استطاعتي منع صدور قرارات يمكن أن تؤدي إلى عرقلة المحاولة الجديدة أو الإضرار بمجموع الأصدقاء؟

كان الجواب الذي استرحت إليه، أنه كان علي أن أترك اللجنة في هذا الوقت بالذات لأن تغير طريقة توزيع الأغذية والملابس انعطاف خطير يخالف أبسط أفكار (ش)، ولا يمكن تحمل مسئوليته في مواجهة الأصدقاء، ولأنه لم يعد هناك أي جدوى من الاستمرار مع فكري سالم الذي تحول من الحذر إلى الاستبداد، والدمياطي البقال ضيق الأفق الذي يتلاعب في وارد الزيارات، وقد تأكد ذلك من أقوال أصدقاء أثق بهم، والدكتور سمير الباهت الذي لا يعرف على حد تعبير الدكتور فاضل أن يقول لا، والذي انحاز سريعا إلى فكري والدمياطي.

توقعت أن تحدث مشاكل كثيرة بسبب القرار الجديد، وقررت أن أحاول منع وقوع المشاكل وسوء الأوضاع حتى ننتهي أنا ومجموعة الأصدقاء الجديدة من مهمتنا ثم نقوم في الخارج بتنظيم عملنا بطريقة تتلافى كل أخطاء وانحرافات العمل بالسراية.

كانت الساعة التاسعة مساء حينما غادرت الاجتماع فذهبت إلى بيت عم فارس.

استقبلتني وداد وفي عينيها تساؤل عما دار في الاجتماع، وسلم علي عم فارس وهو شارد، وفور جلوسي قلت:

- لقد استقلت من لجنة القيادة، وكذلك فعل الدكتور فاضل.

ورفع عم فارس عينيه إلي، ولم يعلق، وبدا الانزعاج على وجه وداد:

- ولماذا هذا التسرع؟.. كان وجودك فيها مفيدا حتى ننتهي من مهمتنا.

قلت:

- لم أستطع الاستمرار، سأبقى مسئولا عن العمل في السراية.

فقال عم فارس بصوت خفيض ودون أن يرفع رأسه:

- لن يبقيك فكري في ذلك العمل، سيتخلص منك فـي أقرب فرصة.

قلت متحمسا:

- أتوقع هذا، ولكن (ش) والأصدقاء سيخرجون قبـل أن يفعلها، علينا أن نلتقي بأصدقائك وأصدقاء أبي لندبر مكانًا للمعلم.

قال شاردا:

- عندما تدبرون أموركم في السراية يمكن أن نفعـل هذا.

وأخبرتهما بـالقرار الجديـد الخـاص بتوزيـع وارد الزيارات فاحتدم عم فارس بالغضب، وارتعش كفه:

- ولاد الكلب.. وصل الأمر إلى هذا الحد؟!

وقالت وداد:

- هذا القرار سيخلق كثيرا من المشاكل، لـن يقبلـه معظم الأصدقاء.

وفي الصباح رأيت وائل في فناء الاقتصادي، ابتسم لي فتجاهلته، ورأيت الوقاد فاقتربت منه، وهمست:

- صدر قرار خطير بالأمس.

قال:

- علمت به، أشاع خبره نمرود وزملاؤه، وقد أعلن بلال وابن رشد وأبو ذر وعم إبراهيم وعم رزق أنهم لن يأخذوا أي شيء من وارد الزيارات.

قلت:

- لقد استقلت من لجنة القيادة.

- وعلمت بهذا أيضا، لا بأس، خاصة بعد صدور القرار الأخير.

وعند الظهر كنت في الكانتين، وكان قد تم تجميع وارد الزيارات من الأغذية والملابس، وكان من عادتنا توزيع الأغذية الواردة قبل توزيع وجبة غداء السراية، وقدم إلي الدمياطي ورقة وهو يقول:

- كشف توزيع الحصص المتميزة. أعده الدكتور سمير.

ونظرت في الكشف فرأيـت أسـماء وائـل وأفـراد مجموعته كلها، القائمين بحراسة (ش) والموجودين بالأفنيـة والعنابر، وأسماء نمرود وزملائه، والعاملين بجهاز التوزيع، والأصدقاء العاملين بالمطبخ والمغسل باستثناء عم إبـراهيم وصديقين آخرين كانا يقومان بالطباعـة معـه، ومعـروفين بعدائهم لوائل ونمرود.

أعدت إليه الورقة، وقلت ساخرا:

- الكشف ينقصه اسمك، واسم الدكتور سمير.

ونظر إلي من تحت نظارته، وقال:

- واسم فكري سالم أيضا.

وأخذ يعد الأنصبة، أنصبة كبيـرة لأسـماء الكشـف، وأنصبة أخرى تافهة لا جدوى منها.

وجاءت الممرضة التي تقوم بتوصيل الأغذيـة إلـى عنبر عزل المجـاني، وقفـت وانتظـرت فتشـاغل عنهـا الدمياطي، وعندما نادته مرات قال لها:

- لا يوجد شيء للعنبر اليوم.

فقلت له بحده:

- أعطها الحصة المعتادة للعنبر.

واحمرت صلعته، وبدا عليه الارتباك، وقال بتلعثم:

- أنت تعرف النظام الجديد.

قلت له:

- نظامكم الجديد لم يذهب إلى حد حرمان عنبر عزل المجاني من حصته.

وزاد ارتباكه فقلت:

- ما زلت أنا مشرقًا عليك في توزيع وارد الزيارات.

ودار حول نفسه، واتجه إلى الداخل فقمت من مكاني، وأخذت مجموعة من الأنصبة المتميزة وأعطيتها للممرضـة الصديقة، وعدت إلى مكاني حانقًا، والدمياطي يتشاغل بتقسيم بقية الأنصبة.

وجاء بعض الأصدقاء، وطلب منهم الدمياطي كعادتـه الوقوف في طابور فرفضوا إلا اثنين منهم. وأعطى أشـياء تافهة لثلاثة كانوا يبدون دهشتهم وهم يقلبونها فـي أيـديهم، ويتساءلون عن سبب ضآلة الأنصبة، وكان الدمياطي يقـول لكل واحد:

- وارد الزيارات اليوم قليل.

كان كل منهم ينظر إلى الأرفف المكدسة، ولا يتحرك من مكانه، وجاء حجازي، لم يقف في الطابور، استند إلـي حاجز الكانتين وانتظر. ونقل الدمياطي نظرة حـائرة بينـه وبين الآخرين ثم اندفع إلى الـداخل وأحضـر كومـة مـن الأنصبة المتميزة ووضعها أمامه.

وتعالت التساؤلات والصيحات:

لماذا يأخذ زملاء وائل أنصبة أكبر؟

أنت أيها البقال تميزهم علينا.

وهم زميل وائل بالانصراف فأمسكوا بـه، واقتـرب أحدهم مني، وتساءل:

- ما الذي حدث أيها الصديق؟

وأقبل عدد آخر من الأصدقاء، وهاجوا كلهم، وانـدفع عدد منهم إلى داخل الكانتين وأمسكوا بالدمياطي:

- اللص.

- المهرب.

وقمت من مكاني، حاولت أن أخلص الـدمياطي مـن أيديهم، قال أحدهم:

- أنت المسئول أمامنا يا نادر.

ووجدتني أقول:

- تغيرت طريقة توزيع الأغذية والملابس بقرار من لجنة القيادة، ولم أعد عضوا بها.

وسمعت صوت وائل:

- هل تحرض النزلاء أيها الأخصائي؟

حدقت إليه بغيظ وأنا أحاول إخراج الأصدقاء من الكانتين.

وأمسك به ثلاثة من الأصدقاء، خشيت أن يكشف أحد العاملين بالإدارة شيئًا فانتزعت الأنصبة من حجازي، وقلت:

- وسنرجئ التوزيع الآن.

ونظر إلي وائل بحدة:

- سآخذ حصتنا.. الدمياطي أخبرني في الصباح بالقرار الجديد.

قلت له وأنا أحاول تمالك أعصابي:

- سنوقف التوزيع الآن منعا للمشاكل.

قال مهددا:

- أتقف ضد قرار القيادة وتثير المشاكل؟

قلت له غاضبا:

- لا شأن لك أنت بقرارات القيادة.

وقال الدمياطي موجها كلامه لوائل وهو يشير إلي:

- هو الذي حرض الأصدقاء ضدي.

وتركت الكانتين، اتجهت إلى فناء العام. وقبل نهاية اليوم قام الدمياطي بالتوزيع في حماية حجازي وحسان وعماد، ورفض عدد من الأصدقاء أخذ أنصبتهم.

وقابلني أحد الممرضين الأصدقاء الذين يقومون بحراسة (ش)، وقال لي:

- المعلم علم اليوم بطريقة التوزيع الجديدة وغضب جدا.

وفي نهاية اليوم أوقفني في فناء الاقتصادي اثنان من الأصدقاء المتظاهرين بالاكتئاب، وقال أحدهما بغيظ:

- أنتم تتلاعبون في كل شيء وتخونون (ش) وفكره.

قلت:

- أنا لم أوافق على القرار الجديد، وعلينا أن نتحمل حتى نخرج من هنا.

قال الآخر ساخرا:

- نخرج من هنا؟!.. لقد حبستمونا مع (ش) وانتهـى الأمر.

وفي العيادة الخارجية جلست إلـى جانـب الـدكتور فاضل، قلت:

- بدأت المشاكل..

قال في أسى:

- لقد بدأت منذ زمن طويل، هذه نهاية طبيعيـة لكـل مواقفنا.

- وما العمل؟

ونظر إلي بعينين حزينتين:

- لا أعرف.

هممت بالكلام عن العمل الجديد لإخراج (ش) ولكنني ألجمت نفسي، قررت أن أخبره بالمحاولة قبل تنفيذها بأيـام. وعندما نهضت واقفًا افترت شفتاه عن بسمة صغيرة:

- كن حذرا.. نحن في غنى عن محاولة فاشلة أخرى.

وابتسمت، وقلت بصوت خفيض:

- سيكون لك دور أيها الصديق.

فاضل زكي

١٩٨٦/٨/٣٠

استقلت من لجنة القيادة منذ يومين، كان يجب أن أترك تلك اللجنة منذ وقت طويل. عندما استقال فارس زايد أجبرت نفسي على البقاء فيها برغم يقيني أنها لن تفعل شيئًا من أجل خروج المعلم، وأنها ستواصل بقيادة فكري سالم وباسم مبادئ وفكر المعلم الخروج على مبادئه وفكره.

عندما وافق فكري سـالم علـى اقتـراح الـدمياطي بخصوص طريقة توزيع وارد الزيارات بعد أن عارضه في البداية استبد بي الغضب، أدركت أن فكري بدأ مرحلة جديدة من الأساليب اللامبدئية وغير الأمينة، وأنه لكي يضمن ولاء الدمياطي وسمير له لا مانع عنده من التنازل فـي مسـائل المبدأ.

كنت قد قبلت بانضمام حسن الدمياطي إلى لجنة القيادة برغم معرفتي بحقيقته وطبيعة علاقته بفكري حتـى تنتهـي حكاية ترجيح جانب الرئيس التي فرضت علينا الكثيـر مـن أفكار سالم منذ أن قبض على الصديق علي النجاتي. في أول اجتماع حضره معنا الدمياطي أدركت فداحة خطـأي، ولـم

أتوقع يوم ضممت الدكتور سمير إلى صفوفنا منذ نحو عامين أن الأمر سينتهي بأن يشاركنا مسئولية قيادة عمل الأصـدقاء بهذه السرعة. كنت أعرف الجوانب السلبية في شخصـيته، ولكنني كنت آمل أن يتغير وتنضج ثقافته بين الأصدقاء داخل السراية.

كثيرة هي الأخطاء التي ارتكبتها منـذ عملـت مـع الأصدقاء في السراية. أخطأت حين رشحت فكـري سـالم رئيسا لنا، وكان فارس زايد يريد أن أكون أنا الرئيس. قـال أيامها إنه لا يميل إلى المثقفين ولا يحب أساليبهم، وإنه عرف طبيعة شخصية فكري سالم في أيام معدودة، وإنني وإن كنت مثقفًا أنا الآخر إلا أنني أفضل المثقفين الذين التقى بهم، كان يمكن أن يكون فارس زايد هو الرئيس لأنه برغم عدم إلمامه بالقراءة والكتابة يتشرب مبادئ (ش) ويعيشها، ويستطيع أن يدرك بحدس خبراته ما ينبغي عمله. وكان يمكن أن يكـون علي النجاتي رئيسا برغم أنه أصغرنا سـنًا، وأحـدثنا فـي الارتباط بفكر المعلم لأنه كان يتمتع بالأمانة والموضـوعية، ويفسح صدره لآراء الآخرين ويقدرها. حاولت دائما تجنـب خلق المشاكل لعملنا أو توليد حساسيات غير مستحبة في نفس

فكري سالم خاصة وأنني لم أتوقع بقاءنا سنوات طويلة في السراية دون أن نُخرج المعلم.

وأخطأت عندما انسقت وراء حذر ووساوس فكري سالم فساهمت معه في إدخال عدد كبير من الأصدقاء السراية. كان في معظم الأحوال يقترح دخول أصدقاء من الذين ضممناهم أنا وفارس وعلي النجاتي ونادر ليبقى أكثر الأصدقاء الذين ضمهم هو إلى صفوفنا في الخارج لا نعرف عنهم شيئًا إلا من التقارير الصماء التي كان يقدمها.

وأخطأت لأنني لم أشجع تكرار محاولة إخراج المعلم بمبادرة أقوم بها أنا وفارس وعلي النجاتي، كنت أحس برغبتهما في معاودة المحاولة، وكنت أتعامى عنها.

أخطاء كثيرة وفادحة ارتكبتها بدافع الحرص على وحدة القيادة. في مرات كنت أتنازل عن وجهة نظري أمام تصلب فكري سالم، وكنت أحاول التوفيق وحتى التلفيق بين وجهة نظره ووجهات نظر الأصدقاء الآخرين.

عندما انضم إلينا نادر شوقي، وكنت أعرف حماسه وعمق ثقافته وصدقه في الدفاع عن رأيه توقعت أن يكون رئيسنا الفعلي بعد عام أو عامين إذا طال بنا الوجود في

السراية ولكنني شاركت فكري سالم في شل حماسه الذي كان كثيرا ما يصفه فكري بالتهور لقلة الخبرة والتجربـة، وأنـا المسئول الحقيقي عما وصلت إليه لجنـة القيـادة وأحـوال الأصدقاء في السراية، كنت ألتزم بمثالية فارغة.

كان فكري سالم بارعا في فرض أرائه، كـان يبـدو وكأنه حريص على إقناع الآخـرين، ولكنـه كـان يحـاور ويناور، ويختار الوقت المناسب ليلح برأيه المرة بعد المرة، ولا يهدأ حتى يؤخذ به.

بعد استقالتي خرجت من الاجتماع يعميني الغضـب. عدت إلى بيتي والحيرة تشل تفكيري وأسئلة كثيرة تلح علي ولا أجد إجابات لها، ألا تعد استقالتي فـرارا وعجـزا فـي مواجهة فكري سالم والآخرين؟.. هل أترك مصير المعلم بين أيديهم؟.. وأحسست باليتم، أحسست بأنني قد أصبحت وحيدا في كل هذا العالم. وأخذت أفكر طوال الليل، كيـف يمكـن الخروج من المأزق الذي وصلنا إليه؟.. وجدت كل الطـرق مسدودة في وجهي، فأنا لا أستطيع القيام بعمل لإخراج المعلم بمعزل عن لجنة القيـادة لأن علاقـاتي بالأصـدقاء داخـل السراية قد تراخت منذ وقت طويل، حتى إعـداد وتـدريب

الأصدقاء الذين يدخلون السراية تركته لطبيب من أصـدقاء الخارج، وأصدقاء الخارج الذين كنت أعرفهم دخل معظمهم السراية، وأعاد فكري تنظيم الباقين منهم حتى أنني لم ألتـق بأحدهم منذ شهور. تساءلت وأنا في حيرتي، هل يمكن الآن أن أقترب من أصدقاء السراية، وأقـوي علاقتـي ببعضـهم تمهيدا لعمل نقوم به لإخراج المعلم؟ وكان علي أن أسلم بأن طاقتي الآن لا تسمح بذلك.

منذ شهور وأنا أحس بالفتور يدب فـي بـدني بـرغم المقويات التي بدأت في تعاطيها، أحـس بالتعـب والهمـود بداخلي، ليس لدي القدرة الحقيقية للمبادرة بعمل جديد.

منذ شهور أغرقت نفسي في القراءة، أعدت قراءة كل كتابات المعلم فؤاد إيماني بفكره ومبادئه، وأدركت أننا فـي أحوال كثيرة نتعامل مع كتاباته بسطحية وحرفية لا تليق بها.

استهوتني منذ فترة قراءة الكتب الخاصة بقوى الإنسان الخفية، كنت أدرك منذ سنين طويلة أن ثمة مجاهل كثيرة لم تكتشف بعد في عقل الإنسان، ثمة إمكانيات وقـوى هائلـة توجد بداخل الكائن الإنساني، ولا تتجلى إلا في حالات فردية واستثنائية الأمر الذي يـدفع الـبعض إلـى نسـبة أفعالهـا

ومظاهرها إلى قوى غيبية لا تنتمي إلى عالمنا، وأوقن الآن بوجود تلك القوى وقدرة العلم على اكتشافها ولو بعد سنوات طويلة وتوظيفها لخدمة الإنسان، أرى أنـه توجـد لحظـات متميزة يمكن فيها لأفراد معينين أن يبدعوا إبـداعات غيـر عادية أو يكتشفوا بعض قوانين الحياة والعالم، وأننا لا نعرف حتى الآن سر أو طبيعة تلك اللحظات. إننا برغم المعـارف والإمكانات الهائلة التي يمتلكها عصرنا لا نعـرف الكثيـر والكثير عن أنفسنا والعالم الذي نعيش فيه، ولذلك ينبغـي أن نتجنب التعصب لما نؤمن به، ونكون أكثر تواضعا وسماحة أمام العالم والآخرين.

عبر قراءات أدركت أننا نضيق من فهمنا لما نسـميه ببيئة الإنسان، لأن كل ما يحدث من حولنا وخـارج كوكبنـا وحتى النجوم والمجرات البعيدة يؤثر في كل منا، في بنيتنـا وجهازنا العصبي وأفعالنا وقراراتنا. وأرى أن هذا المفهـوم الأرحب للبيئة، وهذه النظرة للإنسان لا تتعارض مع مبادئ العلم الأساسية، وإن كانت تدعونا إلى تطويرها وإثرائها.

حدثت فكري سالم منذ أسابيع في بعض ما وصلت إليه من أفكاري فأبدى استهجانه واستنكاره، ورأيت فـي نظـرة

عينيه أنه يوشك أن يتهمني بالمروق والخروج علـى فكـر ومبادئ المعلم.

أواصل القراءة، لكنني أدرك منذ أيام أن ما أفعله برغم فائدته نوع من الهروب من المأزق الذي أعيشه.

ما العمل الآن؟

نادر شوقي

التقيت بعم إبراهيم في فناء العام. كان يسـير بقامتـه المحنية قليلا وخطوه البطيء. بدا لي عنـدما نظـرت إلـى وجهه المغضن وعينيه الصغيرتين المقرحتي الأجفـان أنـه شاخ كثيرا عما كان حين رأيته آخر مرة عندما لقيني سعيدا بالجهاز الجديد الذي لم يقم بالطباعة عليـه لتوقـف توزيـع أوراق المعلم.

سرت إلى جانبه:

- كيف حالك يا عمنا؟

ورمقني بنظرة جانبية:

- وهل تسأل عن الأحوال وقد ساء كل شيء؟!

قلت بصوت خفيض:

- لقد تركت لجنة القيادة.

فتساءل دون أن تبدو عليه المفاجأة:

- وفاضل زكي؟

- استقال هو الآخر.

وعدل طاقيته على رأسه:

- ومن بقى فيها مع فكري سالم؟

- الدمياطي والدكتور سمير.

وهز رأسه:

- ونعم القادة، هذه الأصناف كأنها قدرنا.

وبعد لحظة صمت جاء صوته خافتًا:

- هل يتسع الوقت لنبدأ من جديد يا بن شوقي؟

قلت:

- لقد بدأنا بالفعل أنا وبعض الأصدقاء.

والتمعت عيناه الصغيرتان، وقال في عتاب:

- ولماذا لم تخبرني لأعمـل معكـم؟.. هـل شـخت وأصبحت لا أصلح لشيء؟

قلت:

- كنت أنوي أن أفاتحك في الأمر.

ودفع بطاقيته إلى الوراء:

- وهل بقي هنا كثيرون يصلحون لبداية جديدة؟

قلت بحماس:

- يوجد أصدقاء كثيرون مستعدون لعمل أي شيء من أجل خروج المعلم.

وشاعت بسمة في وجهه المغضن:

- أنا معكم، يوجد صديقان في المطبخ والمغسل يمكن أن يكونا معنا.

وتساءل:

- هل تكلمت مع الوقاد؟

قلت:

- إنه معنا.

ورأيت الدكتور باهر مقبلا ناحيتنا، وعندما هممت بالابتعاد قال عم إبراهيم بصوت خفيض:

- الصديق أبو ذر أضرب عن الطعام منذ ثلاثة أيام، لابد أن تراه.

وفي طريقي إلى عنبر (٢) استوقفني عمر، رفع إلي وجهه الرقيق، وقال بنبرة ساخرة:

- كانت قراراتكم الأخيرة الخاصة بطريقة توزيع وارد الزيارات تطبيقًا رائعا لتعاليم المعلم.

قلت له:

- كنت ضد القرار، وتركت لجنة القيادة.

وهز رأسه:

- تركتها بعد خراب مالطة؟!

خطر لي أن أفاتحه في أمر الانضمام إلينا فقلت:

- بعض الأصدقاء يعملون لإخراج المعلم بعيدا عـن لجنة القيادة.

ورفع إلي نظرة حزينة من وراء زجاج نظارته:

- سيفشلون كما فشل إيبوور وقرمط والبسطويسي، لقد أفسدتم كل أوضاعنا، ولن نخرج من هنا لا نحن ولا المعلم.

وأضاف بمرارة:

- كانت طريقتكم في العمل سببا هاما لكل ما حدث في عنبرنا.

وتساءلت دهشًا:

- وماذا دخلنا بما حدث في عنبركم؟

وشوح بذراعه، وابتعد.

وفي عنبر (٥) وجدت أبا ذر يتمدد في فراشه شاحبا، هزيلا، وقد غار خداه، وعيناه باهتتان تائهتان. لم أكـن قـد رأيته منذ أكثر من ثلاثة أسابيع، وعندما رآني أشاح بوجهـه عني. أمسكت بيده فأفلتها مني، ملت عليه، وقلت هامسا:

- صدقني، لا ذنب لي في شيء، تركت لجنة القيادة.

وأطال إلي النظر بعينين غائمتين بالـدموع، وحـرك ذراعه الهزيلة:

- بنو أمية حولوها إلى ملك عضود.

قلت:

- سنخرج قريبا نحن و (ش).

قال وهو يرفع صوته:

- في عصر يزيد زادت المظالم فزاد الكفر.

وأشاح بوجهه، ولاذ بالصمت وأنـا أحـاول إقناعـه بالعدول عن الإضراب.

وبعد يومين رحل أبو ذر إلى مستشفى خارجي بعد أن ساءت صحته، نقل برغم إرادته، وأمام مبنى (ش) لعن بنـي أمية، ونادى مهيبا بالفقراء أن يخرجوا حاملين سـيوفهم ثـم انفجر باكيا.

فكري سالم

وقعت أخيرا بعض الحوادث المؤسفة في ممارسة وائل ومجموعته ونمرود ومجموعته لعملهم، وقد وبختهما، ونبهت عليهما بضرورة مراعاة الدقة والانضباط في عملها. وعلـى أي حال فإن وقوع التجاوزات لابد منه، ولا يستدعي الإدانة أو الولولة كما يحلو للبعض أن يفعل، وكما كان يفعل نـادر شوقي وفاضل زكي اللذان استقالا من لجنة القيـادة عنـدما تقرر النظام الجديد لتوزيع واردات الزيارات.

لقد أعطيت صوتي لطريقة التوزيـع التـي اقترحهـا الدمياطي وأيدها الدكتور سمير. كان صوتي سيرجح اقتراح الدمياطي أو اقتراح فاضل، وفضـلت أن أعطـي صـوتي للدمياطي وسمير، أن أتنازل أمامهمـا مـرة وأنـا أدرك أن النظام الجديد يتنافى مع فكرنا وما درج عليه العمل طـوال سنوات وجودنا في السراية، وأنه يفتح الباب للمحاباة خاصة لمجموعة وائل ومجموعة نمرود. وافقت على ذلك الاقتراح وأنا أنوي أن يكون النظام الجديد مؤقتًا ولفترة محدودة. كنت أتوقع أن تغضب موافقتي فاضل ونادر وتدفعهما إلى الخروج من لجنة القيادة، وكنت أريد ذلك حتى يتوحد اتجاه اللجنة.

إن عمل اللجنة بعد استقالة فاضل ونادر ومن قبلهما فارس يمضي بلا مشاكل وبلا لجاجة في المناقشات، فاقتراحاتي في الاجتماعات المتباعدة يوافق عليها الدمياطي وسمير وبلا مناقشة تقريبا، ويسهل مهمتي أن الاثنين لا علاقة لهما بعالم الفكر ويقدران فكري وخبراتي. وقد استبقيت نادر كمسئول للعمل في السراية مؤقتًا حتى لا أثير غضب الأصدقاء الذين ارتبطوا به أكثر من خمسة أعوام، وحتى أجمع عددا من أخطائه أعزله بها دون أن يكون قادرا على الوقوف في وجه لجنة القيادة أو خلق المشاكل لنا.

وبمبادرة مني أصدرت لجنة القيادة قرارا بإعادة توزيع أوراق (ش) والأوراق التي يكتبها الأصدقاء حتى يعيش الأصدقاء داخل السراية في مناخ فكري يشغلهم عن المهاترات الشخصية، ويربطهم بهدفنا الكبير.

بالطبع لن يتم توزيع كل كتابات الأصدقاء، فالكتابات التي لا تتفق مع جوهر فكر (ش) أو يمكن أن تخلق لنا المشاكل سأمنع توزيعها أو أقوم بإعادة صياغتها أو الرد عليها دون أن تنشر.

وبالنسبة لكتابات (ش) فقد قلت في الفتـرة الأخيـرة، ولذلك أقوم بانتقاء بعض الأوراق القديمة لإعـادة طبعهـا، وأجري في بعضها تعـديلات طفيفـة فأسـقط الكلمـات أو العبارات التي لا تتفق مع ظروف عملنا الآن، وأضيف مـن عندي كلمات لا تؤثر في فكر (ش) العام، إضافات وتعديلات كان لابد لـ (ش) نفسه أن يقوم بها إذا كـان علـى درايـة بظروفنا وأحوالنا.

لقد قمت في الفترة الأخيرة بإعادة قراءة كل كتابـات (ش)، ولا أعرف الآن عدد المرات التي قرأتها فيهـا حتـى أنني حفظت عن ظهر قلب الكثير من صفحاتها، وفـي كـل مرة أعاود قراءاتها أدرك مدى صدقها وعظمتها، وأتساءل، لو أن (ش) حدث له شيء داخل السراية أو خارجها وفقـدناه فماذا يكون حالنا؟

لو حدث ذلك ستكون الخسارة بالغة الفداحة، ولكن أبدا لن يغيب عنا بفكره ونضاله، سيبقى فكره ما بقـي الإنسـان كأسطع المشاعل التي تضيء طريقه.

بعض الأصدقاء فروا من السراية يأسا، وأنـا أرى أن فرارهم أمر جيد بالنسبة لنا، لأن خطورة عملنـا لا تحتمـل

وجود الضعفاء أو المترددين في صفوفنا، البعض يلومونني لأنني أتخذ إجراءات صارمة تجاه من يفقدون صبرهم أو أعصابهم فيخلقون لنا المشاكل أو يعرضون عملنا للمخاطر، وأنا أرى ضرورة بتر أي عضو يمكن أن يضر بعملنا بلا تردد. ولولا ظروف وجودنا بالسراية لسعيت لتطهير صفوفنا من كل المترددين والضعفاء وفاقدي الصبر وغير المنضبطين. نحن نضحي بأعمارنا من أجل قضية تخص الكل، ولا أقل من أن نضحي ببعض الأفراد عند الضرورة من أجل نجاح قضيتنا.

مجدي عبد السلام

في نحو الثانية صباحا أيقظتني من حلم غريب طرقات على باب حجرتي، تغافلت عنها، وأغمضـت عينـي لعلـي أستكمل الحلم، ولكن الطرقات ألحت وتعالت فنهضت مكرها، ووجدت أمامي ممرضا يقول:

انتحر نزيل في عنبر (٣).

تنبهت، هممت بأن أطلب مـن الممـرض أن يـوقظ الدكتور مهران الذي كان عليه الدور في النوبتجية، ولكنـي ارتديت ملابسي، وأسرعت إلى ذلك العنبر.

قال الممرض السمين وهو يهرول إلى جانبي:

قطع شرايين يده بموسى.

وفي آخر العنبر خافت الضوء، وعلى فراش غـارق في الدم يحيط به عدد من النزلاء كان يتمدد نزيل مسن بلحية شيباء يكتسي وجهه الشاحب بحزن يائس غريب. كان ذلـك النزيل الذي تستبد به شخصية ابن رشد فيردد أقواله.

كان عدد النزلاء يلتفون حول السرير، ينظرون إلـى زميلهم الميت كل بطريقته، واحد يحدق إليه في رعب، وآخر يبتسم وهو يتقافز في مكانه، وثالث يمد سبابته إلـى مـلاءة

السرير ويلحس الدم، وثمة نزيل قصير ونحيل يقف محـدقًا في وجه النزيل المنتحر دامع العينين.

طلبت من الممرض ملاءة فأسـرع النزيـل البـاكي وأحضر غطاء سريره المتسخ وغطى زميله. وطلبـت مـن الممرض أن يبقى إلى جوار فراش المنتحر حتى أقوم باتخاذ الإجراءات وإبلاغ الشرطة.

أبلغت قسم البوليس المختص بـالتليفون مـن حجـرة النوباتجية، وأخذت كرسيا، وجلست على درج مبنى الإدارة.

كانت مصابيح قليلة متباعدة تتفرق بضـوئها الـواهن المختنق في الفناء الواسع، وأبنية الاقتصـادي ذات الطـابق الواحد تمتد أمامي في صـف طويـل ينتهـي بـالمبنى ذي الطابقين الذي يحجز فيه (ش) وتجثم عليه الظلمة. وكان عدد من النزلاء يتفرقون في الفناء، منهم من يتمشى، ومنهم مـن يجلس وسط الفناء أو إلى جانب سور عنابر العام.

حاولت أن أستعيد أحداث الحلم الـذي أيقظتنـي منـه الطرقات.

أقف أمام جامعة القاهرة عند الظهيرة أنتظـر النزيلـة السمراء وعيناي القلقتان تنتقلان بين ساعة الجامعة والطريق

الذي أتوقع أن تأتي منه، ويلوح من بعيد تمثال نهضة مصر للمثال مختار، الفلاحة وأبو الهول، وأتذكر أمي التي لم أكتب لها كلمة منذ شهور فأحس بالذنب، أتـذكر أن آخـر هديـة أخذتها إليها كانت منذ أكثر من عام، وكانت قمـاش ثـوب أسود، أتساءل لماذا لا أهديها أقمشة ملونة حتى تخلع الأسود الذي ارتدته عند موت أبي منذ أكثر من عشـرين عامـا؟.. وأنظر إلى ساعة الجامعة، ويغطي العقرب الكبير العقـرب الصغير مشيرا إلى تمام الثانية عشر فأهم بالانصراف يائسا من حضور السمراء وقد مر على موعـدنا سـاعة كاملـة فألمحها قادمة من بعيد وهي تسرع في خطوها وقد ارتـدت ثوبا أبيض. تقف أمامي باسمة وقطرات العرق تلتمع علـى جبينها الأسمر، وشعرها الأسود الطويل يلقي بظله في عينيها النيليتين. أهم بعتابها فتهمس بالاعتذار، وتقـول، إن سـبب تأخيرها كان ازدحام ميدان التحرير بالبشر بسـبب تشـييع جنازة مسئول كبير كان يبكيه الناس وتولول عليـه النسـوة برغم اعتداء رجال الأمن عليهم بالشوم والهراوات.

آخذها إلى شاطئ النيل. تختفي الخضرة والعمـارات، وأجدنا في بقعة غريبة وقد انحسر الماء عن الشاطئين حتـى

يمكن خوضه وعبور النيل بالأرجل، نخطو على المواضع الجافة والشمس أمامنا تميل إلى الغروب قرصا أحمر منزوف الوهج، أميل عليها هامسا:

- أتحبينني حقًا؟

وترفع إلي عينيها وقد لاح فيهما قوس قزح، وتبتسم بحياء، أهمس لها:

- أحببتك منذ رأيتك أول مرة، وكأنني أعرفك طول عمري.

وفجأة أجد النزيل الفلاح ناصح يسير إلى جانبي ويتقافز، يسألني وهو يسوي طاقيته على رأسه:

- سمعت آخر نكته؟

أضيق به، وأهم بانتهاره فيقول:

- لماذا تترك العنبر؟.. سطوحي الكلاب ضرب كل النزلاء وطردهم، وأكل في بطنه الكبير كل ما في كراتينه.

أبتعد عنه وأنا أهم بلعنه هو وسطوحي وكل النزلاء.

أسرع بالسمراء، تلوح من بعيد أبنية بيضاء، أبنية الجامعة التي كنت أراها عندما أقف على شاطئ النيل في سوهاج، أشير إلى الأبنية البعيدة:

- سوهاج.. بالقرب من هنا بلدتي إخمـيم.. لنـذهب لزيارة أمي.

وفجأة أجدني أمام سور من السلك الشائك يمتد بعرض النيل ويقف من ورائه عدد مـن جنـود الأمـن المركـزي مدججين بالسلاح، وألمح اليهودي شالوم الذي قتلـه النزيـل صديق نادر جالسا في الطين خلـف السـور مـدليا سـاقيه النحيلتين في حفرة مملوءة بالماء العكر وهو يتمتم بشـفتيه، ويعد أوراق نقد صغيرة وقديمة، أناديه فلا يلتفت إلي، يقـف في مواجهتنا جندي أسود هضيم الوجه بارز الوجنتين عكـر العينين، أقول له إننا نريد أن نذهب إلى بلدتي إخميم فيشـير لي بامتداد ذراعه إلى رجل يستند إلى السلك الشائك له وجه عريض بأنف منسدح كوجه كبير أطباء المستشفى، يرتـدي روبا أصفر فاقعا مفتوح الصدر، أقترب منه، وأهم بـالكلام فلا يختلج في وجهه تعبير، ويدفعني الجندي الأسود بعقـب بندقيته في صدري.

أجدني في فراشي بغرفتي القديمة بمستشـفى القصـر العيني عاريا من كل ثيابي، ومستلقيا على ظهـري مشـتعلا ومترقبا بالشبق، وعيناي صوب البـاب المـوارب، أهمـس

بصوت أبح مناديا فتقف السمراء بباب الغرفة تنظـر إلـى عريي خجلة معاتبة، وتشيح بوجهها، أطلب منها هامسـا أن تأتي إلى جانبي فيغضب وجهها وتهم بالخروج من الغرفـة، أنهض، وأمسك بيدها فتفلت مني، وتعدو في ممر طويل معتم دون أن يصدر من عدوها صوت، أهم بالعدو خلفهـا فأجـد أمين زاهر يقف أمامي في العتمة محدقًا إلي من خلال زجاج نظارته. أسارع بالعودة إلى غرفتي خجلا، وأمسك بملابسي أرتديها في عجلة، يقف أمين بالباب، ويقول:

- بحثت عنك طويلا، ودلني صديق قديم على مكانك، هل يمكنني الدخول؟ ولا أرد عليه وأنا أرتدي ملابسي وقـد ضقت بحضوره في هذا الوقت بالذات:

- أريد محادثتك في أمر هام.

فأقول بشيء من الجفاء:

- ليس في هذا الوقت المتأخر.. انتظر حتى الصباح.

ويزداد خجله:

- ما أريدك بشأنه لا يمكن أن ينتظر حتى الصباح.

وأسمح له بالدخول على مضض، وتـدخل السـمراء وتقف إلى جانبه.

أهم بالكلام فأسمع الطرقـات علـى البـاب تتعاقـب وتتعالى.

عم تعبر أحداث هذا الحلم؟.. هل تحبني السمراء حقًـا كما أحبها؟.. وإذا خرجت من السراية عنـد خـروج (ش) وأصدقائه كما وعدني نادر فماذا يمكـن أن يكـون مصـير علاقتنا؟

نظرت إلى مبنى (ش)، كانت نافذتـه مفتوحـة يشـع الضوء من بين قضبانها. مستحيل أن يتمكن نادر وأصدقاؤه من إخراجه من السراية، أربعة عشر عاما وهـو محبـوس فيها، لابد أن ينتهي إلى الجنون، والبقاء هنا حتى الموت.

وثقل الحزن على صدري، مرت عيناي فـي الفنـاء، توقفنا عند نزيل يتكور وهو جالس على الأرض إلى جانـب فناء العام ويخفي رأسه بين ساقيه، تابعـت عينـاي بعـض النزلاء الهائمين في الفناء تتبعهم ظلالهم وكأنهم أشباح فـي مشهد جنائزي. تمثل لي وجه النزيل المنتحر ووجوه زملائه المرضى وهي تحملق إليه. هل كان يخطر لي عند اهتممـت بالطب النفسي والعقلي أن ينتهي بي الأمر إلى هذا المكـان عاجزا عن فعل شيء حقيقي؟.. كنت آمـل المسـاهمة فـي

التخفيف عن الإنسان وهو مصاب في أثمن وأروع ما فيـه كدور يمكن أن يكون طيبا بالنسبة لي بعد أن هجرت السياسة وقررت الابتعاد عن كل شيء. تخليت عن أحلام كل طبيـب في امتلاك عيادة خاصة ولوازمها من أدوات الأبهة حتى لا أصل يوما إلى المتاجرة بآلام الآخرين، وهنـا أنـا أعـيش كخيال المآتة لحساب اللصوص والفساد والبلادة. أي أحـلام فارغة حلمت بها يوما بخلاص الإنسان وسعادته؟!

وانتبهت إلى نزيل يقف على مقربة مني أسفل الدرج، بالغ الطول والنحافة، يكشف الضوء الـواهن عـن وجهـه الجمجمي العجوز، وذراعه الناحلة تمتد إلي براحتها المفتوحة في استجداء.

حدقت إليه، وقمت، وأفرغت كل ما في جيبـي فـي راحته فضم قبضته، ومضى منحني الظهر في الفناء المعتم.

نادر شوقي

آلمني انتحار الصديق ابن رشد. كان قريبا من نفسي، ورأيت في انتحاره احتجاجا علينا جميعا لتراخينا في إخراج المعلم وخروجنا على مبادئه وأفكاره.

عرفت الخبر من عم فارس وأنا أدخل السراية، همس والدموع في عينيه الغاضبتين:

- انتحر الصديق ابن رشد.

احتدم الغضب بصدري، وأسرعت إلـى عنبـر (٣)، وهناك وجدت عددا كبيرا من الأصدقاء أمام الباب في حالـة حزن وتذمر وهياج. استقبلتني نظرات الاستنكار والعـداء. ترامت إلى سمعي اتهامات الأصدقاء للجنة القيـادة ووائـل وزملائه ونمرود وزملائه بالتسبب في موت ابن رشد. دخلت العنبر، وحول جثمان الصديق لمحت وجوه نور وعـم رزق وعم إبراهيم، غالبت دموعي ورغبتي فـي تقبيـل الجبـين العريض المغضن، والتقت عيناي بعيني نور فحـدقت إلـي عيناه المحتقنتان بالدم.

وعند خروجه تعالت صيحات السخط والإدانة:

- يقتلون القتيل ويمشون في جنازته.

وطعنتني الكلمات في صدري. هممت بأن أصيح بأنني لست المسئول عن انتحار الصديق، ولست مسئولا عن قرارات لجنة القيادة الأخيرة. لمحت ثلاثة من الأصدقاء يمسكون بأحد زملاء نمرود ويهمون بضربه، وكان منهم واحد من مجموعتنا، ورأيت حسام على مقربة منهم وقد عقد ذراعيه على صدره ووجهه جامد، طلبت منه محاولة تهدئة الأصدقاء حتى لا يفتضح أمرنا.

وعند نقل الجثمان إلى العربة التي وقفت أمام باب الإدارة سار خلفه عدد كبير من الأصدقاء، حاول بعض زملاء نمرود ووائل منعهم من تشييع صديقهم وتفريقهم فوقعت اشتباكات وصلت إلى حد التضارب، وكان يمكن أن تتحول إلى معركة لولا تدخل الوقاد وحسام وبعض أصدقاء مجموعتنا.

بكى البعض، وصاح وسب آخرون وهم يتظاهرون بالجنون دون أن يصرحوا بأسماء من يسبونهم.

رأيت نمرود يقف جانبا فاقتربت منه، وقلت بحدة:

- امنع زملاءك من التعرض للأصدقاء، يكفي ما حدث.

فقال دون أن يلتفت إلي:

- هذا أمر لا يخصك، لن نسمح لأحد بـأن يعـرض وجودنا في السراية للخطر.

وفي نهاية اليوم أصدر فكري سالم قرارا بفصل ثلاثة من الأصدقاء، وحرمانهم من وارد الزيات بحجـة شـغبهم وتعريض حياة (ش) للخطر، ولم يكن من بينهم أحـد مـن مجموعتنا.

وفي الأيام القليلة التالية ساءت أحوال الأصدقاء بشكل ملحوظ.

تراخت الحراسة على المعلم فأصبح يقوم بها واحد أو اثنان من زملاء وائل الذي أصبح يختفي كثيـرا مـن أمـام المبنى ليحل محله حجازي أو عماد، وحاولـت مجموعتنـا تعويض نقص الحراسة بمرابطة عدد مـن أصـدقائنا أمـام المبنى بشكل دائم، وكثر تعرض زملاء نمـرود للأصـدقاء والنزلاء فانفض عنا بعض من النزلاء المتعـاطفين معنـا، وتباعد وانعزل بعض الأصدقاء سخطًا أو خوفًا من زمـلاء نمرود ووائل، وساءت علاقات الأصدقاء ببعضهم وبالنزلاء فوقعت كثير من المشاجرات بين الأصدقاء لأسباب تافهـة،

وراح بعض الأصدقاء يستولون على أسرة المرضى بعد أن كانت القاعدة المتبعة منذ وجودنا بالسراية أن يتنازل الصديق عن فراشه للنزيل المريض. وصل الأمر إلى حد أن أصيب ثلاثة من الأصدقاء بالفصام الذي كانوا يتظاهرون بـالمرض به، وانتشر الاكتئاب بين عـدد مـن الأصـدقاء، وكثـرت محاولات الهروب التي كان رجال الأمن يحبطون أكثرهـا، ويضربون أصحابها، ويحولونهم إلى عنبر عزل المجـاني، وقيل إن واحدا من زملاء نمرود كان يقوم بالوشـاية لـدى مكتب الأمن بمن يفكرون في الهرب.

حتى قسم النساء ساءت أحوال صـديقاتنا فيـه، وقـد تربص بعضهن بوائل عند تسلله إلى القسم في إحدى الليالي، وانهلن عليه ضربا بالأحذية.

وبعد موت ابن رشد بثلاثة أيام، وفيما كنت أسير فـي فناء العام فوجئت بنور يقف أمامي ويحدق إلي بنظرة غريبة من عينيه المحتقنتين، بدت حدقتاه متسعتين بشـكل غريـب، وأمسك بيدي واتجه بي إلى الفضاء بين عنبـر (٥) وعنبـر (٤) وقال بصوت غريب وهو ينظر في عيني:

- كونوا وطن الإنسان لا سجنه أو منفاه.

تساءلت:

- هل ثمة قصيدة جديدة؟

قال:

- كونوا أول من يعطي وآخر من يأخذ.

ووضع يده على كتفي، ورفت على وجهه الأبنوسـي بسمة صغيرة:

- كونوا حكماء كالحيات وشجعانًا كالصقور.

واستدار ومضى.

ناديت عليه فلم يلتفت إلي.

خطر لي أن أطلب من الوقاد الذي يقيم معه في العنبر الصغير أن يحاول تهدئته والعناية به، وتـذكرت أن الوقـاد ترك العنبر الصغير منذ أيام، وأقام في عنبـر (٣) ليحـاول ضم بعض الأصدقاء إلى مجموعتنا ففكرت في أن ألفت نظر الدكتور فاضل إلى حالته لإعطائه بعض الأدوية المهدئة.

فاضل زكي

١٩٨٦/٩/٢

تكون اليوم ما لاحظته في الأيام القليلة الماضية. عدد من ذوي الملامح والدلائل السيكوباتية يجلس الواحد منهم أمامي، ويصطنع أعراض الاكتئاب أو الهستيريا أو الفصام بفجاجة ظاهرة فأسجل في خانة التشخيص بالاستمارة ما يفيد الإصابة بالقلق، وأؤشر فيها بصرف المهدئات من صيدلية العيادة الخارجية ثم أفاجأ ببعضهم داخل السراية.

بعد أن انتهيت اليوم من فحص الإيراد الجديد استوقفني وصول عدد من أولئك السيكوباتيين، وبعد الكشف السريع على اثنين منهم خرجت من العيادة فوجدتهما أمام مكتب الأمن يحادثان أحد العاملين فيه. عدت إلى العيادة، وطلبت من الكاتب استمارات الأيام الثلاثة السابقة فوجدت أكثر من عشر استمارات مدونة بخط غير خطي، ومؤشر فيها بدخول أصحابها السراية لإصابتهم باكتئاب عقلي حاد، وموقع عليها بتوقيع الدكتور مهران.

وبعد أن انتهيت من عملي ذهبت إلى الدكتور مهران في عنبره، وسألته عما إذا كان قد وقع على بعض استمارات

الكشف فأنكر في البداية ثم اعترف بأن كبير الأطباء حـرر الاستمارات، وطلب منه التوقيع عليها لعدم وجودي بالعيـادة الخارجية. وسارعت بإبلاغ نادر بالواقعـة، وأخبرنـي أنـه توقف عن أخذ صور من استمارات الكشف بحجـة انتهـاء حاجته إليها في إعداد رسالة الماجستير، وذلك منذ أن توقفنا عن إدخال أصدقاء إلى السراية منذ أكثر من ثلاثة شهور.

ذهبت إلى المدير، استقبلني ببسمته الزائفة المداهنـة، أخبرته بما اكتشفته فقال بشيء من اللامبالاة:

- لا أظنك تشك في أن كبير الأطبـاء قـد تقاضـى رشاوى من أولئك الأشخاص لإدخالهم المستشفى.

قلت:

- لا أعرف ما إذا كان قد تقاضى رشاوى أم لا، المهم أنه أشر بدخول أشخاص أصحاء المستشفى.

قال يدعوني للجلوس وقد ارتبكت بسمته:

- هون عليك يا دكتور، الأمر لا يسـتحق كـل هـذا الغضب.

وحدق إلي ببسمة خبيثة:

- فعلها غير كبير الأطباء من قبل.

وأضاف:

- ليس المهم دخول الأصحاء فلـدينا أطبـاء أكفـاء يستطيعون التمييز بين المريض وغير المريض، المهم هـو عدم خروج المرضى.

تحيرت في دلالة كلامه، هل يقصدني أنا بمن فعلها من قبل؟.. هل اكتشفت الإدارة دخول أصـدقاء أصـحاء إلـى السراية بعد اصطناعهم لأمراض نفسية أو عقلية؟

لم يبح أحد من الأصدقاء الذين قبض عليهم بعد العثور على الأوراق بشيء برغم شدة التعـذيب، وقـد أكـد ذلـك أصدقاء محامون حضروا التحقيقات أو قرءوا أوراقها، هـل أبلغ أحد من الأصدقاء الفارين من السراية السلطات بشـيء عن عملنا بداخلها؟.. هل ثمة جواسيس في صفوفنا يعملـون لحساب أعدائنا؟.. ما سبب إدخال كبير الأطبـاء لأشـخاص أصحاء بهذه الكثرة وفي أيام معدودة إلى السراية؟.. فعلهـا هو والمدير في بعض الحالات القليلـة والمتباعـدة نظيـر رشاوى كبيرة من مجرمين يريدون أن يفلتوا مـن العقـاب بحجة المرض النفسي أو العقلي.

دارت التساؤلات في عقلي وأنا أعـود إلـى العيـادة الخارجية دون أن أجد إجابة، أحسست بالتعب والهمود اللذين استوليا علي في الأسابيع الأخيرة، تساءلت عن مصير (ش) والأصدقاء بعد أن أصبح هذا المصير رهن إرادة فكري سالم والدمياطي وسمير.

وفيما كنت خارجا من البوابة الخارجية اقتـرب منـي فارس، وسلم علي، ولم يكن قد التفت إلي منذ آخر محاولـة بذلتها لإعادته إلى لجنة القيادة قبل استقالتي بأيـام، وهمـس لي:

- الدمياطي يخرج كل يوم بصرة كبيرة أعتقد أن فيها أغذية وملابس من وارد الزيارات.

قلت له وقد غامت الأشياء في عيني:

- أبلغ نادر بذلك.

ماذا يمكن أن يحدث لنا في الأيام القادمة؟

نادر شوقي

كنت واقفًا في فناء عنابر العام أتكلم مع أحد النـزلاء عندما اقترب مني أحد الأصدقاء، وهمس لي بأن نـور قـام بتوزيع أوراق بها كلام غامض على الأصـدقاء والنـزلاء، وأنه دخل مبنى الإدارة ليوزع تلك الأوراق فأمسك به أحـد السعاة، وانهال عليه ضربا، وهو الآن واقف في عنبره يقول كلاما غريبا فأسرعت إلى العنبر الصغير.

كان نور يقف في نافذة العنبر الخالي وقد تمزق جلبابه الأبيض عن الكتفين، وبوجهـه الأسـود كـدمات زرقـاء، وبجبهته دم متجمد، وعيناه السوداوان الواسعتان تحدقان فـي الخلاء بذهول، كان وجهه برغم الكدمات والدم يشع بلهـب خفي غريب، وفور أن اقتربت منه قال بصوت متعـب دون أن يلتفت إلي:

- كل ما قيل كان صحيحا وكاذبا.

أمسكت بذراعه فأفلتها وهو يقول:

- لا تحبسوني في زنازيني.

همست له:

- اهدأ يا نور، سنخرج خلال أيام.

فقال:

- نريد كل المرايا لأن من يجمعني يبددني.

خطر لي أن أخبر الدكتور فاضل ليفعل له شيئًا فطلبت من أحد الأصدقاء أن يبقى إلى جواره ويمنعه من الخـروج من العنبر حتى أعود، وأسرعت إلـى العيـادة الخارجيـة. أخبرت الدكتور فاضل بحالة نور فترك فحص الإيراد الجديد منزعجا.

وقال ونحن في الطريق إلى نور:

- حين دخل السراية كان مصابا باكتئاب تفاعلي شفي منه سريعا، ولم يعاوده مرة أخرى.

عندما اجتزنا باب فناء العام اقترب منا نمرود، وقـال لي:

- فكري سالم يطلب منك أن تفعل أي شيء حتـى لا يعرضنا نور للخطر.

فقال له الدكتور فاضل بحدة:

- قل له إن نور لن يعرض أحدا للخطر.

وفور دخولنا العنبر أشار إلينا نور بإصبعه، وقال:

- لا تظنوا أنفسكم الأول والآخر.

وافترت شفتاه عن ابتسامة، ونقل بصره بيننا ونحـن نقف أمامه:

- احذروا مساومتي فأنا لا أساوم للبيع، وأستقطر دمي للشراء.

وجلس على سريره وعيناه ترنوان إلينا وقـد اتسـعت والتمعت حدقتاه السوداوان:

- إذا أنطقتموني فليكن برفق.

جلست أنا والدكتور فاضل على سرير في مواجهتـه، خفض رأسه، تأمله الدكتور فاضل وقد عقد ما بين حاجبيـه الكثين.

وتساءل نور:

- أي أيدٍ تمسك بنا الآن يا دكتور؟

فقال الدكتور فاضل بأسى:

- أيدٍ أظنها أمينة، ولا أعرف ما إذا كانت قادرة أم لا.

وهمست للدكتور فاضل:

- ماذا تنوي أن تفعل؟

فقال وهو يطيل النظر إلى نور:

- لماذا لا يكون في حالة وجد، في مسافة بين العبقرية والجنون؟

وتنهد:

- توجد قوى خفية بالعقل الإنساني لم تُعـرف بعـد، وتوجد أوقات متميزة يتكشف فيها لأفراد منا بعض حقـائق الحياة والكون.

نظرت إليه دهشًا فخفض رأسه، ونقل نور عينيه بيننا:

- من يملك مفاتيحي كلها لا يملك منها شيئًا.

ونهض الدكتور فاضل واقفًا:

- لو نستطيع تسجيل أقواله كلها.

سألته:

- أي نوع من الأدوية توصي بها له؟

ورمقني بنظرة مبهمة:

- لا أوصي بشيء الآن.

وخطا خارجا من العنبر فلحقت به:

- لابد أن تعطيه شيئًا ليهدأ.

فقال بشيء من الجفاء:

- لن أعطيه شيئًا، لن أطفئ حالته إلا بعد أن يقول كل ما عنده.

قلت بشيء من الغضب:

- سيجن بالفعل.

قال:

- لا تقلق، سأتدخل في الوقت المناسب، ولن يحدث له شيء.

مضيت خلف الدكتور فاضل حائرا لا أعـرف مـاذا أفعل.

وعند باب العنبر سمعنا نور يقول:

- إذا انتصف النهار أصبح الكل بلا ظلال.

وارتفع صوته:

- لا تكذبوني، ولا تصدقوني.

وفي الفناء ارتسمت على وجه الدكتور فاضل بسـمة تمتزج فيها الحيرة بالأسى، وقال بصوت خافت:

- إن ما نعرفه يا ولدي أقل بكثير مما لا نعرفه.

وتركني ومضى.

وفي نهاية اليوم وقبل انصرافي من السراية ذهبت إلى عنبر نور.

وجدته واقفًا وسط العنبر يحدق في المصباح الكهربائي المضاء، أسرعت إليه، أمسـكت ذراعـه، وأبعدتـه عـن المصباح:

- عينيك يا نور.

وعاود التحديق إلى المصباح دون أن يرمش له جفن:

- أستطيع أن أنظر إلى الضوء قدر ما أشاء من وقت.

وابتسم، ووضع يده على صدره:

- هل تأخذ تفاحتي الحمراء يا نادر؟

خطر لي أن أحضر له الدكتور سمير، تذكرت ما قاله الدكتور فاضل فقررت ألا أفعل، وأوصيت أحـد الأصـدقاء بعنبره أن يحفظ ويكتب كل ما يقوله.

وعندما هممت بالخروج أمسك نور بيدي، وهمس لي:

- من نطق بسره مات.

وفي الفناء لمحت من بعيد الدكتور سمير يسير بصحبة الدكتور المصيلحي فتبعتهما، ودخل المصيلحي عنبـر (١)، وعندما استدار الدكتور سمير ورآني ابتسم، وأسرع إلي:

سار إلى جانبي، وقال:

- الدكتور المصيلحي له مواقفه في مواجهـة الإدارة، أفكر في ضمه إلينا.

قلت محذرا:

- أرجو أن تنتظر حتى نعرف حقيقته، أنا والـدكتور فاضل لا نستريح إليه.

وفي اليوم التالي، وفور وصولي إلى السراية علمـت أن فكري سالم أمر وائل بإخلاء عنبر نور مـن الأصـدقاء، وتكليف اثنين من زملاء وائل بحراسة نـور ومنعـه مـن الخروج من العنبر ولو بالقوة حتى لا يفلـت لسـانه بكلمـة تعرض أمان الأصدقاء داخل السراية للخطر.

أمين زاهر

أحسست اليوم بالاختناق فاندفعت إلى السراية. نويت أن أدخلها برغم اعتراض فكري سالم. قلت لعلني أكون محظوظًا فألمح وجه (ش) من وراء قضبان نافذته، وإذا لم أره فيكفيني أن أمر أمام المبنى الذي يعيش فيه وأرى وجوها لابد أن بينها بعض وجوه الأصدقاء. سأفعلها مرة واحدة، ولا يمكن لزيارة أن تضر بأمان الأصدقاء في السراية، سأتجنب فكري سالم ونادر إذا رأيت أحدا منهما. يمكن معرفة بعض أخبار المعلم من مجدي.

وأنا أمر من البوابة الداخلية لم يبتسم لي الحارس الكهل كما كان يفعل، بدا شاردا ومغلق الوجه، سرت في الطريق المسفلت، لم أر إلا نزلاء قلائل يتفرقون بين الأشجار، لم أعرج على العيادة الخارجية، وعند مكتب الأمن أوقفني أحد العاملين به، قلت له، إنني أريد مقابلة الدكتور مجدي عبد السلام، وأحسست بالضيق وهو يقيد اسمي ورقم بطاقتي بسجل الزيارات، قلت، لا يهم قد زرت السراية مرات من قبل وشوهدت كثيرا في صحبة مجدي، ولا أنوي تكرار الزيارة إلا إذا سمح بذلك فكري سالم.

في فناء الاقتصادي استرعى انتباهي نزيل يتعلق بماسورة صرف صحي لأحد الأبنية، ويمد يده إلى حافة سطح البناية، أشار لي بيده إشارة متعجلة تدعوني للاقتراب. خشيت أن يكون مهددا بالسقوط فأسرعت إليه فقال لي وهو يحرك ذراعه:

- تعال.. تعال.. سيغرق الطوفان كل العالم، انج بنفسك وتعال معي هنا.

ابتعدت عنه، وواصلت طريقي، وعندما اقتربت من بناية المعلم خفق قلبي بعنف، فتشت عن وجوه النزلاء الذين كان نادر قد أشار لي إليهم وحدثني عنهم، إيبوور والمعمدان وزكريا وبلال، قلت، لابد أن منهم أصدقاء للمعلم، لم أر أحدا منهم.

لمحت خصاص نافذة حجرة المعلم مفتوحا، أطلت النظر إلى النافذة، وتنبهت على حصار حولي، رأيت ثلاثة رجال أشداء قاماتهم مدكوكة ومفتولة العضلات، وتلوح عليهم علائم القوة البدنية. ارتجفت، ضيقوا حصارهم فحاولت أن أفلت منهم. برقت عيونهم، وقال أحدهم آمرا:

- عد من حيث أتيت.. عد إلى رحم أمك.

تراجعت، وحاولت مرة أخرى أن أفلت من الحصـار، قال آخر:

- لا تخط إلى الأماكن المقدسة إلا بعد أن تخلع نعليك وتتطهر.

وفي خوفي واضطرابي استدرت لأنصرف وإذا بفتـاة تندفع نحوي وتقف بيني وبين الرجال الثلاثة، عرفـت فيهـا وداد خطيبة نادر التي كان قد عرفني بها مجدي.

أشارت للرجال تأمرهم بالابتعاد دون أن تنطق بلفـظ، أطالوا إليها النظر وتراخت قاماتهم، واسـتداروا وابتعـدوا كارهين.

ابتسمت لي وأنا أحاول أن أتمالك نفسي، قالت:

- الأحوال في السراية هذه الأيام ليست على ما يرام، توجد مشاكل كثيرة.

وأضافت في اعتذار:

- من الأفضل أن ترجئ زيارتك حتـى يتصـل بـك نادر.

تجرأت وسألتها مخافتًا من صوتي:

- كيف حال (ش)؟

قالت ببسمة صغيرة:

- بخير، لا تقلق عليه.

وأوصلتني إلى قرب مكتب الأمن، وقالت:

- لا أستطيع للأسف أن أوصلك إلى الباب الخارجي.

خرجت وأنا نهب القلق.. أية مشاكل بالسراية؟.. هـل وقعت محاولة جديدة لاغتيال المعلم؟

نادر شوقي

وصلت إلى السراية متأخرا في الصباح. وعند العيادة الخارجية استوقفني أحد الأصدقاء، وقال بصوت شبه هامس:

- وقعت محاولة لاغتيال الرجل الكبير.

وأسرعت دقات قلبي:

- الرجل الكبير؟!.. أي رجل؟

- الصديق فكري سالم.

واستبدت بي الدهشة.

- ومن الذي حاول اغتياله.

- الصديق حسان.

وزادت دهشتي، فحسان صديق غائب واحد من مجموعة وائل، وفي الأيام الأخيرة كان يستولي على أشياء النزلاء خاصة الغائبون منهم عن الوعي... ما الذي دفعه لمحاولة اغتيال فكري سالم؟

وقال الصديق:

- تربص به وهو يجتاز الباب الفاصل بين العام والاقتصادي، وأمسكوا به وهو يوشك أن ينهال عليه بقطعة حديد كبيرة، ضربوه وحبسوه في العنبر المهجور.

واندفعت إلى الداخل.

وقف وائل في طريقي وقد بدا وجهه شبه غاضب:

- هل علمت بما حدث؟.. أوشك الخائن حسان أن يقتل الصديق القائد.

قلت وأنا أبتعد عنه:

- إنه واحد من رجالك.

قال:

- لقد أدلى باعترافات خطيرة ثم حاول التراجع عنها.

ذهبت إلى العنبر المهجور دون أن أتوقف في طريقي لمحادثة أحد، وعلى باب العنبر كان يقف صديقان من شـلة وائل وواحد من شلة نمرود، حاول أحدهم منعي من الدخول فأزحته من طريقي.

كان حسان مقيد اليدين بحبل غليظ وقد أوشكت عينـاه نصف المغمضتين أن تختفيا خلف الأورام والكدمات، وكـان جلبابه ممزقًا، وداميا.

قال بلهجة توسل:

- صدقني أيها الصديق الأخصائي لم أكن أنوي قتـل موظف الأرشيف، وائل هو الذي خدعني، طلـب منـي أن

أتظاهر بمحاولة القتل، قال إنها لمصلحتنا، لمصـلحة الـذين يقومون بحماية الأستاذ. هو الذي رسم الخطة وأعطاني قطعة الحديد ثم أمسكوا بي وانهالوا علي ضربا، واتهمني وائل أمام الأصدقاء بمحاولة القتل.

ودفع برأسه إلى الوراء.

- صدقني أيها الصديق الأخصائي.

قلت:

- يقال إنك أدليت باعترافات خطيرة.

- لا لم يحدث، ولم أخبر أحدا بما فعله وائل إلا أنت.

وأضاف مهددا:

- إذا أصر وائل على اتهامي سأقول كل شـيء عـن فضائحه.

قلت:

- سأطلب تشكيل لجنة تحقيق محايدة، ويمكن أن تقول لها كل شيء.

تركته وأنا أتساءل عن هدف وائل من تمثيل محـاول اغتيال فكري سالم، وعما يقصده بالاعترافات الخطيرة، هل

يمكن أن تكون هذه الحادثة فرصة لإدانة وائل وإبعاده عـن حراسة المعلم وحل مجموعته؟

كان الأصدقاء في حالة غليان. الكثيـرون غاضـبون لمحاولة الاغتيال لرفضهم أسلوب الاغتيـال فـي ذاتـه أو لاستهداف المحاولة حياة فكري سالم. وكان ثمة من لا يخفون أسفهم لفشل المحاولة.

استوقفتني مجموعة من الأصـدقاء عنـد الكـانتين، وسألني أحدهم:

- ما رأيك في محاولة الاغتيال؟

قلت بشيء من الحدة:

- المفروض أننا ضد الاغتيال سواء استهدف صـديقًا أو عدوا.

وسب صديق حسان فتساءلت:

- أليس من المفروض أن نتأكد أولا أن حسان حـاول الاغتيال فعلا.

وتساءل الصديق:

- ماذا تعني؟

قلت وأنا أبتعد:

- لا أعني شيئًا، المفروض أن يكشف التحقيـق كـل شيء.

وقال صديق مستنكرا:

- أي تحقيق؟.. لقد رأيناه وهو يحاول قتـل فكـري سالم.

نويت أن أذهب إلى فكري سـالم بحجـرة الأرشـيف وأخبره بما قاله حسان، وأطلب منه تشكيل لجنة مـن غيـر مجموعتي وائل ونمرود للتحقيق معه.

والتقيت بالوقاد، أخبرته بما قاله حسان فرجح صـدقه، وقال إنه رأى وائل وعددا من زملائه بالقرب من الباب عند مرور فكري سالم، وإنه بمجرد أن هم حسان برفـع قطعـة الحديد انقضوا عليه، ولم يبد هو أي قدر من المقاومة.

ودخلت ثلاثة عنابر للقاء أصـدقاء مـن مجموعتنـا الجديدة، وعند الظهر كنت في طريقـي إلـى مبنـى الإدارة واستوقفني وائل، قال وهو يبتسم:

- هل عرفت القرارات الجديدة التي أصدرها الرجـل الكبير؟

- أي قرارات؟

- فصل حسان، وإخراجه من السراية، وفصل خمسة أصدقاء، ومضاعفة عدد مجموعتي وعدد مجموعة نمرود.

وكبرت بسمته:

- وإبعادك عن مسئولية العمل بالسراية.

وهززت رأسي:

- ألم يقرر فصلي من جماعة الأصدقاء أنا الآخر.

- ليس بعد.

وهممت بالسير فشب بصدره إلى الأمام:

- لقد أصبحت أنا المسئول عن العمل بالسراية.

وقاومت غيظي:

- تهنئتي لك.. أنت أهل لها.

وأمسك بذراعي فأزحت يده، وقال:

- عليك أن تخبرني بكل المعلومات التي تخص نقـل المسئولية إلي.

واستدرك:

- لا يهم.. نمرود مسئول جهاز الاتصال يعرف كـل شيء.

وقبل أن أبتعد عنه قال:

- اسمع يا نادر، أرجو أن تراعي قواعد الانضباط. أنا لا أريد الصدام معك لأننا كنا أصدقاء.

ولم ألتفت إليه.

اندفعت إلى مبنى الإدارة، وعلى الدرج كـان فكـري سالم واقفًا يحدق إلى الأمام وقد شبك ذراعيه خلف ظهـره، وبدا بقامته الربعة ووجه المزموم الشـفتين الـذي لا يشـي بتعبير أشبه بتمثال.

من يوميات الصديق المجهول

١٩٨٦/٩/٧

وجدتني في ميدان بالغ الرحابـة، أرضـه خضـراء، وتقوم حوله أبنية بيضاء أنيقة في نوافذها الزهور، والحمـام الأبيض يطير ويتقافز حولي، والشمس برتقالة كبيرة تسترق النظر من الشرق، وثمة موسيقى بالغة الرهافة تطوف فـي سماء الميدان. تمشيت في الميدان، شربت من نافورة في قلبه رحيقًا لم أشرب أعذب منه فانتشيت، ابتسمت للعشاق الـذين يتفرقون في كل الأنحاء، يتبادلون العناق والقبل، لمحت حبيبة الصبا التي لم تبادلني الحب أبدا تقبل مـن ناحيـة الأبنيـة البيضاء بنظرات حيية خجول، وفي وجهها الحلو البسمة التي أحببتها وأسرتني دائما. أسرعت إليها، مدت ذراعيها فأخذتها إلى صدري فرحا. وفي قلب الميدان، في الـدفء والأنغـام وجدتنا في لحظة واحدة نخلع ثيابنا كلها ونمـارس الحـب، وقبل أن نصل إلى ذروة الفرح حاصرنا عدد مـن الرجـال بوجوه نحاسية جهمة وخوذات حديدية، وفي يد كـل مـنهم شيء بين السهم والبندقية. وانحل عناقنا، باعدوا بيني وبـين حبيبتي، ودفعوني أمامهم. ناديت الحبيبة فلم يخرج صـوتي،

قلت للوجوه الجهمة إنني وحبيبتي لم نرتكب جرما، فقط كنـا نمارس الحب فكشرت الوجوه الصماء، ساقوني إلى سرداب معتم إلا من عين مصباح صفراء متلصصة، علقوني علـى صليب، وأشار من يبدو أنه رئيسهم إلى صدري، إلى موضع القلب فاندفعت إلى قلبي طعنة حادة فصـرخت، اسـتيقظت صارخًا وأنا أتصبب عرقًا.

نظرت حولي فرأيتني في العنبـر المعـتم بمصـباحه الأغبش الشحيح. والنزلاء نيام فوق الأسـرة وعلـى أرض العنبر الخربة.

رأيت صديقًا كهلا مقرفصا في سريره ودافنًا رأسه بين ذراعيه. تنبهت إلى أنني رأيته في جلسته تلك طوال مسـاء الأمس. توقفت عيناي على الصديق الذي شغل فراش أبي ذر الغفاري بعد نقله من السراية، والذي تدروش وأطلق لحيتـه وراح يصلي في فراشه دون توقـف وفـي غيـر مواقيـت الصلاة، كان يرجع وينهض بطريقة آلية غائبا عن كـل مـا حوله.

خرجت من العنبر.

جلست في غبشة البكور عند الباب. كان الفناء الواسع خاليا، لم يكن إلى وقت قريب يخلو مـن الأصـدقاء، كـان الأصدقاء يسهرون، ويتناقشون، ويضحكون طوال الليل. مر شهاب بلحيته الكبيرة وشعره المنكوش وأسماله البالية وقدميه الحافيتين، كان يرفع رأسه ويحدق في السماء ويتمتم بشـفتيه وهو يسرع في خطوه. خطر لي أنني قد أصبح مثله في يوم من الأيام فارتجفت.

اتجهت إلى فناء الاقتصادي. كانت نافذة (ش) مفتوحة وتشع بالضوء وكان اثنان من زملاء الحراسة يستندان فـي استرخاء إلى سور قسم النساء ويغمضان عيونهمـا، وعلـى مقربة منهما لمحت ثلاثة من النزلاء لم أرهم من قبل جالسين إلى جانب فناء العام. نظرت إلى نافذة (ش)، لمحت وجهـه يقترب ويبتعد من قضبان النافذة. خطر لي أن أدخل إليه، أن أراه وأحادثه، وأخبره بأحوال الأصدقاء فاتجهت إلى المبنـى وقلبي يرتجف، وما كدت أقترب من البـاب حتـى رأيـت النزلاء الثلاثة يقفون في وجهي ويحيطون بي:

- ماذا تريد؟

تساءلت، هل هذه الوجوه التي لا أذكر أنني رأيتها من قبل وجوه أصدقاء؟.. وكشرت وجوههم، ودفعني واحد منهم بيده فتراجعت، ابتعدت وأنا أنظر إلى نافذة (ش) خائبا.

ومرق نور في الفناء، نظر إلى نافذة (ش) واختفى بين أبنية الاقتصادي. وعلى درج مبنى الإدارة كان بلال يحـدق إلى النافذة وقد انطفأ بياض جلبابه.

سرت إلى البوابة الخارجية وضوء النهار يحدد ملامح الأبنية والأشجار، وادهشتي وجدت عم فارس جالسـا علـى دكته الخشبية، وعلى مقربة منه يقف جندي الحراسة مستندا إلى بندقيته ومغمضا عينيه. كنت أعرف أن عم فارس واحد من أقدم الأصدقاء، وكنت أحبه بالرغم من أننا لـم نتبـادل حديثًا يخص (ش) من قبل، وتمنيت أن أجلس إلـى جانبـه وأحادثه.

فاضل زكي

١٩٨٦/٩/١١

الليلة الماضية كان دوري في النوباتجية فذهبت إلـى السراية عند الغروب. كانت حدة الموجة الحارة لـم تنكسـر بعد، والأشجار العالية الواقفة فـي غبشـة الغـروب تبـدو كالكائنات الخرافية المهولة، وكان الحزن يغاف نفسي وقلبي مثقلا. واصلت سيري إلى الداخل، تذكرت تلك الأيام البعيدة التي كنت أقبل فيها على السراية نشيطًا متلهفًا إلـى رؤيـة المعلم أفكر فيما سأناقشه فيه، رمقني موظف مكتـب الأمـن الواقف عند باب المكتب نظرة فاحصة. كـان مبنـى الإدارة رابضا في مكانه عتيقًا وعفيا، والصـمت يمسـك السـراية بقبضته فلا تفلت منها إلا أصوات واهنة وتمتمات كالحفيف، كان بعض النزلاء ومنهم أحد الأصدقاء جالسين أمـام أحـد أبنية الاقتصادي. التقت عيناي بعيني الصديق فخفض رأسـه وحرك يده بشيء على تراب الفناء. كانت نافذة غرفة المعلم مفتوحة والضوء الأصفر تقطعه قضبان الحديـد السـوداء. تساءلت، ماذا يفعل المعلم الآن؟.. لم يكن وائل أمام المبنـى. كان ثلاثة من زملائه يتفرقون في الفناء، واحد يتمشى فـي

تكاسل وفتور، والثاني يجلس على حجر وقد خفض رأسـه، والثالث يستند إلى سور قسم النساء المواجه، وكان جـاليليو جالسا على الأرض لصـق السـور الفاصـل بـين العـام والاقتصادي، وقد أمسك بقطعة من تلسكوبه المكسور، نظـر إلي ونكس رأسه. تمثلت لي وجوه يوحنا المعمدان وزكريـا وإيبوور يحدثنا عن الثورات التي قام بها شـعبنا وشـعوب العالم. عبرت الباب إلى فناء العام.

كانت العتمة تشيع في الفناء الواسع إلا من مصـابيح قليلة مسلولة متفرقة، والعنابر الخمسة جاثمة علـى الأرض بأبوابها الكبيرة المفتوحة على ظلمة الداخل، تذكرت أنني لم أدخل بعض العنابر منذ شهور. كان بعض النزلاء يتفرقـون في الفناء، وبعض الأصـدقاء يسـيرون بوجـوه مضـببة، يتحادثون بأصوات لا تسمع.

أمام عنبر (٢) كان رزق يسير بخطى وئيدة متوكئـا على عصاه، وقد بدا رأسه معتما. نظر إلي، وواصل سـيره دون أن يتوقف. وأمام عنبر (٣) كان عـدد مـن النـزلاء الملتحين يتهامسون وقد تقاربت رؤوسهم.

مررت من أمام عنبر (٤)، كانت النافذة التـي اعتـاد الأنبا شنودة أن يقف فيها ويتكلم عن جند الرومان ودفاعـه عن الوثني والمسيحي خالية، تمثل لي وجه الصـديق الـذي تقمص شخصية أبي ذر، والذي درست معه أسابيع شخصية وأقوال ذلك الثائر.

- عجبت لرجل لا يجد قوت يومه ولا يخرج شـاهرا سيفه.

عندما نطقها أول مرة قلت له باسما:

- لا تنطقها بغضب شديد لأن من سـيكونون حولـك أصدقاء ونزلاء يجدون قوت يومهم، وإن لم يكن وافرا.

رأيت الصديق عمر جالسا إلى جانب باب عنبره يمسح زجاج نظارته، هب واقفًا فوقعـت نظارتـه علـى الأرض فالتقطتها له، قال بارتباك وعيناه تطرفان:

- الأوضاع بالغة السوء أيها الصديق.

لمحت وائل ونمرود يتهامسان بين عنبر (٤) وعنبـر (٥).

مر بي بلال بخطو سريع، نظر إلي ولم يتوقف. تذكرت الصديق العجوز إبراهيم الذي لازم المعلم منذ بداية الطريقة.

في غرفة الغلال ذات الضوء الشاحب بمطبخ السراية كان جالسا منحني الظهر يمسك بغربال وينقي الحبوب. لم يحس بي عند دخولي. كانت طاقيته توشك أن تسقط من رأسه الأصلع المتفصد بالعرق. رفع إلي عينيه، ونهض بتثاقل، قال بصوت خفيض:

- كيف حالك يا دكتور؟

قلت متنهدا:

- كما ترى يا عمنا.

تذكرت يوم التقيت به عام ١٩٦٨ في حجرة صغيرة على سطح أحد البيوت القديمة في الجزء الفقير من رمل الإسكندرية لأرتب معه إخفاء المعلم بعد هروبه من السراية ريثما يرحل إلى الخارج، أيامها كان ما يزال يحتفظ بالكثير من قوة الفتوة القديم. لم أكن أعرف في اللقاء الأول أنه شارك المعلم خطواته الأولى.

نظر في وجهي ولم يتكلم، حاولـت أن أبتسـم، قلـت كلمات لا محل لها:

- اعتن بصحتك يا عمنا.

ذهبت إلى العنبر الصغير. كانت زهور عباد الشـمس الذابلة تنحني في الضوء الأسيان المتسرب من باب العنبـر، وفي الداخل كان نور واقفًا يحدق فـي ثبـات إلـى ضـوء المصباح المتدلي من السقف، والصديقان اللذان كلفا بحراسته يرقبانه بتأهب وتحفز، وعندما اقتربت منه نظر إلي بعينيـه السوداوين الواسعتين، وخفض رأسه، واتجـه إلـى فراشـه وتمدد عليه.

درت حول العنبر، اتجهت إلى عنبر عزل المجـانين. كان العنبر الكبير ملقى في الظلمة في نهاية السراية لا يلوح منه بصيص ضوء، والرائحة الكريهة تفح من حوله، تذكرت يوم دخلته مع فارس زايد منذ أربعة عشر عاما. أيامها قلنـا إننا لابد أن نغير أحوال نزلائه قبل أن نخرج بـ (ش)، وإننا سنعمل ليعيش كل نزلاء السراية في أبنية عصرية مجهـزة بما يليق بالإنسان. ها قد مرت الأعوام دون أن نفعل شـيئًا حقيقيا لنزلاء السراية، وبقي هذا العنبر كما هو.

عدت إلى فناء الاقتصادي.

رغبت في رؤية المعلم. نادرا ما كنت أزوره في الليل في أثناء النوباتجية حتى لا أثير الشكوك حولي.

كان مستلقيا على السرير ووجهه صوب النافذة، أحس بدخولي، ونظر إلي بجانب عينه، وأشار لي بذراعه الناحـل إشارة واهنة فأخذت كرسيا وجلست أمام الفراش. كان شعره الفضي الطويل يحيط بوجهه الذي لم تفارقه وسامته، بـدت عيناه الواسعتان متعبتين، وجسده الممدد في الفراش وكأنـه ازداد نحولا عما كان في زيارتي الأخيرة منذ ثلاثة أيام.

تساءلت:

- كيف حالك يا معلمي؟

رنا إلى قضبان النافذة، وقال بصوت واهن:

- قلبي اليوم متعب.

هممت بالوقوف:

- ثمة دواء و...

وحرك إصبعه رافضا:

- لا.. لا.. اجلس يا فاضل.

حدق في السقف، مرت لحظات صمت وأنـا أتأمـل الوجه الحبيب وقد زحفت إليه الغضون، رفت علـى وجهـه بسمة صغيرة متعبة:

- هل تذكر أول لقاء لنا يا فاضل؟

وسارعت بالقول:

- أجل.. كان في ظهر الرابع عشر من يوليـه عـام ١٩٤٦.

وكبرت بسمته قليلا:

- ياه.. أتذكر حتى تاريخ اليوم؟!

قلت:

- -وأذكر كل ما دار فيه، أذكر كل شيء.

وتنهد تنهيدة عميقة:

- كم من السنين مرت؟.. أربعون؟!.. كم من الأعمال أنجز فيها؟

قلت أصطنع الحماس:

- أنجز فيها الكثير.. أصبح لنا............

ومال برأسه ناحيتي، رمقني بنظرة عتاب غائم:

- أتذكر المرة التي حاولت فيها أنت وفارس والنجاتي إخراجي من السراية؟

قلت خجلا:

- وقف في طريقنا أصدقاء كانوا يرون رأيا آخر.

وتساءل بصوت خفيض:

- لماذا لم تكرروا المحاولة؟

لزمت الصمت، لم يفارقني الإحساس بالذنب منـذ أن فشلت المحاولة لأنني منعت فارس والنجاتي من التصدي لمن دفعهم فكري سالم في طريقنا.

عندما أخبرت (ش)، حين أعادوه إلى السـراية عـام ١٩٧٢ أننا اخترنا فكري سالم رئيسا لنا عقد ما بين حاجبيه، وقال بشيء من عدم الرضا:

- لا بأس إذا كان هذا قراركم.

كان فارس يريد أن أكون أنا الرئيس، ورفضت لأنني كنت أقدر لفكري ثقافته وخبرته وإخلاصـه، كنـت أقتـدي بمعلمي فلا أسعى إلى رئاسة، كان عددنا قليلا، ولم يخطـر لي أيامها أنه يمكن أن تمضي علينا أعوام طويلة في السراية دون أن نخرج المعلم.

قال المعلم:

- في العامين الأخيرين فكرت مرات في الهروب لكنني كنت أخشى تدخلكم، وإلحاق الضرر بكم.

وارتسمت على وجهه بسمة حزن أسف.

- في المرتين اللتين حاولت فيهما الهروب كنت أحسب حساب الإدارة والأمن ثم أصبحت أحسب حسابكم أنت قبل أي شيء آخر.

تذكرت ما يقوم به نادر، قلت:

- سنبذل كل ما نستطيع لتخرج في أسرع وقت ممكن.

وأغمض عينيه، وهمس:

- كيف حال فارس ونادر؟.. لم أرهما منذ وقت طويل.

قلت:

- فارس يحرس البوابة الخارجية ولا يستطيع زيارتك، ونادر مشغول بالعمل بين الأصدقاء.

هممت بأن أخبر المعلم بكل شيء، ولكنني قاومت نفسي حتى لا أثقل عليه.

ظلت عيناه مغمضتين، وطال صمته. قلت محاذرا:

- هل ثمة كتابات جديدة؟

وأشار بيده ناحية المائدة الصغيرة:

- توجد ثلاث أوراق.

تساءل وأنا أفتش عن الأوراق في الملف الموضـوع على المائدة.

- أين يكمن الخطأ؟... في...

نظرت إليه في انتظار أن يكمل، وطال الصمت، رأيت وجهه مغمض العينين غافيا وصدره يعلو ويهبط في هـدوء فتسحبت خارجا بالأوراق.

وما كدت أبتعد خطوات عن مبنى المعلم حتى لحق بي أحد الأصدقاء، همس لاهثًا:

- قُتل الوقاد... وجدناه مهشم الرأس خلـف العنبـر الصغير.

يوميات امتناع (ش) عن الطعام

في صباح الخامس عشر من سبتمبر عام ١٩٨٦ رفض (ش) تناول طعام الإفطار.

كان الممرض الذي يقوم بحراسته في ذلك اليوم من الأصدقاء الذين يعرفهم (ش) جيدا، وكان (ش) يمتنع أحيانًا وعلى فترات متباعدة عن تناول وجبة أو وجبتين في اليوم الواحد، فلم يلفت رفض الإفطار نظر الصديق الممرض.

وعندما أدخل ذلك الصديق وجبة الغداء إلى (ش) أشار له آمرا بالخروج بالطعام، وحين هم بالكلام أعطاه (ش) ظهره دون أن ينطق بلفظ. وفور انتهاء نوبة الصديق الممرض سارع بإبلاغ الدكتور فاضل في العيادة الخارجية بما حدث فأسرع الدكتور فاضل إلى مبنى (ش).

وفيما يلي يوميات الامتناع عن الطعام كما روتها الأقوال والمذكرات والوثائق المتاحة:

اليوم الأول

دخل الدكتور فاضل حجرة (ش)، وكان (ش) واقفًا أمام النافذة التي يتشابك فيها الحديد. وعندما اقترب منه

فاضل التفت إلى الوراء، وحدجه بنظرة طويلـة غامضـة، وعاود النظر عبر قضبان النافذة.

تقدم فاضل متهيبا، وتساءل:

- لماذا لم تتناول طعامك يا معلمي؟

ولم يرد (ش).

قال فاضل:

- صحتك لا تحتمل الامتناع عن الطعام.

ونظر إليه (ش) نظرة طويلة أخرى حار فاضل فـي تفسيرها في الأيام التالية، واستدار (ش) إلى النافذة.

قال فاضل برجاء:

- أرجوك.. من أجل صحتك.. من أجلنا.

ولم يلتفت (ش) إليه.

طال وقوف فاضل الحائر. بدا المعلم وشعره الفضـي ينسدل على كتفيه أشد نحولا وهزالا عن آخر مرة رآه فيهـا منذ أربعة أيام، انتظر لعل المعلم ينظر إليه أو ينطق بكلمـة، ولكن أرعبه جمود المعلم وصمته. خشي أن يكون قد أصيب بحالة ذهول مرضية، قال له:

- أنا فاضل تلميذك وصديقك القديم.

واتجه (ش) إلى المائدة الصغيرة، جلس عليها شـاردا وظهره لفاضل.

ولم يجد فاضل بدا من الخروج.

بحث عن نادر في أنحاء السراية فلم يجد له أثرا. كان نادر في ذلك الوقت مع سعيد السـاعي فـي أحـد الأبنيـة المهجورة يناقشان خطة نور للهروب، وكان فكري سالم قـد انصرف في مواعيد الانصراف الرسمية فاتجه فاضل إلـى فارس زايد عند البوابة الخارجية فلم يجده هو الآخـر علـى خلاف عادته. وجد الصديق الذي يلازمه بتعليمات من فكري سالم، ولم يكن ذلك الصديق يعرف علاقة الـدكتور فاضـل بالأصدقاء، ولم يشأ الدكتور فاضل أن يسأله عن مكان فارس فغادر السراية إلى بيت فكري سالم.

بادره فكري سالم بالتأنيب على حضوره إلى بيته فـي هذا الوقت لخطورة ذلك على أمان عملهم فاشتد به الغضب، ولكنه تمالك نفسه، وأخبره بامتناع المعلم عن الطعام، وبمـا حدث في اللقاء الذي تم بينهما. استمع فكري سالم في البداية بهدوء ثم بدت عليه الدهشة والانزعاج، وتساءل:

- هل يعني هذا إضرابا عن الطعام؟

فقال الدكتور فاضل متوترا:

- لا أعرف إن كان إضرابا أو غيره، المهم أن صحته لا تحتمل الامتناع عن الطعام وجبتين أو ثلاث.

وزم فكري سالم شفتيه:

- ألم يبلغك بأي مطالب؟

- قلت لك إنه لم يرد علي بكلمة واحدة، المهم الآن أن نفعل شيئًا.

حاول فكري أن يهدئ فاضل زكي:

- سأذهب بنفسي لمقابلته، المهم الآن أن نتكتم الخبـر عن الجميع حتى نجد مخرجا.

وأضاف مهونًا من الأمر:

- لقد دخل (ش) إضرابات كثيرة عـن الطعـام فـي السجون والمعتقلات. تجاوز أكثرها العشرين يومـا دون أن يحدث له شيء. كان معروفًا أن صحته على درجة كبيرة من الاحتمال.

قال فاضل بضيق:

- ولكن صحته الآن بالنظر إلى سنه وظروف حبسـه لا تحتمل إضرابا ليومين أو ثلاثة.

وقال فكري سالم وهو يودع الدكتور فاضل:

- لا تقلق.. سنجد حلا في الغد.

كان فكري سالم نفسه قلقًا، ولكنـه قـرر ألا يكـون الإضراب وسيلة ضغط تجبرهم على محاولة خروج فاشلة قد تؤدي بحياة (ش).

وذهب فاضل إلى بيت فارس زايد.

وجده جالسا إلى مائدته مستغرقًا فـي عمـل أبنيتـه الخشبية، وعندما أخبره بإضراب (ش) عـن الطعـام تـرك فارس ما بيده وحملق إلى فاضل في ذعر دهش، وسرعان ما انطفأ الذعر والدهشة في عينيه، وحل محلهما شرود أسيان، ونكس رأسه، ولم ينطق بكلمة.

حاول فاضل أن يستفزه للكلام فبـدا وجهـه الأسـمر الممتلئ مكتئبا ومغلقًا ثم غامت عيناه بالدموع.

سأله فاضل عن نادر ووداد فقال بصوت لا يكاد يسمع إنهما خرجا معا، ولا يعرف مكانهما ولا متى يعودان.

وعاد فاضل إلى السراية بالرغم من أنه لم يكن عليـه الدور في النوباتجية في تلك الليلة، وبرغبة لا تقاوم نزل إلى فناء الاقتصادي ثلاث مرات، وقف طويلا يحملق إلى نافـذة

(ش) المغلقة، وعندما سأله وائل في المرة الثالثة عما يريـد قال له في جفاء وهو يبتعد:

- لا شيء.. لا شيء.

ولم ينم حتى الصباح، وفي تلك الليلة انتحر عمر خاف عنبر (٤).

اليوم الثاني

ذهب فكري سالم إلى السراية مبكرا، دخـل حجـرة الأرشيف، وأجرى عدة اتصالات بوائل ونمرود، وفي الثامنة إلا الربع وقف على درج مبنى الإدارة ممسكًا بملـف (ش)، وفي غطاء من تجمع كثيف من الأصدقاء في الفناء اندفع إلى المبنى الصغير.

لم يكن قد رأى (ش) منـذ شـهور طويلـة. أدخلـه الممرض الجالس عند الباب باعتباره أحـد مـوظفي الإدارة لأنه لم يكن يعرف حقيقة علاقته بـ (ش) والأصدقاء.

كان المعلم جالسا إلى المائدة الصغيرة واضعا رأسـه بين كفيه، وعند دخول فكري نظر إليه نظرة سريعة:

بدا وجه (ش) لفكري سالم عندما نظـر إليـه مليئًـا بالغضون وشاحبا وكأنه شاخ سنين.

اقترب فكري سالم ببسمة صغيرة:

- سعدت صباحا يا معلمي.

ولم يرد (ش).

- لماذا لم تتناول طعامك؟

ورماه (ش) بنظرة حادة ارتعش لها فكري ثـم أشـاح عنه.

لم يرمه المعلم بمثل هذه النظرة من قبل. غضب واحتد عليه مرات نادرة في خلال الثلاثة والأربعين عامـا التـي عرفه فيها، ولكن دوما كان في نظرته عتاب أو لوم أكثر مما فيها من غضب أو حدة. قاطعه ورفض مرات أن يكلمه فـي أثناء زيارته بعد تدخله لإحباط محاولة فاضل وفارس وعلي النجاتي، ولكنه لم يوجه إليه مثل هذه النظرة أبدا.

خطر له أن يمد يده إلى كتف المعلم، أن يسترضيه، أن يقول له إنه لم يقصر يوما تجاهه، وأنه دوما كان وفيـا لـه ولأفكاره، ولكنه لم يجرؤ على مد ذراعه، وبدا وجه المعلـم متجهما، ضائقًا بوجوده.

- هل لك أي مطالب نسارع بتحقيقها؟

ونهض (ش)، اتجه إلى النافذة، ووقف أمامها جامدا.

وأيقن فكري سالم أن (ش) لن يقول له كلمـة واحـدة فقال محرجا:

- سنحاول إخراجك في أسرع وقت ممكن.

تراجع خارجا. وطلب من الممرض الجالس أمام الباب ألا يدخل أحدا من الأصدقاء إلى (ش)، فحملق إليه الممرض الصديق دهشًا لأنه لم يخطر له من قبـل أن فكـري سـالم موظف الأرشيف يمكن أن يكون واحدا منهم.

كان نادر قد علم في الصباح بامتناع (ش) عن الطعام فخشي أن يؤدي ذلك إلى عرقلة محاولتهم لإخراجه خطر له أن يدخل إلى (ش) ولكنه خشي أن يثير هذا شكوك فكـري سالم. طلب من حسام تشديد الحراسة على المبنى بصـرف النظر عن وجود وائل وزملائه، وذلك بأن يدفع بأكبر عـدد من أصدقاء مجموعتهم إلى فناء الاقتصادي، وعندما علم من أحد زملاء نمرود برغبة فكري سالم في الدخول إلـى (ش) طلب من حسام مشاركة أصدقاء مجموعتهم في عمل غطـاء لدخول فكري سالم آملا أن يتمكن فكري مـن إقنـاع (ش) بالعدول عن الإضراب.

وحين خرج فكري كان نادر واقفًا إلى جوار السور الفاصل بين فناء الاقتصادي والعام، لمح الوجه المتجهم لفكري فأيقن من فشل مسعاه.

وعند الظهر أبلغته وداد بأن فكري سالم أخبرها بعد خروجه من مبنى (ش) أنه سيعقد في المساء اجتماعا للجنة القيادة لبحث الموقف من امتناع (ش) عن الطعام، وأنه يأمل في حضور أبيها وفاضل ونادر، وللفور سارع نادر بالذهاب إلى الدكتور فاضل بالعيادة الخارجية.

وجد الدكتور فاضل جالسا إلى مكتبه يبدو عليه الشرود والتعب، أخبره بما قالت وداد فعقد فاضل حاجبيه متفكرا ثم قال:

- ليس لدي مانع من الحضور، وليت فارس يحضر هو الآخر.

وذهب نادر إلى البوابة الخارجية، رفض فارس زايد في البداية بشدة، ولكنه إزاء إلحاح نادر قبل الحضور على مضض على أن تكون المرة الأخيرة.

وفي المساء التقى فكري وفارس وفاضل والدمياطي ونادر في بيت أحد الأصدقاء، ولم يحضر الدكتور سمير.

دخل فارس دون أن يسلم على أحد. ألقى بتحية المساء بصوت خفيض، وجلس إلى جانب فاضل الذي كان يتبـادل حديثًا خافت الصوت مع نادر، وفي الناحية الأخـرى مـن المائدة كان فكري يجلس إلى جانب الدمياطي. ابتسم فكـري لفارس ولكن فارس لم ينظر إليه وظل وجهه متجهما.

نظر نادر في ساعته، وقال موجها كلامه لفكري سالم:

- لنبدأ الاجتماع.

ونظر فكري في ساعة يده، قال وهو يحاول أن يبتسم:

- لننتظر نصف ساعة حتى يحضر الدكتور سمير.

ومرت نصف الساعة، وفي أثنائها كان فكـري سـالم قلقًا ينظر إلى باب الحجرة بين لحظة وأخرى، وأخيرا نظـر في ساعته، وقال وقد بدا متوترا.

- يبدو أنه لن يأتي.. لابد أن عذرا قاهرا منعـه مـن الحضور.

قال نادر:

- لابد من إخراج المعلم في أسرع وقت، خلال يومين أو ثلاثة.

وقال فاضل بصوت خفيض بدا متعبا:

- لابد أن نفعل شيئًا قبل أن تسوء حالته ويتعذر علينا إخراجه من السراية.

وابتسم فكري سالم فقال فاضل مؤكدا:

- لابد أن نفعل شيئًا لـ (ش) قبل أن يموت.

وسارع الدمياطي بالقول بشيء من الحدة:

- (ش) لا يمكن أن يموت.

وحدجه فاضل بغيظ:

- ولماذا لا يمكن أن يموت؟.. أليس هو بشرا مثلنا؟

فقال الدمياطي وقد احمر وجهه وصلعته:

- (ش)...

وقاطعه فكري سالم:

- علينا أن نعمل فعلا على إخراجه في أسرع وقـت ممكن، ولكن دراسة خطة الهروب، وتدبير أمورنـا خاصـة خارج السراية لابد أن يستغرق أياما لا تقل عن أسبوعين.

وسارع نادر بالقول:

- خطة نور محكمة وقد درستها جيدا، ويمكن تـدبير الأمر داخل السراية في يوم واحد، وفي الخـارج لا يحتـاج

الأمر إلا إلى مخبأ آمن لـ (ش) يبقى فيـه ريثمـا نرتـب أحوالنا.

ومال فكري سالم بصدره إلى الأمام وشبك أصابع يديه في قبضة واحدة على المائدة:

- لا ينبغي أن نتعجل، يجب ألا يفرض علينا امتنـاع (ش) عن الطعام التسرع الذي يمكن أن يعرضـنا للخطـر، وأعتقد أن الأمر الهام الآن هو أن نحافظ على وحدة صفوفنا، وألا يعلم أحد من الأصدقاء بامتناع (ش) عن الطعام.

وحدق إليه فارس وفاضل ونادر، وتململ فارس فـي جلسته، وارتعش كفه، وتساءل فكري سالم:

- ما رأيكم في أن نبذل محاولة أخـرى لإقنـاع (ش) بالعدول عن الإضراب حتـى نقـوم بالترتيبـات اللازمـة لخروجه؟

واندفع نادر قائلا:

- لنجر تصويتًا على اقتراحي بتنفيـذ خطـة نـور، وإخراج المعلم خلال ثلاثة أيام.

فقال فاضل:

- أجل.. لنطرح اقتراح نادر للتصويت.

وخفض فكري سالم رأسه، ثم نقل بصره بين الثلاثة، وقال ببسمة صغيرة:

- ولكن رأيكم أنتم الثلاثة استشاري لأنكم استقلتم من اللجنة.

ونهض فارس وغادر الحجرة دون كلمة، ولحق به نادر ثم فاضل الذي حدج فكري سالم بنظرة حادة، وهم بأن يقول شيئًا ولكنه استدار وخرج.

في الطريق سار نادر وفارس صامتين، خطر لنادر أن يبذل فارس محاولة مع المعلم حتى يعدوا لخروجه خلال أيام قليلة، قال فارس:

- لن يستمع المعلم إلي، وليس لدي القدرة على مواجهته والحديث معه في هذا الظرف. لم أدخل إليه منذ فترة طويلة.

فقال نادر متحمسا:

- أنت الوحيد الذي يمكن أن يستمع إليه.

وتردد فارس، بدا أنه يميل إلى الفكرة، تساءل:

- وكيف يمكنني الدخول؟

فقال نادر:

- سأدبر أنا أمر دخولك.

وطلب نادر من فارس زايد أن يذهبا لمقابلـة بعـض أصدقائه وأصدقاء أبيه. وبعد شيء من التردد وافق فـارس، واتجها إلى شبرا الخيمة. ذهبا إلى بيوت ثلاثة من أصـدقاء فارس القدامى، وكان واحد قد سافر إلى إحدى بلاد النفط من سنين، ومات آخر، وأبدى الثالث استعداده لاستضـافة (ش) في بيته عدة أيام، واتفق معهما على أن يصحبهما في الغـد للذهاب إلى أصدقاء آخرين يعتقد أنهم ما زالوا على ولائهـم لفكر (ش).

اليوم الثالث

بكر فارس ونادر في الذهاب إلى السراية، وفي العنبر المهجور خلع فارس ملابسه، وارتدى ملابس ممرض، واتجه بخطوات ثقيلة ولكنها واثقة إلى مبنى (ش) ونادر يرقبه مـن بعيد.

فوجئ فارس باثنين من الرجال المسلحين بالرشاشـات يقفان بباب المبنى. ارتبك، فكر في التراجع لكنه تمالك نفسه واجتاز الباب دون أن يتعرض له الحارسان.

بدت الدهشة على الممرض الصديق الذي يقوم بحراسة حجرة (ش) عندما رأى فارس زايد في ثياب الممرضين، هم بالكلام فحدجه فارس بنظرة محذرة فسارع الممرض بفتح الباب، وأغلقه على (ش) وفارس.

وبعد ثلث الساعة خرج فارس من المبنى، ويقول كل من رآه من الأصدقاء إنه كان يبدو ذاهلا يتلمس طريقه بصعوبة.

لحق به نادر في العنبر المهجور، وخلع فارس ملابس التنكر دون أن ينظر إلى نادر أو ينطق بلفظ، ولما سأله نادر عما دار بينه وبين (ش) تلفت حوله، وهمس متعجلا:

- سأخبرك فيما بعد.

واتجه إلى البوابة الخارجية، وهناك وجد ضابطًا وثلاثة جنود مسلحين بالرشاشات، وجلس على دكته الخشبية دون أن يلتفتوا إليه.

عاد نادر إلى فناء الاقتصادي، مر من أمام حسام، طلب منه أن يقابله هو وسعيد الساعي عند توزيع الغداء في العنبر المهجور، ودخل بعض أبنية الاقتصادي، تحدث مع عدد من الأصدقاء عن ضرورة العمل لخروج (ش) في

أسرع وقت ممكن. رفض البعض بحجة حتمية فشـل أيـة محاولة في تلك الظروف، ولم يلق البعض الآخر بـالا إلـى كلامه، وهاجمه صديقان بحدة باعتباره واحدا من المسئولين عن كل ما حدث لهم ولـ (ش).

وفي العيادة الخارجية انتهى الدكتور فاضل سريعا من فحص الإيراد الجديد وهو يكاد أن يكون غائب الذهن. وأخذ يفكر فيما يمكن عمله إزاء إضراب المعلم وموقف القيـادة، وأرهقه التفكير دون أن يصل إلى شيء.

وفي حجرة الأرشيف كان فكري سالم يفكر في خطـة محكمة لخروج (ش) والأصدقاء، وكان الدمياطي في الكانتين يوزع وارد الزيارات من الأغذية والملابس. وقد قال أصدقاء إنهم كانوا يرون بعض النزلاء يأخذون منه لفافـات كبيـرة ويمضون بها صوب بعض العنابر.

وعند الظهر توجه كبير الأطباء إلى مبنى (ش) بـأمر من مدير السراية، وأدخله الممرض الصديق دون أن يغلـق الباب، وقال الممرض لنادر بعد ذلك إن كبير الأطباء سـأل (ش) عن أسباب إضرابه عن الطعام فلم يلتفت إليه، وعندما

سأله عما إذا كانت له مطالب يريد تحقيقها رماه (ش) بنظرة قاسية.

وانتهى نادر من جولته إلى العنبر الصغير، وقد بقـي على توزيع الغداء نصف الساعة.

كان نور جالسا في فراشه ووجهه الأسود يشع بـوهج خفي، ولم ينظر إلى نادر عندما وقف أمامه.

وهمس أحد الصديقين اللذين يقومان بحراسة نور بناء على تعليمات فكري سالم بأن نور أصابته نوبة حـادة فـي الليلة الماضية، وقال كلاما غريبا بصوت صارخ.

جلس نادر أمام نور فأفسح له مكانًـا، وضـم سـاقيه بذراعيه إلى صدره، ونظر إليـه نظـرة حاشـدة بالحـب والدموع، وابتسم، تساءل نادر عما إذا كان يمكن أن يخبـر نور بالمحاولة التي يعدون لها لخروج (ش) والأصدقاء مـن السراية.

قال نور بنظرة الحـب التـي سـطعت بهـا عينـاه السوداوان:

- لك مني تفاحة حمراء.

ثم مال عليه هامسا:

- أتعرف نظرية الأشكال الهندسية؟.. أتعرف دلالات المثلث، وعلاقات المثلثات ببعضها، ولماذا أخذت أهرامـات بلادنا شكل المثلث؟

وتنهد نادر، نظر في حدقتي نور المتسعتين فتسـاءل نور بخفوت:

- هل تعرف نظرية الإيقاع؟

وتنبه الصديقان الحارسان لهمس نور لنادر فأرهف كل منهما أذنيه، قال نور:

- بقدر ما يكون الإيقاع متسقًا مع نفسه ومع الإيقاعات الأخرى تكون قدرة الإنسان وحريته.

نظر إليه نادر بعجز عن الفهم وحزن لحالته فقال نور وهو يميل بجذعه نحوه:

- استمع إلي، في بعض الأوقـات لابـد أن يمـارس الإيقاع فعله الكامل، فعل الاسترخاء والراحة والجذب والشد، وفي أوقات أخرى تكمل الإرادة فعل الإيقاع، وثمة لحظـات تكون الكلمة الأولى فيها للإرادة.

فكر نادر في القيام، ولكنه أراد أن يستمع إلى أكبر قدر من كلمات نور فثمة حكمة خلف الكلمات لا يدركها الآن.

وابتسم نور بسمة إشفاق، وقال هامسا:

- لن أحدثك الآن عن لغة المجرات والنجوم والكواكب والخلايا والذرات فهذه تحتاج لأيام لشرحها، هل تعرف لغـة اللون؟.. هل تعرف أن اللون قد يسعدنا، وقد يحيينا أو يقتلنا؟

وخفض نادر رأسه فقال نور بأسى:

- أنت يا صديقي تنقصك معرفة الكثير.

وهم نادر بالقيام فأمسك نور بذراعه:

- تذكر الرقمين ٧، ٨ إنهما شفرة السر، وسر الشفرة، ومن جمعهما وطرحها وقسمتهما تعرف حقائق كثيرة.

وما كاد نادر يصل إلى باب العنبر حتى سـمع نـور يصيح:

- يا من يعطيني ليأخذني.

وفي العنبر المهجور التقى نادر بسعيد الساعي وحسام، تناقشوا سريعا، وأقروا الخطة التي كان قد وضـعها نـور، وقرروا أن يحددوا في الغد موعد التنفيذ علـى أن يسـتكمل نادر اتصالاته بالخارج، ويقوم حسام وسعيد بتقسيم الأصدقاء إلى مجموعات تختص كل منهما بعمل محـدد فـي عمليـة الخروج.

وعندما اقترب نادر من الكانتين لمح الدكتور المصيلحي واقفًا أمام الباب يحادث الدمياطي، توقف يراقبهما، وبعد دقائق انصرف المصيلحي في اتجاه عنابر العام فأسرع نادر إلى الدمياطي، وفاجأه بالسؤال:

- ماذا كان يفعل ذلك الطبيب هنا؟.. ماذا كان يدور بينك وبينه؟

وابتسم الدمياطي:

- إنه واحد منا، لقد ضمه الدكتور سمير إلينا منذ أيام.

ودهش نادر:

- ولكن أنا والدكتور فاضل لا نطمئن إليه.

فقال الدمياطي وقد كبرت بسمته:

- لقد وافق فكري سالم على ارتباطه بنا، ومن يدري لعله يصبح واحدا من أعضاء لجنة القيادة.

وتحرك نادر ذاهلا.

وفي أثناء توزيع الغذاء تجمع النزلاء الملتحون من العنابر الخمسة وأبنية الاقتصادي في عنبر (٣) الذي يشرف عليه الدكتور مهران، وطردوا كل النزلاء، ومن قاوم منهم

ضربوه. كل ذلك والدكتور مهران دهش وعاجز عن فعـل شيء. تقدم إليه واحد منهم، وقال:

- ليس لك مكان هنا بعد اليوم أيها الكافر، لا تـدخل هنا مرة أخرى. ألجم الدكتور مهران، وهرول إلـى كبيـر الأطباء، وأبلغه بما حدث فقال له كبير الأطباء بصوته نصف النائم:

- لا تخلق لنا المشاكل يا دكتور، دعهـم يفعلـوا مـا يريدون.

تساءل الدكتور مهران:

- والمرضى؟

فشوح كبير الأطباء بيده:

- اتركهم لهم، واعمل في قسم النساء وحده.

وتمترس الملتحون في العنبر بالعصى وقطع الحديد.

وفي المساء تجمع عدد كبير من الأصدقاء أمام مبنـى (ش)، وافترش أكثـرهم الأرض وعيـنهم معلقـة بالنافـذة المضاءة.

خرج من العنابر وأبنية الاقتصادي أصدقاء لم يخرجوا منها منذ شهور. وحاول وائل وبعض زملائه إبعـادهم مـن

أمام المبنى فلم يستجب له أحد، ورماه بعضـهم بالاتهامـات فابتعد وزملاؤه عنهم.

وظهر نمرود، مشى بين بعض الأصدقاء وهو يحملق في وجوههم فترامت إليه السخريات والإهانات فابتعد، ووقف إلى جانب سور قسم النساء.

وأذن بلال أذان العشاء بصوت شجي أدهش الأصدقاء وآثار شجونهم. وكان قد فتش عن نادر عند الظهيرة وتحادث معه، وانضم إلى مجموعته.

وذهب نادر إلى بيت فارس زايد لاستكمال جولتهمـا بين الأصدقاء القدامى فلم يجده، وأخبرته وداد أنه منذ عـاد إلى البيت أمس وهو ذاهل لم يبادلها كلمة. سألها عما إذا كان قد أخبرها بما دار بينه وبين المعلم فقالت، إنها سألته فنظـر إليها نظرة حزينة ولم ينطق بلفظ.

وجاء فارس، بدا متهدل الكتفين شاحبا، طلب منه نادر الخروج لمقابلة الأصدقاء فنظر إليه نظرة تائهـة، وخـرج معه، والتقيا في تلك الليلة بصديقين، رفض أحدهما أن يقـدم شيئًا بحجة ظروفه الخاصة، ووعد الثـاني بالبحـث خـلال يومين عن مكان يمكن لـ (ش) أن يختبئ فيه لفترة طويلة.

وفي مساء ذلك اليوم كتب فكري سالم:

"اجتمعت اليوم أنا والدمياطي والدكتور سمير لأعرض عليهما مشروع خطة لإخراج (ش) من السـراية، وعـرض الدكتور سمير ضم الدكتور المصيلحي إلى لجنة القيادة بحجة أن وضعه في السراية يمكن أن يسـهل لنـا إخـراج (ش)، ويمكن لعلاقاته ببعض المسئولين أن تفيدنا خارج السـراية. وعارضت أنا على أساس أننا لم نعرفه معرفة كافية، وإنـه وإن كان وفق ما يبلغنا به الدكتور سمير قريبا من أفكارنا إلا أنه يختلف مع ما هو أساسي في فكرنا. وعرض الاقتـراح للتصويت، وانضم الدمياطي إلى سـمير، وتقـرر أن يعقـد اجتماع مساء الغد في بيت الدكتور سمير ويحضره الـدكتور المصيلحي.

أشعر بالقلق الشديد لانضمام الدكتور المصيلحي إلـى اللجنة، وأفكر في عدم حضور الاجتماع، والعمـل وحـدي لتنفيذ خطة الخروج.

وفي أول الليل سار نور في عنبره، مشـى خطـوات بطول العنبر ومثلها بعرضه ثم وقف في زاوية وقد عقد مـا بين حاجبيه، وأخذ يحرك قدميه وهو يغمغـم بكـلام غيـر

مسموع، يلصق كعبيه ليعمل زاوية مثلث، ويحركهما ليعمـل زاوية أخرى. بدا وهو ينظر إلى قدميه حائرا مرة وعـاجزا أخرى وملتمع العينين باسما مرة ثالثة وكأنه يبحث عن زاوية معينة ثم زاد التماع عينيه، وكبرت بسـمته، واتجـه إلـى سريره، تمدد عليه، وشد قامته باستقامتها. وبعد لحظات هب منتفضا، وصرح وهو يلوح بذراعه:

- احذروا كعب أخيل أو يهوذا.. احذروا كعب أخيـل أو يهوذا.. احذروا كعب أخيل ويهوذا.. احذروا.. احذروا.. احذروا.

وارتمى على سريره وعيناه تبرقان حتى لتوشـكان أن تخرجا من محجريهما، وذراعاه ترتجفان بشدة.

وخشي الحارسان أن يكون كلام نور موجها إلى أعداء برموز سرية فاقتربا منه وراقباه بحذر شديد.

وفي تلك الليلة هرب ثلاثة من الأصدقاء من السراية، وقتل أحد زملاء نمرود، ولم يعرف قاتله.

اليوم الرابع

كان الجو ينبئ منذ الصباح الباكر عن يوم فاتر مـن أيام سبتمبر، وفي ساعة مبكرة خرج كل الأصدقاء وكثير من

النزلاء من العنابر وأبنية الاقتصادي، وافترشوا الأرض أمام مبنى (ش) وعيونهم مشدودة إلى نافذة حجرته المغلقة.

وصل فكري سالم إلى السراية في تمام الثامنة، احتسى قهوته اليومية، ومارس لوازمه المعتادة، وأخرج ملـف (ش) وأطال النظر إلى صورته ثم راح يفكر.

كان قد التقى ليلة أمس بمجموعة من أصدقاء الخارج، وتناقشوا طويلا في أمر الخروج وإمكانياته. وبالرغم من أن معظم الأصدقاء الذين تناقشوا معهم تحمسوا للعمل الســريع لإخراج (ش) وأصدقاء السراية، إلا أنه تردد في اتخاذ قرار بشأن خطة الخروج التي وضعها لأنه كان يرى أن الأمـاكن المتوفرة في الخارج لاختفاء (ش) ليست آمنة مائة في المائة.

وتسال إليه نمرود، قدم إليه تقريرا سريعا عن أحـوال السراية، وأبلغه أن الأصدقاء غاضبين وقلقين علـى صـحة (ش)، وأنهم أصبحوا معادين بشكل ظاهر له ولوائل حتى أنه لولا حكمتهما لنشبت مشاجرات كثيرة.

وفي العيادة الخارجية استرعى انتباه الدكتور فاضـل كثرة العناصر السيكوباتية التي تقف بباب حجـرة الكشـف، خطر له أن يترك العيادة، فكر في الذهاب إلى (ش)، تساءل،

هل يمكن أن يتكلم معه اليوم؟.. طلب من الممرض أن يطلب من الواقفين بالباب الحضور في اليوم التالي، واتجـه إلـى مبنى (ش)، وعندما هم بالدخول أوقفه الحارسان، قال لهمـا إنه الطبيب المختص بعلاج نزيل المبنى فدفعه أحدهما بيـده في جفاء وهو يقول:

- عندنا تعليمات بعدم دخول أحد إلا بتصريح معتمـد من مباحث أمن الدولة، نقل نظرة غاضـبة بـين الـوجهين المتجهمين الجامدين، واندفع إلى مبنى الإدارة. اقتحم غرفـة المدير فتلقاه الوجه المصقول جامدا بدون الابتسامة المرسومة المعتادة، وجابهه بالقول:

- صدر قرار بإشراف الدكتور جميل المصيلحي على علاج الهدام الذي كنت تشرف على علاجه، وتقـرر منـع دخول المبنى لغير الدكتور المصيلحي.

وتلوت على شفتيه بسمة ساخرة:

- لقد كبرت يا دكتور، يكفي عملك بالعيادة الخارجية.

وجز الدكتور فاضل على أسنانه، وتمالك نفسه وخرج.

اتجه إلى حجرة الأرشيف ليخبر فكري سالم بـالقرار الجديد، توقف مترددا في الممر المفضـي إلـى الأرشـيف،

وخرجت وداد من حجرة السكرتارية فسألها عن مكان نـادر فأخبرته أنها لا تعرف مكانه فطلب منها أن تبلغ نادر وفكري بقرار الإدارة فبدا عليها الانزعاج، ووعدته بإبلاغهما.

سار فاضل في فناء الاقتصادي، رأى حشد الأصـدقاء والنزلاء أمام المبنى، اقترب منه نمرود وهو يبتسم فأشـاح عنه بوجهه، وأمام الكانتين رأى الدمياطي يناول أحد النزلاء صرة كبيرة وهو يتلفت خارج الكانتين حذرا، تذكر ما أخبره به فارس عن مشاهدته للدمياطي خارجا بصرة كبيرة أكثـر من مرة. هم بالاندفاع إلـى الـدمياطي والنزيـل ليمسـك بالدمياطي متلبسا، ولكنه اعتصر قبضته وابتسـم بمـرارة، ومضى يبحث عن نادر وقد تثاقل خطوه.

وجد نادر واقفًا أمام عنبر (٥) يحادث أحد الأصدقاء، تنحى به جانبا وأخبره بالقرار الجديد، ومنع الحارسين له من دخول مبنى (ش) وما قاله له المدير، حملـق إليـه نـادر، وتفصد العرق من جبينه ، قال:

- لقد ضم الدكتور سمير ذلك الطبيب إلى الأصدقاء.

وضيق الدكتور فاضل عينيه، وخفض رأسـه ببسـمة يائسة.

قال نادر بإصرار:

- لنمنعه من الدخول إلى (ش) ولو بالقوة.

وهز فاضل رأسه:

- وما جدوى هذا الآن؟.. لقد فقدنا إمكانية الدخول إلى (ش) في هذا الوقت الحرج، وأصبح تحت رحمة ذلك الطبيب الذي لا نطمئن إليه.

والتمعت عينا نادر خلف زجاج نظارته، وقال بصوت أقرب إلى الهمس:

لقد رتبنا أنا وعدد من الأصدقاء لإخراج (ش) بعد أيام قليلة.

ونظر إليه الدكتور فاضل بأسى، وتساءل مخافتًا من صوته:

- وهل صحة المعلم تحتمل الخروج الآن؟

قال نادر:

- سنعجل بالخروج، وسنحمله حملا لو اقتضى الأمر.

- والحارسان؟

- سنتصرف معهما، الممرض الذي يحرس الحجرة من الأصدقاء.

وهمس فاضل بنظرة شاردة:

- أنا مستعد لتنفيذ كل ما تطلبه مني.

والتقى نادر بالدكتور مجدي في فناء العام، سأله مجدي عما ينوي فعله إزاء دخول إضراب (ش) اليوم الرابع فقـال نادر:

- ستعرف خلال أيام قليلة.

ونظر مجدي في عيني نادر، تساءل عما إذا كان نادر وأصدقاؤه سيسرعون في العمل لإخراج (ش)، ووجد نفسـه يقول بحماس:

- أنا على استعداد لفعل كل ما أستطيع من أجلكم.

وابتسم نادر:

- سأطلب منك ما نريده في الوقت المناسـب، ولـن ننسى سمراءك.

وما كاد نادر يخطو خطوات حتى وجد حجازي وعماد يسيران إلى جانبيه، همس حجازي لنادر:

- نريدك أيها الصديق دقيقة واحدة في أمر هام.

ومضى نادر معهما إلى الفضاء بين عنبر (٣) وعنبر (٢)، نقل بصره بين وجه حجازي الصغير العظمي ووجـه

عماد الممتلئ الداكن، لم يسترح لتعبير الوجهين، وقف متسائلا:

- ماذا تريدان؟

وارتفعت ذراع حجازي تهم بصفعه فأمسك بها، وهجم عليه عماد وطوق خصره، وفي نفس اللحظة رأى نادر من يهجم على حجازي وعماد ويوقعهما أرضا، وتنبه على غائب ورزق الذي يرفع عصاه مهددا، قال نادر بصوت خفيض آمر وقد خشي أن يراهم أحد:

- اتركاهما.

ونظر حجازي وعماد إلى غائب ورزق في غل، وهدداهما وابتعدا.

تساءل نادر وهو يبتسم:

- هل كنتما تراقبانني؟

وابتسم غائب:

- عرفنا بأمر المؤامرة عليك، وأردنا حمايتك.

وقال رزق ساخطًا وهو يشوح بعصاه:

- من أدخل هذه الأصناف إلى صفوفنا؟!

وقبل أن يغادر الدكتور فاضل السـراية فـي الثالثـة عصرا ذهب إلى نور. كان نور يقف إلى جانب نافذة العنبر وقد اتسخ جلبابه الأبيض. تأمل فاضل الوجه الأسود الوسيم، والعينين اللتين تشعان ببريق خاص.

وأطال نور النظر إلى الدكتور فاضل باسما، وجلـس في فراشه، وجلس الدكتور فاضل إلى جانبه:

نظر نور في عيني فاضل المركزتين عليه بانتباه:

- لا تفسروني بكلماتي وحدها.

وخفض فاضل رأسه، وهمس بأسى:

- ليتني حتى أستطيع تفسير كلماتك.

وحين هم الدكتور فاضل بالوقوف دمعت عينا نـور، وقال ببحة شجن:

- آه.. من يعرف الشوق المسافر؟.. من يعرف الجرح المسافر؟

وفي تمام الواحدة بعد الظهر التقى نادر وحسام وسعيد الساعي في أحد أبنية الممتاز التي تحولت من سـنين إلـى مكاتب مغلقة أو مهجورة، وأقروا خطـة نـور للخـروج،

وقرروا أن يكون تنفيذها بعد ثلاثة أيام في الساعة الواحـدة والربع ظهرا.

وفي المساء عرف أمين زاهر من مكالمة تليفونية مع الدكتور مجدي بأمر إضراب (ش) عـن الطعـام فأسـرع منزعجا إلى بيت فكري سالم الذي استقبله بتحفظ وفتور.

قال أمين متوترا:

- لابد أن نفعل شيئًا، أي شيء لإخراج (ش).

رسم فكري على شفتيه ابتسامة صغيرة:

- لا تقلق، أنت تعرف الإضرابات الكثيرة عن الطعام التي دخلناها في السجون والمعتقلات.

فقال أمين وقد زاد قلقه وتوتره من طريقة فكري:

- ولكنها كانت تنهك قوانا، والمعلم في سنه وظروفـه لا يحتمل الإضراب ولو لأيام.

سنعمل على خروجه خلال وقت قصير.

- وكيف يمكن خروجه إذا طالت أيام الإضراب؟

وبدا على فكري الضيق:

- سنخرجه بأية طريقة.

قال أمين:

- يمكن أن يختبئ المعلم في بيتي حتى تدبروا له مكانًا مناسبا.

وابتسم فكري بشيء من السخرية:

- أنسيت أبسط قواعد الأمان؟!.. أنسيت أنك سـجنت لأنك صديق لـ (ش)؟...

- المعروف عني أنني لا أمارس السياسة منذ تفـرق الأصدقاء في منتصف الستينيات.

- ومعروف أنك تبشر في كتاباتك بأفكار (ش).

وانفجر غضب أمين زاهر وقلقه:

- إذا ظل الأمر بيدك لن يخرج المعلم من هناك حيا.

واندفع خارجا.

أعماه الغضب، وشل فكره فراح يجـوب الطرقـات. وقف في أحد الشوارع تائها لا يعرف أين هو، خطرت لـه فكرة فانطلق إلى مكاتب التلغراف في أنحاء القاهرة، وبعـث بكثير من البرقيات إلى الصحف ووكالات الأنباء والمنظمات الدولية يناشدها التدخل لإنقاذ حياة (ش).

وفي تلك الليلة سمع البعض في السراية صوت نـور وهو يصيح:

- يا من ينظمني في فوضاي.. يا من يجمعني ليفرقني، ويفرقني ليجمعني.

وبعد أن ترك أمين زاهر فكري سالم كتب فكري في مذكراته:

"ترددت كثيرا في الذهاب إلى الاجتماع عصر اليوم، وأخيرا ذهبت لأعرف حقيقة أفكار وإمكانيات الدكتور المصيلحي، وما كاد الاجتماع يبدأ حتى طلب أن يعرف كل إمكانياتنا داخل السراية وخارجها ليبدي رأيه في طريقة خروج (ش) والأصدقاء. وانزعجت من الطلب الذي أيده الدمياطي والدكتور سمير فقلت إنني سأحضر في الاجتماع القادم خريطة لكل الأصدقاء والإمكانيات، واتفقنا على الاجتماع عصر الغد في بيت الدكتور سمير.

لن أحضر الاجتماع، وسأماطل في عقد أية اجتماعات، وأستكمل خطتي للخروج، وأقوم بتنفيذها مع وائل ونمرود".

اليوم الخامس

كان شديد الحرارة مشبعا بالرطوبة.

ومنذ الصباح تجمع عند البوابة الخارجيـة والسـور الأمامي للسراية عدد كبير من أهالي النزلاء وبعض أصدقاء الخارج.

كانت الزيارات قد منعت في اليوم الثالث للإضـراب، وتضاربت الشائعات حول سبب المنع. وأمام البوابة وقعـت مشاحنات ومشادات بين المتجمهرين والضابط الشـاب قائـد قوة الحراسة الذي بدا مزهوا بنفسه، وضائقًا بوجوده في ذلك المكان.

وفي التاسعة صباحا دخل الدكتور جميل المصـيلحي مبنى (ش) لأول مرة منذ عمله بالسراية. كان يرتـدي حلـة رمادية، وفي رقبته ربطة عنق حمراء، ومن خلـف زجـاج نظارته المؤطر بمعدن مذهب كانت عينـاه تلتمعـان بشـبه ابتسامة. وخرج بعد عشر دقائق، واتجه إلى حجـرة رسـام المخ الكهربائي دون أن يبدو في وجهه أي تعبير.

وفي طريقه قابله الدكتور مجدي عبد السلام، سأله عن حال النزيل (ش) فقال له بصوت مسموع وغاضب:

- يجب أن يفرجوا عنه فورا قبل أن يموت.

وقرب حجرة رسام المخ رأى الدكتور سمير فأخذه معه داخل الحجرة.

ونقل عن جاليليو الذي كان جالسا وسط الأصدقاء المجتمعين أمام مبنى (ش) أنه قال، بأنه سمع اثنين من النزلاء لم يكن قد رآهما من قبل في السراية يتهامسان إلى جواره وهما ينظران إلى نافذة (ش)، وقال أحدهما بغيظ:

- المخرب ابن الكلب. إنه يحدث المشاكل أينما وجد.

فهمس الآخر:

- ليس هو المهم الآن، لقد انتهى أمره، المهم هم أعوانه المندسون في المستشفى وخارجها.

وفي العاشرة تنبه بعض الأصدقاء إلى عدم وجود وائل أو أحد من زملائه أمام المبنى، وسرعان ما انقضت المفاجأة عليهم، لقد اختفى وائل وحجازي وعماد من السراية.. وكيف؟.. ومتى؟.. ولم؟.. لا أحد يدري، وتضاربت الأقوال في سبب اختفائهم، ولم يخرج نمرود من عنبره في ذلك اليوم. رقد في فراشه جريحا ومكسور الساق بعد أن اعتدى عليه بعض النزلاء في الليل، وأوسعوه ضربا.

علم فكري سالم بأمر اختفاء وائل وزميليـه وضـرب نمرود فشلت المفاجأة فكره، هرول إلى حجرة السـكرتارية، ومال على وداد هامسا:

- قولي لنادر أن يتولى مسـئولية العمـل بالسـراية وحماية (ش).

ورمته وداد بنظرة حادة:

- لا أظنه يوافق.

فقال بارتباك:

- بلغيه بهذا التكليف، أقصد أن تطلبي منه أنت ذلـك من أجل سلامة المعلم.

وعلم نادر باختفاء وائل من السراية، وبرغم المفاجـأة والتساؤلات أحس بالراحة لاختفائه هو وزميليـه فـي هـذا الوقت بالذات. وفي أثناء جولته لقي الدكتور مجدي واقفا أمام باب عنبره وهو ممسك بكتاب لأمين زاهر، وللفور خطر له أن يتيح للكاتب الصديق فرصة زيارة عنبر عزل المجـاني قبل مغادرتهم للسراية، ورأى أن يكون ذلك في نفـس يـوم خروجهم فقال لمجدي:

- يمكن أن تتصل بأمين زاهر ليأتي لزيـارة عنبـر عزل المجاني بعد غد في التاسعة صباحا.

قال مجدي:

- وهل ظروفكم تسمح بهذه الزيارة؟

فقال نادر:

- لنحقق رغبته في زيارة ذلك العنبر قبل خروجنا من السراية.

وخافت نادر من صوته:

- هل تستطيع أن تدبر مكانًا لسمرائك إذا خرجت بعد يومين أو ثلاثة؟

وحملق إليه مجدي، خطر له أن يأخذ السـمراء فـور خروجها إلى إخميم ريثما يجد حلا فقال متلهفًا:

- أجل.. يوجد مكان بالفعل.

فقال نادر وهو يبتعد:

- سأخبرك في الوقت المناسب لتخرج بها من مكـان أحدده لك.

وعند الأصيل ظل الجو خانقًا. لاذ الأصدقاء وبعـض النزلاء بظلال السور الفاصل بين الاقتصادي وعنابر العـام وبجدران أبنية الاقتصادي القريب من مبنى (ش).

وعند الغروب وقف حامد العطار وسط مجموعة مـن الأصدقاء المفترشين لـلأرض أمـام مبنـى (ش) وتسـاءل بصوت مسموع وهو يشير إلى المبنى:

- من أدرانا أن (ش) مضرب حقًا عن الطعام؟

وجذبه الأسيوطي ليسكته فقال وهو يتلفت حوله:

- هل رآه أحدكم في الشهور الأخيرة حتى نتأكد أنـه حي وأنه في المبنى فعلا؟

وخرج من بين الأصدقاء اثنان من الأشداء أمسكا به، ودفعاه إلى فناء العام.

وقيل إنه في ذلك اليوم ساءت حالـة الكثيـرين مـن الأصدقاء، فبعض الذين يتقمصون شخصيات معينة اسـتبدت بهم بالفعل سلوكيات وأقوال تلك الشخصيات، وبعض الـذين كانوا يتظاهرون بالاكتئـاب أصـبحوا مكتئبـين، وحـدثت مشاجرات بين بعض الأصدقاء بدون أسباب ظـاهرة، كمـا وقعت حوادث سطو على مقتنيات بعض النزلاء في العنـابر

واتهم بسرقة بعضها بعض الأصدقاء، ولوحظ أن شـهاب لا يترك الفناء نهارا أو ليلا، ويظل يدور أمام مبنى (ش) فـي حركة دائرية لا تتوقف.

وقيل إن الدمياطي قام أيام الإضراب بتهريـب جـزء كبير من وارد الزيارات الـذي كـان قـد ورد قبـل بـدء الإضراب، وبعض أغذية المتعهد لبيعها في الخارج.

وقبل أن ينصرف الدكتور فاضل زكي مـن السـراية اتجه في الثالثة عصرا إلى فناء الاقتصادي، تبادل النظر مع بعض الأصدقاء، وأطال التطلـع إلـى نافـذة (ش)، وعنـد خروجه من البوابة الخارجية وجد فارس زايد جالسـا علـى دكته في شرود، وجنود الحراسة قد زاد عددهم. تمهل أمـام فارس لعله يبادله النظر، ولكنه ظل في شروده.

وفي المساء تمدد نور في فراشه، وشد قامته، وأخـذ يدعك شعر رأسه بيديه بسرعة متزايدة سرعان ما تحولـت إلى سرعة متشنجة وقد جحظت عيناه البراقتان، ثـم عـرى فخذه الأيسر، وأخذ يدعكه براحة يده بشدة واعتصار وسرعة كأنه يقدح منه الشرر، وصوته يتعالى:

- يا أيها الوجد المسافر.. لا تسافر.. لا تسـافر.. لا تسافر.

وارتمى على الفراش هامدا وأغمض عينيه.

وبعد نحو الساعة فتح عينيه، وتطلع حوله، وسـرعان ما برقت عيناه، وعرى فخذه الأيمن وراح يدلكه بعنف:

- يا أيها الوجه المراوغ.. لا تراوغ.. لا تـراوغ.. لا تراوغ.

وتوقف لاهثًا وعيناه محملقتان في السقف.

وبعد نحو ثلث الساعة نهض من سريره كالذاهل، سار خطوات في العنبر ثم وقف أمام الصديقين الحارسين، ورفع ذراعه، وقال بصوت أبح غريب:

-أنا نبي هذا الزمان الكذوب.

جئت بلا أوان.

جئت..

وتوقف، تجعد جبينه، بدا وكأنه يعتصـر دماغـه ثـم ابتسم، وقال:

أنا نبي الإلكترون.

أنا نبي...

وتوقف مرة أخرى وعلى وجهه ألم العجز، واتجه إلى النافذة، رنا إلى السماء السوداء والقمر البدر، وبعد لحظـات عاد إلى الحارسين الواقفين في منتصف العنبر، وقف أمامهما وشعت عيناه بمزيج من الحب والإشفاق، وقال بصوت فيـه بحة شجية:

- أنا نبي هذا الزمان الكذوب.

جئت بلا أوانٍ.

جئت قبل اكتمال الحمل والولادة.

جئت بلا شهادة.

جئت في مسافة بين الوقت والجنون.

من يعرف المواقيت كلها؟

من يصدق في الشهادة؟

سأكون..

وأعطي وجهه للنافذة، وخفض صوته:

سأكون كطائر مسافر

بلا أفق

ليحترق

وسقط على الأرض مغشيا عليه.

اليوم السادس

استيقظ (ش) قبيل الفجر.

قال الصديق الممرض الذي كان بدافع القلق والفضول يوارب باب الحجرة أو ينظر من ثقب المفتاح إن (ش) أضاء نور الكهرباء واغتسل. غسل ذراعيه ومرفقيه، ومسح على لحيته، ومسد شعر رأسه الفضي الطويل عدة مرات. فعل ذلك وكأنه يقوم بطقوس خاصة ثم جلس إلى مكتبه وراح يكتب بسرعة وحمية وقد تألقت عيناه. وبعد نحو الساعة والنصف توقف عن الكتابة وفتح النافذة وراح يتمشى وقد بدا عليه النشاط، وعندما قدم إليه طعام الصباح آملا أن يأخذه منه هذه المرة تناوله منه ببسمة صغيرة، ووضعه إلى جانب الباب دون أن يمسه، وظل يتحرك بين المائدة والفراش ليكتب لحظات ثم يتمدد على سريره ووجهه صوب النافذة.

وتسرب خبر نوبة النشاط التي بدت على (ش) إلى الأصدقاء المرابطين في الفناء. فرح البعض لأنهم أملوا في عدول (ش) عن الإضراب، وزاد قلق البعض الآخر لأنهم رأوا أن صحته في اليوم السادس من الإضراب لا تحتمل الحركة وبذل أي مجهود، وأن عليه أن يفعل ما يفعله عادة

المضربون عن الطعام، وهو الاستلقاء في الفراش تجنبا لأي مجهود.

ورأى نادر وحسام وسعيد وأفراد مجموعتهم أن حالـة (ش) الجديدة يمكن أن تسهل تنفيذ خطتهم.

وفي نحو العاشرة صباحا كلف نادر صديقًا ممرضـا بإخبار (ش) بموعد وخطة الخروج، ودخل ذلـك الصـديق المبنى دون أن يعترض طريقه أحد، ولكن الممرض الحارس منعه من الدخول إلى (ش) تنفيذًا للتعليمات التي أصدرها لـه فكري سالم. ولم يضايق هذا نادر لأن الخطة التي تقوم على الهجوم الخاطف على مبنى (ش) وقت توزيع الغـداء علـى النزلاء من قبل أصدقاء تتوافر لديهم القوة البدنية والسـرعة وحسن التصرف متنكرين في زي عمال توزيع الغداء، وذلك في غطاء من أصدقاء آخرين وعدد من النزلاء يدفعون إلـى الفناء، والخروج بـ (ش) من فتحة يتم عملها فـي السـور الغربي للسراية حتى تكون في انتظارهم ثلاث عربات تسرع بهم إلى ضاحية من أطراف القاهرة، على أن يخـرج بعـد (ش) من يستطيع من الأصدقاء والنزلاء. وقد حددت لبعض أصدقاء الخارج أماكن تجمع بعيدا عن السراية يلتقون فيهـا

لتوزيعهم على عدد قليل من بيوت الأصدقاء الـذين أمكـن الاتفاق معهم.

كان نادر وزملاؤه قد أعدوا كل شيء بقدر لا بأس به من الإحكام والسرية، وحددوا لحظة التحرك بأذان بلال الذي كان عليه أن يطوف السراية ويكون ضمن آخر من يخـرج من الأصدقاء.

وقبل الظهر هبت عاصفة ترابية استمرت إلـى فجـر اليوم التالي، وبالرغم من ذلك لم يفارق كثير من الأصـدقاء أماكنهم أمام مبنى (ش).

لم يغادر فكري سالم حجرة الأرشـيف، ولا يعـرف الأصدقاء الذين أدلوا بشهاداتهم ما فعله، وما أصـدره مـن قرارات في ذلك اليوم.

وكان الدكتور فاضل زكي في العيادة الخارجية نهبـا للقلق والتوتر وقد أخبره نادر بموعد تنفيذ خطرة الهـروب، ولم يسند إليه أي دور فيها على أن يلتقيا في اليـوم التـالي للخروج في بيت أحد الأصدقاء ليأخذه إلى مكان (ش). كـان فاضل زكي قد أمضى الليل في السراية، لم يغف إلا لمامـا

غفوات قلقة حافلة بالكوابيس، وكان قد قرر ألا يغادر السراية حتى يخرج (ش).

كان فارس زايد جالسا عند البوابة الخارجية لا يلتفـت إلى أحد، بدا وكأنه في حالة غياب اكتئابي عما حوله، كـان يعرف خطة للهروب وموعدها. ولا يعـرف أحـد مـا دار بداخله في أثناء جلسته في ذلك اليوم، والتـي امتـدت إلـى المساء.

وعند الظهيرة صاح ديك صيحات متعاقبة. قال البعض إنهم سمعوا الصيحات، وقال آخرون إنهـم لـم يسـمعوها. وعندما تعاقبت الصيحات نهض نور مـن فراشـه ملتمـع العينين، ووقف وسط العنبر رافعا رأسـه ومرهفًـا أذنيـه، تساءل:

- لمن يصيح الديك؟

وعندما كف الديك عن الصياح مشى نور خطـوات، وتلفت حوله، وتساءل بوجه شارد:

- أي أيد تمسك بنا الآن؟

واتجه إلى أحد ركني العنبر من الناحية الشرقية ووقف فيه موليا له ظهره، وراح يحرك قدميه ويلصق كعبيه باحثًـا

عن زاوية معينة ثم توقف وهمس وهو يحدق إلـى قدميـه همسا يتصاعد حدة:

- أبن.. أفصح.. أبن.. أبن.. أفصح.. أفصح.

واعتصر قبضتيه وبدا العذاب على ملامـح وجهـه، واتجه إلى الفراش وهو ما يزال يعتصر قبضتيه.

وفي مستهل المساء نبحت كلاب نباحا عاليا متواصلا، وأعقب النباح صوت طلق ناري فهب نـور مـن فراشـه، وضرب الأرض بقدمه ضربة قوية، وصاح:

- لا تسافر.. لا تسافر.. لا تسافر.

وتطوح، وارتمى في الفراش.

وفي منتصف الليل فتح عينيه، وغادر فراشه وقد بـدا عليه هدوء غريب، وشع وجهه الأسود بالوهج الخفي. وتنهد تنهدة كبيرة وكأنه أزاح بها أشياء كثيرة من كيانـه، وقـال وبشفتيه شبه ابتسامة:

- ها هو الوجد يصالحني وأصالحه.. ها هـو الوجـد يصالحني وأصالحه.

وعقد ذراعيه على صدره، واتجه إلى حارسيه اللذين غادرا فراشهما ووقفا أمامه. ابتسم لهما، وخفض رأسه وهو يقول في حنو غريب:

- ما أنا إلا بشر مثلكم.. ونبي مثلكم.

ونقل عينيه بينهما، وتساءل:

- من منكم سيكون عن يساري، وأكون أنا عن يمينه؟

ونظر على النافذة وهو يقول وقد اختفت ابتسامته:

- لا أحد.. لا أحد الآن.

وتمدد في سريره.. وأغمض عينيه. وقبيل الفجر فتح عينيه، وتنهد وقال بصوت مسموع قد شف وجهه بابتسامة:

- يا لي من محظوظ لأنني مت مرات ومرات.

واتجه إلى النافذة.

كان في السماء التي يضيئها القمر البدري سحابات بيضاء، وكان في الأفنية عتمة. واستيقظ أحد الحارسين، وأيقظ زميله، وغالبا النوم، ووقفا خلف نور.

خفض نور رأسه، وسمعاه يقول بصوت خفيض شبه باك:

- وخذ مني عطيتي التي راوغت بها واحترقت، وامدد أصابعك وخذ بيدي فلقد تعبت.

وظن الصديقان الحارسان أنه يهمس بما يقول إلى أشخاص لا يريانهم فانقضا عليه واشتبكا معه في صراع ضار، قاوم نور بطاقة غريبة غير مألوفة وغير إنسانية، وفجأة حدثت زلزلة كبيرة وانفتح باب العنبر، واختفى نور في عتمة الأفنية.

وفي الصباح وجد على أرض العنبر الأسفلتية حشد هائل من النمل، وعلى قمة الباب المفتوح ثمة طائر صغير بألوان متعددة لا يعرف نوعه[٨].

اليوم السابع

بدأ هذا اليوم كأي يوم آخر من أيام نهايات الصيف التي تقترب من الخريف. كانت أنسام وانية تعبر الأفنية، والأشجار العالية تتمايل رءوسها قليلا، ومنذ الصباح شاعت

---

(8) هذا ما ذكره الحارسان الصديقان في شهادتيهما،وقد اختلفت الأقوال حول صحة ما قالاه، وقال البعض إن الحارسين هما اللذان مكنا نور من الفرار إلى مكان لا يعرفه أحد.

بين الأصدقاء الذين أمضى معظمهم الليل أمـام مبنـى (ش) حالة ترقب لآخر أخباره، وثمة حركة خفية ونشـطة كانـت تقوم بها مجموعة الأصدقاء التي تعمل لخروجه.

وقبل التاسعة بقليل خرج مجدي عبد السلام ليقابل أمين زاهر خارج السراية، وبعد دقائق دخلا وأمين زاهر يسـرع في خطوه وعليه علائم الاهتمام والتوتر.

كان فارس زايد واقفًا أمام باب حجرة الحراسة، وعدد من الجنود يقفون ببنادقهم إلى جانـب السـور، وضـابطهم الشاب يتمشى في الطريق الإسفلتي أمام البوابة.

ولنترك بعض الشهود يتحدثون بأنفسهم عن أهم أحداث ذلك اليوم.

نادر وأمين مجدي

اتجهنا ثلاثتنا إلى عنبر عزل المجاني.

هبت علينا ريح عفنة قبل الوصول إليه بمسافة كبيرة.

سددت طاقتي أنفي بإصبعي، وجاهدت لأمنع نفسي من التقيؤ، تحملها مجدي بحواس الطبيب الـذي يتعامـل مـع الإنسان حيا وميتًا، وبدا نادر الذي سبقنا بخطواته الواسـعة وكأنه لم يفاجأ بتلك الرائحة، واجتزنا الفناء الذي تتفرق فيـه المستنقعات وأكوام النفايات وأقراص البراز، ولاحت قامـة كبير الممرضين المديدة تملأ الباب وبين أصـابعه تتسـاقط حبات المسبحة.

استقبلنا الشيخ ببشاشته المعهودة وقـد تـورد وجهـه الأبيض، وأفسح لنا الطريق مرحبا ومعبرا عن إشفاقه علينـا لتحملنا مشقة زيارة العنبر الذي يقع في نهايـة السـراية ولا يرغب طبيب أو ممرض في الاقتراب منه، ابتسـمت لـه، وتفحصه أمين بنظرة طويلة، وبدا وجه نادر متجهما.

كانت الصالة الواسعة بين صفي الحجـرات عاريـة، ونظيفة، ولامعة، ورطبة، وكانت تتوسطها امرأة بالغة البدانة في وجهها المستدير الممتلـئ عينـان كبيرتـان جاحظتـان

وفاترتان كعيني البقرة تمسك بيديها عربـة طعـام معدنيـة فارغة يلتمع على قضبانها ضوء النيون الساطع.

تقدمنا الشيخ، أخذ مجموعة مفاتيح من المرأة البدينـة التي سالت من عينيها نظرة باردة. فتح الشيخ أول حجرة عن يمين الداخل، كانت بالحجرة الواسعة ستة أسرة فوقها حشيات داكنة يجلس على إحداها نزيل ممصوص وجهـه الصـغير الشمعي يبتسم وقد عقد ذراعيه علـى صـدره فـي وضـع متخشب، وكانت الجدران متسخة والأرضية خربة.

فتح لنا حجرة أخرى لا تختلف عن الأولى، نزلاؤهـا الأربعة ينامون فوق ملاءات داكنة يبدو أنها كانت في يوم ما بيضاء. ووضع الشيخ المفاتيح في جيبه، وقال مبتسما وهـو ينظر إلى نادر:

- كل حجرات العنبر مثل هاتين الحجرتين.

وكبرت بسمته:

- لقد أسعدتني زيارتكم.

تساءلت عن البشاعة التي تخيلتها عندما حدثني حـافظ عن هذا العنبر الذي عجز عن الإفاضة في الكلام عنه لقسوة ومرارة ذكرياته عن الأيام التي عاشها فيه.

قال نادر بإصرار هادئ:

- نريد أن نرى كل حجرات العنبر.

وابتلع الشيخ جزءا من بسمته:

- وما أهمية ذلك؟

ابتسم مجدي، وهم بالكلام فقال نادر بحزم:

- نحن الذين نقدر أهمية ما نريد أن نراه.

وابتلع الشيخ بقية بسمته، وحدق إلى نادر، وقال:

- لكنك لست طبيبا يحق لك دخول العنابر في أي وقت.

وأشار إلي بيده:

- والأستاذ غريب عن المستشفى.

فقال نادر بحدة:

- ليس هذا من شأنك.

وتدخل مجدي مهدئًا:

- لا تنس يا مولانا أنني طبيب بالمستشفى، والأستاذ نادر الأخصائي الاجتماعي بها.

وأسقط الشيخ بعض حبات المسبحة، وقال مكرها:

- أمرك يا دكتور... ولكن....

واشار إلى نادر:

- الأستاذ زار العنبر مرة من قبل.

فقال نادر:

- زرته مرات، وسأزوره في أي وقت أشاء.

نظر إلي الشيخ بعداء فقلت غدا نفضـح كـل شـيء، ويوما ما سيلغى هذا العنبر وتتغير السراية كلها.

أطلت من فرجة أحد الأبـواب رءوس حليقـة لأولاد بوجوه منغولية وشفاه مدلاة ببسمات بلهاء، وعيونهم تنظـر إلينا بفضول أخرس وأشل، والضوء ينزلق مـن رءوسـهم الحليقة إلى وجـوههم الشـاحبة الشـمعية. وحاولـت أيـادٍ لأشخاص غير منظورين أن تجرهم إلى الداخل.

كان أمين ينظر حواليه وكأنه يفتش عن شيء بعينـه، ونظرت أنا الطبيب إلى وجوه الأولاد الذين قدر لعقـولهم أن تغيب عن وعي العالم من الميلاد إلى الموت، وتساءلت، هل نقف حقًا على مشارف القرن الواحد والعشرين، ونحن نسجن أمثال هؤلاء هنا؟

تساءل أمين وهو يشير إلى الحائط القريب الذي تنتهي به الصالة الواسعة:

- أهذا كل عنبر عزل المجاني؟

فقال نادر وهو يحدق إلى الشيخ:

- لا.. توجد حجرات أخرى كثيرة.

قال الشيخ ببسمة ملتوية بالغيظ:

- لقد دخلتم من أحد الأبواب الخلفية.

تقدمنا نادر إلى باب في نهاية الصالة، ودفعه بيده فبدا ممر طويل خافت الضوء على جانبيه عدة أبواب.

أشار مجدي إلى باب مغلق مصفح كأبواب الزنـازين، وقال:

- افتح لنا لو سمحت هذه الحجرة.

اهتزت لحية الشيخ الشيباء، وعقد ما بـين حاجبيـه، نادى الممرضة البدينة بشيء من الحدة، وطلب منها مفتـاح حجرات الممر فقالت بفتور وبلادة عينيها البقريتين:

- المفاتيح كلها معك.

واحتقن وجه الشيخ، وأخرج مرتبكًا من جيب جلبابـه مفتاحا كبيرا كمفاتيح الزنازين، ودفع به فـي البـاب ويـده الممتلئة المشعرة ترتعش. ذكرني بسجان ضخم كنـا نمقتـه بسجن القناطر. وزمجر صرير صدئ كصرير فتح أبـواب

الزنازين الذي لم أنسه أبدا، وبدا نادر متحفزا، وكان بوجـه مجدي فضول يحاول أن يكون متحفظًا:

وفتح الباب على اتساعه، وسده الشيخ بقامتـه وهـو يقول:

- إنها للحالات الخطرة.

خطا مجدي إلى الداخل، ودخلت وراءه، وتبعنا أمين.

الجدران داكنة عالية، وفي أعلـى الجـدار المواجـه، وتحت السقف مباشرة طاقة صغيرة تتشابك فيهـا قضـبان الحديد، وفي أحد مربعات القضبان حشرت ملابس خضـراء بلون ملابس السجون. وتذكرت زنازين كثيرة مثلها.

رأيت بقع دماء متجمدة وآثار خدوش على الجـدران، تساءلت كطبيب، هل يمكن أن يودع مريض مهما كان خطره في مثل هذا المكان؟

استند الشيخ على الباب عابسا وحبات المسبحة تتساقط سريعة بين أصابعه، وقال بعصبية:

- لا شيء هنا يستحق النظر.

واستوقفنا صوت أنين.

أزحت الباب الذي يستند إليه الشيخ فالتمعت عيناه.

رأيناه على الأرض ممددا لا تستر البطانية الممزقـة بدنه العاري، صبي في نحو الخامسة عشرة تجحظ عيناه في وجهه الأسمر المنزوف والمليء بآثار الخدوش.

تذكرت ما يشاع عن شذوذ الشـيخ واعتدائـه علـى النزلاء من الصبيان والشبان الصغار، وحدق الصـبي إلـى الشيخ مرتعبا:

- أنام؟.. أنام؟.. هنام.

وأغمض عينيه ورموشه ترتعش.

رمى نادر الشيخ بنظرة متوعدة، وتساءل مجدي فـي غضب وهو يشير إلى الكوة في أعلى الحائط.

- كيف وصلت ملابسه إلى هناك؟

وضحك نادر بغيظ:

- بمعجزة من معجزات كبير الممرضين.

وتفصد جبين الشيخ بالعرق،وقال بارتباك غاضب:

- لابد أنه حاول إلقاءها بنفسه إلى الخارج.

وتفرس نادر وجهه، وهز رأسه:

- معقول.

وحدق مجدي في وجه الصبي:

- لا يبدو أنه مصاب بما يستدعي احتجازه بعيدا عـن العنابر.

وأشار نادر إلى زنزانة أخرى، وقـال للشـيخ بنبـرة آمرة:

- افتح لنا هذه الزنزانة.

طقت عينا الشيخ بالشرر وهو يقـف فـي طريقنـا، تساءلت، أهذا هو الشيخ الذي ظننتـه بلسـم النـزلاء فـي السراية؟

ودفع الشيخ يده، وفتح الباب وهو يقول بغل:

- سأريكم كل ما تريدون وأكثر.

كانت مجموعة من الآدميـين فـي أعمـار مختلفـة، مجموعة من الهياكل العظيمة تصطف في مواجهتنا، وتتضام إلى بعضها، وتحدق بعيونها الغائرة الغاربـة ببقيـا ذعـر، ارتعبت، قلت، تجاوزنا السجون إلى جحيم دانتي أو ما هـو أسوأ، واقترب مجدي ينقل بصره بدهشة مذعورة بين الهياكل العظيمة ثم حدق إلى الشيخ في غضب.

وأشار نادر إلى باب آخر وفي وجهه ألم قاس:

- افتح هذه.

ودفع الشيخ مفتاحه بعنف فانفتحت الزنزانة عن عفـن الموت.

كان شاب يتعذر تحديد سنه عاريا وممددا على الأرض العارية والذباب يكاد يغطي جسده وقروح وجهه المتقيحـة، وفي الركن المقابل شبه هيكل عظمي عار تفترعه جمجمـة عجوز تطل منها عينان زيتيتان جامدتان وقد تسـاقط أكثـر شعر رأسه.

وددت أن أفر، أن أصيح، أن أصرخ، تساءلت، لمـاذا أكتب ولماذا يكتب غيري من كتاب العالم؟.. أدركت مـدى سذاجتي وأنا أمارس عبث التكشير في وجه عالم لا أعرفه.

نظرت إلى صديقي، الكاتب والطبيب بازدحام مشاعر لم أتوقع أن ترهقني وقد رأيت في هذا المكان من قبل أسـوأ مما يريان الآن، قلت، حدقا جيدا في قاع العالم الذي تعيشان فيه.

واندفع الشيخ كمجنون يفـتح الأبـواب، وقـد رمـى بمسبحته على الأرض، وازدحم الممر بكثافة رائحة لم أشمها من قبل.

وعاد الشيخ لاهثًا، وقف أمامنا وعيناه تبرقان والعرق يتصبب على لحيته ووجهه المحتقن يكشـر بشـبه ابتسـامة ضارية متحدية.

حدق في وجوهنا وهز رأسه فانشقت الجـدران عـن قامات ثلاث فارغة ومدكوكة، فوق جذوع رقابها الغليظة ما يشبه الوجوه الآدمية.

حاصرتنا القامات، وتشنجت شفتا الشيخ ببسمة ظاهرة، وشامتة، ومنذرة، وأشار بيده إلى الخارج آمرا:

- شرفتمونا.. زيارة مقبولة.

ونقل بيننا نظرته المتقدة:

- أنتم بالطبع لم تروا شيئًا هنا.

تراجعت إلى الوراء، وانتفض أمين بالغضب، ونقـل نادر عينيه في ثبات بين الشيخ ووجوه القامات الثلاث، وقال متوعدا:

- سنخرج، ولنا عودة.

تبادل الشيخ ورجاله نظرات بشفرة خاصة، واحتد وجه نادر وتحفز، والتمعت عينا أمين، واختلط عنـدي الغضـب

بالخوف بالميل إلى التراجع، وأفسحت لنا القامـات طريقًـا للخروج.

وما كدنا نقترب من الباب وحولنا حصار الأربعة حتى اقتحمت صمت حصارنا ضـجة كبيـرة وأصـوات عاليـة وصرخات.

وأمام العنبر وفي نصف دائرة كان عـدد كبيـر مـن النزلاء، عيون تقدح بالشرر، وصـرخات، وأيـادي تلـوح بعصى وسكاكين وأواني.

رأيت وجوه أصدقاء كثيـرين مـنهم أصـدقاء مـن مجموعتنا الجديدة.

وصاح صوت:

- مات (ش).

ودوت أصوات صارخة:

- مات (ش).. مات (ش).

وارتفع صوت:

- قُتل (ش).

واندفعنا نعدو إلى مبنـى (ش) والنـزلاء يهرولـون بالصيحات والصراخ من كل الأنحاء.

(ش. ع)

اندفع نادر وأمين زاهر والدكتور مجدي عبد السـلام إلى مبنى المعلم، وكان أمامه حشد هائل من النزلاء، وكـان الباب مغلقًا يقف أمامه مع الحارسين المسـلحين عـدد مـن الممرضين الأشداء والعاملين بمكتب الأمن منعوا الثلاثة من دخول المبنى.

ورأيت نادر يمسك بذراع أمين زاهر الذي وقف ذاهلا ومرتجفًا يحملق إلى نافذة حجرة (ش)، وقال له:

- أرجو أن تغادر السراية فورا.

وردد أمين زاهر بصره الحائر بين نافذة (ش) ووجـه نادر الذي بدا متجهما ومتحفزا.

- ولكن....

فقال له نادر بإلحاح:

- اهرب حالا. ستحدث أشياء كثيرة الآن.

واتجه أمين إلى خارج السراية، واندفع نادر إلى مبنى الإدارة.

(خ. ك)

رأيت المعمدان واقفًا إلى الفناء يشوح بذراع، ويصيح:

- يا أولاد الأفاعي.. يا قتلة الأنبياء.

(م. ش)

اندفع نادر إلى مبنى الإدارة، وسرعان ما توقف عندما رأى فكري سالم في أعلى الدرج يمسك به اثنان من موظفي مكتب الأمن، وكان فكري سالم ينظر بوجه جامد الملامح بلا أي تعبير إلى مبنى (ش).

ولمح نادر خطيبته وداد خارجة مـن مبنـى الإدارة، وعندما التقت عيونهما أشار لهـا بـالهروب، وعـاد إلـى الأصدقاء والنزلاء المتجمعين أمام مبنى المعلم.

(ف. ع)

أمرنا نادر أنا وبعض الأصدقاء بالهروب من السراية في أسرع وقت من الفتحة التي عملها أصدقاء لنا في السور الغربي فأسرعنا إلى السور، وكنا نطلب من كل صـديق أو نزيل نعرفه أن يهرب معنا.

(خ. ش)

رأيت فارس زايد يقبل مهرولا إلى فناء الاقتصـادي، وعندما وصل إلى مبنى (ش) وقف متسـمرا فـي الأرض ومحدقًا إلى نافذة المعلم، وقد بدا وجهه الأسمر الممتلئ شديد الشحوب ثم خفض رأسه، وابتعد في الطريق إلى الخارج.

(ص. ش) ، (خ. ع) ، (م. م)

عندما أسرعنا إلى مبنى (ش) فور سماعنا نبأ موتـه، رأينا خاف المبنى الدكتور فاضل زكي يمسك بخناق الدكتور جميل المصيلحي ويصيح فيه:

- يا قاتل.

وخاص الدكتور جميل نفسه، وأسرع باتجـاه عنـابر العام.

ولم نكن نعرف أن الدكتور فاضل زكي من الأصدقاء، ورأينا الدكتور سمير يقف على مبعدة من مبنى (ش) ووجهه يخلو من أي تعبير.

(ف. ص) ، (س. خ)

كان بلال يدور في أنحاء السراية وهو يصيح نائحا:

- أُحد.. أُحد.

(ص. خ)

وأنا أسرع إلى الخارج رأيت المدير في نافذة حجـرة مكتبه المطلة على الفناء، والتي كانت نادرا ما تفتح، وإلـى جانبه رجل كهل عيونه زرقاء وكانا يبتسمان.

(ر. ف)

خرجت نسوة من قسم النساء، وقرفصن أمـام بـاب القسم باكيات، وسمعت إحداهن تندب:

على فرشـته واتبعتـر اللمـ ـون   أبو قلب جاسـر سـبل الغنـدور

وقالت أخرى:

يا قايله قولي على الغنـ ـ ـ ـدور   والتين لخضر بعتـره الـزرزور

وقالت ثالثة:

اسمك مليح خايفة يتـوه ويـروح   لا جيب خطيب ينزله فـي اللـوح

فاضل زكي

١٩٧٦/٩/٢١

اليوم قتل (ش) بحقنة هواء.

اختفى المثل من حياتنا.. ما جدوى الكتابة الآن؟.. ما جدوى الحياة نفسها؟

عقلي ما زال يبصر آفاقًا أخرى، ولكن شوقي وأحلامي وحياتي كلها انجذبت إلى ذلك الأفق الذي يختفي الآن.

إيزيس

يوم مات (ش) عاد أمين إلى البيت عند الظهر، كان منطفئ الوجه، وفي عينيه عتمة حزن لم أره فيهما من قبل، وفور دخوله انهار على أقرب مقعد منكسا رأسه، وعندما سألته بدهشتي وخوفي عما به جاءني صوته واهنًا:

- قتل (ش) ورأيت عنبر عزل المجاني.

ودخل غرفة مكتبة وأغلق بابها، وعندما تسللت إليه بعد لحظات رأيت عينيه تلتمعان خلف غمامة من الدموع.

وعند الغروب ارتدى ملابسه في عجلة وارتباك وهو ذاهل العينين مرتجف، سألته عن وجهته فقال إنه سيقوم بفضح جريمة اغتيال (ش) وما يحدث في عنبر عزل المجاني، عرضت عليه أن أخرج معه فرفض، واندفع خارجا.

وفي ساعة متأخرة من الليل عاد شاحبا هائش الشعر وعيناه تبرقان بريقًا غريبا، وقال لي بصوت متعب:

- ذهبت إلى كل مكان كان يجب أن أذهب إليه فلم يستمع لي أحد، ومت مرتين، ولكنني اكتشفت السر وبحت به لأوزوريس وأثناسيوس الرسولي والحسين وجيفارا.

ارتعبت. واتجه أمين إلى الفراش، ودفن وجهه في صدري.

ومرت نحو ساعتين استيقظ فيها وأغفى مرات ثم نهض وقد اتسعت عيناه بشكل غريب، وقال وهو يتجه إلى مكتبه:

- سأكتب كتابا عن (ش) والأصدقاء، وسأنتهي منه في ثلاثة أيام.

كدت أجن.

وجلس إلى مكتبه وأخذ يكتب ويمزق الورق محموما وهو يلتهم دخانات اللفافات.

جلست أنا وشوق وفرحة في الصالة نرقبه قلقات وعاجزات، وفي نحو الثانية صباحا خرج علينا، وصاح فينا:

- أنتم تحولون بيني وبين الكتابة، ولا يمكن أن أنتهي هنا من الكتاب الهام في الموعد المحدد.

حاولت أن أهدئه فصرخ:

- أنتم الآن في كفة والمستضعفون في كفة، وعلي أن أختار بينكم.

واندفع يرتدي ملابسه وهو يقول إنه سيسافر إلى الإسكندرية، ويقيم مع أحد الأصدقاء حتى ينتهي من الكتابة.

رجوته أن يبقى، اعتذرنا إليه، ووعدناه بألا ننطق بحرف لكنه أمسك بأوراقه وبعض الكتب وأصر على الخروج، توسلت إليه أن ينتظر حتى الصباح فرفض، عرضت عليه أن أسافر معه فأصر على الرفض، وأمام توسلي ودموعي قبل أن تسافر معه فرحه.

لم يغمض لي جفن. وفي الصباح اتصلت بـ (س.ح) أحب أصدقاء أمين نفسه، والذي يقيم بالإسكندرية فأخبرني

أن أمين عنده، وأن أحواله غريبة، ويقول كلاما غير مفهـوم فطلبت منه أن يستبقيه في بيته ريثما أسافر إليه، وسـافرت من فوري إلى الإسكندرية.

وعندما رآني أمين، وكان قد استيقظ لتوه مـن النـوم عانقني فرحا، وقال:

- مبـروك.. صـدق مـا خمنتـه، قامـت ثـورة المستضعفين.

فتساءلت في ذهولي:

- أي ثورة وأنت تعرف حال الأصدقاء وموت (ش)؟

فقال واثقًا:

- لا.. لا.. ثمة أصدقاء لا تعرفينهم، وقد اسـتخدموا وسائل علمية حديثة لشل عقول الأعداء، والتحكم فيهم مـن بعيد.

أمضينا عند الصديق ليلة رهيبـة. حـاول (س.ح) أن يقنع أمين بأنه لم تقم أية ثورة، ولم يحدث أي تغيير لكنه كان يقول بثقة:

- هم لم يعلنوا انتصار الثورة بعد، وسـتعرفان كـل شيء في أوانه.

كدت أصدق لأنني تعودته صادقًا، وأثق في نفاذ بصيرته منذ جمعتنا حياة واحدة وطريق واحد منذ أكثر من ربع قرن.

وقرب الفجر أبدى أمين رغبته في العودة إلى القاهرة فسافرنا في عربة أجرة.

حرصت على ألا يلاحظ عليه أحد من الركاب شيئًا غير عادي، كانت نظارته الطبية قد كسرت إحدى عدستيها وإحدى ذراعيها وهو في الإسكندرية، وفي الطريق إلى القاهرة كان أحيانًا يضع نظارته المكسورة على عينيه، وينظر إلى الخارج، ويبتسم تارة، وتفيض عيناه بالدموع تارة أخرى.

وعند وصولنا إلى البيت كان وجهه بالغ الشحوب، وعيناه المحتقنان مطفأتين، عانق شروق وأخبرها أن ثورة الخلاص قد قامت، وأن أيام جيلها ستكون أفضل كثيرا من أيامنا.

واستلقى في الفراش، وقال لي:

- سأنام قليلا، وأرجو أن تحرسيني فقد يحاول الأعداء التخلص مني لأنني أحد العارفين بالسر.

وكانت حرارة فرحة مرتفعة جدا.

أرسلت شروق لشراء نظارة جديدة لأبيهـا، وعنـدما أحضرتها في المساء فرح بها أمين، وقـال إنـه يبـدو أن الأصدقاء يقدرون دوره ككاتب للمستضعفين فأرسـلوا لـه نظارة جديدة.

قررت أن أخفيه عن كل العيون، أن أحميه مـن كـل العيون. تمنيت لو تكون حياتي مقابلا لشفائه، قررت أن أبيع شبكة زواجنا لعلاجه، واتصلت بصديقه الدكتور مجدي عبـد السلام في السراية، وأخبرته بأن أمين فـي حالـة خطيـرة فوعدني بالحضور في الحال.

سارعت بالذهاب إلى بيت أمين فور اتصال زوجته بي.

لم أكن قد رأيته بعدما اندفعنا من عنبر عزل المجاني إلى مبنى (ش).

عندما عم الاضطراب السراية لشيوع نبأ الوفاة بين النزلاء واندفاع الجميع إلى فناء الاقتصادي حتى نزيلات قسم النساء سارعت بالبحث عن السمراء فلم أجد لها أثرا، لا في قسم النساء ولا في السراية كلها، فتشت عن أمين ونادر فلم أجدهما، وفي أثناء وقوفي حائرا وعاجزا في فناء الاقتصادي أقبل الدكتور سمير ووقف إلى جانبي أمام مبنى الإدارة. ورأينا الاعتداء على النزلاء من قبل قوات الأمن المركزي وموظفي مكتب الأمن وأشخاص غرباء عن السراية لم أرهم من قبل، وقال الدكتور سمير:

- لا نستطيع الآن أن نفعل شيئًا للدفاع عن النزلاء أو حتى إسعاف الجرحى منهم.

فقلت وأنا أحس بالغضب الشديد لما أراه:

- لنفعل شيئًا.. أي شيء.

فأمسكني من ذراعي، وقال:

- لنختف وقتًا في العيادة الخارجية حتى لا نُجبر على الاشتراك في الجريمة.

لم يكن الدكتور فاضل أو أي أحد من العاملين هنـاك، ومكثنا فيها نحو ساعة نهبا للقلق ثم تركني الدكتور سـمير، وقال، إنه سيمر على الإدارة ثم ينصرف من السراية.

ذهبت إلى حجرتي بسكن الأطباء والصيحات تتنـاهى إلي، ولم أمكث أكثر من دقائق واندفعت إلى فناء الاقتصادي، حاولت أن أُدخل بعض النزلاء العنـابر وأدهشـني اعتـداء بعض النزلاء على زملائهم، اتجهت إلى صـيدلية السـراية فوجدتها قد نهبت وكسرت حتى أرففها، أخذت ما وجدت من أدوية الإسعافات الأولية، واتجهت إلـى فنـاء الاقتصـادي، وحاولت إسعاف بعض الجرحى. وفي المساء ذهبـت إلـى سكن الأطباء مجهدا يستبد بي القلق على السـمراء وأمـين ونادر. استرعى انتباهي غياب الدكتور جميـل المصـيلحي الذي لم أره طوال اليوم، ونمت نحو ساعتين ثم عدت إلـى فناء الاقتصادي الذي كانت تحتله قوات الأمـن المركـزي، وعلمت أنه تم نقل جثمان (ش) إلى خارج السراية.

وفي الصباح أخطرني أحد العاملين بقرار نقلي إلى قنا، وعلمت بصدور قرار بتعيين الدكتور المصيلحي مديرا للسراية، وقرار آخر بتعيين الدكتور سمير كبيرا للأطباء. دهشت للقرارين وأثارا عندي تساؤلات كثيرة، وقررت التلكؤ في إخلاء طرفي أكبر وقت ممكن لعلي أعرف شيئًا عن السمراء وأمين زاهر ونادر، وفي ظهر اليوم الثالث اتصلت بي زوجة أمين وأخبرتني بحالته الخطيرة فأسرعت إلى بيته.

كان أمين نائما فطلبت تركه نائما أطول وقت ممكن، وجلست مع زوجته وابنتيه اللاتي كن يعرفنني من كلام أمين عني، حدثتني زوجته عن تطورات حالته منذ عاد من السراية يوم وفاة (ش)، وعن أحواله غير الطبيعية في الشهر الأخير، ونوبات الاكتئاب والإبداع التي كانت تنتابه بشكل دوري منذ عام ١٩٧٦ والتي كان يعتبرها إيقاعه الخاص فلا يسعى لأي علاج.

خمنت أنه مصاب بذهان الاكتئاب والمرح الدوري، وحاولت أن أهدئ زوجته وابنتيه، تذكرت ما قاله لي أمين يوما في السراية من أن كل ما فعله في الخمسة والعشرين

عاما الأخيرة يدين به لزوجته إيزيس، وما قاله عن مواهـب ابنتيه المتعددة وحماس كل الأسرة لفكر (ش).

وبعد نحو ساعتين خرج علينا أمين وعيناه المحتقنتـان تبرقان في وجهه الشاحب، وفور أن رآنـي ابتسـم، وقـال بصوت يفيض بالدموع:

- كنت أعرف أنك ستأتي.

وضمني بقوة، وجلس إلى جانبي، وسألني هامسا:

- كيف حالهم؟.. كيف تمضي الأمور؟

تساءلت:

- من هم؟

فقال وهو يطيل النظر باسما في عيني:

- أنا أعرف كل شيء، وخمنت ارتباطك بهـم لأنـه مهما كانت الخلافات بيننا فالانتصار لنا جميعا.

وأضاف:

- المهم أن يعلموا بهمة، وأن يتنبهوا لألاعيب الأعداء الذين لن ييأسوا حتى في لحظاتهم الأخيرة، ولا بأس مـن أن يتأخروا قليلا في إعلان الانتصار حتى يرتبـوا الأوضـاع جيدا.

واتجه إلى مكتبه وأخرج أوراقًا، أعطاها لـي وهـو يقول:

- أعطها لنادر.. قد تفيد الأصدقاء، هذه كل الأقـوال التي جمعتها عن المعلم.

أيقنت من سـلامة تشخيصـي، ولكننـي قـررت أن أعرضه على أستاذي الدكتور (أ.ع) فمات علـى إيـزيس، وأخبرتها بوجهة نظري فوافقت، وطلبت مني أن أتصـرف بما أراه صالحا لأمين.

قلت لها إنه من الأفضل أن تكون هناك عربة حتى لا نعرض أمين للعيون وهو بهذه الحالة فاتصلت بصديق جـاء من فوره بعربته.

إيزيس

اتصلت بصديق أمين (أ.ي). كنت أنوي ألا يعرف أحد شيئًا عن حالة أمين حتى لا تترك أثرا في نظرة إنسان إليـه بعد شفائه، لكنني لم أجد بدا من الاتصال بـ (أ.ي) خاصـة وأنني أعرف أن أمين يكن له إعزازا خاصا.

وعرض مجدي على أمين أن نخرج في نزهـة فـي شوارع القاهرة فرحب أمين بحماس وقال:

- فكرة رائعة.. لنرى بأنفسنا كيف تمضي الأمور.

أراد أن يخرج حافيا، ودون أن يغير ملابسه فرجوتـه أن يرتدي ملابس الخروج فاستجاب لي وهو يهمس ببسـمة متعبة:

- أنا معك في أيد أمينة.

جلس بيننا أنا وشروق في المقعد الخلفي، كان ينظـر إلى الخارج وسعادة غريبة متشوفة ترف بوجهه الشـاحب، ربت علي في حنو:

- أنت متعبة.. لابد أن تستريحي.. مـا زال أمامنـا الكثير.

سرنا بالعربة في زحام وسط القاهرة، كان يبدو من تعبيرات وجهه أنه يرى في كل شيء تقع عليه عيناه دلالات خاصة، وغاب عنا الدكتور مجدي لحظات، وعاد ليخبرني آسفًا أن الدكتور (أ.ع) سافر إلى الخارج، وسيعود بعد أسبوعين، ولما أظهرت قلقي قال:

- لا بأس.. سأعطيه علاجا، وسيشفى قبل مرور الأسبوعين.

أبطأت العربة أمام إشارة مرور فقال أمين لـ (أ.ي):

- أسرع، ولكن احذر أن تمس شعرة واحدة من أحد.

مجدي عبد السلام

قررت أن أبقى في القاهرة حتى يشفى أمين، أن أحصل على أي نوع من الإجازات حتى أكون بالقرب منه.

كنت ونحن نسير في الشوارع تلح علي مشاهد من الأحداث التي عشتها في السراية طوال الشهور التي أمضيتها فيها، كانت تساؤلات كثيرة تزدحم في عقلي، وكنت أستشعر الهمود، ويثقل على قلبي الأسى فنويت أن أتناول مهدئًا لعدة أيام.

إيزيس

طلب أمين ونحن في الطريق إلى البيت أن يرى (ن.أ) الذي يحبه ويقدره تقديرا كبيرا، تحيرت ثم قررت أن نـذهب إلى بيته، وقبل أن نغادر العربة أمام بيت (ن.أ) رأيناه مقبلا من بعيد، وعندما رآه أمين ولم يكن قد غادر العربة جذبه من ذراعه إلى الداخل، وقبل يده، وقال:

- سأموت، وكل ما أريده حفرة على شـاطئ النيـل ووردة حمراء، وإذا لم تتوفر الوردة الحمراء يكفيني حفـرة على شاطئ النيل.

ذهل (ن.أ) وتساءل عما حدث لأمين فغالبت دموعي، وقلت:

- كما ترى.

وفي البيت رفض الدكتور مجدي والصـديق (أ.ي) أن ينصرفا قبل أن ينام أمين.

خلع ملابسه، ووضع في المسـجل شـريط موسـيقى زوربا اليوناني التي يحبها، وكان يستمع إليها أحيانًا في أيـام الإبداع، وانفعل مع الموسيقى، وأخذ يسير في البيت حـافي القدمين وهو يردد:

- ليكن عرسي أو موتي.. ليكن موتي أو عرسي.

أوشك دماغي أن ينفجر وأنا أحاول أن أتمالك نفسـي من الانهيار، وأعطاه مجدي مهدئًا فأخذه راضيا وهو يقول:

- لن نفترق بعد الآن فقد جمعنا المصير الواحد.

وجلس إلى مكتبه، ونادى شروق، وقال إنـه سـيكتب رسائل وعليها أن تسلمها إلى قيادة المستضعفين في الطـابق الأرضي من بيتنا.

وكتـب قصاصـات ورق ضـمنها تحيـة لثـورة المستضعفين، ونداءات إلى كل المتعبين في الأرض لتأييدها والوقوف إلى جانبها، ورسم أشكال مثلثات متفرقة ومتشابكة. وكانت شروق تأخذ القصاصـات والـدموع فـي عينيهـا، وتتظاهر بالنزول لتسليمها في الطابق الأرضي.

أمسك بفتاحة أوراق، ووجـه نصـلها إلـى صـدره فارتعبت فهدأني الدكتور مجدي، وقال إن من في حالة أمين، ومن يرددون مثل أقواله في مرضهم لا يمسون أنفسـهم أو أحدا بسوء.

واتجه أمين إلى حجرة نومنا، وتمدد تحـت السـرير متخشبا، رجوته أن ينام في الفراش فطلب منـي بإلحـاح أن

أتمدد إلى جواره، ولم أطاوعه، كان يعتصر قبضتيه وكيانـه بطريقة غريبة وكأنه يعتصر الحياة من بدنه. وبعـد دقـائق نهض وجلس على السرير، وأخذ يتناول السـجائر ويـدخن الواحدة في أنفاس متلاحقة دون أن يخرجها من فمه، وقـال في شراهة التدخين الغريبة:

- هذه لحظات حاسمة في انتصـار الثـورة، وكلمـا أسرعنا أكثر تأكد انتصارنا.

وبعد نحو نصف ساعة انتفض واقفًا، وقـال لمجـدي وعيناه تبرقان:

- قل لهم أن يعلنوا الآن انتصـار الثـورة، الآن وإلا ضاع كل شيء.

وأضاف مهددا:

- إن لم يعلنوها الآن سأخرج إلى الشوارع. أعلن كل شيء للناس حتى يحموا هم ثورتهم.

ولم أتمالك نفسي فانهرت في البكاء[٩].

---

(9) شفي أمين زاهر بعد نحو ثلاثة أسابيع، ولكنه دخل بعـد هذه النوبة في حالة اكتئاب صامت وهزال لأكثر من شهر، والغريب أنه بعد شفائه كان يتذكر بدقة معظـم تفاصـيل

الأحداث والأحاسيس التي عاشها والأقوال التي بدرت منه في أثناء المرض، ولم يخبر بها أحدا عدا إيزيس، وقد عرف من ابنته فرحة التي صاحبته في رحلته إلى الإسكندرية، ومما حكاه أمين لاثنين من أقرب أصدقائه، أنه في أثناء سفره هو وفرحة في قطار الصحافة، وهو من قطارات الدرجة الثالثة ولا يكاد يصلح لسفر الآدميين ويستغرق الليل كله حتى يصل إلى الإسكندرية، اتجه إلى دورة المياه وهو يتطوح ويحس بدوار وبأن روحه تنسل منه، وعندما وصل إلى الدورة وأغلق بابها شعر بأنه يوشك أن يموت. قال لنفسه، إنه لا بأس في أن يموت الآن وقد تحقق حلمه بقيام الثورة، وإن كان يتمنى لو يعيش ويرى تحقق الأمل. وغاب عن الوعي، وأفاق بعد لحظات ليجد نفسه ملقى على أرض دورة المياه المتسخة الضيقة. وعندما فتح عينيه، وتبين المكان الذي يوجد فيه، وأنه لم يمت فرح لأنه سيعيش أيام الانتصار.

كان يعتقد بتفسيره الخاص للمظاهر التي تحيط به، ولحركة الركاب بالقطار وهيئة الواقفين بالمحطات أنه توجد حراسة خاصة يوفرها الأصدقاء له باعتباره أحد الكتاب المخلصين لقضية الثورة، وأن الأصدقاء يدفعون في طريقه دون أن يدعوه يحس بذلك، من يحميه، ويقدم له المساعدات الضرورية.

ملحق (١)

بعض ما روي عن الأحداث التـي وقعـت بالسـراية الحمراء يوم وفاة (ش) والأيام القليلة التالية[١٠]:

أجمع بعض من بقي في السراية من أصدقاء (ش) لعدة أيام بعد حادثة الوفاة، وبعض أصدقائه الذين كـانوا خـارج السراية وتمكنوا من التسلل إليها في ذروة الأحداث، أنه فور انتشار نبأ وفاة (ش) عم الاضطراب السراية كلهـا فخـرج النزلاء من كل الأقسام والعنابر في هياج شديد. وفتح عنبـر

كما كان يعتقد من تفسيره للمشاهد التي يراها أن الثورة التي قامت وانتصرت اتبع الأصدقاء في التحضير لهـا وإنجازها أسلوب الهرم المقلوب والأهرام الثلاثة، ولـم نعرف حتى الآن، ولم تكشف مذكرات أمين التي أطلعنا عليها شيئًا عن طبيعة هذا الأسلوب الذي تصـوره فـي أثناء مرضه.

(10) يرى الكاتب أن هذه المعلومات تحتاج إلى تحقيق للتأكد من صحتها لأنه يمكن أن يكون بعضها قد صـدر مـن شهود أصابهم الذهول بموت (ش) فعميت عيونهم عـن الرؤية المدققة أو اختلطت عليهم الأمور لتلاحق الأحداث وتشابكها.

الإجرام، وقيل إن ذلك كان نتيجـة اعتـداء النـزلاء علـى الحراس، وقيل إنه بفعل فاعل مجهول، واعتدى نزلاء ذلـك العنبر على بعض منشئات السراية، وقاموا بأعمـال النهـب والسلب واغتصاب بعض نزيلات عنبـر المـدمنات وقسـم النساء. وقد حاول بعض نزلاء عنبر عزل المجاني الخروج ولكن الشيخ عبس وأعوانه أحكموا غلق الأبواب. ونشبت في أماكن متفرقة مشاجرات ومعارك عنيفة بين نزلاء وزملائهم، ونزلاء وممرضين وموظفين أسفرت عن وقوع عـدد مـن القتلى وكثير من الجرحى. ولم تمض ساعة على الوفاة حتى كانت أعداد كبيرة من الأمن المركزي تحاصـر السـراية، وتمنع الخروج منها والدخول إليها.

وفي ظل الحصار والفوضى والعنف تم الاعتداء على كثير من أصدقاء (ش) الذين لم يتمكن من الفـرار إلا عـدد قليل منهم، وتعالت صيحات تسب (ش) وتلعنه، وأخرى تبكيه وتلعن قاتليه، وألقى أشخاص بالأحجار على المبنى الذي كان يقيم فيه بينما وقف بعض من أصدقائه أمام باب المبنى مـع الحراس لحماية جثمان معلمهم.

وفي حمى الاضطراب والذعر تنكر بعض أصدقاء (ش) له، وشاركوا في سبه، وقام نفر منهم بالوشاية ببعض زملائهم فأمسك بهم العاملون بمكتب الأمن وعملاء المباحث المندسون بين المرضى، والذين دخل بعضهم السراية قبل الوفاة بأيام.

وقيل إن عربة نقل كبيرة دخلت السراية بعد الوفاة بساعات قليلة وبها ملابس وأغذية وهراوات وجنازير وأسلحة بيضاء تم توزيعها بمعرفة عاملين بالإدارة ومكتب الأمن على نزلاء معينين، كما قيل إن العنبر المخصص للجنود المرضى، والذي لاحظ البعض ازدحامه على نحو غير عادي في الأيام السابقة للوفاة، فتح فور الوفاة وانطلق الجنود يشاركون في الاعتداء على النزلاء، وفي القبض على من حامت حولهم الشبهات بأنهم من أصدقاء (ش).

اختلط الحابل بالنابل والعقل بالجنون على حد تعبير أحد أصدقاء (ش) فلم يعد يعرف من مع من، ومن ضد من فزاد الجنون جنونًا، وانتكس الكثيرون ممن كانوا قد تماثلوا للشفاء، وتحول عدد من المصابين بالعصاب إلى الإصابة

بالذهان، وانفلتت طاقات عنف أدهش البعض وجودها في بني الإنسان.

وفي مساء يوم الوفاة صدر قرار بتعيين الدكتور جميل المصيلحي مديرا للسراية، وقرار بتعيين الدكتور سمير كبير للأطباء، وقد أدهش القرار الأخير أصدقاء (ش) الذين كانوا يعرفون أن الدكتور سمير واحد منهم. وتضاربت الأقوال بشأنه، فقيل إنه كان جاسوسا لمكتب الأمن قبل أن ينضم إلى الأصدقاء، وقيل إنه جند بمعرفة مكتب الأمن بعد انضمامه، وقيل إن تعيينه تم لأن الوزارة لم تكن تعرف شيئًا عن علاقته بالأصدقاء وصدر قرار بنقل الدكتور مجدي عبد السلام إلى قنا، وإحالة الدكتور جلال إلى التقاعد.

وبعد يومين صدر قرار بتعيين الدكتور المصيلحي مشرفًا عاما على المصحات النفسية والعقلية بالوزارة، وتعيين الدكتور سمير مديرا للسراية، وتعيين طبيب يدعى أنور ياسين كبيرا للأطباء. ويقال إن ذلك الطبيب عمل فترة قصيرة بالسراية منذ سنوات، وكانت له برغم تظاهره الزاعق بالدفاع عن النزلاء علاقاته المريبة بمكتب الأمن والمدير وعنبر المدمنات، وفصل إثر اتهامه بإدارة شبكة

دعارة داخل السراية، ويقال إنه برئ من تلك التهمـة فـي ملابسات غريبة، وحصل على منحة دراسية في الخارج عين بعدها بقسم التخطيط بالوزارة.

قيل إن الدكتور أنور ياسين هو الذي باشـر سـلطات المدير بينما كان الدكتور سمير لا يغادر مكتبه. وقد قام ذلك الطبيب بإبعاد كثيرين مـن الممرضـين وبعـض الأطبـاء والعاملين من السراية، وبمساعدة الأمن المركـزي ومكتـب الأمن قام كبير الأطباء بحجز النـزلاء بالعنـابر مسـتخدما العنف والعقاقير وجلسات الكهرباء الصاعقة حتى أنـه فـي اليوم الرابع لبداية الأحداث أطبق الصمت على السراية فلـم يعد يسمع إلا تأوهات وصرخات متفرقة.

وعند فجر اليوم الخامس تم تمشـيط العنـابر وأبنيـة الاقتصادي للقبض علـى مـن تبقـى مـن أصـدقاء (ش) والمشكوك في تعاطفهم معه، وضرب من أمسك بهم ضـربا مبرحا مصحوبا بالإهانات البالغة، وأُودع عدد مـنهم عنبـر الإجرام تحت الحراسة المشددة، وسيق آخرون إلى السجون خارج السراية.

وفي أثناء تمشيط العنابر تم الهجوم علـى عنبـر (٣) الذي كان قد استولى عليه الملتحون بعد إضراب (ش) عـن الطعام فقاوموا مقاومة عنيفة، ولكـن تـم اقتحـام العنبـر وضربهم وإيداعهم عنبر الإجرام.

وفي ظهر اليوم الخامس صدر قرار بتعيين الـدكتور أنور ياسين مديرا للسراية وإحالة الدكتور سمير إلى المعاش قبل السن القانونية.

ولقد كان لوفاة (ش) وأحداث السراية أصداء واسـعة داخل البلاد وخارجها.

فقد طيرت وكالات الأنباء خبر مـوت (ش) وبعـض أخبار السراية. وفي وسائل الإعلام المقـروءة والمسـموعة كثر الحديث عن مـوت (ش) الطبيعـي بفعـل الشـيخوخة والأمراض والإضراب عن الطعـام، وكيـل لـه السـباب والاتهامات، فاتهم بالخبل وتحكم عقـد الطفولـة والعمالـة لمنظمات سرية عالمية، وهوجمت أفكاره فوصفت بالضحالة ومخالفتها للواقع والطبيعة البشرية والتخلف عـن العصـر، وشوه تاريخه، ونسب إليه ارتكاب أفعال بل وجرائم لم يسمع عنها من قبل، كما شوهت سيرة أبرز أصدقائه داخل الـبلاد

وخارجها، الأحياء منهم والأموات، ونُسب إليهم التسبب فيما وقع في السراية وفي أماكن أخرى من فوضى واضـطراب وجرائم.

وقد تحدثت بعض الجرائد عن بطولة واستشهاد شالوم الذي سعى للتخلص من الهدام الخطير في وقت مبكر ولكنـه للأسف قتل بيد أحد المجانين. وأشادت وسائل الأعلام بكفاءة الإدارة الجديدة التي حققت الأمن فـي السـراية وإدارتهـا بطريقة عصرية منذ اليوم الأول.

والغريب أن المجلة التي كانت تنشر مقالات منسـوبة إلى (ش)، وكانت محدودة الانتشار ظهرت في السراية فـي الأيام القليلة التالية للوفاة، وتم توزيعها بالمجان على كثير من النزلاء، وكانت تحمل الكثير من السباب والاتهامات لـ (ش) والتنديد بسيرته وسيرة الكثيرين من أصدقائه. وقد نشرت في عدد منها قائمة بها عشرات الأسماء، قيل إن أصحابها مـن أتباع (ش) خارج السراية وفي البلاد الأجنبية.

ومما أثار الدهشة أن بعض المقـالات التـي نشـرت بالمجلة كانت بأسماء كتاب عرفوا بصداقتهم القوية لـ (ش) أو كانوا في سنوات سابقة يزعمون صداقته.

وقد منعت تلك المجلة من الصدور بعد الوفاة بأسبوع.

ولعل مما ينبغي ذكره أن أحد الكتاب من المشهود لهم بالجدية نشر عدة مقالات في إحدى الجرائد الواسعة الانتشار وأحداث السراية في ذروتها قال فيها: إن أحد الأسباب المهمة للأحداث الغريبة التي أعقبت وفاة (ش) في السراية هو وضع الأرض بالنسبة للشمس في ذلك الوقت، وعوامل فلكية أخرى يتعذر فهمها الآن.

وبالنسبة لأصدقاء (ش) داخل السراية فقد قبض على فكري سالم وهو في حجرة الأرشيف، وفي أثناء اقتياده إلى خارج السراية اعتدى عليه أشخاص مجهولو الهوية، ومات متأثرا بجراحه في أثناء نقله إلى مستشفى قريب، وقيد الحادث ضد مجهول.

وحين آفاق نادر شوقي من ذهوله بعد صدمة سماعه نبأ موت (ش) تمالك نفسه، وراح يحث الكثيرين من أصدقائه على الفرار إلى الخارج، وكان هو آخر من خرجوا من الفتحة التي أحدثها أصدقاء (ش) في السور الغربي للسراية، وكان آخر ما علق بذاكرته هو مشهد صديقه شهاب مقتولا وعيناه تحدقان برعب ذاهل.

وقد تمكنت وداد فارس من أخذ أبيها الذي أصيب بالذهول، والخروج به من السراية قبل أن يحكم الأمن المركزي حصاره حولها.

واختفى الدكتور فاضل زكي بعد الوفاة بدقائق، وفي اليوم التالي عثر عليه في منزله منتحرا بحقنه هواء.

ووجد جاليليو مقتولا في نفس ليلة موت (ش) وهو ممسك بقطعة من تلسكوبه الخشبي.

وقبض على سعيد الساعي الذي ظل ساعات يقاوم الاعتداء على أصدقائه والنزلاء، وأُودع في سجن معروف ببشاعته وضراوة سجانيه، ومات بعد أسابيع وهو يهتف باسم (ش).

وقد حاول يوحنا، وكان من الذين خرجوا من عنبر الإجرام دخول مبنى (ش) وهو يلعن قاتليه على أمل أن يلقي نظرة أخيرة على معلمه فأمسك به بعض العاملين بمكتب الأمن، وانهالوا عليه ضربا محاولين منعه من الصباح، وقام أحد النزلاء من المصابين بذهان الزهري بطعنه بسكين في رقبته، ولكنه تمكن من الفرار بمساعدة غائب. ويقال إنه

شفي من جرحه، ولكن استبدت به فعـلا شخصـية يوحنـا المعمدان فراح يجوب البلاد صارخًا بأقواله.

واشتبك بلال في معركة ضارية مع الشيخ عبس كبير الممرضين الذي حاول منعه من الأذان حثًا لأصدقائه علـى المقاومة، وأمسك به بعض العاملين بمكتب الأمن، ودفعوا به إلى عنبر المدمنين وهم يوسعونه ضـربا، وطـوال يـومين مورست عليه كل صنوف التنكيل، وفي اليوم الثالث اختفـى من السراية، ولا يعرف أحد مكانه حتى الآن.

ويقال إن حسن الدمياطي لم يغادر الكانتين يوم وفـاة (ش)، واستمر يعمل في السراية قرابة شهر، يبيـع أغذيـة المتعهد، ويتلاعب فيها، ويهرب أجزاء منها ثم قدم اسـتقالته فقبلت. وقيل إنه كان إلى عهد قريب يعمل بالتجارة في محل كبير اشتراه بوسط القاهرة. ويذهب البعض إلى أنه عمل في تجارة المخدرات والعملة ثم صفى أعماله، وسافر إلى إحدى البلاد الأجنبية.

وبالنسبة لـ (ش) فقد قرر الطبيب الشرعي تشخيصـا لسبب الوفاة أنه مات نتيجة هبوط حاد في القلب.

وفي ساعة متأخرة من ليل يوم الوفـاة، وفـي ذروة الاضطراب والفوضى نُقل (ش) إلى مكان غير معلوم، وفي اليوم الثالث بعد الوفاة نُقل جثمانه في تكـتم شـديد وتحـت حراسة صارمة في إحدى مقابر الصدقة. وفي فناء المقبـرة فوجئ رجال الأمن بعدد من أصدقائه الذين أصـروا علـى تشييع صديقهم إلى مقره الأخير، فنشبت بينهم وبين رجـال الأمن معركة تعالت فيها الهتافات تمجد (ش) وفكره، وفـي أثناء الاشتباك تمكن بعض رجال الأمن من الإفلات بجثمـان (ش) ودفنه في مكان مجهول.

ملحق (٢)

السيد/ س.ع [١١]

تحية طيبة وبعد...

إلحاقًا لكتابنا رقم ١٨٧١ ك.ب بتـاريخ ١٩٨٦/٨/٢٤ نتشرف بالإفادة بأن الهدام الخطير أضرب عن الطعام منـذ صباح يوم ١٩٨٦/٩/١٥ وقد صاحب ذلك حالة من القلق في المستشفى، وتجمهر للنزلاء أمام المبنى الذي يحجز فيه.

وحديث أننا نخشى أن يستغل زملاء المذكور إضراب زميلهم في إحداث شغب بهدف الضـغط علـى السـلطات للإفراج عنه، والتشهير بحكومتنا في خارج البلاد لذلك تقترح إدارتنا سرعة تنفيذ الخطة التي سبق أن عرضناها عليكم في كتابنا المشار إليه بعاليه[١٢].

---

(11) عثر على صورة لهذا الخطاب بمعرفة أحـد النـزلاء المتعاطفين مع الأصدقاء في قمامة السراية بعـد وفـاة (ش) بأيام.

(12) لا يعرف أحد من الأصدقاء حتى الآن الخطة التي يشير إليها هذا الخطاب، وما إذا كان قد تـم تنفيـذها بالفعـل أم لا، وقد اختلف الكثيرون حول طريقة وفاة (ش)، قيل

برجاء موافاتنا بأوامركم في هذا الصدد.

وتفضلوا سيادتكم بقبول فائق الاحترام.

تحريرا في ١٩٨٦/٩/١٦

(توقيع غير مقروء)

إنه قتل بحقنة هواء كما جاء بمذكرات الدكتور فاضل زكي، وقيل إنه مات موتًا طبيعيا يمكن أن يكون قد عجل به الإضراب الأخير عن الطعام، ولا نستطيع من جانبنا، وعلى ضوء المعلومات التي توفرت حتى الآن أن نجزم برأي، ولكن المؤكد أن (ش) راح في غيبوبة قبل وفاته بوقت قصير، والمؤكد أيضا أن الدكتور فاضل دخل مبنى (ش) فور خروج الدكتور المصيلحي منه قبل إشاعة نبأ الوفاة بدقائق، وأنه سرعان ما خرج مهرولاً، زائغ العينين.

ملحق (٣)

من رسالة تلقاها الكاتب في إبريل ١٩٩١ وهو على وشك الانتهاء من إعداد الكتاب[١٣].

.... ونأمل أن تكون قد انتهيت من إعداد كتابك عما حدث في السراية في ذلك الصيف من عام ١٩٨٦ لأن الأصدقاء وبخاصة الذين لم يعيشوا الأحداث أو يعاصروها ينتظرون صدوره كإحدى الشهادات التي يطمأن إلى محاولة صدقها.

ولم يتبق عندنا ما يمكن أن نرسله إليك الآن من الوثائق والمذكرات غير أوراق (ش) الأخيرة، وهي الأوراق التي وجدتها وداد بغرفة (ش) عندما تسللت إليها قبل وفاته بنحو ساعة لتخبره بخطة الخروج ووقت تنفيذها. ومن المتعذر الآن تزويدك بهذه الأوراق أو بصورة منها لأن الأصدقاء قرروا أن يتبادلوها، وأن يتدارسوا ما فيها، ويناقشوها بشكل جماعي قبل نشرها، وهي كما يرى بعض

---

(13) نعتذر عن ذكر اسم مرسل الرسالة لأسباب لا تخفى على فطنة القارئ، ولنفس الأسباب لا نستطيع أن نذكر الأحرف الأولى من اسمه، ولا نملك حق انتحال اسم له.

الأصدقاء يمكن أن تصدر في كتـاب يحتـوي علـى آراء وتعليقات بعض الأصدقاء بخصوص ما جاء فيها.

ويرجح أن المعلم كتب هذه الأوراق في اليوم السادس من أيام الامتناع عن الطعام، وإنه لم يشأ أن يسـلمها بعـد كتابتها لأي من الأصدقاء الممرضين الذين كـانوا يقومـون بحراسته في ذلك اليوم وحتى ظهر اليوم التالي.

وفضلا عن تلك الأوراق توجد لـدينا الأقـوال التـي جمعها أمين زاهر من عدد من الأصدقاء القدامى عن (ش)، وهي أيضا محل دراسة الأصدقاء.

ونقوم منذ فترة بجمع أقوال الصديق نـور، لأن منـا وبخاصة الشعراء والفنانون من يرى أن بها معـانٍ ودلالات ورموزا هامة علينا أن نسعى إلى معرفتها، كمـا أن علينـا دراسة تطورات حالة نور وما وقع من أحداث ليلة اختفائه.

كتب للمؤلف

١- الحب فوق مستطيل الضوء الشاحب (قصص قصـيرة) ١٩٧٢.

الناشر: مكتبة الثقافة الجديدة بالإسكندرية.

٢- هروب الطائر الأبيض (رواية) ١٩٧٦.

الناشر: مكتبة الثقافة الجديدة بالإسكندرية.

٣- الأيام الخضراء (رواية) ١٩٧٧.

الناشر: مكتبة الثقافة الجديدة بالإسكندرية.

٤- الجنون (قصص قصيرة) ١٩٧٩.

الناشر: مكتبة الثقافة الجديدة بالأسكندرية.

٥- قمر أسمر في الغربة (رواية) ١٩٨١.

الناشر: مكتبة الثقافة الجديدة بالإسكندرية.

٦- الكاتب والصياد (رواية) ١٩٨٦.

الناشر: مكتبة الثقافة الجديدة بالإسكندرية.

٧- الطرق على الباب الرمادي (قصص قصيرة) ١٩٨٨.

الناشر: مكتبة الثقافة الجديدة بالإسكندرية.

٨- يحدث هذا المساء (رواية) ١٩٨٨.

الناشر: مكتبة الثقافة الجديدة بالإسكندرية.

للمؤلف تحت الطبع

١- الولد الأخضر (رواية).

٢- ملامح الشواطئ البعيدة (قصص قصيرة).

٣- دعابات سريعة جدا (قصص قصيرة).

٤- أشياء بسيطة (قصص قصيرة).